بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى والله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "تفسير سورة آل عمران، وهي مدنية؛ لأن صدرها إلى ثلاث وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران، وكان قدومهم في سنة تسع من الهجرة كما سيأتي بيان ذلك عند تفسير آية المباهلة منها -إن شاء الله تعالى- وقد ذكرنا ما ورد في فضلها مع سورة البقرة في أول تفسير البقرة".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -رحمه الله-: "**وهي مدنية؛ لأن صدرها إلى ثلاث وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران**" هذا القول نقل عليه بعض أهل العلم الإجماع، ولم أقف على من خالف القول بأنها مدنية.

وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**لأن صدرها إلى ثلاث وثمانين آية**" هذا فيه إشارة إلى أن السورة تعتبر مكية أو مدنية باعتبار صدرها.

ولا شك أن السورة إذا نزلت جميعاً قبل الهجرة يقال لها: مكية، وإذا نزلت جميعاً بعد الهجرة فيقال: إنها مدنية، وهذا الكلام فيما إذا جعلنا الضابط هو النزول قبل الهجرة وبعد الهجرة، لكن الكلام في كثير من السور التي يقال: إن بعض آياتها نزلت بمكة والبعض الآخر في المدينة فالضابط في القول بأنها مكية أو مدنية إما باعتبار نزول أكثر الآيات، أو باعتبار أول ما نزل منها -وأول ما نزل قد لا يكون هو صدر السورة- أو أن العبرة في ذلك هو صدر السورة، فإن كان صدرها مكياً قيل: هي مكية، وإن كان صدرها مدنياً قيل: هي مدنية، وهذا الأخير هو الأقرب والله تعالى أعلم، وهو الذي أشار إليه ابن كثير رحمه الله.

"أعوذ بالله من الشيطان الرجيم {بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* الم* اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ* نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ* مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ} [(١-٤) سورة آل عمران].

قد ذكرنا الحديث الوارد في أن اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: {اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}، وقوله: {الم* اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} عند تفسير آية الكرسي.

وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: {الم} في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته، وتقدم أيضاً الكلام على قوله: {اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}، في تفسير آية الكرسي.

وقوله تعالى: {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ} يعني نزل عليك القرآن يا محمد بالحق، أي لا شك فيه ولا ريب، بل هو منزل من عند الله، {أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا} [(١٦٦) سورة النساء]".

في قوله تعالى: {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ} بعضهم يقول: بالصدق، ويمكن أن يقال: نزله إنزالاً متلبساً بالحق، ولا إشكال سواء قيل: بالصدق، أو قيل: نزله متلبساً بالحق؛ فالمعنى متقارب.

والتعبير بالتنزيل العلماء يتكلمون فيه على التنجيم، أي أن فيه إشارة إلى أن القرآن نزل منجماً؛ لأنـه قـال: {نَزَّلَ} فهي بخلاف {أَنزَلَ} [(٧) سورة آل عمران]، وعلى كل حال قد جاء التعبير بهذا وبهذا.

"وقوله: {مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} أي من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله الأنبياء -عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم- فهي تصدقه بما أخبرت به، وبشرت في قديم الزمان، وهو يصدقها؛ لأنه طـابق مـا أخبرت به وبشرت من الوعد من الله بإرسال محمد -صلى الله عليه وسلم- وإنزال القرآن العظيم عليه".

يلاحظ أنه فسر قوله تعالى: {مُصَدِّقاً} بأوسع معناه، أي أن هذا القرآن مصدق لما فيها من الهدايات والحقـائق التي أخبر الله -عز وجل- عنها، يعني مما لم يقع فيه التحريف، وأنها من عند الله -عـز وجـل- وكـذلك مصدقاً لها باعتبار أنه طابق ما أخبرت به من الوعد بإرسال محمد -صلى الله عليه وسلم- وإنـزال القـرآن عليه.

ولهذا يذكر في وجه الامتنان بأميّته -صلى الله عليه وسلم- أي ببعثه أمياً كما في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ} [(٢) سورة الجمعة]، يذكر أنه -صلى الله عليه وسلم- يكون بـذلك مصدقاً لما جاء من وصفه في الكتب السابقة، وهذا أحد الأوجه، وعلى كل حال فهو مصدق لها باعتبـار أن فيه تصديق ما جاء فيها، بإقراره والشهادة لتلك الحقائق التي أخبر الله -عز وجل- عنها، وأن تلك الكتب من عند الله -تبارك وتعالى- إضافة إلى أن مجيئه هو تصديق لذلك الخبر الذي كان في تلك الكتب عـن نـزول القرآن على محمد -صلى الله عليه وسلم-.

"وقوله: {وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ} أي على موسى بن عمران، {وَالإِنجِيلَ} أي على عيـسى ابـن مـريم -عليهمـا السلام-".

التوراة هو الكتاب المعروف الذي نزل على موسى -صلى الله عليه وسلم-، وهذه الكلمة إذا قلنا: إنها ليـست عربية -وهذا هو الظاهر- فمعنى ذلك أننا لسنا بحاجة لا إلى تعليل الاسم ولا إلى تفسيره، والعلماء -رحمهم الله- منهم من حاول أن يفسره، فبعضهم جعل ذلك من التورية وهي: المعاريض، ووجَّه ذلك بأن في التـوراة من المعاريض شيئاً كثيراً، بمعنى أمور غير مصرِّحة بالمراد ولكن مراد الله -عز وجل- يفهمه من كان من أهل العلم بالكتاب، ومنهم من يقول: إنها بمعنى الضياء والنور، من: وَرَى الزَّند، بمعنى أوقده وأضاء بـه أو نحو ذلك، وكذلك يقولون في الإنجيل، وبعضهم يقول: الإنجيل من النجل وهو الأصل، باعتبـار أنـه أصـل للحكم والعلوم، وبعضهم يقول: الإنجيل من النجل وهو الاستخراج، تقول: نجلت الماء بمعنى استخرجته مـن البئر، وذلك لما حواه من العلوم والحكم والهدايات، وبعضهم يقول: من التناجل وهو بمعنى التنـازع؛ لأنهـم اختلفوا فيه، وكل هذا لا دليل عليه، وإذا قلنا: إن هذه الكلمات ليست عربية فلا حاجة إلى تفسيرها أصلاً، بـل لا يصح أن تفسر بمثل هذا من كلام العرب، يعني من جهة الاشتقاق، ومـسألة كـون الأسـماء الأعجميـة موجودة في القرآن هذا بالإجماع ولا إشكال في ذلك، والكلام على هذا الأمر موجود في أصول الفقـه عنـد الكلام على مسألة هل يوجد في القرآن شيء أعجمي أم لا، والخلاصة أن الأسماء متفق على أنها موجـودة؛ لأنه يعبر بها كما هي بأي لغة، وأما ما يتعلق بالتراكيب فالإجماع على أنه لا وجود لها في القـرآن، وبقـي الكلام على غير ذلك من الأسماء المنكَّرة، مثل: قسورة وإستبرق ومشكاة، ونحو ذلك:

مـا كـان منـه مثـل إسـماعيل	ويـونس قـد جـاء فـي التنزيـل
إن كـان منـه واختيـار الأكثـر	والشـافعي النفـي للمنكَّـر

فكلامهم ونزاعهم إنما هو في المنكر مثل: إستبرق ونحوها وليس في الأعلام وليس في التراكيب، فإذا سأل سائل: هل يوجد في القرآن أعجمي؟ فالجواب يكون بهذا التفصيل، فيقال: القسمة ثلاثية والمختلف فيه هو الوسط، والله أعلم، وأنا إنما ذكرت هذا للفائدة وذلك أنك تجد بعض الأشياء الأعجمية والعلماء يحاولون أحياناً تفسيرها وبيان اشتقاقها، ولكن إذا تقرر أن أصلها أعجمي فلا محل لتفسيرها أصلاً.

"{مِن قَبْلُ} أي من قبل هذا القرآن، {هُدًى لِّلنَّاسِ} أي في زمانهما، {وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ} وهو الفارق بين الهدى والضلال، والحق والباطل والغي والرشاد".

نعم {هُدًى لِّلنَّاسِ} في زمانهما، فإذا قلنا: إن هذه الكتب خوطب بها جميع الناس، فهي هدى لجميعهم، وإذا قلنا: إنها مخصوصة في بني إسرائيل فإن ذلك يكون من العام المراد به الخصوص، إذ يمكن أن تكون "أل" عهدية؛ لأن التي للعموم هي المعرِّفة وليست العهدية، وعلى كل حال ينقل عن عيسى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: "إنما بعثت لهداية خراف بني إسرائيل الضالة"، ويوجد من النصوص ما يدل على ذلك، إن صح وسلم من التحريف، أي أنه إنما أرسل لبني إسرائيل.

"{وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ} وهو الفارق بين الهدى والضلال والحق والباطل والغي والرشاد، بما يذكره الله تعالى من الحجج والبينات والدلائل الواضحات والبراهين القاطعات، ويبيّنه ويوضحه ويفسره ويقرره ويرشد إليه وينبه عليه من ذلك".

اعتبر الفرقان: أي ما يفرق بين الحق والباطل، أو ما يفصل بين الحق والباطل من الحجج والبينات، وليس المراد بذلك القرآن وإنما المراد أعم من ذلك يعني كل ما يحصل به الفصل بالحجج والبينات، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

وبعضهم يقول: المراد بقوله: {وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ} أي الكتب السابقة المنزلة عموماً، فهو ذكر التوراة والإنجيل، ثم عمَّم الكتب بعد ذلك.

وبعضهم يقول: المقصود بقوله: {وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ} أي الزبور، وهذا لا دليل عليه، أعني تخصيص الفرقان بالزبور.

ومنهم من يقول: المراد به القرآن كقوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ} [(١) سورة الفرقان]، لكن الله تعالى قد وصف التوراة أيضاً بأنها فرقان، فالحاصل أن الفرقان ما يحصل به الفرق بين الحق والباطل.

والخلاصة أن الله -عز وجل- ذكر أولاً القرآن فقال: {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} [(٣) سورة آل عمران] فهذا هو القرآن، ثم قال: {وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ* مِن قَبْلُ} أي من قبل القرآن {هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ} [(٣-٤) سورة آل عمران] فمن أجل أن لا يكون ذلك تكراراً فيكون الفرقان بمعنى ما يحصل به الفرق بين الحق والباطل، وذلك يشمل كل ما يصدق عليه هذا اللفظ، فلا يختص بالقرآن وحده، وهذا هو الأقرب والله تعالى أعلم.

"وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ} [(٤) سورة آل عمران] أي جحدوا بها وأنكروها وردوها بالباطل."

هذا باعتبار أن أصل الكفر في اللغة بمعنى الستر، وإلا فإنه في الشرع يصدق على هذا المعنى ويصدق على غيره كالشك والإعراض، إلى غير ذلك مما يحصل به الكفر، والعلماء -رحمهم الله- لا يدققون كثيراً في مثل هذه الألفاظ، ولكن على كل حال إذا ابتلي الناس بمن يقول: إن الكفر هو فقط الجحود فهنا لابد أن يبيّن المراد.

"{لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} أي يوم القيامة، {وَاللّهُ عَزِيزٌ} أي منيع الجناب عظيم السلطان، {ذُو انتِقَامٍ} [(٤) سورة آل عمران] أي ممن كذب بآياته وخالف رسله الكرام وأنبياءه العظام".

قوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ}** [(٤) سورة آل عمران] الآيات هنا جمعٌ مضاف، والأصل أن ذلك يدل على العموم، فهل يختص هذا بآيات الله المتلوة من القرآن وما أنزله الله -عز وجل- في التوراة والإنجيل والكتب السابقة، أم أن ذلك يشمل هذا ويشمل سائر الآيات كالناقة وعصا موسى -عليه الصلاة والسلام- وما إلى ذلك من دلائل صدق ما جاء به أنبياؤه -عليهم الصلاة والسلام- وما يدل على وحدانية الله جل جلاله؟

الجواب هو أن الله -عز وجل- لم يخصص شيئاً دون شيء، ولا شك أن الآيات المتلوة هي أولى ما يدخل فيه، وذلك أنه ذكر هذه الكتب التي هي القرآن والتوراة والإنجيل، ثم قال: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ}** [(٤) سورة آل عمران].

وإذا قلنا: الفرقان هو ما يحصل به الفرق بين الحق والباطل، فإن ذلك يحصل بالآيات المتلوة، ويحصل أيضاً بما يحصل به الفصل من دلائل القدرة وصدق ما جاء به الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فما حصل مع موسى -صلى الله عليه وسلم- والسحرة لا شك أنه من أعظم الآيات، وهكذا، والله -عز وجل- يقول: **{وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً}** يعني آية مبصرة، **{فَظَلَمُواْ بِهَا}** [(٥٩) سورة الإسراء]: يعني جحدوا بها، والله أعلم.

"{إِنَّ اللّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء* هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاء لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [(٥-٦) سورة آل عمران] يخبر تعالى أنه يعلم غيب السماوات والأرض، لا يخفى عليه شيء من ذلك.

{هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاء} أي يخلقكم في الأرحام كما يشاء من ذكر وأنثى، وحسن وقبيح وشقي وسعيد.

{لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [(٦) سورة آل عمران] أي هو الذي خلق، وهو المستحق للإلهية وحده لا شريك له، وله العزة التي لا ترام، والحكمة والأحكام، وهذه الآية فيها تعريض، بل تصريح بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق، كما خلق الله سائر البشر؛ لأن الله صوره في الرحم وخلقه كما يشاء، فكيف يكون إلهاً كما زعمته النصارى -عليهم لعائن الله- وقد تقلب في الأحشاء وتنقل من حال إلى حال كما قال تعالى: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ} [(٦) سورة الزمر]".

يعني أن الله -عز وجل- حينما توعد من كفر بآياته أخبر بإحاطته وقدرته على خلقه -سبحانه وتعالى- فقال: **{هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ}** [(٦) سورة آل عمران]، والمقصود بالتصوير في هذه الآية أي نقلهم من طور

إلى طور، أي من النطفة إلى العلقة ثم إلى المضغة، وما إلى ذلك حتى يكتمل هذا الخلق، ومن ذلك جعل هذا المخلوق ذكراً أو أنثى، وما يحصل لهم من تفاوت في الألوان، وما يحصل لهم من تفاوت في الخلق.

والتصوير يأتي بمعنى التشكيل، وهذه المعاني التي يذكرها بعض السلف -رضي الله تعالى عنهم- كلها داخلة فيه، إذ كل ذلك يفعله الله -عز وجل- بهم كما ذكر في الآيات الأخرى، كقوله: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا من بَعْدِ خَلْقٍ} [(٦) سورة الزمر] فهذا هو التصوير.

وحينما يقول الله -عز وجل-: {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ} [(٢٤) سورة الحشر] يكون الخالق بمعنى المقدر، والبارئ بمعنى الموجد المنشئ من العدم، والمصور بمعنى الذي أعطى كل مخلوق شكله وصوره بما يليق به، فيكون التصوير بمعنى التشكيل، ويدخل في هذا التشكيل ما يحصل لهم من التخطيط، حيث إنه بعد أن يمر على الجنين واحد وثمانون يوماً يخطط الجنين أي أنه يرسم، فالعيون تكون عبارة عن نقط والفم نقطة وتظهر خطوط الأيدي والأرجل، وهكذا شيئاً فشيئاً ثم تنفصل هذه الأشياء، ويتشكل بصورة ينتقل معها من طور إلى طور حتى يكون بهذه الهيئة، قال سبحانه: {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاء} [(٦) سورة آل عمران].

"{هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ* رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ* رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [(٧-٩) سورة آل عمران].

يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب، أي بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم، فمن ردَّ ما اشتبه عليه إلى الواضح منه وحكَّم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى، ومن عكس انعكس، ولهذا قال تعالى: {هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه".

هذا المعنى الذي ذكره -رحمه الله- في معنى المحكم والمتشابه هو من أجود ما قيل فيه، على كثرة الأقوال، ومن هذه الأقوال ما يرجع إلى بعض، وعلى كل حال هذا القول هو من أجودها، وهو منقول أيضاً عن الإمام أحمد -رحمه الله-.

وعن طائفة من السلف -رضي الله تعالى عنهم- أن معنى المحكمات هي التي تقوم بنفسها ولا تحتاج إلى غيرها لفهم معناها، والمتشابهات هي التي تحتاج إلى ردها إلى غيرها من أجل فهم معناها، ولهذا قال عن المحكمات: {هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ}، وأم الشيء أي أصله الذي يرجع إليه، كما يقال في الراية التي يحملها الجند، وينضوون تحتها، وينضمون إليها ويجتمعون عندها، يقال لها: أمّ، ومن ذلك أمّ الرأس.

فالحاصل أن قوله: {هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} بمعنى الأصل الذي يرجع إليه، فالمتشابهات ترجع إلى المحكمات من أجل بيان معناها، وهذا إذا قلنا بأنه لا يوجد متشابه مطلق من جهة المعاني -وسيأتي الكلام على هذا عند الوقف في الآية- فيكون ذلك من الأمور النسبية من جهة المعنى، فالتشابه في المعنى يكون من الأمور

النسبية، بمعنى أنه يكون متشابهاً بالنسبة لبعض الناس وغير متشابه بالنسبة لآخرين، ففي قوله -تبارك وتعالى- مثلاً: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ} [(٤) سورة الحديد] قد يلتبس هذا على بعض الناس فيحتاج إلى رده إلى بعض المحكمات، فمن المحكمات التي يرد إليها: الآيات الدالة على العلو والعلو الخاص الذي هو الاستواء، فذلك يدل على أنه مباين لخلقه -سبحانه وتعالى- فتكون المعية لا تقتضي المخالطة، ومن الناس من يفهم معنى قوله -تعالى- هذا {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ} [(٤) سورة الحديد]، ولا يخطر في باله أن ذلك يقتضي المخالطة حيث إن ذلك ليس بلازم في كلام العرب، فتكون هذه الآية لهذا الشخص من المحكمات وبالنسبة للآخر من المتشابهات، وقل مثل ذلك في كل ما اشتبه على الإنسان والتبس عليه.

ومن أمثلة ذلك قوله -تبارك وتعالى- مثلاً: {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} [(٤) سورة المعارج] مع قوله -تبارك وتعالى- في سورة السجدة: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاء إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ} [(٥) سورة السجدة]، تجد أن من الناس من يفهم المراد بالألف سنة المذكورة في سورة السجدة مع الخمسين ألف سنة التي في المعارج -الآية الأخرى- فيقول: المراد باليوم الذي في سورة السجدة هو اليوم الذي يكون عند الله -عز وجل- واليوم المذكور في آية المعارج هو في يوم القيامة، فإذا كان الإنسان يعتقد هذا المعنى فلا إشكال عنده في الآيتين، فهي بالنسبة إليه من المحكمات، وتجد شخصاً آخر يستشكل هذا المعنى ويتردد فيه، فتكون هذه الآيات بالنسبة إليه من المتشابهات، وقل مثل هذا في أمثلة كثيرة جداً، ولذلك يقال والله أعلم: إن التشابه من جهة المعاني هو أمر نسبي، لا يوجد من جهة المعنى تشابه مطلق بحيث يلتبس على جميع الأمة.

وعلى كل حال فإن قوله: {هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} يشعر برجحان تفسير المحكمات بأنها ما قام بنفسه ولم يحتج إلى غيره في فهم معناه، والمتشابهات هي التي تحتاج إلى ردها إلى غيرها من أجل فهم معناها.

"ولهذا قال تعالى: {هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه، {وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} [(٧) سورة آل عمران] أي تحتمل دلالتها موافقة المحكم، وقد تحتمل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد، فالمحكمات: ناسخه وحلاله وحرامه وأحكامه وحدوده وفرائضه وما يؤمر به ويعمل به، والمتشابهات: المنسوخة والمقدم منه والمؤخر والأمثال فيه والأقسام وما يؤمن به ولا يعمل به".

لم يقل هنا قال ابن كثير: فالمحكمات ناسخه وحلاله وحرامه وأحكامه إلى آخره، فمثل هذا الإيراد بهذه الطريقة لا يبرر أن ينسب لابن كثير، وعلى كل حال فإن من أهل العلم من حاول أن يرجع الأقوال إلى المعنى الأول الذي ذكره ابن كثير؛ باعتبار أنهم رأوا أن هذا أوسع هذه المعاني وأشملها، فحاولوا أن يرجعوا إليه سائر المعاني، فالحاصل أن هذه الطريقة في الاختصار فيها إشكال؛ لأن الأصل أن يورد ما اختاره ابن كثير ولا يدمج معه شيئاً آخر يرتضيه، أو لأن الرواية صحت فيه عن ابن عباس مثلاً، فإن هذا لا يبرر أن يورده بهذه الطريقة وإنما كان ينبغي أن يقول: قال ابن عباس، والله أعلم.

والإحكام يطلق بإزاء معنيين:

يطلق -أعني الإحكام الخاص- ويراد به ما يقابل المتشابه، وهذا هو المراد هنا، ويطلق الإحكام فيما يقابل المنسوخ، تقول: هذه الآية محكمة وهذه الآية منسوخة، وأما الإحكام العام فالمراد به الإتقان كما وصف الله

-عز وجل- القرآن كله بأنه محكم فقال: **{كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ}** [(١) سورة هود]، فوصف القرآن بكامله بأنه محكم، كما وصفه في موضع آخر بأنه متشابه، كما في قوله -تبارك وتعالى-: **{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا}** [(٢٣) سورة الزمر]، فالمقصود بهذا التشابه العام، بمعنى أنه يشبه بعضه بعضاً في الحسن والبلاغة والفصاحة.

والإحكام العام المقصود به: أنه متقن لا تجد فيه ما يوجب الريب كما قال تعالى: **{ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ}** [(٢) سورة البقرة] ولا تجد فيه تناقضاً كما قال تعالى: **{وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا}** [(٨٢) سورة النساء] فهذا هو الإحكام العام والتشابه العام.

قول ابن عباس: "**ناسخه**" الناسخ يقابله المنسوخ الذي لا يعمل به.

وقوله: **ناسخه وحلاله وحرامه وأحكامه وحدوده وفرائضه**" يعني الأمور التي بينها الله -عز وجل- وطالب الناس بالقيام بها والعمل بها.

قوله: "**والمتشابهات: المنسوخة**" أي التي لا يعمل بها.

قوله: "**والمقدم منه والمؤخر**" بمعنى أنه محل للاشتباه مثل قول الله -عز وجل-: **{إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ}** [(٥٥) سورة آل عمران] فكيف قال الله -عز وجل-: **{مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ}** وعيسى -صلى الله عليه وسلم- لم يمت؟ هذا يمكن أن يقال: هو من قبيل المقدم الذي محله التأخير.

قال: "**والأمثال والأقسام**" الله -عز وجل- قال: **{وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}** [(٤٣) سورة العنكبوت]، وأولئك قالوا: **{مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً}** [(٢٦) سورة البقرة]، أضف إلى ذلك أن الأمثال ليست من الآيات التي يتعلق بها التكليف من حيث إنها تتضمن أحكاماً بالعمل، وإنما يبين بها المعنى ويوضح، وربما يبين ذلك المعنى بصورة المحسوس، كقوله تعالى: **{أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا}** [(١٧) سورة الرعد] فهو صوَّر الوحي والهدى بالمطر الذي ينزل.

"**قال محمد بن إسحاق بن يسار -رحمه الله-: {مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ} [(٧) سورة آل عمران] فيهن حجة الرب، وعصمة العباد ودفع الخصوم والباطل، ليس لهن تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه.**

قال: والمتشابهات في الصدق لهن تصريف وتحريف وتأويل، ابتلى الله فيهن العباد كما ابتلاهم في الحلال والحرام ألا يصرفن إلى الباطل ولا يحرفن عن الحق".

هذا الكلام يرجع تماماً إلى قول ابن كثير فهو موافق تماماً لكلامه -رحمه الله- وهذا الكلام يمكن أن يختصر فيحذف؛ باعتبار أن هذا الكتاب مختصر، ويمكن أن يقتصر عليه في تفسير المحكمات، من غير قول ابن عباس.

وعلى كل حال ما كان محتملاً فإنه يكون من المتشابه، وإن كان محتملاً عند زيد وليس بمحتمل عند عمرو فيكون بالنسبة لهذا متشابهاً وبالنسبة لهذا محكماً.

"**ولهذا قال تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ} [(٧) سورة آل عمران] أي ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل، فيتبعون ما تشابه منه، أي إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها؛ لاحتمال لفظه لما يصرفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه؛ لأنه دامغ لهم وحجة**

عليهم، ولهذا قال الله تعالى: {ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ} [(٧) سورة آل عمران] أي الإضلال لأتباعهم، إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهذا حجة عليهم لا لهم، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى هو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وتركوا الاحتجاج بقوله: {إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ} [(٥٩) سورة الزخرف] وبقوله: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [(٥٩) سورة آل عمران]، وغير ذلك من الآيات المحكمات المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله، وعبد ورسول من رسل الله".

يعني النصارى يحتجون بمثل هذه الآية على أن عيسى -صلى الله عليه وسلم- جزء من الله -عز وجل-، وأنه ابن الله، وربما احتجوا على التثليث بما ورد من ضمير الجمع، كقوله: **{نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ}** [(٣) سورة يوسف]، قالوا: نحن تستعمل للجمع، وغير ذلك مما يلبسون به، فهذا من قبيل اتباع المتشابه.

فهؤلاء **{الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ}** يعني ميلاً عن الحق وانحرافاً عنه.

{فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ} أي: يتبعون مثل هذه الآيات المحتملة المتشابهة.

{ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ} أي: ابتغاء الإضلال أو التشكيك والتلبيس على الناس بمثل هذه الآيات، ويدخل في هذا كل من تتبع الآيات المحتملة ليلبس بذلك على الناس، إما للتشكيك أو الطعن في القرآن، أو من أجل الاحتجاج على باطله بنصوص القرآن كما فعل كثير من أهل الضلال، فهؤلاء كلهم قد رفعوا لواء الفتنة.

"وقوله تعالى: {وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ} [(٧) سورة آل عمران] أي تحريفه على ما يريدون.

وقد روى الإمام أحمد عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: قرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} إلى قوله: {أُوْلُواْ الألْبَابِ} [(٧) سورة آل عمران] فقال: ((فإذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهُم الذين عنى الله فاحذروهم))[1].

وقد روى هذا الحديث البخاري عند تفسير هذه الآية، ومسلم في كتاب القدر من صحيحه، وأبو داود في السنة من سننه، ثلاثتهم عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: تلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هذه الآية: {هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ} إلى قوله: {وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ} [(٧) سورة آل عمران] قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم))[2] [لفظ البخاري].

---

1 - أخرجه أحمد (٢٤٢٥٦) (ج ٦ / ص ٤٨) وقال الأرنؤوط: حديث صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين.

2 - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة آل عمران (٤٢٧٣) (ج ٤ / ص ١٦٥٥) ومسلم في كتاب العلم - باب النهي عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه والنهي عن الاختلاف في القرآن (٢٦٦٥) (ج ٤ / ص ٢٠٥٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في قوله تعالى: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ} [(٧) سورة آل عمران]: "اختلف القراء في الوقف هاهنا فقيل على الجلالة، كما تقدم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: "التفسير على أربعة أنحاء، فتفسير لا يعذر أحد في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم وتفسير لا يعلمه إلا الله" ويروى هذا القول عن عائشة وعروة وأبي الشعثاء وأبي نهيك وغيرهم".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقول ابن عباس -رضي الله تعالى عنه-: "**التفسير على أربعة أنحاء**" يعني على أربعة أنواع، وذكر الأول منها وهو قوله: "**تفسير لا يعذر أحد في فهمه**" وهذا القول جاء عن ابن عباس -رضي الله عنه- بألفاظ متقاربة، فهو بهذا اللفظ مع ما ينضم إلى ذلك من ذكر الأصناف الثلاثة أو الأنواع الثلاثة -ما تعرفه العرب، وما يعلمه الراسخون، وما لا يعلمه إلا الله- كأنه أراد بذلك -والله تعالى أعلم- لا يعذر أحد في فهمه أي أنه ظاهر المعنى، لا يحتاج إلى كثير معرفة بلغة العرب وكلامها، ولا يحتاج إلى علم ورسوخ، وإنما يفهمه كل من سمعه، هذا الذي يظهر والله أعلم.

وقد يفهم من بعض ألفاظه أن المراد بذلك هو ما يتعلق بالفرضية، يعني مما افترض الله -عز وجل- على الإنسان وخاطبه به من العمل والأحكام التي يجب عليه أن يعلمها، وعلى كل حال فهذا القول وهو أن الوقف على لفظ الجلالة هذا عليه السواد الأعظم من أهل العلم، أي أن عامة السلف -رضي الله تعالى عنهم- من الصحابة ومن بعدهم يقولون: إن الوقف على لفظ الجلالة.

ويحتجون على ذلك بأمور، منها: أنه جاء في قراءة أبيّ وابن عباس -رضي الله عنهم أجمعين-: **(ويقول الراسخون في العلم آمنا به كل من عند ربنا)**، يعني أن المعنى يكون هكذا: (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون في العلم آمنا به كل من عند ربنا)؛ لأنه على هذه القراءة: (ويقول الراسخون) تكون الواو استئنافية، وتكون هذه جملة فعلية جديدة لا مرية ولا إشكال فيها، وفي القراءة الأخرى وهي رواية غير متواترة كذلك -قراءة ابن مسعود-: (إنْ تأويله إلا عند الله)، فـــ"إن"

هنا هي إن النافية وليست المخففة (إن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا)، فـــ"إن تأويله" معناه ما تأويله إلا عند الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا.

وعرفنا قبل بأن القراءة الآحادية أو غير المتواترة تفسر القراءة المتواترة، فاحتجوا بهذا واحتجوا أيضاً بأمور أخرى كذلك منها أنهم قالوا: إن ما نفاه الله –عز وجل– عن الخلق وأثبته لنفسه لا يمكن لأحد أن يعلمه، وهذا في باب المعلومات، وإن كان في غيرها فكذلك ما نفاه الله عن الخلق وأثبته لنفسه لا يمكن أن يضاف إليهم، فالله –عز وجل– قال: **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ}** [(٧) سورة آل عمران]، حيث جاء بصيغة هي أقوى صيغ الحصر وهي النفي والإثبات، التي جاءت بها كلمة التوحيد "لا إله إلا الله"، كما قال في المراقي: أعلاه لا يرشد إلا العلماء، فهذه أعلى صيغة من صيغ الحصر، ومن أراد أن يراجع الكلام عليها فلينظر في كتب الأصول والمفهوم منها، ومن أهل العلم من اعتبره منطوقاً، فالحاصل أنهم قالوا: إن الله إذا نفى شيئاً عن الخلق وأضافه لنفسه فلا يمكن أن يضاف إليهم.

واحتجوا على ذلك أيضاً بأن الله –عز وجل– ذمَّ الذين يتطلبون تأويله فقال: **{فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ}** [(٧) سورة آل عمران] فأخبر أنهم يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، فهؤلاء ذمهم الله –عز وجل– على تتبع المتشابه ونفَى علمه عنهم، أو عن الخلق فقال: **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ}** فكيف لهؤلاء الراسخين في العلم أن يتشاغلوا بهذا المتشابه طلباً لمعناه!

هذه أبرز وجوه احتجاج هؤلاء، وهم سواد أعظم، بل عامة أهل العلم يقولون بهذا، وهو اختيار ابن جرير الطبري –رحمه الله– وغيره خلق كثير لا يحصيهم إلا الله –عز وجل– وعلى قول هؤلاء تكون الواو استئنافية وما بعدها جملة جديدة، فهو قال: **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ}** ثم مدح الراسخين في العلم بأنهم يفوضون علمه إلى عالمه ويؤمنون به.

والذين خالفوهم وقالوا: إن الواو للعطف احتجوا على هذا أيضاً بأمور، حيث قالوا: إذا كان الراسخون في العلم لا يعلمون تأويله فما مزيتهم على غيرهم ممن لا يوصف بالرسوخ، فكل المؤمنين العوام وأوساط المتعلمين سوى أهل الزيغ الذين يتتبعون هذا المتشابه يقولون: آمنا به ويفوضون علم ما لم يعلموا إلى الله، فما مزية الراسخين إذاً؟

هذا مما احتجوا به، ويمكن أن يرتفع كثير من الخلاف – ولا أقول كل الخلاف– في حال التفصيل، وذلك ببيان المراد بالتأويل.

فالتأويل أصل مادته من الأوْل وهو الرجوع، وهذه اللفظة، وردت في القرآن وفي كلام السلف في الدلالة على معنيين اثنين:

الأول: التأويل هو التفسير، فتأويل الكلام يمكن أن يراد به معنى التفسير، وتأويل الرؤيا يرد بمعنى تفسيرها، قال تعالى: **{نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ}** [(٣٦) سورة يوسف] معناه نبئنا بتفسير هذه الرؤيا، ويقال: هل يوجد أحد يؤول الرؤى؟ أي يفسرها، وفي الرواية المشهورة دعا النبي –صلى الله عليه وسلم– لابن عباس فقال: ((وعلِّمْه التأويل))[1] بمعنى وعلمه التفسير.

[1] – أخرجه أحمد (٢٣٩٧) (ج ١ / ص ٢٦٦) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم.

المعنى الثاني الذي يرد له لفظ التأويل: هو ما يئول إليه الشيء ثانياً، فالمراد بتأويل الرؤيا بهذا الاعتبار هو تحققها ووقوعها، كما قال يوسف -صلى الله عليه وسلم- لما رأى أباه وأمه وأخوته قد سجدوا له: **{وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا}** [(١٠٠) سورة يوسف]، والرؤيا التي رآها هي قوله: **{إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ}** [(٤) سورة يوسف] فتأويل هذه الرؤيا هو وقوع ذلك منهم، وتأويل الخبر هو وقوع المخبر به، كما قال الله -عز وجل-: **{هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ}** [(٥٣) سورة الأعراف] يعني وقوع ما أخبر به **{يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ}** [(٥٣) سورة الأعراف]، يعني أنهم سيندمون عندما يتحقق وقوع ما أخبر به الله من البعث والنشور والقيامة.

فالمقصود أن تأويل الخبر وقوع المخبر به.

وكذلك تأويل الأمر فعل المأمور والامتثال كما في حديث عائشة -رضي الله عنها- المشهور، لما نزلت: **{إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}** [(١) سورة النصر] وفيها: **{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ}** [(٣) سورة النصر] قالت: "كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: ((سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي)) يتأول القرآن"[2]، بمعنى يمتثل ويحقق ويفعل ما أمره الله -عز وجل- بفعله.

المعنى الثالث للتأويل -عند المتأخرين-: هو صرف الكلام من المعنى الراجح أو من الاحتمال الراجح إلى المرجوح لقرينة تدل على ذلك، وهذا المعنى لا يعرف عند السلف، ولا وجود له في لغة القرآن.

وبعد أن عرفنا هذا التفصيل في معنى التأويل نرجع إلى الآية: **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ}** [(٧) سورة آل عمران]، فإنْ حملنا ذلك على المعنى الأول -أي التفسير- وقلنا: **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ}** يعني تفسيره، إذا قلنا هذا ووقفنا عند لفظ الجلالة ، فهذا يعني أنه توجد في القرآن معانٍ لا يعلمها إلا الله -عز وجل- بمعنى أنه لا أحد يعرف تفسير هذه الآية أو هذه الكلمة أو الجملة إلا الله فيكون ذلك مما استأثر الله بعلمه، وإذا قلنا بهذا أيضاً فيمكن أن نحمل عليه أثر ابن عباس الوارد قبل قليل الذي ذكر فيه أن التفسير على أربعة أنحاء، وذكر أن منها ما لا يعلمه إلا الله، أي ما استأثر الله بعلمه، فإذا قررنا الوقف على قوله: **{إِلاَّ اللّهُ}** وجعلنا التأويل بمعنى التفسير فمعنى ذلك أنه يوجد في القرآن أشياء خاطبنا الله بها لا أحد يعرف معناها، لا الرسول -صلى الله عليه وسلم- ولا غيره.

والذين يقولون بهذا القول لديهم أمثلة على ذلك ومن أقربها الحروف المقطعة، فإن فيها نحو خمسة وثلاثين قولاً، قالوا: إن هذه الأقوال كلها لا دليل عليها، وإنما هي احتمالات لا يجب الوقوف عندها، ولا أدل على ذلك من أنها اختلفت إلى هذه الأقوال الكثيرة جداً، فليس فيها شيء عن الله ولا عن رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وهذا إذا قلنا: إن لها معنى في نفسها.

وإذا قلنا: إن التأويل في الآية بمعنى التفسير على أن الواو عاطفة في قوله: **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا}** [(٧) سورة آل عمران] يعني أنهم يعلمون وفي الحال يقولون: **{آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا}**، فيكون هنا التأويل بهذا الاعتبار بمعنى التفسير لكن هذا التأويل يعلمه الله

---

2 - أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة - باب التسبيح والدعاء في السجود (٧٨٤) (ج ١ / ص ٢٨١) ومسلم في كتاب الصلاة - باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٤) (ج ١ / ص ٣٥٠).

-عز وجل- ويعلمه الراسخون في العلم، وعلى هذا القول -القول بالوصل- لا يوجد في القرآن متشابه مطلق من جهة المعاني، وقولنا: متشابه مطلق يعني لا يعلمه إلا الله، وأما ما يعلمه بعض الناس ويخفى على البعض أو يلتبس عليهم يسمى متشابهاً نسبياً.

وإذا قلنا: إن التأويل في قوله: **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ}** بالمعنى الآخر الذي هو حقائق الأشياء الغيبية التي أخبر الله -عز وجل- عنها مثل كنه صفات الله -عز وجل- أي حقائقها وكيفياتها، فهذا لا يعلمه إلا الله -عز وجل- وهو واضح، فإذا فسرنا التأويل بهذا الاعتبار فهنا يجب أن نقف على لفظ الجلالة ما نصل فنقول: **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ}**، بمعنى حقائق الغيبيات.

وبالنسبة للترجيح في هذه المسألة إما أن نأخذ بقول الأكثر وانتهينا، لكن قد يقول قائل: هل الترجيح بمجرد قول أكثر أهل العلم طريقة صحيحة في الترجيح؟.

الطريقة الثانية: أننا نرجح بين القولين باعتبار آخر، وذلك بالنظر إلى أكثر هذه المعاني استعمالاً في القرآن، أعني في دلالة لفظ التأويل، فلو جئنا نستقرئ كلمة "تأويل" في القرآن نجد أنها استعملت في معنى التأويل أكثر من التفسير، من ذلك تأويل الرؤيا بمعنى الوقوع، وتأويل الخبر بمعنى وقوع المخبر به، وأما بمعنى التفسير فربما لم يرد إلا في موضع واحد هو قوله: **{نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ}** [(٣٦) سورة يوسف] يعني تفسيره، فالمعنى الثاني هو الأكثر وروداً في القرآن، وبالتالي يمكن أن نرجح بهذه الطريقة فنقول: اللفظة قد احتملت معنيين، ووجدناها تستعمل في القرآن غالباً بالمعنى الآخر، فنحملها عليه في هذا الموضع، فهذه طريقة في الترجيح سار عليها بعض أهل العلم مثل الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، وبالتالي فإننا إذا حملناه على المعنى الآخر، بمعنى أن المراد بالتأويل حقائق الأمور الغيبية وما تئول إليه، فهذا معناه أنه لا يوجد لفظ أو كلمة أو جملة أو آية في القرآن يعرفها أحد، لا النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا غير النبي -صلى الله عليه وسلم- وإنما يقال: **{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ}** [(٧) سورة آل عمران] وعلى هذا يكون الوقف عند لفظ الجلالة.

الطريقة الثالثة الجيدة في الترجيح هي أن نجمع بين هذه الأقوال والمعاني، فابن عباس -رضي الله عنهما- ثبت عنه أنه قال بالوقف على لفظ الجلالة، وثبت عنه أيضاً الوصل، وقال: "أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله"، وكل هذا صح عن ابن عباس ولا تعارض بينهما، فيقال: الوقف صحيح ويكون الوقف عند الجلالة على معنى حقائق هذه الغيبيات وكنهها وما تئول إليه وما أشبه ذلك من الأمور الغيبية، ويكون الوصل باعتبار التفسير؛ لأنه لا يوجد في القرآن شيء لا يُعرف له معنى؛ لأن الله خاطبنا بلسان عربي مبين، ولم يخاطبنا بالألغاز والأمور التي لا تصل إليها عقولنا ولا نفهمها، فالله يقول: **{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ}** [(١٧) سورة القمر]، ولا أدل على ذلك من أن الصحابة -رضي الله عنهم- حاولوا أن يفسروا كل شيء، ومن ذلك الحروف المقطعة، فهذه الحروف المقطعة، من الأقوال الجيدة فيها أنها حروف مبانٍ وليست بحروف معانٍ، وحروف المعاني كحروف الجر، في وإلى وعن .. إلى آخره، وهي التي يقول عنها النحاة: إنها تدل على معنىً في غيرها ولا تدل على معنىً في نفسها، أي أنها للربط، مع أن شيخ الإسلام يخالفهم في هذا فيقول: "في" تدل على الظرفية و"إلى" تدل على الغاية..الخ، وهم يقولون: نحن نقصد شيئاً آخر.

المهم أن هذه حروف مبانٍ أي تبنى منها الكلمة، وأما ألف باء جيم دال حاء فهذه من المؤكد أنها ليس لها معنىً في نفسها، وإنما تركب منها الأسماء والأفعال وتركب منها كذلك حروف المعاني، أما هي في نفسها فليس لها معنى، وبناء على هذا لا يرد هذا السؤال القائل: هل يوجد في القرآن شيء ليس له معنى؟

وإن سئلنا فإننا سنقول: لا يوجد في القرآن شيء ليس له معنى، بل كل ما في القرآن له معنى.

فإن قيل: وكذلك الحروف المقطعة؟ قلنا: هي بهذا الاعتبار ليست من الأفعال ولا الأسماء ولا حروف المعاني، والكلام في لغة العرب: اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، أما ألف باء جيم دال فهذه ليست لها معنى، وهذه الحروف المقطعة هي إنما تشير إلى الإعجاز، وأن هذا القرآن مكون من هذه الأحرف، فهو يتحداهم أن يأتوا بمثله، وهذا القول قال به بعض أهل العلم، وهو قول جيد، ولذلك تجد عامة المواضع التي ذكرت فيها هذه الحروف يذكر بعدها القرآن أو الوحي.

والخلاصة أن الوقف على لفظ الجلالة يكون المقصود العلم بكنه الأشياء وحقائقها وما تئول إليها، وعلى الوصل {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} [(٧) سورة آل عمران] يكون المقصود التفسير، وبهذا نكون جمعنا بين القولين –الوصل والوقف– ونزلنا كل حالة على معنىً يناسبها، والله تعالى أعلم.

هذه هي الخلاصة لكلام طويل في هذا الباب بُحث في كتب أصول الفقه وفي علوم القرآن، فشيخ الإسلام ألف فيه رسالة "ذات الإكليل" وكل هذا من المتشابه أعني المتشابه الخاص وأما المتشابه العام فهو الوارد في قوله تعالى: {كِتَابًا مُّتَشَابِهًا} [(٢٣) سورة الزمر]، والله أعلم..

"ومنهم من يقف على قوله: {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} [(٧) سورة آل عمران]، وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول، وقالوا: الخطاب بما لا يفهم بعيد.

وقد روى ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– أنه قال: "أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله"، وفي الحديث أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– دعا لابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– فقال: ((اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل))[3].

والتأويل يطلق ويراد به في القرآن معنيان: أحدهما التأويل بمعنى حقيقة الشيء وما يئول أمره إليه، ومنه قوله تعالى: {وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ} [(١٠٠) سورة يوسف] وقوله تعالى: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ} [(٥٣) سورة الأعراف] أي حقيقة ما أُخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا، فالوقف على الجلالة؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمها على الجلية إلا الله –عز وجل–، ويكون قوله تعالى: {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} [(٧) سورة آل عمران] مبتدأ، و{يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ} [(٧) سورة آل عمران]: خبره، وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر، وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشيء كقوله: {نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ} [(٣٦) سورة يوسف] أي بتفسيره، فإن أريد به هذا المعنى، فالوقف على {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ}؛ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه، وعلى هذا فيكون قوله تعالى: {يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ} [(٧) سورة آل عمران] حالاً منهم، وساغ هذا وهو أن يكون من المعطوف دون المعطوف عليه كقوله تعالى: {لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ}

[3] – سبق تخريجه.

[(٨) سورة الحشر] إلى قوله: **{يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا}** الآية [(١٠) سورة الحشر]، **وقوله تعالى: {وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا}** [(٢٢) سورة الفجر] **أي وجاءت الملائكة صفوفاً صفوفاً.**

وقوله إخباراً عنهم: إنهم يقولون آمنا به: أي بالمتشابه، {كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا} [(٧) سورة آل عمران]**: أي الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق".**

ابن كثير –رحمه الله– ذكر الاحتمالين وحمل قوله: **{يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ}** [(٧) سورة آل عمران] على ما ذكر، وهذا كلام جيد مداره على ما ذكرت، لكن قد يرد هنا سؤال من القائلين بالوقف على الجلالة في الوقت الذي يحملون معنى التأويل فيه على التفسير، يقولون: إذاً إذا قلتم بأن الراسخين في العلم يعلمون تأويله، فما فائدة ما ذكر الله من صفتهم من قولهم: **{آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا}** [(٧) سورة آل عمران]؟

فالجواب أن يقال: هذا واضح، فهم مع علمهم بمعناه ليسوا كالزائغين الذين يشككون ويلبسون به على الناس، وينقرون عن هذه الأشياء ويتتبعونها، فهم مع علمهم بذلك يؤمنون به، أي الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق، وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له وأن الجميع آمنا به، وهو كلام الله حق وصدق، فهم بخلاف أولئك الزائغين.

"{كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا} أي الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق، وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له؛ لأن الجميع من عند الله، وليس شيء من عند الله بمختلف ولا متضاد؛ لقوله تعالى: {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا} [(٨٢) سورة النساء]**، ولهذا قال تعالى: {وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ}** [(٧) سورة آل عمران] **أي إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة.**

وروى ابن المنذر في تفسيره عن نافع بن يزيد قال: يقال الراسخون في العلم، المتواضعون لله، المتذللون لله في مرضاته لا يتعاطون من فوقهم ولا يحقرون من دونهم".

العبارة كما في الكتاب الأصل: "**لا يتعاظمون على من فوقهم**" لذلك ينبغي أن يعدل قوله: "**لا يتعاطون**" إلى "**لا يتعاظمون**"، فهي الأصح، وهذا مما يدخل في الكتب من التصحيف.

"قال: يقال الراسخون في العلم المتواضعون لله، المتذللون لله في مرضاته، لا يتعاظمون على من فوقهم، ولا يحقرون من دونهم.

ثم قال تعالى عنهم مخبراً أنهم دعوا ربهم قائلين: {رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا} [(٨) سورة آل عمران] **أي لا تملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه، ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم ودينك القويم.**

{وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً} أي من عندك، {رَحْمَةً} تثبت بها قلوبنا وتجمع بها شملنا وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً، {إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ} [(٨) سورة آل عمران].

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير عن أم سلمة –رضي الله تعالى عنها– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان يقول: ((يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك))[4] ثم قرأ: {رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ} [(٨) سورة آل عمران].

وقوله تعالى: {رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ} [(٩) سورة آل عمران] أي يقولون في دعائهم: إنك يا ربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم، وتفصل بينهم وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه، وتجزي كلاًّ بعمله وما كان عليه في الدنيا من خير وشر.

وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [(١٠-١١) سورة آل عمران] يخبر تعالى عن الكفار بأنهم وقود النار، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار، وليس ما أوتوه في الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند الله، ولا بمنجيهم من عذابه وأليم عقابه كما قال تعالى: {فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [(٥٥) سورة التوبة]، وقال تعالى: {لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [(١٩٦-١٩٧) سورة آل عمران]، كما قال هاهنا: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ} أي بآيات الله وكذبوا رسله وخالفوا كتابه، ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه {لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ} [(١٠) سورة آل عمران] أي حطبها الذي تسجر به وتوقد به، كقوله تعالى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} [(٩٨) سورة الأنبياء]".

هذا الأسلوب من مزية تفسير ابن كثير، فهو يفسر القرآن بالقرآن، وهذه نماذج وأمثلة عليه.

"وقوله تعالى: {كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ} قال الضحاك عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: كصنيع آل فرعون، وكذا روي عن عكرمة ومجاهد وأبي مالك والضحاك وغير واحد".

عبارات السلف في هذا متقاربة، {كَدَأْبِ} أي كصنيع، كعمل، كفعل، كعادة، كسنّة، كل هذه العبارات متقاربة عبر بها السلف –رضي الله تعالى عنهم– فالدأب: هو العمل وهو العادة تقول: هذا دأبي ودأب فلان بمعنى: هذا عملي وعمله، أو هذه عادتي وعادته، تقول: هذا دأبه يفعل كذا، يعني: هذه عادته المستمرة، وقوله: {كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ} يعني كفعلهم أو كصنيعهم وكعادتهم وفعلهم المستمر من التكذيب.

"ومنهم من يقول: كسنّة آل فرعون وكفعل آل فرعون وكشبه آل فرعون، والألفاظ متقاربة والدأب: الصنيع والحال والشأن والأمر والعادة كما يقال: لا يزال هذا دأبي ودأبك، والمعنى في الآية: أن الكافرين لا تغني عنهم الأموال ولا الأولاد، بل يهلكون ويعذبون، كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسل فيما جاءوا به من آيات الله وحججه.

{وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [(١١) سورة آل عمران] أي شديد الأخذ، أليم العذاب لا يمتنع منه أحد، ولا يفوته شيء، بل هو الفعال لما يريد الذي غلب كل شيء، وذلّ له كل شيء، لا إله غيره ولا رب سواه".

---

4 – أخرجه الترمذي في كتاب القدر – باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن (٢١٤٠) (ج ٤/ ص ٤٤٨) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (١٠٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ* قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ} [(١٢-١٣) سورة آل عمران].

"يقول تعالى: قل يا محمد للكافرين ستغلبون أي في الدنيا، وتحشرون أي يوم القيامة إلى جهنم وبئس المهاد.

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار عن عاصم بن عمر بن قتادة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ} ظاهره العموم، فهو عام للكفار من المشركين واليهود وغيرهم، وما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا مما يذكره أهل السير والأخبار، كما روى محمد بن إسحاق هنا: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- جمع اليهود بعد غزوة بدر في بني قينقاع وقال لهم ما قال -عليه الصلاة والسلام- حيث ذكّرهم بالله وخوفهم بأسه بعدما هزم الله -عز وجل- المشركين، وأهلك رءوسهم.

فالحاصل أن مثل هذه الرواية حملت بعض أهل العلم إلى القول بأن هذا الخطاب موجه لليهود، أي {قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ} عام مراد به الخصوص، وهو نوع من الكفار وهم اليهود باعتبار ما وقع.

وهذه الروايات هي مما يذكره أهل الأخبار والسير، ولا تثبت ثبوتاً يرتضيه أهل الحديث بطريقتهم بإثبات المرويات، وعلى كلٍّ فهذه الرواية هي السبب الذي حمل بعض أهل العلم على القول بأن المراد بذلك نوع من الكفار، والأَوْلى -والله تعالى أعلم- هو أن تبقى الآية على عمومها وظاهرها.

وعلى كل حال فهؤلاء يقولون: إن المشركين قد غُلبوا فما بقي إلا اليهود ممن كان يجاور النبي -صلى الله عليه وسلم-، والواقع أنه بقي طوائف كثيرة من المشركين، لم تقع عليهم الغلبة بعد، وإنما كان الصراع مع قريش في أول الأمر، فالخلاصة أنه يمكن أن يكون ذلك عاماً كما هو ظاهر الآية، وهذا هو الأصل إلا لدليل يجب الرجوع إليه، والله أعلم.

"ولهذا قال تعالى: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ} أي قد كان لكم أيها اليهود القائلون ما قلتم آية".

يلاحظ أن ابن كثير حمل قوله تعالى: {قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ} على الكفار، وابن جرير حمله على اليهود، وقوله تعالى هنا {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ} يلاحظ أن ابن كثير -رحمه الله- يقول: إن المراد بذلك هم اليهود، فصار كلامه

متفاوتاً، بينما صار كلام ابن جرير -رحمه الله- مطَّرداً، يعني أن ابن جرير يقول: إن الآيتين الأولى والثانية في اليهود، والسياق واحد {قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ} و {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ}.

وإذا قلنا: إن الخطاب في قوله: {قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ} عام لجميع طوائف الكفار بما فيهم اليهود، ثم يكون الخطاب الآخر {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ} موجهاً للجميع أيضاً فهذا هو الأقرب، والله تعالى أعلم، ومن أهل العلم من يقول: إن الخطاب الثاني: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ} موجه للمسلمين، فهو خاطب الكفار بقوله: {قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ}، ثم قال للمسلمين: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ} أي فيما حصل في غزوة بدر من هزيمتكم للمشركين مع كثرة عددهم وقلَّتكم.

"أي كان لكم أيها اليهود القائلون ما قلتم آية، أي: دلالة على أن الله معز دينه وناصر رسوله ومظهر كلمته ومعلٍ أمره، {فِي فِئَتَيْنِ} أي طائفتين {الْتَقَتَا} [(١٣) سورة آل عمران]".

تمام الرواية التي ذكرها ابن كثير هي أنه لما جمع النبي -صلى الله عليه وسلم- اليهود في سوق بني قينقاع، وقال لهم ما قال ردَّ عليه بعضهم فقال: لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوماً لا عهد لهم بالحرب، والله لو لقيتنا لعرفتنا، وكذا وكذا، فهم لم يعتبروا بما حصل يوم بدر، فقال لهم: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا} فهذا الكلام فيما إذا حملت الآية على اليهود، لكن هذه الرواية هي أصلاً من طريق ابن إسحاق كما ذكرنا.

"{فِي فِئَتَيْنِ} أي طائفتين {الْتَقَتَا} أي للقتال، {فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ} وهم المسلمون، {وَأُخْرَى كَافِرَةٌ} وهم مشركو قريش يوم بدر".

قوله: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا} المراد بذلك في يوم بدر، وهذا القول يشبه الإجماع، وعلى كل حال هذه السورة -سورة آل عمران- تكلمت كثيراً عن غزوة أحد، في أكثر من ستين آية، كما سيأتي -إن شاء الله- وسورة الأنفال هي السورة التي تحدثت عن غزوة بدر، إلا أن هذا الموضع من سورة آل عمران يتحدث عن غزوة بدر.

"وقوله: {يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ} [(١٣) سورة آل عمران] **أي يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثليهم في العدد رأي أعينهم، أي جعل الله ذلك فيما رأوه سبباً لنصرة الإسلام عليهم".**

في قوله: {يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ} الضمير في يرونهم يرجع على هذا القول إلى المشركين حيث قال: "**أي يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثليهم في العدد رأي أعينهم**" يعني أن الله -عز وجل- قد كثّر المسلمين في أعين المشركين فرأوا أنهم كثير.

والقول الآخر -وهو قول كثير من أهل العلم، بل إن بعضهم يضيفه إلى الجماهير من أهل العلم-: أن ذلك يرجع إلى المسلمين، أي أن المسلمين يرون المشركين مثليهم رأي العين، ويدل على هذا القول القراءة الأخرى -قراءة نافع- (ترونهم) بالتاء، وهي قراءة متواترة، فعلى كل حال الضمير هنا يحتمل.

وقوله: {يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ} يحتمل أن المثلين كان في عدد المسلمين ويحتمل أن يكون في عدد المشركين، فإن قلنا بقول الأكثر وهو أن الرائي هم المسلمون فمعناه أنهم رأوا المشركين مثليهم، لكن يبقى إشكال وهو هل كان عدد المشركين في أعين المسلمين مثلي عدد المشركين أم مثلي عدد المسلمين أنفسهم، بمعنى هل رأى

المسلمون المشركين ألفين –ضعف عدد المشركين– أم رأوا عددهم ستمائة وثلاثين، يعني مثلي عدد المسلمين؟

لا شك أنه يحتمل هذا ويحتمل ذاك، والخلاصة أن في هذه الآية يوجد احتمالان في موضعين: الأول من هو الرائي؟، والثاني: هل المثلية ترجع إلى المسلمين أم إلى المشركين؟.

كما أنه يحتمل في الآية معنى آخر وهو أن المسلمين يرون أنفسهم أكثر من المشركين، بمعنى أنهم رأوا أنفسهم مثلي عدد المشركين، فهذه كلها احتمالات في الآية، وسبب هذه الاحتمالات أن اللفظ يحتمل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن الله –عز وجل– قال: {إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ} [(٤٣) سورة الأنفال]، وفي الآية الأخرى قال: {وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ} [(٤٤) سورة الأنفال].

فالآية الأولى {إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً} هي في المنام وليست في اليقظة، وهي في المشركين قطعاً، والآية الثانية في اليقظة وهي واقعة من الطرفين، إذ كل طرف يرى الفريق الآخر قلة.

وفي هذه الآية قال: {يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ}، سواء كان ذلك يرجع إلى المسلمين بمعنى أنهم يرون أنفسهم ضعفي عدد المشركين أو العكس، فالمقصود أنه حصل التكثير، والآية الأخرى دلت على أن التقليل حصل من الجانبين فكل فريق يرى قلة الفريق الآخر، وعلى كل حال فرؤيا المنام واضحة، فالنبي –صلى الله عليه وسلم– رآهم في المنام قلة، وبشر أصحابه، وحصل التقليل والتكثير في بعض الأوقات بين يدي المعركة، سواء قلنا: إن ذلك قبل بدء الالتحام أو حينما التقى الصفان، فمن أهل العلم من يقول: إن المسلمين رأوا الكفار أكثر من عددهم الحقيقي؛ ليحصل التمحيص للمسلمين، ثم بعد ذلك رأوهم قلة؛ من أجل أن يُقْدموا عليهم، ولقد كان ابن مسعود يسأل صاحبه فيقول: أتراهم يبلغون المائة؟! فكل ذلك إنما كان من أجل أن يغري كل طرف بالآخر لأنه حينما يرى أنهم حفنة قليلة جداً فإنه يقدم عليهم، فالله –عز وجل– كان يسوقهم إلى الالتحام مع أنهم إنما خرجوا في أول الأمر من أجل العير وهم قلة وليس معهم سلاح وعتاد يكفي لمواجهة عسكرية، وبعد ذلك قضى الله –عز وجل– وقدر أمراً آخر، ولهذا صور الله حالهم بقوله: {كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ} [(٦) سورة الأنفال]، وهكذا حصل بعد ذلك مثل هذا التقليل من أجل أن يغري كل طرف بالآخر فيقدم عليه ولا يتردد، والله –عز وجل– يقضي ويقدر ما يشاء لحكمة عظيمة يعلمها هو سبحانه.

"وقيل: إن المعنى في قوله تعالى: {يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ} أي ترى الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثليهم، أي ضعفيهم في العدد ومع هذا نصرهم الله عليهم.

قال عبد الله بن مسعود –رضي الله تعالى عنه–: وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً، وذلك قوله تعالى: {وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ} الآية [(٤٤) سورة الأنفال]".

يعني أنهم كانوا يرونهم مثليهم في بعض المراحل، وفي وقت آخر أغرى الله –عز وجل– كل طائفة بالأخرى فرأوهم قلة، قال تعالى: {وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ} [(٤٤) سورة الأنفال] من أجل أن يغري كل طائفة بالأخرى، والله أعلم.

"وقال أبو إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: لقد قُللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبي: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة، قال: فأسرنا رجلاً منهم فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفاً، فعندما عاين كل من الفريقين الآخر رأى المسلمون المشركين مثليهم أي أكثر منهم بالضعف؛ ليتوكلوا ويتوجهوا ويطلبوا الإعانة من ربهم -عز وجل-، ورأى المشركون المؤمنين كذلك؛ ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع، ثم لما حصل التصاف والتقى الفريقان قلل الله هؤلاء في أعين هؤلاء، وهؤلاء في أعين هؤلاء؛ ليقدم كل منهما على الآخر؛ {لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ} [(٤٤) سورة الأنفال] أي ليفرق بين الحق والباطل، فيُظهر كلمة الإيمان على الكفر والطغيان، ويعز المؤمنين ويذل الكافرين كما قال تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ} [(١٢٣) سورة آل عمران] وقال هاهنا: {وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ} [(١٣) سورة آل عمران]: أي إن في ذلك لمعتبراً لمن له بصيرة وفهم يهتدي به إلى حكمة الله وأفعاله وقدره الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد.

{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ* قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [(١٤-١٥) سورة آل عمران] يخبر تعالى عما زُيِّن للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين، فبدأ بالنساء؛ لأن الفتنة بهن أشد".

في قوله: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ} يمكن أن يكون المراد بالمزيِّن هو الله -سبحانه وتعالى-؛ لقوله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا} [(٧) سورة الكهف]، ولما جاء عن عمر في صحيح البخاري ما يدل على هذا المعنى.

ويمكن أن يقال: إن المزيِّن لهم الشهوات هو الشيطان، والمعنى الأول أقرب؛ لأن الله -عز وجل- لما خلق النفوس ركب فيها الغرائز والشهوات.

والشهوات هنا أطلقت على المشتهيات وإن كان أصل الشهوات جمع شهوة، والمقصود بها ما تنزع إليه النفس مما تستلذه وتميل إليه وتهواه فأطلقت هنا على الأمور التي تشتهيها النفوس من النساء والبنين والقناطير..الخ.

"يخبر تعالى عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين فبدأ بالنساء؛ لأن الفتنة بهن أشد، كما ثبت في الصحيح أنه -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما تركت بعدي أضر على الرجال من النساء))[1]، فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والاستكثار منه، وإنّ خير هذه الأمة من كان أكثرها نساء".

وهذا لا يعارض أنها زينت في نفوس الناس وصارت نفوسهم مجبولة على الميل إليها.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب النكاح - باب ما يتقى من شؤم المرأة (٤٨٠٨) (ج ٥ / ص ١٩٥٩) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء (٢٧٤٠) (ج ٤ / ص ٢٠٩٧).

"وقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة، إن نظر إليها سرته وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله))[٢]، وقوله في الحديث الآخر: ((حبب إلي النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة))[٣].

وقالت عائشة -رضي الله تعالى عنها-: "لم يكن شيء أحب إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من النساء إلا الخيل"، وفي رواية: "من الخيل إلا النساء".

وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة، فهو داخل في هذا، وتارة يكون لتكثير النسل وتكثير أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- ممن يعبد الله وحده لا شريك له، فهذا محمود ممدوح كما ثبت في الحديث: ((تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة))[٤]".

يلاحظ أنه ذكر هنا البنين ولم يذكر البنات، فلم يقل: الأولاد ليشمل البنات والبنين، وإنما اقتصر على ذكر البنين؛ لأن الناس إنما يتزينون بهم في مجالسهم، والرجل يتقوى بهم ويفتخر ويعتضد بهم، فهو ذكرهم دون البنات لهذا السبب، والله أعلم.

"وحب المال كذلك تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء والتجبر على الفقراء، فهذا مذموم، وتارة يكون للنفقة في القربات وصلة الأرحام والقرابات ووجوه البِرِّ والطاعات، فهذا ممدوح محمود عليه شرعاً، وقد اختلف المفسرون في مقدار القنطار على أقوال وحاصلها أنه المال الجزيل كما قاله الضحاك وغيره".

المراد بالقنطار أي المال الكثير ولا يحد، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- وكان قد ساق أقوالاً كثيرة جداً في تحديد القنطار، ويلاحظ أن بين هذه الأقوال فرقاً شاسعاً، فمنهم من يقول مثلاً: إن القنطار يبلغ ألفاً، ومنهم من يقول: سبعين ألفاً، ومنهم من يقول أكثر من هذا، فعلى كل حال القنطار هو المال الكثير، وأما المال القليل فلا يقال له قنطار.

ومعنى المقنطرة أي المضعفة، تقول: قناطير مقنطرة، كما تقول: ألوف مؤلفة، فهو المال المضعف الذي بعضه على بعض بمعنى أنه كثير جداً.

ومن أهل العلم من يقول: إن القناطير جمع قنطار، والمقنطرة جمع الجمع، فإذا قلنا: إن أقل الجمع ثلاثة -كما هو المشهور- فيكون القناطير ثلاثة والمقنطرة تسعة، وهذا قال به جماعة، وقال به ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

وعلى كل حال القناطير المقنطرة أي المضعفة كما نقول: ألوف مؤلفة، فهو مال كثير بعضه على بعض والله أعلم.

---

[2] - أخرجه مسلم في كتاب الرضاع - باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة (١٤٦٧) (ج ٢ / ص ١٠٩٠).

[3] - أخرجه النسائي في كتاب - عشرة النساء - باب حب النساء (٣٩٤٠) (ج ٧ / ص ٦١) وأحمد (١٤٠٦٩) (ج ٣ / ص ٢٨٥) وحسنه الألباني في المشكاة برقم (٥٢٦١).

[4] - أخرجه أبو داود في كتاب النكاح - باب النهى عن تزويج من لم يلد من النساء (٢٠٥٢) (ج ٢ / ص ١٧٥) والحاكم (٢٦٨٥) (ج ٢ / ص ١٧٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٩٤٠).

"وحب الخيل على ثلاثة أقسام: تارة يكون ربطها أصحابها معدة لسبيل الله متى احتاجوا إليها غزوا عليها، فهؤلاء يثابون، وتارة تربط فخراً ونواء لأهل الإسلام فهذه على صاحبها وزر، وتارة للتعفف واقتناء نسلها ولم ينس حق الله في رقابها، فهذه لصاحبها ستر، كما سيأتي الحديث بذلك -إن شاء الله تعالى- عند قوله تعالى: {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ} الآية [(٦٠) سورة الأنفال]".

نحن قد لا ندرك حقيقة المعنى هنا؛ لأن الناس لم يعودوا يشتغلون في الغالب بهذه الخيل، لكن الذين يعرفونها ويشتغلون بها -لا سيما الخيل العربية- الواحدة عندهم ربما تفوق أهله، ولذلك جاء في الحديث: ((كما يربي أحدكم فلوه))[٥] فما كانوا يكلون ذلك إلى أحد، لا الرقيق ولا الخدم وإنما كان الواحد منهم يقوم عليها بنفسه، من تربيتها وتعليمها وتدريبها وغسلها ونحو ذلك، فلا يكِل ذلك إلى أحد غيره؛ لشدة شغفه بها وعنايته بها.

"وأما المسومة فعن ابن عباس -رضي الله عنهما-: "المسومة الراعية".

يعني من السوم، كما تقول: السائمة، في سائمة الغنم، فهي التي ترعى في المراعي، وقيل: السارحة وهو بمعنى قريب منه.

"والمطهمة الحسان".

وبعضهم يقول: المعدة للجهاد، لكن الخيل المسومة كيف تكون معدة للجهاد والله -عز وجل- إنما يتحدث هنا عما زين للناس من الشهوات وما تحبه أنفسهم وتميل إليه، فهذا مركوز في نفوس المسلمين وغير المسلمين، وذلك تعلق بهذه الأمور التي هي من قبيل الحطام، لذلك فإن تخصيص ذلك بأنها معدة للجهاد فيه بعد، والله تعالى أعلم.

وبعضهم كأنه أرجع المسومة إلى السمة وهي العلامة، أي لها علامة تميزها، سواء كان ذلك من فعل صاحبها أو كانت معلمة بِشِيَةٍ تكون حسْناً فيها، كالغُرة والتحجيل الذي يكون من الأمور المستحسنة في الخيل، وبعضهم -مثل ابن فارس صاحب كتاب المقاييس في اللغة- يقول: الخيل المسومة هي المرسلة التي عليها ركبانها.

وعلى كل حال يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم لا سيما وأن هذا ما دل عليه السياق والتركيب-: إن الخيل المسومة هي التي فيها علامة وشِيَة تميزها وتزيدها جمالاً وحسناً، وتتميز بألوانها وهيئاتها وما أشبه ذلك، مما تسترعي الانتباه وتنجذب إليها النفوس وتستهويها لحسنها وجمالها وهيئاتها، وهذا هو اختيار ابن جرير -رحمه الله- في تفسير هذه الجملة.

"وكذا روي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعبد الرحمن بن عبد الله بن أبزى والسدي والربيع بن أنس وأبي سنان وغيرهم، وقال مكحول: المسومة الغرة والتحجيل، وقيل غير ذلك.

---

[٥] - أخرجه البخاري في كتاب الزكاة - باب لا يقبل الله صدقة من غلول ولا يقبل إلا من كسب طيب (١٣٤٤) (ج ٢ / ص ٥١١) ومسلم في كتاب الزكاة - باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (١٠١٤) (ج ٢ / ص ٧٠٢).

وقد روى الإمام أحمد عن أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ليس من فرس عربي إلا يؤذن له مع كل فجر يدعو بدعوتين يقول: اللهم إنك خولتني من بني آدم فاجعلني من أحب ماله وأهله إليه، أو أحب أهله وماله إليه))[6].

وقوله تعالى: {وَالأَنْعَامِ} [(١٤) سورة آل عمران] يعني الإبل والبقر والغنم، {وَالْحَرْثِ} [(١٤) سورة آل عمران] يعني الأرض المتخذة للغراس والزراعة".

الأنعام هي ما ذكر الله -عز وجل- في آية سورة الأنعام: {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} [(١٤٣) سورة الأنعام] فهي الأنعام، وربما أطلقت النَّعَم على الإبل خاصة، وهنا تشمل الجميع، وإن كانت الإبل هي الأفضل وهي أنفس أموال العرب.

"ثم قال تعالى: {ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} أي إنما هذا زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة، {وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} [(١٤) سورة آل عمران] أي: حسن المرجع والثواب، ولهذا قال تعالى: {قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ} [(١٥) سورة آل عمران] أي: قل يا محمد للناس أؤُخبركم بخير ما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها الذي هو زائل لا محالة.

ثم أخبر عن ذلك فقال: {لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} [(١٥) سورة آل عمران] أي: تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار من أنواع الأشربة، من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

{خَالِدِينَ فِيهَا} أي ماكثين فيها أبد الآباد، لا يبغون عنها حولا.

{وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ} أي من الدنس والخبث والأذى والحيض والنفاس وغير ذلك مما يعتري نساء الدنيا، {وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ} أي: يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده أبدا، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى التي في براءة: {وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ} [(٧٢) سورة التوبة] أي أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم.

ثم قال تعالى: {وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} أي: يعطي كلاًّ بحسب ما يستحقه من العطاء.

---

[6] - أخرجه أحمد (٢١٥٣٥) (ج ٥ / ص ١٧٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٤١٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال المفسر –رحمه الله تعالى– في تفسير قوله تعالى: {الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ* الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ} [(١٦-١٧) سورة آل عمران]

"يصف –تبارك وتعالى– عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل، فقال تعالى: {الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا} أي: بك وبكتابك وبرسولك.

{فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا} أي بإيماننا بك وبما شرعته لنا، فاغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا من أمرنا بفضلك ورحمتك، {وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [(١٦) سورة آل عمران].

ثم قال تعالى: {الصَّابِرِينَ} أي في قيامهم بالطاعات وتركهم المحرمات، {وَالصَّادِقِينَ} فيما أخبروا به من إيمانهم بما يلتزمونه من الأعمال الشاقة {وَالْقَانِتِينَ} والقنوت: الطاعة والخضوع، {وَالْمُنفِقِينَ} أي في أموالهم في جميع ما أمروا به من الطاعات، وصلة الأرحام والقرابات، وسد الخلات، ومواساة ذوي الحاجات.

وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ} دل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار، وقد قيل: إن يعقوب –عليه السلام– لما قال لبنيه: {سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ} [(٩٨) سورة يوسف] أنه أخرهم إلى وقت السحر.

وثبت في الصحيحين وغيرهما من المسانيد والسنن من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: ((ينزل الله –تبارك وتعالى– في كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: هل من سائل فأعطيه، هل من داع فأستجيب له، هل من مستغفر فأغفر له))[١] الحديث.

وفي الصحيحين عن عائشة –رضي الله تعالى عنها– قالت: "مِن كُلِّ الليل قد أوتر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من أوله وأوسطه وآخره، فانتهى وتره إلى السحر"[٢].

وكان عبد الله بن عمر –رضي الله تعالى عنه– يصلي من الليل ثم يقول: يا نافع هل جاء السحر؟ فإذا قال: نعم، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح [رواه ابن أبي حاتم]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

---

[1] – أخرجه البخاري في أبواب التهجد – باب الدعاء والصلاة من آخر الليل (١٠٩٤) (ج ١ / ص ٣٨٤) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها – باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه (٧٥٨) (ج ١ / ص ٥٢١).

[2] – أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها – باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي صلى الله عليه و سلم في الليل وأن الوتر ركعة وأن الركعة صلاة صحيحة (٧٤٥) (ج ١ / ص ٥١٢)

فقوله -تبارك وتعالى-: **{الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ}** [(١٧) سورة آل عمران] هذه الأوصاف التي ذكرها الله -عز وجل- تُحمل على أعمِّ معانيها ولا تُخص بشيء دون شيء، فالصبر هنا كما أنه يشمل ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- من الصبر على الطاعات، والصبر عن المعاصي، كذلك أيضاً يشمل حبس النفس عن التسخط والجزع في حال المصيبة، يعني أن يصبر على أقدار الله المؤلمة.

وكذلك أيضاً الصدق فإنه يشمل الصدق في الإيمان، ويشمل أيضاً الصدق باللسان، كما يشمل الصدق في الفعل والحال، أي أن كل أنواع الصدق داخلة فيه.

وأما القنوت فسبق الكلام عليه وعلى ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- من أنه دوام الطاعة، وأن المعاني التي يذكرها السلف من الطاعة والخضوع ونحو ذلك متقاربة.

وأما ذكر السحر في قوله: **{وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ}** [(١٧) سورة آل عمران]، فمن أهل العلم من السلف -رضي الله تعالى عنهم- ومن بعدهم من فسره بالصلاة، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن ذلك يفسر على ظاهره بالاستغفار أي: طلب المغفرة، ولو أنه قال: والمسبحين بالأسحار، لكان يمكن أن يفسر ذلك بالصلاة؛ فإن الصلاة يقال لها تسبيح، وأما الاستغفار فإنه يحمل على ظاهره -والله تعالى أعلم-؛ وذلك أن هذا الوقت هو مظنة إجابة الدعاء؛ حيث ينزل الرب -تبارك وتعالى- إلى سماء الدنيا كما في الحديث فيكون للدعاء مزية فيه، فإذا صلى الإنسان ما شاء الله أو ما كتب الله له أن يصلي فإنه بعد ذلك يستغفر في هذا الوقت الشريف، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ* إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ* فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [(١٨-٢٠) سورة آل عمران].

شهد تعالى وكفى به شهيداً وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم وأصدق القائلين: {أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}: أي المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق وأن الجميع عبيده وخلقه والفقراء إليه، وهو الغني عن ما سواه، كما قال تعالى: {لَّكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ} الآية [(١٦٦) سورة النساء]**، ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته، فقال: {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ}** [(١٨) سورة آل عمران]**، وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام.**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- هاهنا: **{شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}**، هذه الشهادة عبارات السلف في تفسير معناها تدور على الإعلام والبيان والإخبار والحكم والقضاء، هذه مجمل الألفاظ الواردة عنهم في تفسيرها

والحافظ ابن القيم -رحمه الله- أطال في الكلام على هذه الجملة، وذكر أن هذه المعاني التي ذكرها السلف -رضي الله تعالى عنهم-- لا تخرج عن معناها، وأنها من جملة مراتبها؛ وذلك أن الشهادة لا بد فيها من العلم بالمشهود به؛ فإن الشاهد لا بد أن يكون عالماً بمضمون شهادته، وإلا فإن الشهادة بجهل فيما يشهد به لا تصح، فهذا أمر لا بد منه، ثم أيضاً التكلم بذلك، فإذا تكلم به وإن لم ينطق بلفظ الشهادة فقد شهد، والله -عزَّ وجلَّ- قال عن أولئك الذين جعلوا الملائكة إناثاً: **{سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ}** [(١٩) سورة الزخرف] فعدها شهادة مع أنهم لم ينطقوا بلفظ الشهادة، وهذا كثير في القرآن، فمن تكلم بشيء فقد شهد به، وكذلك أيضاً إذا أخبر به غيره، أعلم به غيره فقد شهد، والله -عزَّ وجلَّ- أخبر عن توحيده، عن اتصافه بصفات الكمال إلى غير ذلك مما أخبر الله -عزَّ وجلَّ- عنه مما يتصل بهذا المعنى، فهذه شهادة حيث أخبرهم بقوله وأخبرهم بفعله، فإن أفعال الله -عزَّ وجلَّ- تدل على كماله ووحدانيته وعدله، كما أن الله -تبارك وتعالى- نصب في هذا الكون الذي نشاهده من دلائل التوحيد ما لا يخفى، ثم إن إخباره -تبارك وتعالى- أيضاً بأنه لا إله إلا هو، في هذا المقام يقتضي الحكم بذلك، بل هو حكم بذلك، كما أنه يقتضي الإلزام، أي إلزام المكلفين بهذه الكلمة وبمقتضياتها، فهو حكم منه -تبارك وتعالى- وإلزام.

فالحافظ ابن القيم –رحمه الله– يرى أن هذه الأمور جميعاً تدخل فيها، فهي من مراتبها العلم والتكلم والإخبار والبيان والحكم والإلزام، وأطال في الكلام على هذا المعنى جداً، لكن هذا محصلته وخلاصته.

في قوله تعالى: {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ} [(١٨) سورة آل عمران] يقول المفسر: "**ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته، فقال: {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ} وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام**": وذلك أن الله –عزَّ وجلَّ– اعتبر شهادتهم وذكرها، هذا من وجه، وذكرها أيضاً مع شهادته وشهادة ملائكة، وأيضاً من جهة أن الله –عزَّ وجلَّ– عبر عن ذلك عن شهادته وشهادة ملائكة وشهادة أهل العلم بفعل واحد فهو قال: {شَهِدَ اللّهُ} ثم ذكر هذه الشهادات بعده، ولم يقل: {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ} ثم وشهد الملائكة وشهد أولو العلم مثلاً، وإنما عبر بفعل واحد فأدخل فيه هذه الشهادات الثلاث.

ومن أوجه كونها خصوصية عظيمة للعلماء أيضاً عِظم هذه الشهادة التي استشهدهم –عزَّ وجلَّ– عليها فدل ذلك على مكانتهم ومنزلتهم، ثم أيضاً الاختصاص، فقد اختصهم الله –عزَّ وجلَّ– من بين الخلق، وبالتالي لا يشكل على ذلك أن الله –عزَّ وجلَّ– لم يذكر الرسل والأنبياء هنا، وإنما ذكر أهل العلم، فإن الرسل –عليهم الصلاة والسلام– هم من أولى من يوصف بذلك.

ثم إن ذكر أهل العلم فيه إشارة إلى المعنى الذي من أجله حصل هذا الاعتبار لهم وهو وصف العلم، ولا شك أن هذا من أعظم المطالب في الشهادة.

وعلى كل حال فإن الوجوه التي يمكن أن تستخرج مما يدخل تحت هذا المعنى في قوله: "**وهذه خصوصية عظيمة لأهل العلم**": يدخل فيه ما ذكرت ويدخل فيه غيره مما يمكن أن يستخرج من هذا المعنى.

{قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ} أي: هو في جميع الأحوال كذلك.

قوله: {قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ} هذه منصوبة على الحال، لكن ما هو موضعها الذي تتعلق به من هذه الآية: {شَهِدَ اللّهُ}؟

من أهل العلم من يقول: إنها تتصل بلفظ الجلالة، فيكون المعنى: شهد الله حال قيامه بالقسط أنه لا إله إلا هو، فهو –تبارك وتعالى– مقسط عادل في حكمه بهذه الشهادة التي هي أعظم شهادة على أجل مشهود به، وقد جعل الله –عزَّ وجلَّ– لها أحكاماً، وتؤثر أموراً انقسم الخليقة بها إلى قسمين، ومن أجلها وجدت الجنة والنار، ومن أجلها قرَّب أقواماً وأبعد آخرين، وأعزَّ أقواماً وأذلَّ آخرين، ومن أجلها أثاب، ومن أجلها عذب، إلى غير ذلك من أحكامه العادلة التي تتفرع عن هذه الشهادة وتتصل بها، فالله شهد حال قيامه بالعدل وبالقسط أنه لا إله إلا هو.

والمعنى الثاني: أن ذلك يتصل بما بعد إلا من قوله: {شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ} [(١٨) سورة آل عمران]، فتكون متصلة بالضمير المنفصل، فيكون المعنى: لا إله إلا هو حال كونه قائماً بالقسط.

وهذا المعنى الثاني هو الذي اختاره الشيخ تقي الدين ابن تيمية –رحمه الله– وبه قال جمع كثير من أهل العلم، فتكون شهادة الملائكة وشهادة أهل العلم بهذا الاعتبار متضمنة لهذين الأمرين، أي تكون الشهادة واقعة على وحدانية –سبحانه وتعالى– وعلى قيامه بالقسط، أما على المعنى الأول، فإن هذه الشهادة لأهل العلم وأنه

لا إله إلا هو تكون واقعة على الوحدانية فقط؛ لأن المعنى الأول: شهد الله حال قيامه بالقسط أنــه لا إلــه إلا هو، وأما المعنى الثاني: شهد الله وشهد الملائكة وشهد أولو العلم بأنه لا إله إلا هو والحال أنه قائم بالقسط، فهم يشهدون على هذا وعلى هذا.

وشهادة أهل العلم تكون بعلمهم ومعرفتهم، وتكون أيضاً باعتقادهم وإقرارهم وتكون أيضاً ببيانهم ودعائهم إلى هذه الشهادة وعملهم بها، فكل هذا يدخل في هذه الشهادة؛ لأن من أهل العلم من يقول: إن شهادة أهــل العلــم بمعرفتهم أي أنهم عرفوا ذلك، ومنهم من يقول: هو إخبارهم به وإعلامهم بذلك، والصحيح أن هذا كله داخــل فيه، فإن حكمهم بهذا واعتقادهم به مبني على العلم والمعرفة، مع إخبارهم أيضاً وإعلامهم غيرهم بذلك، فهــم يعلمون الناس ويخبرونهم ويدعونهم إلى هذا، ويعملون بمقتضاها، فكل هذا من شهادتهم، والناس يتفاوتون في تحقيق هذا المعنى على قدر ما حققوا من هذه الأمور، والله تعالى أعلم.

ومعنى قوله: **{قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ}** [(١٨) سورة آل عمران] أي قائماً بالعدل في أقواله وأفعاله وأحكامه.

{لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ} تأكيد لما سبق.

يقول: "**{لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ} تأكيد لما سبق**": والقاعدة: أن التأسيس مقدم على التوكيد، فالله –عزَّ وجــلَّ– يقــول: **{شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}** [(١٨) سورة آل عمــران]، ثم قال بعده: **{لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}** فهو ذكرها مرتين، فالحافظ ابن كثير –رحمه الله– يقول: إن هذا من قبيل التوكيد، أي أعاده للتأكيد.

ومن السلف من يقول غير ذلك، فمنهم من يقول: إن الأولى وهو قوله: **{شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}** يقــول: هذا وصف له –تبارك وتعالى– بالتوحيد، والثانية: **{لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}** يقول: هذا تعليم من الله –عزَّ وجلَّ– لخلقه أن يقولوا ذلك، أي أنه وصف نفسه بالوحدانية ثم علم خلقه كيف يقولون، فلا يكون ذلك من قبيل التوكيد.

ومن المسائل التي تشبه هذه المسألة كلام أهل العلم في قوله –تبارك وتعالى في سورة البقرة –مــثلاً–: **{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا}** [(١٢٦) سورة البقرة] مع قوله في الآية الأخرى في سورة إبــراهيم: **{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا}** [(٣٥) سورة إبراهيم] فالفرق بين الموضعين كما يقول بعض أهــل العلــم أنه في الموضع الأول قال: **{اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا}** لأنه كان في مقام يدعو فيه ربه أن يوجد هــذا البلــد قبــل وجوده أي أن هذا الدعاء كان قبل بناء البيت، أي فهو دعا الله أن يوجد بلداً آمناً، فلما بنيت الكعبة وصــارت موجودة دعا ربه أن يجعل هذا البيت الموجود آمناً فقال: **{رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا}** [(٣٥) سورة إبراهيم].

ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله –تبارك وتعالى–: **{وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا}** [(٢) سورة الفتح] مــع قولــه تعــالى: **{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}** [(٦) سورة الفاتحة]، فمن أهل العلم من يقول: إنه أخبره أنه سيهديه صراطاً مستقيماً، فلما عرف ذلك دعا ربه أن يهديه إلى هذا الصراط الذي أخبره الله –عزَّ وجلَّ– عنه وعرفه فقــال: **{اهــدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}** [(٦) سورة الفاتحة] والفرق بين المعنيين واضح.

فالحاصل أن قوله –تبارك وتعالى–: **{لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}** [(١٨) سورة آل عمران] يحتمل ما ذكره ابن كثير من أنــه للتأكيد، ويحتمل أن يكون قوله: **{شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}** [(١٨) سورة آل عمــران]، إخبــار عــن شــهادته بالتوحيد، وشهادة الملائكة وشهادة أهل العلم، وتكون **{لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُــوَ}** الثانية إخبار عــن توحيــده –ســبحانه

وتعالى- والفرق بين المعنيين أيضاً واضح، وعلى هذا المعنى تكون الثانية مؤسسة لمعنىً جديد وليست مؤكدة، ولا شك أن هذا هو الأولى، والقولان لهما وجه قريب من النظر، والله تعالى أعلم.

{الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [(١٨) سورة آل عمران] العزيز الذي لا يرام جنابه عظمة وكبرياء، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

وقوله تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ} [(١٩) سورة آل عمران]، إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو إتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى ختموا بمحمد -صلى الله عليه وسلم- الذي سدَّ جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد -صلى الله عليه وسلم- فمن لقي الله بعد بعثة محمد -صلى الله عليه وسلم- بدين على غير شريعته فليس بمتقبل، كما قال تعالى: {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ} الآية [(٨٥) سورة آل عمران]، وقال في هذه الآية مخبراً بانحصار الدين المتقبل عنده في الإسلام: {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ} [(١٩) سورة آل عمران].

هذا المعنى الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير وهو قوله: "**إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام**": هذا باعتبار هذه القراءة المشهورة التي هي قراءة الجمهور **{إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ}**، فتكون هذه الجملة استئنافية مقررة لمعنىً جديد، حيث شهد الله بوحدانيته، ثم استأنف يتحدث عن قضية أخرى وهي أن الدين عند الله الإسلام، فتكون إخباراً منه تعالى بأنه لا دين عنده .. إلى آخر ما ذكر، معنى هذا أنها جملة استئنافية مقررة لمضمون ما قبلها؛ لأن الإسلام يتضمن شهادة ألا إله إلا الله فهي مقررة لما سبق لكنها تعتبر جملة جديدة، أخبر عن شهادته بوحدانيته وأنه واحد لا شريك له ثم قال: **{إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ}**، فهذا على قراءة الكسر في إن من قوله: **{إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ}** فهي جملة استئنافية، كما في قوله تعالى: **{إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ}** [(٢٨) سورة الطور]، وأما على قراءة الفتح، أي أنه قال: **{شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}** الآية ثم قال: **{أَنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ}**، فهنا يحتمل أن يكون المعنى: شهد الله بتوحيده أن الدين عند الله الإسلام وهذا فيه بعد؛ لأن قضية التوحيد كا،ها صارت موطئة لما بعدها، أي كأنها ذكرت للشهادة على أن الدين عند الله الإسلام، مع أن كون الدين عند الله الإسلام يتضمن كما سبق شهادة ألا إله إلا الله، ويحتمل أن تكون الشهادة واقعة على الأمرين فيكون هنا كأنه حذف واو العطف، أي شهد الله أنه لا إله إلا هو وأن الدين عند الله الإسلام، وهذا المعنى أقرب من الذي قبله، حيث يكون المعنى أنه شهد الله بالأمرين، أما الذي قبله كأنه فيه باء مقدرة ليكون المعنى شهد الله بأنه لا إله إلا الله، يعني بكونه: لا إله إلا الله، أو بكونه واحداً لا شريك له أن الدين عند الله الإسلام، فالمعنى الثاني أقرب من الأول، ولعل أقرب من هذا أن تكون "أنَّ" الثانية في قوله: **{أَنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ}** بدلاً من "أنَّ" الأولى التي في قوله: **{شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}** بمعنى أن شهادة ألا إله إلا الله هي بمعنى الإسلام، فهي موازية للأولى، فهي بدل منها.

ومن أمثلة البدل قوله تعالى: **{وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً}** [(٩٧) سورة آل عمران] فهذا بدل بعض من كل، أما قوله هنا: **{شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ}** [(١٨) سورة آل عمران]، **{أَنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ}** [(١٩) سورة آل عمران]، فهذا بدل كل من كل، بحيث تكون الثانية هي نفس الأولى، سواء عبرت عنها

بلا إله إلا الله أو عبرت عنها بالإسلام، أو يكون بدل اشتمال وهذا على قراءة الفتح، أما على قراءة الكسر فالمعنى واضح أنها جملة جديدة وهو الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا.

يقول الحافظ -رحمه الله تعالى- في قوله تعالى: **{إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ}** [(١٩) سورة آل عمران]: "**لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو إتباع الرسل فيما بعثهم الله به**": يلاحظ المتأمل في كلام الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام- يجد أنهم جميعاً كانوا يدعون إلى الإسلام، فموسى -صلى الله عليه وسلم- قال لقومه: **{وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ}** [(٨٤) سورة يونس] وكذلك إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- ويعقوب -عليه الصلاة والسلام- وصَّوا أبناءهم بالإسلام، وكذلك عيسى - صلى الله عليه وسلم- وقصته مع الحواريين، فالمقصود: أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كلهم جاؤوا بالإسلام، فالله يقول: **{إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ}** [(١٩) سورة آل عمران]، ويقول: **{وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ}** [(٨٥) سورة آل عمران] ولهذا قال الله -عزَّ وجلَّ-: **{مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** [(٦٧) سورة آل عمران] وقال -عز وجل-: **{أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ}** [(١٤٠) سورة البقرة]، فما كانوا على اليهودية ولا على النصرانية وإنما كانوا على الإسلام، وهكذا كان الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كلهم على الإسلام، فالدين الذي يقبله الله -عزَّ وجلَّ- هو الإسلام.

ثم أخبر تعالى بأن الذين أوتوا الكتاب الأول إنما اختلفوا بعد ما قامت عليهم الحجة بإرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب عليهم فقال: {وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} [(١٩) سورة آل عمران] **أي: بغى بعضهم على بعض فاختلفوا في الحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم، فحمل بعضهم بغض البعض الآخر على مخالفته في جميع أقواله أفعاله وإن كانت حقاً.**

يعني أن الشر الذي يقع بين الناس لا يكون إلا من أحد أمرين: إما من الجهل وقصور العلم، حيث يتصور الأمر على غير وجهه فينكر بعض الحق، أو أن يكون علمه باطلاً أي لا يكون عنده علم عنده في هذه القضية فيتكلم بغير علم ويقع بسبب ذلك الخلاف بين الناس والشر.

والأمر الآخر هو البغي، وهذا الذي وقع بين أهل الكتاب، ووقع كثيراً في هذه الأمة، وفي كتاب الاقتضاء ذكر شيخ الإسلام -رحمه الله- شيئاً من هذا الأمر، فالناس إنما اختلفوا بعد بعث الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ليس لخفاء الحق وإنما وقع ذلك بغياً بينهم، أي من باب العدوان والظلم فيحمل كلَّ طائفة بغضها للأخرى على إنكار ما معهم، وترك ما هم عليه ولو كان هذا هو الحق الذي أخبر الله -عزَّ وجلَّ- به، وهذا لشدة بغضهم والبغي والعدوان والظلم وتجاوز الحد، وهذا الذي نراه ونشاهده اليوم، فهذا يأخذ بطرف من الحق وهذا يأخذ بطرف من الحق، وهذا يرد ذلك الحق، الذي جاء به من يكرهه ويعاديه، فكل طائفة تريد أن تنتصر على من يعاديها، ولو كان برد الحق.

ثم قال تعالى: {وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ} أي من جحد بما أنزل الله في كتابه، {فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ} أي: فإن الله سيجازيه على ذلك ويحاسبه على تكذيبه، ويعاقبه على مخالفته كتابه.

من معاني قوله تعالى: {فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ} أي سيجازيه ويحاسبه على تكذيبه، ومن معانيها أيضاً أن الله -عزَّ وجلَّ- لا يشغله كثرة الخلق عن سرعة محاسبتهم، فهو يحاسبهم كنفس واحدة، فالمخلوق عند الكثرة يحتاج إلى طول مدة، وربما يحتاج إلى أعوان ويحتاج إلى عقد وحسب، بينما الله -عزَّ وجلَّ- سريع الحساب، على كثرة الخلق، وكثرة أعمالهم وجناياتهم فإن حسابه سبحانه يكون لهم جميعاً كما يحاسب النفس الواحدة، كما أن قوله: {فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ} يشعر أيضاً أنه سريع الأخذ للظالمين والمجرمين، فهذه المعاني يمكن أن تفهم من هذه الآية، والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى: {فَإنْ حَآجُّوكَ} أي: جادلوك في التوحيد {فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ} أي: فقل أخلصت عبادتي لله وحده لا شريك له ولا ند له ولا ولد له ولا صاحبة له، {وَمَنِ اتَّبَعَنِ}: أي على ديني يقول كمقالتي، كما قال الله تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي} الآية [(١٠٨) سورة يوسف].

عبر هنا بالمحاجة والأصل أنه يكون بالإدلاء بالحجة، وهؤلاء كما أخبر الله -عزَّ وجلَّ-: {حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ} [(١٦) سورة الشورى]، وهي ليست حجة في الواقع أصلاً لكن هم لما اعتبروها حجة واعتدوا بها في الجدال سميت كذلك، كما سمى الله -عزَّ وجلَّ- آلهتهم آلهه مع أنها لا تملك من ذلك الوصف أو التسمية شيئاً، لا قليلاً ولا كثيراً، لكن هي باعتبار نظرهم وحكمهم، فجرى الخطاب بهذا الاعتبار، فهذا منه هنا: {فَإنْ حَآجُّوكَ} [(٢٠) سورة آل عمران]، سماها محاجة؛ باعتبار أن هذا يدلي بحجة وهذا يدلي بحجة وهذه حقيقة الجدال، والرد كما يلاحظ أنه اكتفى بقوله: {فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ} [(٢٠) سورة آل عمران].

ثم قال تعالى آمراً لعبده ورسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- أن يدعو إلى طريقته ودينه والدخول في شرعه وما بعثه الله به الكتابيين من الملتين والأميين من المشركين، فقال تعالى: {وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ} [(٢٠) سورة آل عمران] أي: والله عليه حسابهم وإليه مرجعهم ومآبهم، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، ولهذا قال تعالى: {وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} أي: هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة، وهو الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون؛ وما ذلك إلا لحكمته ورحمته.

وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثه -صلوات الله وسلامه عليه- إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث.

أخذ الحافظ بن كثير هذا الإطلاق للأميين من قوله تعالى: {وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ} [(٢٠) سورة آل عمران] باعتبار أن الناس إما أهل كتاب وإما أن يكونوا على الإشراك، يعني لا دين لهم يدينون به يرجع إلى كتاب منزل، فالناس إما هذا وإما هذا، فذكر الأميين وهم أهل الشرك، وهذا وإن كان يطلق -أعني الأميين- على الذين بعث فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم- من العرب، ولكن حقيقة ما هم عليه هو الإشراك بالله -عزَّ وجلَّ- فيدخل في ذلك جميع أمم الشرك، فهذا يدل على بعثته -صلى الله عليه وسلم- كانت موجهة لأهل الكتاب ولغيرهم من طوائف المشركين.

وهذا الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته -صلوات الله وسلامه عليه- إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث، فمن ذلك قوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [(١٥٨) سورة الأعراف]، وقال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [(١) سورة الفرقان] وفي الصحيحين وغيرهما مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة أنه -صلى الله عليه وسلم- بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق، وطوائف بني آدم من عربهم وعجمهم، كتابيهم وأميهم؛ امتثالاً لأمر الله له بذلك.

وقد روى عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار)) [رواه مسلم][1].

وقال -صلى الله عليه وسلم-: ((بعثت إلى الأحمر والأسود))[2] وقال: ((كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة))[3].

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الِّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ* أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ} [(٢١-٢٢) سورة آل عمران].

هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب بما ارتكبوه من المآثم والمحارم في تكذيبهم بآيات الله قديماً وحديثاً التي بلغتهم إياها الرسل استكباراً عليهم وعناداً لهم وتعاظماً على الحق واستنكافاً عن اتباعه، ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم إلا لكونهم دعوهم إلى الحق، {وَيَقْتُلُونَ الِّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ}: وهذا هو غاية الكبر.

في قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ} هذا القيد {بِغَيْرِ حَقٍّ} لا مفهوم له هنا وإنما هي صفة كاشفة، فقد ينفى الشيء مقيداً ويراد نفي أصله كما في قوله تعالى: {لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا} [(٢٧٣) سورة البقرة]، فهذه صفة كاشفة وليست مقيدة، بمعنى أنها لم تأت بمعنى جديد يخصص ما قبله؛ لأن الأوصاف عبارة عن قيود في الموصوف، فحينما تقول: أريد كتاباً يختلف عن قولك: أريد كتاباً في التفسير، فأنت خصصت فأخرجت كتب الحديث والنحو ..الخ، وحينما تقول: أريد كتاباً في التفسير بالمأثور تكون أخرجت كتب التفسير الأخرى، وهكذا كلما زادت الأوصاف زادت القيود، فالصفات الكاشفة تبين عن حقيقة الشيء دون أن يقصد بها التقييد، وهذا مثل ما قال بعض أهل العلم في تفسير قوله تعالى: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [(٦) سورة الفاتحة]، فالصراط لا بد فيه من أمرين كما يقول الحافظ ابن القيم وهو الاستقامة والسعة للمارين، فمعنى ذلك أن هذا المستقيم صفة موضحة كاشفة فقط لحقيقة الصراط، ويمكن أن

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه و سلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته (١٥٣) (ج ١ / ص ١٣٤)

[2] - أخرجه أحمد (١٤٣٠٣) (ج ٣ / ص ٣٠٤) والدارمي (٢٤٦٧) (ج ٢ / ص ٢٩٥) وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

[3] - أخرجه البخاري في أبواب المساجد - باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً)) (٤٢٧) (ج ١ / ص ١٦٨) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١) (ج ١ / ص ٣٧٠).

يحمل ذلك على أحد الوجوه في تفسير قوله تعالى: **{فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ}** [(٢٦) سورة النحل]، فالسقف إنما يكون من فوق أصلاً، ومثل ذلك قوله تعالى: **{وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ}** [(٣٨) سورة الأنعام]، فالطائر إنما يطير بجناحيه، ومثل ذلك قوله: **{يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ}** [(٧٩) سورة البقرة] وقوله: **{يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم}** [(١٦٧) سورة آل عمران] بمعنى أنه يمكن أن تخرج بعض هذه الآيات على معان أخر، مثل: **{يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ}** [(٧٩) سورة البقرة] قيل: بمعنى أن ذلك لم يكن من قبيل الإشارة على غيرهم ليكتبون عنهم، أو يفهم عنهم ذلك فيكتبه غيرهم، وإنما يكتبونه بأنفسهم، والمقصود أن هذا لا شك أنه يسجل عليهم الجرم العظيم الذي فعلوه وهو أنهم يكتبون الكتاب المحرف بأيديهم ثم يقولون: هذا من عند الله.

وفي قوله تعالى: **{يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم}** [(١٦٧) سورة آل عمران]، معلوم أن الإنسان ما يقول إلا بفيه، لكن يمكن لقائل أن يقول: إن القلم أحد اللسانين، وعلى كل حال هذه أمور يقصد بها التأكيد، جرت عليها طريقة العرب لتقرير المعنى وتأكيده.

فقوله: **{وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ}** [(٢١) سورة آل عمران]، لا يمكن أن يكون قتل الأنبياء بحق أصلاً، وبالتالي لو قلت: إن قوله: **{بِغَيْرِ حَقٍّ}** صفة مقيدة فمعناها أن قتل النبيين يكون بحق ويكون بغير حق، فهؤلاء يقتلونهم بغير حق، وهذا غير صحيح إذ لا يكون قتل النبيين بحق إطلاقاً، لكن كأن الله أراد أن يبرز شناعة فعلهم، وعظيم جرمهم، فذكر هذه الصفة بعده **{وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ}** [(٢١) سورة آل عمران]، مع أنه لا يكون بحق أصلاً، بينما في الآية الثانية يقول سبحانه: **{وَيَقْتُلُونَ الِّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ}** [(٢١) سورة آل عمران]، فلم يقل: بغير حق، وإنما قال: **{الِّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ}**، وهذا يُشعِر أن علة القتل هي أمرهم بالقسط، فهذا يفهم منه التعليل بطريق الإيماء والتنبيه.

وفي قول الله -عزَّ وجلَّ-: **{إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}** [(٥٧) سورة الأحزاب]، مع قوله: **{وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا}** [(٥٨) سورة الأحزاب] يلاحظ أنه في أذية الله -عزَّ وجلَّ- ورسوله لم يقيدها؛ لأن أذية الله ورسوله لا تكون بحق أبداً، وأما أذية المؤمنين والمؤمنات قال: **{بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا}**؛ لأن أذيتهم قد تكون بسبب جرمهم أو ما فعلوه، فلذلك يقال: لكل مقام مقال يناسبه، لذلك فإن الله تعالى يقول: **{وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ}** [(١١٧) سورة المؤمنون]، فمن المعلوم أنه لا أحد يدعو مع الله إله آخر له فيه برهان، فتكون هذه الصفة هنا كاشفة وليست قيداً؛ إذ لو كانت مقيدة سيكون مفهوم المخالفة أن الذي له في دعاء غير الله برهان فإنه غير متوعد، وهذا غير ممكن.

وهذا هو غاية الكبر، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((الكبر بطر الحق وغمط الناس))[4]، ولهذا لما أن تكبروا عن الحق واستكبروا على الخلق، قابلهم الله على ذلك بالذلة والصغار في الدنيا والعذاب المهين في الآخرة فقال تعالى: {فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [(٢١) سورة آل عمران] أي: موجع مهين، {أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ} [(٢٢) سورة آل عمران].

الذي يعادي أتباع الرسل هو في الواقع معاد الرسل -عليهم الصلاة والسلام-؛ لأنه إنما عادى هؤلاء لما دعوه إليه وأمروه به.

---

4 - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب تحريم الكبر وبيانه (٩١) (ج ١ / ص ٩٣).

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوْتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ* فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [(٢٣-٢٥) سورة آل عمران].

"يقول تعالى منكراً على اليهود والنصارى المتمسكين فيما يزعمون بكتابيْهم اللذين بأيديهم وهما التوراة والإنجيل، وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمد -صلى الله عليه وسلم- تولوا وهم معرضون عنهما، وهذا في غاية ما يكون من ذمهم، والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- في هذه الآية: {{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوْتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ} هذا الاستفهام يفيد معنى التعجب؛ وذلك أن هؤلاء الذين أعطاهم الله -عز وجل- كتاباً، كان الحري بهم أن يقبلوا التحاكم إليه.

قوله: {أُوْتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ} أي أُنزل عليهم كتاب من الله -تبارك وتعالى-، وهؤلاء لم يبيّن الله -عز وجل- طائفة مخصوصة من أهل الكتاب، فحمله كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- على اليهود، وذكر فيه واقعة معينة.

وعلى كل حال هذه الآية ليس فيها ما يدل على تخصيص اليهود، أو أن المراد بذلك هم اليهود والنصارى معاً، فالآية تحتمل هذا وهذا، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- حملها على الطائفتين وإن كان لا يصح في سبب نزولها سبب معين في أنها نزلت في بعض اليهود حينما طالبهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بالرجوع إلى التوراة للتحاكم إليها في قضية من القضايا، أو أن ذلك في النصارى الذين وفدوا على النبي -صلى الله عليه وسلم- من نجران فطالبهم النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يتحاكم معهم إلى كتابهم، حيث ذكر فيه وصف النبي -صلى الله عليه وسلم-، فالمقصود أنه إذا لم يصح فيها شيء محدد لا من هذا ولا من هذا، فيقال: أخبر الله -عز وجل- عن هؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ويحتمل أن يكون طائفة من أهل الكتاب وهم اليهود ويحتمل أن يكون المراد اليهود والنصارى، ويحتمل أن يكون المراد النصارى، فالمقصود أن ظاهر الآية يحتمل هذا جميعاً، وتخصيص طائفة من هؤلاء يحتاج إلى دليل.

والمقصود: أن الله -عز وجل- يعجب نبيه -صلى الله عليه وسلم- من صنيع هؤلاء الذين ناقضوا أنفسهم، فهم {يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللّهِ}، والكتاب هنا هو الكتاب المنزل عليهم وهو التوراة، وذلك أن هؤلاء لا يؤمنون

بالقرآن أصلاً، وإنما يؤمنون بكتابهم ويعتقدون أنه من عند الله -تبارك وتعالى- ومع ذلك إذا دعوا إلى التحاكم إليه في أمر لا يوافق أهواءهم فإنهم يعرضون ويأبون ذلك، والله أعلم.

"ثم قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ} [(٢٤) سورة آل عمران] أي إنما حملهم وجرأهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم أنهم إنما يعذبون في النار سبعة أيام، عن كل ألف سنة في الدنيا يوماً، وقد تقدم تفسير ذلك في سورة البقرة".

أو أنهم يعذبون بقدر عبادتهم للعجل كما جاء في بعض المرويات، وعلى كل حال هذا الذي غرهم في دينهم فقالوا: {لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ}.

"ثم قال تعالى: {وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} [(٢٤) سورة آل عمران] أي: ثبتهم على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أياماً معدودات، وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم وافتعلوه، ولم ينزّل الله به سلطاناً، قال الله تعالى متهدداً لهم ومتوعداً: {فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ} [(٢٥) سورة آل عمران] أي كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله وكذبوا رسله، وقتلوا أنبياءه والعلماء من قومهم الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والله تعالى سائلهم عن ذلك كله ومحاسبهم عليه ومجازيهم به ولهذا قال تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ} أي لا شك في وقوعه وكونه {وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [(٢٥) سورة آل عمران]".

يعني أن كل نفس تجازى على عملها جزاءً وافياً غير منقوص، فما عملت من خير وشر تجد جزاءه عند الله -عز وجل- وافياً، ففي السيئات كما قال الله -عز وجل-: **{وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}** [(٤٩) سورة الكهف]، وكذلك أيضاً في الحسنات: **{وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ}** [(٢٧٢) سورة البقرة] فكل ذلك يرجع إلى الإنسان ويجده وافياً عند الله -عز وجل-.

"{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* تُولِجُ اللَّيْلَ فِي الْنَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الَمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ} [(٢٦-٢٧) سورة آل عمران].

يقول -تبارك وتعالى-: قل يا محمد معظماً لربك وشاكراً له ومفوضاً إليه ومتوكلاً عليه: اللهم مالك الملك".

{اللَّهُمَّ} في هذه الآية وفي قول الداعي: اللهم، من أهل العلم من يقول: إن هذه الميم جاءت عوضاً عن ياء النداء، فأصله: يا الله، فحذفت ياء النداء، فعوض عنها بالميم.

ومن أهل العلم من يقول: إنها جاءت عوضاً عن كلام محذوف، وأصل الكلام: يا الله أُمَّنا بخير، يعني: اقصدنا بخير، فحذف حرف النداء، والضمير من أُمَّنا، والجار والمجرور بخير، ثم حذفت الهمزة التي قبلها لكثرة الاستعمال فصارت اللهم، وهذا القول فيه بعد؛ لأن الإنسان قد يقول هذه الكلمة في الدعاء على غيره، اللهم عاقب فلاناً، فكيف يكون التقدير هنا أُمَّنا بخير؟ وقد يقوله الإنسان في غير الدعاء كما في هذه الآية التي فيها ثناء على الله -تبارك وتعالى-: **{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء}**

إلى آخر ما ذكر، فهذا في باب الثناء والتمجيد والتعظيم لله -عز وجل-، وليس فيه دعاء، فعلى كل حال هذا القول هو أضعف هذه الأقوال، والله تعالى أعلم.

وقد يكون أحسن من هذا ما ذكره بعض أهل العلم ومنهم الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: أن هذه الميم تدل على التفخيم والتعظيم والجمع.

ومسألة كيف تدل على التفخيم والتعظيم والجمع؟ نجد أن عبارات أهل العلم في تفسير هذه الجملة متفاوتة، لكن يمكن أن يقال: إنها تدل على التفخيم والتعظيم والجمع وذلك أن الميم في كثير من مواردها في الاستعمال إذا ركبت مع غيرها تدل على معنى الجمع، وحتى في حال النطق بها مجردة مفردة فإن ذلك يكون بضم الشفتين.

والحافظ ابن القيم -رحمه الله- أطال في الكلام ونقل كلاماً طويلاً عن ابن جني في كتاب الخصائص، تحدث فيه بكلام لطيف يتعلق بخصائص اللغة العربية وفقهها في العلاقة بين الحروف وبين المعاني، وهو فصل لطيف يستحق أن يراجع، فأحياناً قد لا تعرف تفسير الكلمة أو لم تراجعها لكنها تشعرك بمعنىً معين، فمثلاً: حبتر هو الرجل القصير المجتمع الخلق، لكنها لا تشعرك بأنه إنسان طويل، وأنت بمجرد ما تسمع حروف كلمة "صلد" من ماذا ركبت فإنك قد تكون ما راجعت معناها لكنك تفهم منها الصلابة، وكذلك كلمة "سلخ" تجد مباشرة أن الحروف مجتمعة ترسل إليك إشارة معينة في المعنى، وكذلك حينما تسمع كلمة "وعر" تجد أنها تدل على شيء، وحينما تسمع كلمة "سهل" وهكذا، فالألفاظ والحروف التي يتركب منها اللفظ في كثير من الأحيان تشعر بمعنىً معين وإن لم يفهم الإنسان معناه الخاص الذي يفسر به، فهذا على كل حال من فقه اللغة العربية.

وعلى كل حال على هذا التفسير لقوله: **{قُلِ اللَّهُمَّ}** إذا نظرت في كلام السلف -رضي الله تعالى عنهم- في تفسيرها تجد أن بعض العبارات تدل على هذا وتحمل عليه، وإنما ذكرت هذه المعاني في الميم وخاصة المعنى الأخير بالذات من أجل توجيه بعض أقوال السلف التي قد تمر على الشخص فيستغربها، وهي في الواقع ترجع إلى هذا المعنى، فإذا قلت: إنها تدل على الجمع، فهي مؤذنة بهذا الاعتبار الداعي، كأنه قد جمع أو قصد جمع أسماء الله -عز وجل- وصفاته فدعا بها، فكأنه يقول: اللهم إني أسألك بكل اسم سميت به نفسك، ولذلك تجد في بعض العبارات كقول الحسن: اللهم مجمع الدعاء، فقد تقرأ هذه اللفظة ولا تتصور المراد منها، فإذا قرأت قال: اللهم مجمع الدعاء، عرفت أنها تدل على الجمع، وهذا القول يوجه بما ذكرته من القول الثالث أي القول الأخير.

يقول أبو رجاء العطاردي: إن الميم في قول: اللهم، فيها تسعة وتسعون اسماً لله -عز وجل-، وهذا يؤدي نفس الكلام السابق -مجمع الدعاء- أي كأنك جمعت الأسماء الحسنى، وهذا باعتبار أن الأسماء الحسنى تبلغ تسعة وتسعين، لكن الأقرب في معنى الحديث: ((إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة))[1] أن هذا العدد المذكور له هذه المزية ((من أحصاها دخل الجنة)) وإلا فأسماء الله أكثر من هذا، ففي

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب مقلب القلوب (٦٩٥٧) (ج ٦ / ص ٢٦٩١) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها (٢٦٧٧) (ج ٤ / ص ٢٠٦٢).

الدعاء المأثور: ((بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك))[2]، فأسماء الله -عز وجل- ليست محصورة بهذا العدد.

ومن أمثلة توجيه ذلك قول النضر بن شميل: "من قال اللهم فقد دعا الله بجميع أسمائه"، فهذه الآثار يمكن إذا تصورت المعنى الثالث أن توجهها ولا تقف عندها، بل ربما قد يسارع الإنسان في ردها، أو لا يستطيع الربط بينها وبين هذه اللفظة من جهة المعنى، لكن هذه الطريقة من طرق توجيه كلام السلف في التفسير. وكثير من الأشياء يستغربها الإنسان أحياناً لأنه يستعجل، ولو كشف له عن مأخذها ربما اقتنع بهذا القول وقال: هو الذي ينبغي أن يقال في هذه المسألة، لذلك طالب العلم لا يستعجل في الرد والإنكار للقول واستهجانه، فربما يكون هذا الاستغراب لأنه لم يفهم وجهه.

"{اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ} أي: لك الملك كله، {تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء} أي: أنت المعطي وأنت المانع وأنت الذي ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن.

وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله -صلى الله عليه وسلم- وهذه الأمة؛ لأن الله تعالى حوّل النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي المكي الأمي خاتم الأنبياء على الإطلاق، ورسول الله إلى جميع الثقلين الإنس والجن، الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله، وخصه بخصائص لم يعطها نبياً من الأنبياء ولا رسولاً من الرسل في العلم بالله وشريعته، واطلاعه على الغيوب الماضية والآتية، وكشفه له عن حقائق الآخرة ونشر أمته في الآفاق في مشارق الأرض ومغاربها، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ما تعاقب الليل والنهار.

ولهذا قال تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ} الآية، أي: أنت المتصرف في خلقك الفعَّال لما تريد، كما رد تعالى على من يتحكم عليه في أمره حيث قال: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} [(٣١) سورة الزخرف]، قال الله رداً عليهم: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ} [(٣٢) سورة الزخرف] الآية: أي نحن نتصرف في خلقنا كما نريد بلا ممانع ولا مدافع".

حقيقة المُلك -بالضم- هو كمال التصرف أو هو التصرف المطلق، وأما المِلك -بالكسر- فهو بمعنى حيازة الشيء أو الاستحواذ عليه وكونه تحت يد الإنسان، فكمال التصرف هو المُلك، ولا شك أنه أبلغ من المِلك، فهنا يقول سبحانه: **{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ}** يعني مالك التصرف المطلق، ولهذا قال: **{تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء}**، بمعنى أن الله -عز وجل- يمكِّن لبعض خلقه فيعطيهم شيئاً من الملك، فيكون متصرفاً بهذا الملك في غيره، فيكونون تحت طاعته، يأتمرون بأمره.

وقوله: **{وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء}**؛ أي أن الله ينزعه ممن يشاء؛ لأنه ملكه -سبحانه وتعالى- فهو الذي ينزع منهم ذلك ويرفعه عنهم ويحول أحوال الناس من عز إلى ذل، ومن ذل إلى عز، يرفع أقواماً ويضع آخرين، فكل ذلك بيده -سبحانه وتعالى- وبتقديره، بناء على حكمته وعلمه.

---

2 – أخرجه أحمد (٣٧١٢) (ج ١ / ص ٣٩١) والحاكم (١٨٧٧) (ج ١ / ص ٦٩٠) وأبو يعلى (٥٢٩٧) (ج ١ / ص ١٩٨) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٨٢٢).

"أي نحن نتصرف في خلقنا كما نريد بلا ممانع ولا مدافع، ولنا الحكمة البالغة والحجة التامة في ذلك، وهكذا نعطي النبوة لمن نريد كما قال تعالى: {اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [(١٢٤) سورة الأنعام] وقال تعالى: {انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} الآية [(٢١) سورة الإسراء] .

وقوله تعالى: {تُولِجُ اللَّيْلَ فِي الْنَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} [(٢٧) سورة آل عمران] أي تأخذ من طول هذا فتزيده في قصر هذا فيعتدلان، ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان ثم يعتدلان، وهكذا في فصول السنة ربيعاً وصيفاً وخريفاً وشتاء".

هذا القول هو المتبادر، فالإيلاج هو الإدخال، فقوله: **{تُولِجُ اللَّيْلَ فِي الْنَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ}** [(٢٧) سورة آل عمران] أي تدخل هذا في هذا، وهذا في هذا، بمعنى أنه يطول الليل فيأخذ من النهار، ويطول النهار فيأخذ من الليل، وينتج عن ذلك ويتأثر عنه أيضاً ما يتعلق بتحول الفصول وانتقالها من صيف إلى شتاء إلى ربيع إلى خريف، فكل ذلك يحصل فيتفاوت في ذلك الليل والنهار تفاوتاً ظاهراً كما هو مشاهد، فهذا هو القول المتبادر، كما تحتمل الآية معنىً آخر وهو أن المقصود بذلك التعاقب حيث ينسلخ النهار من الليل كما قال الله -عز وجل-: **{وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ}** [(٣٧) سورة يــــس]، فتعاقب الليل والنهار يمكن أن يكون هو المراد بقوله: **{تُولِجُ اللَّيْلَ}** فالآية تحتمل هذا، لكن المعنى الأول أقرب؛ وذلك لأنه عبر هنا بلفظ الإيلاج، **{تُولِجُ اللَّيْلَ فِي الْنَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ}** أي تدخل، وإدخال الليل في النهار معنى ذلك أنه يأخذ منه، والله تعالى أعلم، وهذا من كمال تصرفه -سبحانه وتعالى- وتدبيره بشئون هذا العالم، فهو دليل على قدرته وهو جزء من ملكه -جل وعلا-.

وهذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- معنى أن الليل يأخذ من النهار والنهار يأخذ من الليل- هو الذي ذهب إليه كثير من السلف، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

"وقوله تعالى: {وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الَمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ} [(٢٧) سورة آل عمران] أي تخرج الحبة من الزرع والزرع من الحبة، والنخلة من النواة والنواة من النخلة، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، والدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء".

هذا الكلام الذي ذكره الحافظ -رحمه الله- هو من أحسن ما تفسر به الآية؛ وذلك أنه جمع فيها أقاويل السلف -رضي الله تعالى عنهم-، فالسلف عند تفسير هذه الآية منهم من يفسرها بالحقيقة ومنهم من يفسرها بالمجاز -وهذا إن قسمنا الكلام حقيقة ومجازاً- فعلى الحقيقة بهذا الاعتبار -عند من رآه- يكون بإخراج الحبة أو الثمرة من الشجرة أو الحبة من الزرع، وكذلك بإخراج البيضة من الدجاجة والنطفة من الإنسان، فهذا كله يقال له: ميت؛ لأنه أخرج من حي هو النبات والإنسان.

وقوله: **{يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ}** [(٩٥) سورة الأنعام] مثل إخراج الشجرة من الحبة، والإنسان من النطفة، والدجاجة من البيضة وهكذا.

والمعنى المجازي -عند القائل بالمجاز- يكون بإخراج المؤمن من الكافر، فالمؤمن حي أخرج من الميت، والميت من الحي أي إخراج الكافر من المؤمن، وبغض النظر عن هذا التقسيم للكلام، وما فيه من المعارضة، لكن يقال: كل هذه المعاني داخلة في الآية؛ لأن الله لم يخص شيئاً دون شيء وإنما يدلل على

قدرته –سبحانه وتعالى–، فمن ذلك أنه يخرج الإنسان من النطفة، والبيضة من الدجاجة، والشجرة من الحبة، والمؤمن من الكافر، فهذا كله يقال له: حي، والسلف قد يعبرون بالمثال ولا يقصدون به الحصر، أي لا يقصدون تخصيص المعنى بهذا الذي ذكروه، فقوله مثلاً: الحبة من الشجرة والشجرة من الحبة لا يقصد تخصيص هذا وإنما يذكرون مثالاً يوضحه فقط، فالحافظ ابن كثير –رحمه الله– من فهمه وفقهه لطريقة السلف –رضي الله عنهم– جمع هذه الأقوال، فهي تشمل ذلك جميعاً.

"{وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ} [(٢٧) سورة آل عمران] أي تعطي من شئت من المال ما لا يعده ولا يقدر على إحصائه، وتقتر على آخرين لما لك في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة والعدل.

{لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ} [(٢٨) سورة آل عمران].

نهى الله –تبارك وتعالى– عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين، وأن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين، ثم توعد على ذلك، فقال تعالى: {وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ} [(٢٨) سورة آل عمران]".

قوله تعالى: **{لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ}** هذا نهي من الله –عز وجل– عن اتخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين، والمقصود باتخاذهم أولياء: أي بطانة، ويواليهم بمعنى النصرة والنصح لهم وتقديمهم وما إلى ذلك من المعاني.

وقوله: **{مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ}** يمكن أن يكون المراد بذلك: أي لا يتخذهم أولياء متجاوزاً بذلك أهل الإيمان فيقرب هؤلاء وينصرهم على إخوانه المسلمين.

ويمكن أن يكون قوله: **{مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ}** بمعنىً آخر وهو: أن ذلك يكون واقعاً منه تحيزاً إلى هؤلاء ضد إخوانه المؤمنين، فعلى هذا الاعتبار يكون هذا القيد لا مفهوم له، يعني ليس له مفهوم مخالفة، فيكون أحد المواضع التي لا يعتبر فيها مفهوم المخالفة، وذلك أنه يكون قد جرى على وفاق واقع معين، كأن تكون طائفة من المسلمين والوا بعض الكفار على بعض إخوانهم المؤمنين، فأنكر الله –عز وجل– عليهم هذا وقال: **{لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ}**، فلو قال إنسان على هذا المعنى: أنا أتخذ الكفار أولياء مع المؤمنين، نقول له: لا يجوز ذلك، لكن هذا القيد جاء لهذا السبب أي في واقعة معينة مثل قول الله –عز وجل–: **{وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا}** [(٣٣) سورة النـــــور]، فليس معنى هذا أنها لو كانت هي تحب الزنا أصلاً أنه لا مانع، وإنما الآية نزلت بسبب واقع معين وهو أن عبد الله بن أبيّ –كما صح في سبب النزول– كان عنده جاريتان فأسلمتا فكان يكرههما على الزنا، فأنزل الله –عز وجل– فيه: **{وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا}** [(٣٣) سورة النـــــور] فعلى كل حال قوله تعالى: **{لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ}** ابن جرير له كلام جيد في الآية.

"يقول ابن جرير في هذه الآية: "ومعنى ذلك لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهراً وأنصاراً توالونهم على دينهم وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدلونهم على عوراتهم، فإنه من يفعل ذلك {فَلَيْسَ

مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ} [(٢٨) سورة آل عمران] **يعني بذلك فقد برئ من الله وبرئ الله منه؛ بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر.**

{إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً} [(٢٨) سورة آل عمران] **إلا أن تكونوا في سلطانهم وتخافوهم على أنفسكم فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم وتضمروا لهم العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر، ولا تعينوهم على مسلم بفعل".**

هذا كلام جيد في بيان معنى الآية، ويلاحظ أنه خصص ذلك في قوله: **{إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً}** [(٢٨) سورة آل عمران]، بمعنى أن ذلك يكون باللسان، فقوله هنا: **{إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً}** [(٢٨) سورة آل عمران] يمكن أن يكون من قبيل الاستثناء المنقطع، بمعنى أن ذلك ليس أصلاً من موالاتهم في شيء، ومنهم من يقول: إن هذا إنما يكون باللسان، وهذا لا ينافي ما سبق، أي يكون باللسان في حال الخوف وكون الإنسان تحت سلطانهم، فيتقيهم ببعض القول كما قال الله –عز وجل–: **{إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ}** [(١٠٦) سورة النحل]، ولذلك نجد عبارات كثير من السلف يخصصون فيها ذلك بالقول دون الفعل، كما جاء عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– أنه التكلم باللسان والقلب مطمئن بالإيمان، يقول: ولا يبسط يده فيقتل، ولا إلى إثم فإنه لا عذر له، إنما يرخص له بالقول باللسان.

وكما جاء أيضاً عن غيره كأبي العالية قال: هو التكلم باللسان وليس بالعمل، وحمله بعضهم كقتادة على معنىً آخر تماماً فقال: **{إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً}** إلا أن يكون بينك قرابة فتصلهم فقط، وهذا ليس من موالاتهم في شيء.

فالحاصل أن الآية تُحمل على المعنى الأول الذي عليه عامة السلف، **{إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً}** بأن يرخص له في القول إذا خافهم وكان تحت سلطانهم، أو كان في حال من الضعف، بالقول دون الفعل، والله أعلم.

"ثم توعد على ذلك فقال تعالى: {وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ} [(٢٨) سورة آل عمران] **أي ومن يرتكب نهي الله في هذا فقد برئ من الله، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ}** [(١) سورة الممتحنة] **إلى أن قال: {وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ}** [(١) سورة الممتحنة]**، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا}** [(١٤٤) سورة النساء]**، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}** **الآية** [(٥١) سورة المائدة].

وقال تعالى بعد ذكر موالاة المؤمنين للمؤمنين من المهاجرين والأنصار والأعراب: {وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} [(٧٣) سورة الأنفال]**، وقوله تعالى: {إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً}** [(٢٨) سورة آل عمران] **أي إلا من خاف في بعض البلدان أو الأوقات من شرهم فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته، كما حكاه البخاري عن أبي الدرداء –رضي الله تعالى عنه– أنه قال: "إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم".**

قوله: **"إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم"** يعني نبتسم في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم.

"وقال البخاري: قال الحسن: التقية إلى يوم القيامة".

التقية هنا هي بمعنى ما يسميه الناس اليوم المجاملة..

"ثم قال تعالى: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ} [(٢٨) سورة آل عمران] **أي: يحذركم نقمته، أي مخالفته وسطوته في عذابه لمن والى أعداءه وعادى أولياءه.**

ثم قال تعالى: {وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ} [(٢٨) سورة آل عمران] **أي: إليه المرجع والمنقلب فيجازي كل عامل بعمله".**

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ} [(٢٩-٣٠) سورة آل عمران].

يخبر -تبارك وتعالى- عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والأزمان والأيام واللحظات وجميع الأوقات، ويجمع ما في السماوات والأرض لا يغيب عنه مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والبحار والجبال.

{وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} أي قدرته نافذة في جميع ذلك، وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته؛ لئلا يرتكبوا ما نهى عنه وما يبغضه منهم، فإنه عالم بجميع أمورهم، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة، وإن أنظَر من أنظر منهم فإنه يمهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلما نهى الله -عز وجل- عباده المؤمنين عن موالاة المشركين أخبر أنه عالم بالسرائر وما تخفيه النفوس، وأن إسرارهم للموالاة لأعداء الله -عز وجل- لا يخفى على الله -تبارك وتعالى- كما أنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء فسيجدون ذلك يوم بعثهم ونشورهم محضراً ماثلاً أمامهم، لم يذهب منه شيء أحصاه الله -عز وجل- جميعاً عليهم وأحاط به، فلا يكون منه -تبارك وتعالى- نسيان ولا تضييع، وإن حصل منهم ما يحصل من نسيان ذلك لتقادم العهد أو لكثرته أو لدقته في نظرهم.

ولهذا قال بعد هذا: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا...} الآية [(٣٠) سورة آل عمران]، يعني يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر، كما قال تعالى: {يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} [(١٣) سورة القيامة]، فما رأى من أعماله حسناً سرَّه ذلك وأفرحه، وما رأى من قبيح ساءه وغاضه، وود لو أنه تبرأ منه، وأن يكون بينهما أمد بعيد.

الأمد البعيد يعني أن يكون بينه وبينه غاية بعيدة، أن يكون بينه وبين هذا العمل بعد المشرقين، فلا يلحقه بسببه تبعة؛ لأن هذا العمل هو سبب للمؤاخذة والعقاب، فهو يتمنى مجانبته ومباعدته.

كما يقول لشيطانه الذي كان مقترناً به في الدنيا، وهو الذي جرأه على فعل السوء: {يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ} [(٣٨) سورة الزخرف]، ثم قال تعالى مؤكداً ومهدداً ومتوعداً: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ} أي: يخوفكم عقابه.

قوله: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ} يعني أن تسخطوها كما يعبر ابن جرير -رحمه الله- وهو أدق من عبارة ابن كثير، فإن ابن كثير -رحمه الله- فسرها بلازمها.

فالمقصود أن معنى: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ} أي أن تسخطوها بارتكاب ما يسخطه فتوافونه {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا} فإن هذا الظرف {يَوْمَ} العلماء مختلفون فيما يتصل به، فمنهم من يقول: إنه متصل به فعل مقدر مذكور، أي واذكر يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً.

وبعضهم يقول: ويحذركم الله نفسه يوم تجد..الخ، كأنه يقول: ويحذركم الله نفسه يوم القيامة.

وبعضهم يقول غير هذا، والله أعلم.

ثم قال -جل جلاله- مرجياً لعباده؛ لئلا ييئسوا من رحمته، ويقنطوا من لطفه {وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ}، قال الحسن البصري: من رأفته بهم حذرهم نفسه.

وقال غيره: أي رحيم بخلقه يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ودينه القويم، وأن يتبعوا رسوله الكريم -صلى الله عليه وسلم-.

على كل حال قوله: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ} هذا جمع لهم بين الترغيب والترهيب، وهو مثل قوله: {اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٩٨) سورة المائدة] فمن رأفته -تبارك وتعالى- أن أرسل الرسل، وأنزل الكتب وبيّن كل ما يحتاج إلى بيان فلم يترك في الحق لبساً، وحذرهم من مغبة فعلهم السيئ بعد أن بيّن لهم الحلال والحرام.

{قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ* قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [(٣١-٣٢) سورة آل عمران].

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد))[1].

هذه الآية: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} ظاهرها العموم فيخاطب بها كل أحد، سواء كان داخلاً في الإسلام فيطالب بالمتابعة، أو كان خارجاً عنه ممن يدعي محبة الله -عز وجل-، فإن المعيار الذي يعرف به صدق هذه المحبة هو إتباع النبي -صلى الله عليه وسلم- وإلا كانت تلك المحبة دعوى يدعيها من غير أن يكون صادقاً بها، فبرهانها هو المتابعة.

ومن أهل العلم ومن كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- يقول: إن الخطاب في هذه الآية متوجه إلى النصارى، وهم الوفد الذين قدموا على النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ باعتبار ما سبق من أن صدر هذه السورة ومنه هذه الآية قد نزل بسبب ذلك الوفد وعلى كل حال حتى لو كانت هذه الآية نازلة في وفد نصارى نجران، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولذلك كثر احتجاج العلماء -رحمهم الله- بهذه الآية على أهل البدع وعلى كل مقصر في الإتباع ولزوم السنة لا سيما أولئك الذين يدعون أنهم يحبون النبي -

1 - أخرجه مسلم في كتاب الأقضية - باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨) (ج ٣ / ص ١٣٤٣).

صلى الله عليه وسلم- فيأتون ببدع ما أنزل الله بها من سلطان، فهذه الآية حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه.

وبالنسبة لكلام الحافظ ابن كثير هنا: "**يتبع الشرع المحمدي**" و "**وليس هو على الطريقة المحمدية**": مثل هذه العبارات الأولى والأحسن أن يقال: الشريعة الإسلامية وما أشبه ذلك، وأما مثل هذه العبارات فقد وجدت في كلام بعض المتأخرين فتجدهم يقولون: الديانة المحمدية، والدين المحمدي، وعلى كل حال هذا الدين هو دين الإسلام، ويسمى بما سماه الله -عز وجل-.

ولهذا قال: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ} أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول.

وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية فقال: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ} [(٣١) سورة آل عمران]

ثم قال تعالى: {وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٣١) سورة آل عمران] **أي: باتباعكم الرسول - صلى الله عليه وسلم- يحصل لكم هذا كله من بركة سفارته.**

ثم قال تعالى آمراً لكل أحد من خاص وعام: {قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ} أي: خالفوا عن أمره، {فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [(٣٢) سورة آل عمران]**، فدلَّ على أن مخالفة في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه يحب الله ويتقرب إليه، حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل ورسول الله إلى جميع الثقلين الجن والإنس الذي لو كان الأنبياء بل المرسلون بل أولوا العزم منهم في زمانه ما وسعهم إلا إتباعه والدخول في طاعته واتباع شريعته، كما سيأتي تقريره عند قوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ} الآية** [(٨١) سورة آل عمران] **إن شاء الله تعالى.**

قوله -تبارك وتعالى-: **{فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}** [(٣٢) سورة آل عمران] هذه الجملة التي ختمت بها الآية، تحتمل أن تكون من جملة مقول القول التي أمر الله -عز وجل- نبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يخاطبهم بها، فيكون على ذلك قوله: **{تَوَلَّوْاْ}** فعلاً مضارعاً حذفت منه إحدى التاءين يعني: تتولوا، يعني أمره أن يقول لهم: إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم، ثم أمره أن يقول لهم: وأطيعوا الله والرسول وإن تتولوا فإن الله لا يحب الكافرين، أي أنه أمره أن يخاطبهم بهذا الخطاب.

ويحتمل أن يكون قوله: **{تَوَلَّوْاْ}** فعلاً ماضياً، فيكون ذلك من قول الله -عز وجل- تعقيباً منه على هذا الخطاب الذي أمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يقوله لهم، يعني يقول: قل لهم يا محمد -صلى الله عليه وسلم-: أطيعوا الله والرسول، فهذا الذي أمره به، ثم قال الله -عز وجل-: **{فإِن تَوَلَّوْاْ}** أي أعرضوا، **{فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}**، فيكون ذلك من الموصول لفظاً المقطوع معنىً، وقد سبق له نظائر، وهذه من وجوه الاحتمال في الآيات من جهة التصريف الذي يحصل بسببه تفاوت المعنى ويختلف بسببه أهل التفسير، فأهل التفسير يختلفون لأمور كثيرة منها ما يرجع إلى التصريف -تصريف اللفظة- مثل هذه اللفظة **{تَوَلَّوْاْ}** هل هي فعل مضارع أم فعل ماضي، وهي مثل قوله تعالى: **{لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا}** [(٢٣٣) سورة البقرة] هل هي

لا تضارِر، أم لا تضارَر؟ وكذلك مثل قوله تعالى: {وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ} [(٢٨٢) سورة البقرة] أيضاً هل هي لا يضارِر أم لا يضارَر؟ بمعنى أنه نهي عن الإضرار به أو أنه نهي عن أن يلحق الضرر بالآخرين؟

وفي قوله –تبارك وتعالى– في نفس الآية: {قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} [(٣٢) سورة آل عمران] يلاحظ، أنه حذف المتعلق وذلك أنه لم يحدد شيئاً معيناً في طاعة الله وطاعة الرسول –صلى الله عليه وسلم– وحذف المتعلق يفيد العموم، فالمقدر هو أطيعوا الله والرسول فيما يأمركم به، وأطيعوا الله والرسول فيما ينهاكم عنه وأطيعوا الله والرسول في الواجبات، وأطيعوا الله والرسول في جميع الأحوال الشخصية والعامة، وأطيعوا الله والرسول في كل الأبواب.

{إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ* ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [(٣٤) سورة آل عمران] يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض، فاصطفى آدم –عليه السلام– خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأسكنه الجنة ثم أهبطه منها؛ لما له في ذلك من الحكمة.

واصطفى نوحاً –عليه السلام– وجعله أول رسول إلى أهل الأرض، لمَّا عبد الناس الأوثان وأشركوا في دين الله ما لم ينزل به سلطاناً، وانتقم له لما طالت مدته بين ظهراني قومه يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً، فلم يزدهم ذلك إلا فراراً، فدعا عليهم فأغرقهم الله عن آخرهم، ولم ينج منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به، واصطفى آل إبراهيم، ومنهم سيد البشر وخاتم الأنبياء على الإطلاق محمد –صلى الله عليه وسلم–.

{وَآلَ عِمْرَانَ} والمراد بعمران هذا هو والد مريم بنت عمران أم عيسى ابن مريم عليهما السلام، فعيسى –عليه السلام– من ذرية إبراهيم –عليه السلام– كما سيأتي بيانه في سورة الأنعام إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

في قوله تعالى: {وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ} [(٣٣) سورة آل عمران] يقول الحافظ ابن كثير –رحمه الله–: يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض، يحتمل أن يكون المقصود بآل إبراهيم وآل عمران هو عمران نفسه، وإبراهيم –صلى الله عليه وسلم– نفسه، وهذا معنىً معروف في القرآن وفي كلام ا لعرب، فإن "آل" قد تطلق ويراد بها نفس الشخص، وقد يراد بها أهله أو من يسبون إليه من قومه الذين هم على دينه وملته أو نحو ذلك، فالله –عز وجل– يقول: {أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [(٤٦) سورة غافر]، فهذه الآية تحتمل هل المقصود أدخلوا فرعون أشد العذاب، أو المقصود إدخال أتباع فرعون والموافقين له على دينه؟ فالآية تحتمل هذا وهذا.

ومن أهل العلم من يقول: المقصود به فرعون، وهنا: {إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا} [(٣٣) سورة آل عمران] فذكر آدم ونوحاً –عليهما الصلاة والسلام– ولم يقل: وآل نوح مع أن نوحاً اتبعه من اتبعه وإن كانوا قلة.

قال: {وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ} هل المقصود به إبراهيم وعمران كما ذكر نوحاً وآدم –عليهما السلام–؟ فهذا تحتمله الآية، أو أن المقصود أوسع وأعم من ذلك كأن يكون المراد أهل الإيمان ممن ينتسبون إليهم، يعني المؤمنين منهم.

وهنا لم يتكلم على قوله: {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا من بَعْضٍ} [(٣٤) سورة آل عمران]، لكن معنى قوله –عز وجل–: {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا من بَعْضٍ} يحتمل أن يكون المراد متناسلة متشعبة، ويمكن أن يكون المراد أي في الإيمان والتوحيد وطاعة الله –عز وجل– والإخلاص له، أي {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ} في الإيمان والعمل والنية والإخلاص والتوحيد، هذا تحتمله الآية.

ويمكن أن يكون المراد بقوله: {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ} [(٣٤) سورة آل عمران] أي في التناصر والموالاة، كما قال الله –عز وجل– عن المنافقين: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ} [(٦٧) سورة التوبة] فالله قال في أهل الإيمان: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ} [(٧١) سورة التوبة] وذكر أهل النفاق فقال: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ} [(٦٧) سورة التوبة]،.

ابن جرير –رحمه الله– يقول: {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ} [(٣٤) سورة آل عمران] يعني في الموالاة في الدين والتناصر فيه، ويضيف إلى ذلك بأن دينهم واحد، وطريقتهم واحدة كما في قوله: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ} [(٦٧) سورة التوبة] فطريقتهم واحدة ودينهم واحد.

{إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [(٣٥-٣٦) سورة آل عمران].

امرأة عمران هذه هي أم مريم –عليها السلام– وهي حنة بنت فاقوذ، قال محمد بن إسحاق: وكانت امرأة لا تحمل.

هذه التسمية مما أخذ من الإسرائيليات، جاء في كلام بعض السلف وهو مما أخذ من بني إسرائيل، وقد أولع قوم بتتبع هذه المبهمات وألف فيها السهيلي كتاباً معروفاً، وجاء البلنسي فأخذ ما فيه وزاد عليه كثيراً، ولكنه لا طائل تحته في أغلب المواضع.

فرأت يوماً طائراً يزق فرخه فاشتهت الولد فدعت الله تعالى أن يهبها ولداً، فاستجاب الله دعاءها فواقعها زوجها فحملت منه، فلما تحققت الحمل نذرت أن يكون محرراً، أي: خالصاً مفرغاً للعبادة ولخدمة بيت المقدس.

هذا الذي عليه عامة المفسرين من السلف والخلف وهو اختيار ابن جرير، وما عداه فشاذ، وهذا أحسن ما يفسر به هذا، ولا ينبغي بحال أن يقال: بأنه محرر يعني من الرق والعبودية الحقيقية؛ لأنهم أحرار وما ولد منهم وتناسل فإن له حكمهم، فهذا هو القول الذي لا ينبغي العدول عنه، وهو أن المقصود بالمحرر: أي الذي يكون مفرغاً للعبادة ليس عليه التزامات وواجبات يقوم بها ويشتغل بها عن عبادة الله –تبارك وتعالى–، وإنما هو مفرغ لهذا فقط، فتجعله لبيت المقدس مثلاً ليقوم بالتعبد ويتفرغ لذلك، وكان ذلك جائزاً في دينهم، وهو الانقطاع للعبادة، فليس له عمل آخر، لا يشتغل في الأسواق ولا يذهب ولا يتزوج.

فقالت: {رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [(٣٥) سورة آل عمران] أي: السميع لدعائي العليم بنيتي.

ولم تكن تعلم ما في بطنها أذكراً أم أنثى {فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى} [(٣٦) سورة آل عمران].

قوله: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} بضمير الغائب هذه قراءة الجمهور، والقراءة الثانية قراءة ابن عامر وأبي بكر، وهي قراءة متواترة: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} بضمير المتكلم، وعلى هذا يلاحظ افتراق المعنى، فعلى القراءة الأولى تكون هذه جملة اعتراضية من كلام الله -عز وجل- وسط كلامها، فهي تقول: {إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى} [(٣٦) سورة آل عمران]، فجاءت جملة اعتراضية من كلام الله: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} ثم يأتي كلاماً آخر بعده يحتمل أن يكون من كلامها وهو: {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى} [(٣٦) سورة آل عمران] فهذه الجملة يحتمل أن تكون من كلامها ليكون كلام الله فقط هو قوله: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} [(٣٦) سورة آل عمران]، ويحتمل أن تكون هذه الجملة من كلام الله أي أنه يقول: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى} [(٣٦) سورة آل عمران]، وقوله تعالى: {وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ} [(٣٦) سورة آل عمران] هذا من كلامها قطعاً، فتبقى الجملة الاعتراضية هل هي فقط: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} [(٣٦) سورة آل عمران]، أو أنها أطول من هذا: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى} [(٣٦) سورة آل عمران].

وقوله على القراءة الثانية: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى} [(٣٦) سورة آل عمران] يكون كله من كلامها، وعلى القراءة الأولى: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} [(٣٦) سورة آل عمران]، هذه الجملة الاعتراضية المتبادر أن هذا التعقيب في غاية المناسبة هنا، {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} [(٣٦) سورة آل عمران]؛ باعتبار أنها أخبرت أنها وضعتها أنثى، فالله -عز وجل- لم يزد في علمه من هذا الإخبار شيء، فعلمه هو هو.

ومن أهل العلم من يقول: إن قوله: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} [(٣٦) سورة آل عمران] جاء على سبيل التعظيم والتفخيم لشأن هذا المولود، فهي كأنها تقول: إن هذه البنت لا تستطيع أن تقوم بما يقوم به الذكر من عبادة الله -عز وجل-؛ لأنه يعتورها ما يعتورها مما يمنعها من الصلاة وما إلى ذلك، فقال: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} [(٣٦) سورة آل عمران] أي أن هذه البنت لها شأن عظيم وسيولد منها مولود يكون آية للعالمين، ويفترق بسببه بنو إسرائيل إلى مؤمنين وكفار، وسيكون أهل الإيمان لهم العلو والرفعة، فيكونون فوق الذين كفروا من الإسرائيليين.

وعلى كل حال هذا قال به جماعة من أهل العلم، والمتبادر والله أعلم أن ذلك جاء تعقيباً على إخبارها لدفع التوهم؛ لأن الاعتراض أو التعقيب يأتي في القرآن أحياناً لدفع توهم أو إجابة سؤال قد يرد، فهنا لما قالت: {إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى} [(٣٦) سورة آل عمران] كأنها تخبر ربها -تبارك وتعالى- وهو العالم بكل شيء فقال: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} [(٣٦) سورة آل عمران].

وقولها: {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى} [(٣٦) سورة آل عمران]، قيل: لأن النذر في شريعتهم في من نذر ولداً لم يكن يقبل منه إلا الذكر فقط، فلما وضعت البنت قالت ما قالت، ويمكن أن يكون {وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى} -وهو المتبادر والله أعلم- أنه ليس الذكر كالأنثى، فالذكر يقوم بأمور لا تقوم بها المرأة، وهو أقوى منها على العبادة والعمل.

{وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى} أي: **في القوة والجلد في العبادة وخدمة المسجد الأقصى.**

{وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ} [(٣٦) سورة آل عمران] **فيه الدلالة على جواز التسمية يوم الولادة.**

يقولون –والله أعلم بهذا–: إن معنى مريم في لغتهم، يعني خادمة الرب، أو خادم الرب.

وهذا المعنى الذي استنبطه الحافظ ابن كثير –رحمه الله–: **{وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ}** [(٣٦) سورة آل عمران] معنىً صحيحاً ويدل عليه أيضاً أدلة من السنة، حيث يسمى المولود يوم الولادة ويمكن أن يسمى في اليوم السابع كما دلت السنة على ذلك أيضاً.

فيه دلالة على جواز التسمية يوم الولادة، كما هو الظاهر من السياق؛ لأنه شرع من قبلنا.

هذا باعتبار أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد في شرعنا ما ينسخه، وقد جاء في شرعنا ما يقرره، حيث سمى النبي –صلى الله عليه وسلم– ابنه إبراهيم حين ولد كما جاء في الصحيحين، وكذلك سمى غيره كأخي أنس سماه عبد الله، وغير هؤلاء ممن سماهم النبي –صلى الله عليه وسلم–، حينما جيء بهم بعد الولادة.

وقد حُكي مقرراً، وبذلك ثبتت السنة عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حيث قال: ((ولد لي الليلة ولد سميته باسم أبي إبراهيم)) [أخرجاه][٢].

وكذلك ثبت فيهما أن أنس بن مالك –رضي الله تعالى عنه– ذهب بأخيه حين ولدته أمُّه إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فحنَّكه وسماه عبد الله، وكذلك ثبتت تسميت الآخرين يوم الولادة.

فأما حديث قتادة عن الحسن البصري عن سمرة بن جندب –رضي الله تعالى عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: ((كل غلام رهين بعقيقته يذبح عنه يوم سابعه ويسمى ويحلق رأسه))[٣] فقد رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي بهذا اللفظ، ويروى ((ويدمى))[٤] وهو أثبت وأحفظ، والله أعلم.

يقول: ويدمى، وقال: وهو أثبت، وهذا غريب أن الحافظ ابن كثير –رحمه الله– يرى أن ((ويدمى)) أحفظ وأثبت من ويسمَّى، مع أن هذه الرواية ردَّها كثير من الحفاظ ومنهم أبو داود –رحمه الله– لما أخرجه في السنن عقبه بما يدل على هذا.

ومعنى يدمى: أي أنه حينما يعق عنه يؤخذ من صوف العقيقة وتوضع على أوداج الذبيحة حينما تذبح فيصيبها الدم، ثم بعد ذلك تجعل فوق رأسه بحيث يسيل الدم منها كالخيط، فيصيب رأسه على يافوخه، ويصيبه الدم على كل حال.

وبعض أهل العلم يرى أن هذا من علم أهل الجاهلية، وأنه لا يجوز، وبعضهم أثبته بناء على هذه الرواية، إلا أن أكثر أهل العلم على أن ذلك لا يشرع ولا يجوز وأن الرواية المحفوظة ((ويسمَّى)).

وابن القيم –رحمه– ذكر كلام أهل العلم في هذه المسألة، ويمكن يكون من المفيد قراءته.

---

2 – أخرجه مسلم في كتاب الفضائل – باب رحمته صلى الله عليه وسلم الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك (٢٣١٥) (ج ٤ / ص ١٨٠٧).

3 – أخرجه البخاري في كتاب العقيقة – باب إماطة الأذى عن الصبي في العقيقة (٥١٥٥) (ج ٥ / ص ٢٠٨٣) وأبو داود في كتاب الضحايا– باب في العقيقة (٢٨٣٩) (ج ٣ / ص ٦٥).

4 – مسند أحمد (٢٠٢٦٩) (ج ٥ / ص ٢٢) وسنن أبي داود في كتاب الضحايا – باب في العقيقة (٢٨٣٩) (ج ٣ / ص ٦٥) قال أبو داود وليس يؤخذ بهذا.

وسماع الحسن عن سمرة فيه كلام أنه لم يسمع منه لكنه يستثنى من ذلك حديث العقيقة هذا، مثل حديث سكتات الإمام فهو من رواية الحسن عن سمرة وضعف بأنه لم يسمع منه.

الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله، قال الحافظ ابن القيم –رحمه الله تعالى–:

الفصل الثالث في أدلة الاستحباب:

فأما أهل الحديث قاطبة وفقهاؤهم وجمهور أهل العلم فقالوا: هي من سنة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– واحتجوا على ذلك بما رواه البخاري في صحيحه قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((مع الغلام عقيقة فأهريقوا عنه دماً وأميطوا عنه الأذى))[٥].

هو الآن يتكلم على العقيقة وليس على التدمية.

وعن سمرة قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((كل غلام رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه ويسمى فيه ويحلق رأسه))[٦] [رواه أهل السنن كلهم، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح].

معنى الرهينة في قوله: ((مرتهن بعقيقته))، قيل: يكون ذلك انعتاقاً له من الشيطان، وعلى ذلك إذا مات فإنه لا يعق عنه.

وبعضهم يقول كالإمام أحمد –رحمه الله–: إن ذلك يكون حبساً له عن الشفاعة لأبويه إذا ما عق عنه، ومعنى ذلك إذا مات حين ولادته فإنه يعق عنه لتحصيل هذا المعنى في الآخرة، هذا سبب الخلاف، فربما يحتمل هذا وهذا، والأحوط أن يعق عنه، لكن هذا مأخذ الخلاف في المسألة، هل يعق عنه إذا مات أم لا.

فإذا قلنا انعتاق له من الشيطان فإذا مات فلا عقيقة، وإذا قلنا: إنه يشفع فإن ذلك لا يتخلف بموته في حال الصغر، وكذا إذا ولد ميتاً بعد نفخ الروح، فقد ثبت عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه يشفع، فأحكام العقيقة وما يتعلق بذلك من الميراث وما أشبه هذا يقولون: إذا استهل صارخاً بعد خروجه حياً ثبتت له، لكن إذا خرج ميتاً، فإنها لا تجري عليه أحكام المولود، لا عقيقة ولا ميراث، وأما الشفاعة فهي ثابتة بأحاديث أخرى.

وعن عائشة قالت: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((عن الغلام شاتان مكافئتان وعن الجارية شاة))[٧].

قوله: ((**مكافئتان**)) يعني يكون بينهما شبه في الحجم والهيئة الظاهرة واللون والقرون، تكون إحداهما مشابهة للأخرى، في سعرها وفي السمن والهيئة الظاهرة.

رواه الإمام أحمد والترمذي وقال: حديث صحيح، وفي لفظ: أمرنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أن نعق عن الجارية شاة وعن الغلام شاتين [رواه الإمام أحمد في مسنده].

---

[5] – أخرجه البخاري في كتاب العقيقة – باب إماطة الأذى عن الصبي في العقيقة (٥١٥٤) (ج ٥ / ص ٢٠٨٢).

[6] – أخرجه البخاري في كتاب العقيقة – باب إماطة الأذى عن الصبي في العقيقة (٥١٥٥) (ج ٥ / ص ٢٠٨٣).

[7] – أخرجه أبو داود في كتاب الضحايا – باب في العقيقة (٢٨٣٦) (ج ٣ / ص ٦٤) والترمذي في كتاب الأضاحي – باب ما جاء في العقيقة (١٥١٣) (ج ٤ / ص ٩٦) وابن ماجه في كتاب الذبائح – باب العقيقة (٣١٦٢) (ج ٢ / ص ١٠٥٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤١٠٥).

وعن أم كرز الكعبية أنها سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن العقيقة، فقال: ((عن الغلام شاتان وعن الأنثى واحدة ولا يضركم ذكراناً كن أو إناثاً)) [رواه الإمام أحمد والترمذي، وقال: هذا حديث صحيح][8].

وقال الضحاك بن مخلد: أنبأنا أبو حفص سالم بن تميم عن أبيه عن عبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن اليهود تعق عن الغلام ولا تعق عن الجارية فعقوا عن الغلام شاتين وعن الجارية شاة)) [ذكره البيهقي].

وعن ابن عباس أن رسول -صلى الله عليه وسلم- عق عن الحسن والحسين كبشاً كبشاً، رواه أبو داود والنسائي، ولفظ النسائي: بكبشين كبشين.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمر بتسمية المولود يوم سابعه ووضع الأذى عنه والعق. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وعن بريدة الأسلمي قال: كنا في الجاهلية إذا ولد لأحدنا غلام ذبح شاة ولطخ رأسه بدمها فلما جاء الله بالإسلام كنا نذبح شاة ونحلق رأسه ونلطخه بزعفران. [رواه أبو داود].

وروى ابن المنكدر من حديث يحيى بن يحيى أنبأنا هشيم عن عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه: أنا أبا بكرة ولد له ابنه عبد الرحمن وكان أول مولود ولد بالبصرة، فنحر عنه جزوراً، فاطعم أهل البصرة، وأنكر بعضهم ذلك، وقال: أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بشاتين عن الغلام وعن الجارية بشاة.

لا يشرع في العقيقة أن تكون من البقر أو الإبل، والنبي -صلى الله عليه وسلم- من فعله ومن أمر ذكر الشاة ولم يذكر غيرها، وهذا بخلاف الهدي فالأفضل فيه الإبل.

وعن الحسن عن سمرة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال في العقيقة: ((كل غلام مرتهن بعقيقته تذبح عنه يوم سابعة ويحلق ويدمى))[9].

قال: إذا ذبحت العقيقة أخذت منها صوفة واستقبلت بها أوداجها، ثم توضع على يافوخ الصبي حتى يسيل على رأسه مثل الخيط، ثم يغسل رأسه ويحلق، قال أبو داود: وهذا وهم من همام بن يحيى يعني: ويدمى، ثم ساقه من طريق أخرى، قال: ((كل غلام رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه ويسمى))[10]، قال أبو داود: ويسمى أصح، وأخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجة، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وهذا الحديث قد سمعه الحسن من سمرة، فذكره البخاري في صحيحه عن الحبيب بن الشهيد، قال: قال لي ابن سيرين سئل الحسن ممن سمع حديث العقيقة، فسألته فقال: من سمرة بن جندب.

وقد ذكر الترمذي عن سلمان بن شرحبيل: حدثنا يحيى بن حمزة قال: قلت لعطاء الخرساني ما مرتهن بعقيقته؟ قال: يحرم شفاعة ولده، وقال إسحاق بن هانئ: سألت أبا عبد الله عن حديث النبي -صلى الله

---

8 - أخرجه الترمذي في كتاب الأضاحي - الأذان في أذن المولود (١٥١٦) (ج ٤ / ص ٩٨) والنسائي في كتاب العقيقة - باب كم يعق عن الجارية (٤٢١٧) (ج ٧ / ص ١٦٥) وصححه الألباني في المشكاة برقم (٤١٥٢).

9 - أخرجه أحمد بهذا اللفظ (٢٠٢٠٦) (ج ٥ / ص ١٧)

10 - سنن ابن ماجه في كتاب الذبائح - باب العقيقة (٣١٦٥) (ج ٢ / ص ١٠٥٦) وصحيح ابن ماجه للألباني برقم (٣١٦٥).

عليه وسلم-: ((الغلام مرتهن بعقيقته)) ما معناه؟ قال: نعم، سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يعق عن الغلام شاتان وعن الجارية شاة، فإذا لم يعق عنه فهو محتبس بعقيقته حتى يعق عنه.

وقال الأثرم: قال أبو عبد الله: ما في هذه الأحاديث أوكد من هذا، يعني في العقيقة: ((كل غلام مرتهن بعقيقته))[11].

قوله: "**ما في هذه الأحاديث أوكد من هذا**": يقصد من ناحية الدلالة على أكدية العقيقة، هل هي واجبة؟ يقول: هذا أشد شيء في العقيقة أي قوله: ((مرتهن بعقيقته))؛ لأنه توقف في مسألة الوجوب، فيقول: هذا آكد ما ورد فيها، أي أقوى ما ورد فيها.

وقال يعقوب بن بختان سئل أبو عبد الله عن العقيقة، فقال: ما أعلم فيه شيئاً أشد من هذا الحديث: ((الغلام مرتهن بعقيقته)).

وقال حنبل: قال أبو عبد الله: ولا أحب لمن أمكنه وقدر أن لا يعق عن ولده ولا يدعه؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الغلام مرتهن بعقيقته))، وهو أشد ما روي فيه، وإنما كره النبي -صلى الله عليه وسلم- من ذلك الاسم، فأما الذبح فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قد فعل ذلك.

بعضهم قال: نفس العقيقة من عمل الجاهلية وأنه لا يشرع، فأنكر الإمام أحمد على هؤلاء، فهو هنا يقول: الاسم فقط هو الذي يكره؛ لأن فيه معنى العقوق.

وقال أحمد بن القاسم: قيل لأبي عبد الله العقيقة واجبة هي؟ فقال: أما واجبة فلا أدري، لا أقول واجبة، ثم قال: أشد شيء فيه: أن الرجل مرتهن بعقيقته، وقد قال أحمد في موضع آخر: مرتهن عن الشفاعة لوالديه.

وأما قوله: ويدمى، فقد اختلف في هذه اللفظة، فرواها همام عن يحيى عن قتادة فقال: ويدمى، وفسرها قتادة بما تقدم حكايته، وخالفه في ذلك أكثر أهل العلم، وقالوا: هذا من فعل أهل الجاهلية، وكرهه الزهري ومالك والشافعي وأحمد وإسحاق.

قال أحمد: أكره أن يدمى رأس الصبي، هذا من فعل الجاهلية، وقال عبد الله بن أحمد: سألت أبي عن العقيقة تذبح ويدمى رأس الصبي أو الجارية؟ فقال أبي: لا يدمى، وقال الخلال: أخبرني العباس بن أحمد أن أبا عبد الله سئل عن تلطيخ رأس الصبي بالدم؟ فقال: لا أحبه إنه من فعل الجاهلية، قيل له: فإن هماماً كان يقول: يدميه، فذكر أبو عبد الله عن رجل قال: كان يقول: يسميه، ولا أحب قول همام في هذا.

وأخبرنا أحمد هاشم الأنطاكي قال أحمد: اختلف همام وسعيد في العقيقة، قال أحدهما: يدمى، وقال الآخر: يسمى، وعن أحمد رواية أخرى: أن التدمية سنة.

قال الخلال: أخبرني عصبة بن عصام قال: حدثنا حنبل، قال: سمعت أبا عبد الله في الصبي يدمى رأسه، قال: هذه سنة ومذهبه الذي رواه عنه كافة أصحابه الكراهية.

---

[11] - سبق تخريجه.

قال الخلال: وأخبرني عصبة بن عصام في موضع آخر: حدثنا حنبل قال: سمعت أبا عبد الله يقول: يحلق رأس الصبي. وأخبرني محمد بن علي حدثنا صالح وأنبأنا أحمد بن محمد بن حازم حدثنا إسحاق كلهم يذكر عن أبي عبد الله قال: الدم مكروه، لم يروه إلا في حديث سمرة.

أخبرني محمد بن الحسين أن الفضل حدثهم أنه قال لأبي عبد الله: فيحلق رأسه؟ قال: نعم، قلت: فيدمى؟ قال: لا، هذا من فعل الجاهلية، قلت: فحديث قتادة عن الحسن كيف هو ويدمى؟ قال: أما همام فيقول: ويدمى، وأما سعيد فيقول: ويسمى.

وقال في رواية الأثرم قال ابن أبي عروبة: يسمى وقال همام: ويدمى، وما أراه إلا خطأً.

وقد قال أبو عبد الله بن ماجه في سننه: حدثنا يعقوب بن حميد بن كاسب حدثنا عبد الله بن وهب حدثني عمرو بن الحارث عن أيوب بن موسى أنه حدثه عن يزيد بن عبد الله المزني أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: ((يعق عن الغلام ولا يمس رأسه بدم))[12]، وقد تقدم حديث بريدة: كنا في الجاهلية إذا ولد لأحدنا غلام ذبح شاة ولطخ رأسه بدمها، فلما جاء الإسلام كنا نذبح شاة ونحلق رأسه ونلطخه بزعفران.

وقد روى البيهقي وغيره من حديث ابن جريج عن يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة قالت: كان أهل الجاهلية يجعلون قطنة في دم العقيقة ويجعلونه على رأس الصبي، فأمر النبي –صلى الله عليه وسلم– أن يجعل مكان الدم خلوقاً.

قال ابن المنذر: ثبت أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((أهريقوا عليه دماً وأميطوا عنه الأذى))[13]، والدم أذى، فإذا كان النبي –صلى الله عليه وسلم– قد أمرنا بإماطة الأذى، الدم أذى وهو من أكبر الأذى، فغير جائز أن ينجس رأس الصبي بالدم.

الدم الذي يخرج من أوداج الذبيحة وهي تذبح هو الدم المسفوح النجس، قال تعالى: **{أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ}** [(١٤٥) سورة الأنعام] يعني نجس.

يقول ابن كثير:

وقوله: إخباراً عن أم مريم أنها قالت: {وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [(٣٦) سورة آل عمران]، أي عوذتها بالله –عز وجل– من شر الشيطان، وعوذت ذريتها وهو ولدها عيسى –عليه السلام– فاستجاب الله لها ذلك.

أصل المعاذ هو الملجأ والموئل، فقوله: **{وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا}** كما تقول: أعوذ بالله: أي ألجأ إليه وألوذ به وأعتصم به من الشيطان الرجيم.

كما روى عبد الرزاق عن أبي هريرة –رضي الله تعالى عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : ((ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مسه إياه إلا مريم وابنها)) ثم يقول

---

12 – أخرجه ابن ماجه في كتاب الذبائح – باب العقيقة (٣١٦٦) (ج ٢ / ص ١٠٥٧) وهو في صحيح ابن ماجه للألباني برقم (٣١٦٦).

13 – سبق تخريجه في الحاشية رقم (٥).

أبو هريرة -رضي الله تعالى عنه-: اقرؤوا إن شئتم: {وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [(٣٦) سورة آل عمران] [أخرجاه][١٤].

---

[14] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة آل عمران (٤٢٧٤) (ج ٤ / ص ١٦٥٥) ومسلم في كتاب الفضائل - باب فضائل عيسى عليه السلام (٢٣٦٦) (ج ٤ / ص ١٨٣٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ} [(٣٧) سورة آل عمران].

يخبر ربنا أنه تقبلها من أمها نذيرة، وأنه {وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا} أي: جعلها شكلاً مليحاً ومنظراً بهيجاً، ويسر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده، تتعلم منهم الخير والعلم والدين.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا} هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- جمع فيه بين معنيين: المعنى الأول: ما يتعلق بالجسد، والمعنى الثاني: ما يتعلق بالنفس.

أما ما يتعلق بالجسد فذكره فيه المنظر البهيج والشكل المليح، وأما ما يتعلق بالنفس فذكر القبول، حيث جعل لها القبول ويسر لها ما يسر من العلم وأسباب تحصيله والصلاح، وما تعلو به مرتبتها في الدنيا والآخرة، وذلك بالاستقامة على طاعة الله -تبارك وتعالى-، فجمع بين المعنيين؛ وذلك أن من أهل العلم من راعى، أو من ذهب إلى الجانب الأول، كقول من يقول: بأن أبنتها نباتاً حسناً أي سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان، ومنهم من لا حظ المعنى الثاني فأعاد ذلك إلى حسن التربية وما يعود إليها بصلاح الحال، وإلى الأول جنح ابن جرير -رحمه الله-، فهو يفسر ذلك بإنباتها في غذائه وفي رزقه حتى اكتملت وتمت.

وعلى كل حال لا زال الناس يستعلمون هذا في دعائهم وكلامهم، يقول: أنبتك الله نباتاً حسناً، ويقصدون به غالباً ما يرجع إلى الجسد، وما يرجع أيضاً إلى النفس، والله أعلم.

{وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا} أي جعله كافلاً لها.

قوله: "**أي جعله كافلاً لها**": أي أن الله تعالى جعل زكريا كافلاً لها، وهذه القراءة هي قراءة الكوفيين أيضاً، وفي القراءة الأخرى {وَكَفَّلَهَا} بتخفيف الفاء في غير قراءة الكوفيين، وذلك أنهم لما استهموا وقع السهم له فكفلها وضمها إليه، وهذا معنى كفلها أي: ضمها إليه ليقوم برعايتها وحفظها وتعاهدها.

وإنما قدر الله كون زكريا كافلاً لسعادتها لتقتبس منه علماً جمًّا نافعاً وعملاً صالحاً؛ ولأنه كان زوج خالتها على ما ذكره ابن إسحاق وابن جرير وغيرها، وقيل: زوج أختها كما ورد في الصحيح: ((فإذا بيحيى وعيسى وهما ابنا الخالة))[1].

---

1 - أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة - باب المعراج (٣٦٧٤) (ج ٣ / ص ١٤١٠).

قوله: ((وهما ابنا الخالة)) يعني أن أم عيسى وأم يحيى أخوات، فعلى هذا يكون زكريا زوجاً لأختها، ولكن هذا الحديث في الدلالة على هذا المعنى ليس بقاطع، وذلك أن الخالة تطلق على أخت الأم كما تطلق على الخالة فوقها، بمعنى أن أخت الجدة يقال لها: خالة أيضاً، فيحتمل أن يكون المراد به هذا أو هذا، والله تعالى أعلم.

وقد يطلق على ما ذكره ابن إسحاق ذلك أيضاً توسعاً، فعلى هذا كانت في حضانة خالتها، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قضى في عمارة بنت حمزة أن تكون في حضانة خالتها امرأة جعفر بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- وقال: ((الخالة بمنزلة الأم))[٢].

ثم أخبر تعالى عن سيادتها وجلالتها في محل عبادتها، فقال: {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً}، قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو الشعثاء وإبراهيم النخعي والضحاك وقتادة والربيع بن أنس وعطية العوفي والسدي: يعني وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف.

المحراب في قوله: **{كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ}** هو أشرف المجالس، أو هو صدرها وأرفعها وأشرفها والمقدم فيها فإذا كان ذلك في المجالس فهو كما ذكر، وإذا كان في المساجد فهو أشرف بقعة فيها وهي المقدمة فيها، وهذه هي المحاريب، كل مقدمة في مصلى أو مجلس فهو محراب، وهو سيد المجالس، أشرف المجالس يقال له: محراب هذا أصله في كلام العرب، فإذا كان في المساجد فهو المقدم فيها وأشرفها.

فإذا زكريا هذا عندها قال: {يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا} أي يقول: من أين لك هذا، {قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ} [(٣٧) سورة آل عمران].

قوله تعالى: **{إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ}** بعد أن ذكر قولها: **{قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ}**، يحتمل أن يكون من تمام كلام مريم في جوابها على زكريا، **{قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ}**، ويحتمل أن يكون من كلام الله -عز وجل- تعقيباً على ذلك وتأكيداً وتقريراً له، وهذا الذي ذهب إليه كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- فالآية تحتمل هذا وهذا.

وعلى الثاني -أنه من كلام الله- يكون من الموصول لفظاً المقطوع معنىً، يعني أنه كلام واحد متصل في ظاهره، لكنه من متكلمَين.

وبعضهم يقول: إنه من كلام زكريا، لكن هذا في غاية البعد؛ لأنه لا يوجد ما يدل عليه، وليس في السياق ما يرجحه، فلا يوجد عليه قرينة ولا دليل.

{هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء* فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ* قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاء* قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ} [(٣٨-٤١) سورة آل

---

2 - أخرجه البخاري في كتاب الصلح - باب كيف يكتب هذا ما صالح فلان بن فلان وفلان بن فلان وإن لم ينسبه إلى قبيلته أو نسبه (٢٥٥٢) (ج ٢ / ص ٩٦٠).

عمران] لما رأى زكريا -عليه السلام- أن الله يرزق مريم -عليها السلام- فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء طمع حينئذ في الولد.

{هُنَالِكَ} من قوله -عز وجل-: **{هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ}** ظرف يستعمل للزمان وللمكان، فيمكن أن يكون المعنى هنالك، أي في ذلك الحين دعا ربه بهذا الدعاء، أو يكون للمكان بمعنى في ذلك المكان وهو قائم عند مريم حينما شاهد فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء دعا ربه بهذا الدعاء، فالآية تحتمل هذا وهذا.

وقول ابن كثير -رحمه الله-: "**لما رأى زكريا -عليه السلام- أن الله يرزق مريم -عليها السلام-**...الخ": يكون هذا هو المقصود بقوله: **{هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ}** أي: لما رأى مظهراً من مظاهر قدرة الله -عز وجل- بهذا الإفضال والإنعام والرزق دعا هذا الدعاء حيث حرك نفسه وانبعث فيها التطلع إلى شيء من فضل الله -عز وجل- الذي هو بحاجة إليه، وهو الولد دعا حينئذ ربه.

ويحتمل أن يكون أنه حينما رأى قدرة الله -عز وجل- حيث رزقت امرأة عمران بهذه البنت، **{إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}** [(٣٥) سورة آل عمران]، فرأى هذه البنت وما هي عليه من الصلاح وحسن الحال، وما أنبتها الله -عز وجل- به من الإنبات الحسن، دعا ربه أن يرزقه بالولد.

والأول أقرب والله تعالى أعلم؛ لأنه هو المذكور قبله، **{كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً}** [(٣٧) سورة آل عمران] فلما رأى هذا المظهر من مظاهر قدرة الله -تبارك وتعالى- دعا ربه أن يرزقه الولد مع تخلف سببه.

طمع حينئذ في الولد، وكان شيخاً كبيراً قد وهن منه العظم واشتعل رأسه شيباً، وكانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقراً، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداء خفياً

يعني هو كما قال الله -عز وجل- في سورة مريم: **{وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا}** [(٨) سورة مريم]، والعتي هو الذي بلغ من الكبر غايته، وذلك أن أصل العتي بالنسبة للإنسان الكبير هو ما يحصل له من الجفاف واليبَس في العظام والمفاصل والتقحل في البدن، فالإنسان مثل النبات أو الشجرة تبدأ صغيرة ثم بعد ذلك تكتمل ثم بعد ذلك تبدأ بالضعف والتقحل، ويؤثر ذلك في ثمرتها وفي هيئتها وما إلى ذلك، فهذا هو المراد والله أعلم بقوله: **{وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا}** [(٨) سورة مريم]، فالهرم سبب مانع لوجود الولد، وقد كان زكريا كبيراً جداً حتى قيل: إنه بلغ مائة وعشرين سنة، والأمر الآخر من جهة امرأته وهو أنها عاقر، والعاقر هي التي لا تلد، وقد بيّن الله -عز وجل- أن ذلك لم يكن بسبب كبرها فحسب، كانت كبيرة أيضاً، وإنما كان ذلك وصفاً ملازماً لها منذ شبابها، وذلك لقوله: **{وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا}** [(٥) سورة مريم] فهذا يدل على اتصافها بذلك، وملازمة هذه الصفة لها من أولها، كما تقول: **{وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا}** [(٩٦) سورة النساء] قال: **{وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا}** [(٥) سورة مريم].

فالحاصل أنه دعا ربه **{قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً}** [(٣٨) سورة آل عمران] مع تعذر هذا في العادة لا على قدرة الله -عز وجل-، وقد بشر الله -عز وجل- إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- بالولد وقد تقادم به

العمر، وامرأته كانت أيضاً عقيمة وكبيرة، ولهذا أقبلت في صيحة من هو المفاجأة، وصاحت {قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ} [(٧٢) سورة هود]، وهذا التعجب الذي جاء مفسرا هذا التفسير في قصة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- هو المراد هنا، والله تعالى أعلم، بقول زكريا -صلى الله عليه وسلم-: {أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ} [(٤٠) سورة آل عمران] فهو يتساءل ويتعجب؛ لأن ذلك مستبعد بطريق العادة لا سيما مع وجود المانعَين من جهته ومن جهة امرأته.

وهذا القول أحسن من قول بعضهم: إن هذا التساؤل من زكريا قصد به هل يرزق هذا الولد الذي بشر به من هذه المرأة العاقر أو من غيرها؛ إذ لا حاجة لهذا القول؛ لأن هؤلاء إنما بنوا قولهم على أمر وهو أنهم أرادوا يستبعدوا استبعاده، فقالوا: كيف يستبعد الولد وهو يعلم أن قدرة الله -عز وجل- فوق كل شيء، ولكن الصواب أن ذلك كان كما قالت امرأة إبراهيم: {أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا}، ولهذا قال بعض أهل العلم: إنه قال ذلك استعظاماً لقدرة الله -عز وجل- {أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ} [(٤٠) سورة آل عمران].

وبعضهم يقول: إنه يتساءل يقول: بأي شيء أستوجب هذا الولد، وامرأتي على هذه الحال؟ وعلى كل حال الآية لا إشكال فيها، فإن هذا لم يكن في مجاري العادات فلما بشر به قال ذلك تعجباً مع أنه يعلم أن الله على كل شيء قدير، فأنت حينما تبشر الإنسان بأمر سيحصل له، يتساءل مثل هذا التساؤل، ويتعجب مثل هذا التعجب مع إيقانه به إذا كان واثقاً بالمخبر، كأن لإنسان فقير مثلاً: ستكون زكواتك مثلاً كافية لأهل البلد أو نحو ذلك، فهو يقول: أنى يكون ذلك وأنا الآن لا أجد ما أقتات به!! فإذا كان يقول ذلك مستبعداً لوقوعه أصلاً، شاكاً في الخبر فهذا شأن، لكن إذا كان واثقاً من المخبر كأن يخبره نبي مثلاً بهذا أو نحو ذلك، فإنه لا يقوله استبعاداً على قدرة الله -عز وجل- فالإنسان يصدر منه مثل هذا، فهو بحسب حاله، ووثوقه بالمخبر.

لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداء خفياً وقال: {رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ}: أي من عندك {ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً} أي: ولداً صالحاً {إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء} [(٣٨) سورة آل عمران].

الذرية هي النسل وتطلق على الواحد وعلى الجمع، والمراد به هنا الواحد؛ بدليل قوله في الآية الأخرى: {فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ} [(٥-٦) سورة مريم]، فهو سأل واحداً يكون وارثاً له.

قال تعالى: {فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ} [(٣٩) سورة آل عمران] أي خاطبته الملائكة شفاهاً خطاباً أسمعته، وهو قائم يصلي في محراب عبادته، ومحل خلوته، ومجلس مناجاته وصلاته.

قوله تعالى: {فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ} على قراءة حمزة والكسائي: (فناداه الملائكة)، وكثير من أهل العلم من السلف فمن بعدهم يقولون: إن المقصود بالذي ناداه هو ملك واحد، وهو جبريل -عليه الصلاة والسلام-، وهو الموكل بالوحي، فيكون بهذا الاعتبار، يكون من العام المراد به الخصوص، كقوله تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ} [(١٧٣) سورة آل عمران] فالقائل واحد والمقول له واحد، ولهذا فالأصوليون يذكرون هذه الآية، في جملة الأمثلة التي يذكرونها على العام المراد به الخصوص، حيث يقولون: {فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ}، أي: جبريل، لكن ليس هذا محل اتفاق؛ لأن من أهل العلم من يقول: إنه محمول على ظاهره وهو الجمع الحقيقي، أي جمع من الملائكة بشروه وأخبروه بهذه البشارة.

ثم أخبر تعالى عما بشرته به الملائكة: {أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى} [(٣٩) سورة آل عمران] أي: **بولد يوجد لك من صلبك اسمه يحيى، قال قتادة وغيره: إنما سمي يحيى؛ لأن الله أحياه بالإيمان.**

هذا قاله كثير من السلف غير قتادة أيضاً، ولكن الاسم هذا هل هو اسم عربي أو اسم أعجمي أو أنه معرب؟ فإذا قلنا: إنه ليس من الأسماء العربية أصلاً فلا مجال لتفسيره بهذه الطريقة، على أنه من كلام العرب، وعلى كل حال الله –عز وجل– سماه يحيى وأخبر أن هذا الاسم مبتكر، بمعنى أنه ليس له سمي، لم يسمَّ به أحد قبله كما قال تعالى: **{لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا}** [(٧) سورة مريم].

وقوله: {مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ} [(٣٩) سورة آل عمران] **روى العوفي وغيره عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– وقال الحسن وقتادة وعكرمة ومجاهد وأبو الشعثاء والسدي والربيع بن أنس والضحاك وغيره في هذه الآية: {مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ} أي: بعيسى بن مريم.**

قوله: **{مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ}** [(٣٩) سورة آل عمران] أي بعيسى بن مريم، هذا التفسير قاله كثير من السلف، وكلمات الله –تبارك وتعالى– شرعية وكونية، فعيسى –صلى الله عليه وسلم– إنما وجد وخلق بكلمة الله –عز وجل– الكونية، فالله –تبارك وتعالى– إذا أراد شيئاً قال له: كن، فأطلقت الكلمة على ما تكوَّن وخلق بها عيسى، وأطلق عليه كلمة من باب إطلاق السبب على المسبب، أي سمي عيسى كلمة لأنه وجد بسبب الكلمة من غير أب، فالمسبَب عيسى –صلى الله عليه وسلم– والسبب الكلمة، فلما سمي بذلك، قيل له كلمة، أي صار ذلك من باب إطلاق السبب الذي هو الكلمة على المسبب، يعني الناتج عنها الذي خلق بها وهو عيسى –صلى الله عليه وسلم–، فقيل: هو كلمة الله ألقاها إلى مريم، فهذا هو المراد.

قوله: {وَسَيِّدًا} [(٣٩) سورة آل عمران] **قال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة وسعيد بن جبير وغيرهم: الحكيم، وقال ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– والثوري والضحاك: السيد الحكيم التقي.**

السلف –رضي الله عنهم– يفسرون الكلمة ببعض معناها أحياناً، فالسيد مثلاً ليس هو الحكيم فقط؛ إذ قد يكون الإنسان حكيماً ولا يكون سيداً، لكن السيد لا يكون موصوفاً بالحماقة والخرق وسوء التدبير، فإن ذلك ليس من الصفات التي تحصل بها السيادة، وإنما تحصل السيادة باجتماع عدة أوصاف يكون بها الإنسان نبيلاً سيداً يحصل له بها الشرف، وكلما كانت هذه الأوصاف كلما كانت السيادة أكثر وأوفر وأعظم فيسود بذلك قومه، ويكون مقدماً فيهم ويفوق أقرانه في كل شيء من الخير، فالسيادة هي الشرف في العلم والعمل والشرف في العبادة، فكل ذلك داخل فيه والله أعلم، وتفسيره بالحليم التقي أحسن من تفسيره بالحكيم، فهذا أقرب وأدخل وأعلق بمعنى السيادة، والذي لا يحسن التدبير ولا يضع الأمور في مواضعها ولا يوقعها في مواقعها فهذا لا يكون سيداً إلا بقيد كأن يقال له: الأحمق المطاع، فبهذا القيد يمكن، أما أن يكون سيداً هكذا بإطلاق، ولا يحسن التدبير فلا.

وقال سعيد بن المسيب: هو الفقيه العالم، وقال عطية: السيد في خلقه ودينه.

على كل حال النبي –صلى الله عليه وسلم– قال عن الحسن: ((ابني هذا سيد))[3] فالحاصل أن المقصود بالسيد هو الشريف المقدم، ويكون شريفاً مقدماً بناء على اجتماع عدة أوصاف، فلا يكون السيد بخيلاً، ولا يكون ضيق العطن وضيق الصدر، ولا يكون سيء التدبير، ولا يكون في غاية الجهل، ونحو ذلك.

وقال عكرمة: هو الذي لا يغلبه الغضب، وقال ابن زيد: هو الشريف، وقال مجاهد وغيره: هو الكريم على الله –عز وجل–.

هذا كله من اختلاف التنوع، يعني ما نحتاج أن نرجح، فهم يفسرون بما يقرب المعنى بجزئه.

وقوله: {وَحَصُورًا} [(٣٩) سورة آل عمران] ليس هاهنا أنه لا يأتي النساء، بل معناه أنه معصوم عن الفواحش والقاذورات.

الحصور: أصله من الحصر وهو الحبس، ومعناه المتبادر هنا وهو الذي عليه عامة أهل العلم هو الحبس عن النساء، يعني الممتنع من النساء، وهذا الامتناع يحتمل أمرين من جهة سببه:

الأول: ألا يكون له تطلع إلى النساء أصلاً ولا شهوة، أي ليس له رغبة أصلاً، وقد جاء هذا عن بعض السلف، ولكن هذا فيه بعد ولا يمدح الإنسان به إطلاقاً، بل هو من النقص والعيب، وهو لون من العجز كبير، وإنما يكون المدح حينما يكون هذا الانصراف بإرادة وعزيمة ثابتة راسخة، لا يلتفت معها إلى هذه المقارفة، وهذه المقارفة من أهل العلم من يقيدها بالحرام، يقول: المقصود بالحصور هو الذي يمنع نفسه من مقارفة ما حرم الله –عز وجل– مع النساء، ولكنه يتزوج.

ومنهم من يقول: بل هو منقطع للعبادة، وذلك كان جائزاً في شريعتهم، فهو معرض عن النساء لا يشتغل بهن، ولا يتزوج وإنما فرغ نفسه للعبادة، فهذا المعنى تحتمله الآية، وهي تفسر بهذا والله تعالى أعلم، لكن من أي جهة؟ هل هو الانصراف تماماً لا بالتزوج ولا غيره مع القدرة على إتيان النساء؟ أو يكون المراد بالحصور هو الذي ينصرف عن مقارفة الحرام دون ما أحل الله –تبارك وتعالى–؟.

بل معناه أنه معصوم عن الفواحش والقاذورات ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال، وغشيانهن وإيلادهن، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال: {هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً} [(٣٨) سورة آل عمران]، كأنه قال: ولداً له ذرية ونسل وعقب، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ليس بلازم أن يكون المراد بالذرية الطيبة أن يكون له نسل وعقب، فإن الإنسان إذا رزق بالولد كان ذلك ذرية، وعلى هذا يكون دعاءه قد استجيب.

وقوله: {وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ} [(٣٩) سورة آل عمران]، هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته، وهي أعلى من الأولى، كقوله لأم موسى: {إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} [(٧) سورة القصص]، فلما تحقق زكريا –عليه السلام– هذه البشارة أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر، قال: {رَبِّ أَنَّىَ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ} [(٤٠) سورة آل عمران] أي الملك: {كَذَلِكَ اللّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاء} [(٤٠) سورة آل عمران] أي: هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء ولا يتعاظمه أمر.

{قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً} [(٤١) سورة آل عمران] أي: علامة أستدل بها على وجود الولد مني.

---

3 – أخرجه البخاري في كتاب المناقب – باب علامات النبوة في الإسلام (٣٤٣٠) (ج ٣ / ص ١٣٢٨).

ما سبب هذا السؤال: {اجْعَل لِّيَ آيَةً}؟ هل قصد بذلك آية على وجود الحمل وانعقاده وصحته؟ هذا معنىً قريب، قد قال به جماعة من أهل العلم.

ومن أهل العلم من ذهب بها إلى معنى آخر، قالوا: إنه طلب الآية وذلك أنه لما سمع نداء الملائكة بصوت وهو يصلي في المحراب كأنه وقع له شيء من الوسوسة أراد دفعها فكأنه يقول: اللهم إن كان هذا الصوت هو صوت الملائكة وهذه البشرى هي بشرى حق منك يا رب فاجعل لي آية تدل على ذلك، فهو لم يكتفِ بالبشارة بمجرد سماع الملائكة فأراد أن يتحقق أكثر ويتوثق.

وهؤلاء الذين يقولون بهذا يقولون: إن الآية التي جعلت له فيها نوع عقوبة، أي هي آية مع العقوبة، وذلك بانحباسه عن الكلام من غير علة ثلاثة أيام إلا من التسبيح والذكر، قال تعالى: {آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا} [(٤١) سورة آل عمران]، والرمز المقصود به الإشارة بالشفة، وقد يكون بالعين واليد وما إلى ذلك، وفي الآية الأخرى يقول سبحانه: {ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا} [(١٠) سورة مريم]، يعني من غير مرض ومن غير علة، فهؤلاء قالوا: استجيب دعاؤه فجعلت له آية وكان فيها نوع عقوبة، وذلك أنه لم يكتف بالبشارة حينما سمع الملائكة تبشره، والمعنى الأول أقرب والله أعلم، مع أن هذا المعنى الثاني ذهب إليه بعض الكبار كابن جرير –رحمه الله-.

{قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا} [(٤١) سورة آل عمران] إشارة لا تستطيع النطق، مع أنك سوي صحيح كما في قوله: {ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا} [(١٠) سورة مريم].

ثم أمر بكثرة الذكر والشكر والتسبيح في هذه الحال فقال تعالى: {وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ} [(٤١) سورة آل عمران].

قوله: {بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ}: العشي: يكون من بعد الزوال إلى غروب الشمس، والإبكار يكون من وقت طلوع الفجر إلى الضحى، يعني أول النهار، وهذه هي أوقات الذكر.

وسيأتي طرف آخر في بسط هذا المقام في أول سورة مريم، إن شاء الله تعالى.

{وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ* يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ* ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} [(٤٢-٤٤) سورة آل عمران].

هذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم -عليها السلام- عن أمر الله لهم بذلك أن الله قد اصطفاها، أي اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها وطهرها من الأكدار والوسواس، واصطفاها ثانياً مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين.

هذا الذي مشى عليه ابن كثير مع أنه لم يوضح المراد منه، وهو أن الاصطفاء الثاني غير الاصطفاء الأول، ومن أهل العلم من يقول: إن الاصطفاء الثاني هو الاصطفاء الأول، أي أنه أعيد تأكيداً، ومعلوم أن القاعدة تقول: إن التأسيس مقدم على التوكيد، فابن كثير –رحمه الله- مشى على هذه القاعدة، وهو أن الاصطفاء الثاني غير الأول، فهو صرح وقال: "**واصطفاها ثانياً**" أي أن الاصطفاء الثاني غير الأول، لكنه لم يوضح المراد بالاصطفاء الأول والمراد بالاصطفاء الثاني، وإنما ذكر كلاماً عاماً فقال: "**اختارها لكثرة عبادتها**

وزهادتها وشرفها وطهرها من الأكدار والوسواس، واصطفاها ثانياً مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين"، إلا أنه يمكن أن يقال: إن الاصطفاء الأول كان لعبادتها وزهادتها لتكون من أهل القرب منه، والاصطفاء الثاني أنه اصطفاها على نساء العالمين، أي فضلها عليهن، وعلى هذا يكون الاصطفاء الثاني بمعنى التفضيل على نساء العالمين، فهذا احتمال.

ومن أهل العلم من يقول: اصطفاها الاصطفاء الأول بأن تقبلها بقبول حسن، والاصطفاء الثاني لولادة عيسى –عليه الصلاة والسلام–، فالحاصل أن الله قال لها بطريق الملائكة: **{إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ}** [(٤٢) سورة آل عمران] أي أن الله اختارك لعبادته والتقرب إليه، وما إلى ذلك من المعاني، ويدخل فيه أن الله تقبلها بقبول حسن، **{وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ}** بمعنى التفضيل، أن الله فضلها على غيرها من النساء.

وقوله: **{عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ}**، ظاهره العموم، وقد ذهب إليه جماعة من السلف فمن بعدهم –رضي الله تعالى عنهم– وقالوا: إن ذلك على عمومه وإطلاقه، ومنهم من ذهب إلى أنه يختص بأهل زمانها، كما قال –عز وجل– عن بني إسرائيل: **{وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}** [(٤٧) سورة البقرة] يعني على عالم زمانكم، وهذا الذي يتفق مع الأدلة الأخرى التي تدل على اصطفاء الله –جل وعلا– لغيرها كما سيأتي، وهو الذي اختاره ابن جرير –رحمه الله–.

روى هشام بن عروة عن علي بن أبي طالب –رضي الله تعالى عنه– قال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: ((خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد)) [أخرجاه في الصحيحين][٤].

وروى ابن جرير عن أبي موسى الأشعري –رضي الله تعالى عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون))[٥]**، وقد أخرجه الجماعة إلا أبا داود، ولفظ البخاري: ((كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام))**[٦].

هذه النصوص لا تعارض بينها، فتارة ذكر الاصطفاء والاختيار أو الخيرية، وتارة ذكر الكمال، وذكر مزية لعائشة –رضي الله تعالى عنها– وهو أن فضلها كفضل الثريد على سائر الطعام.

والعلماء تكلموا في التفضيل بين عائشة وبين خديجة، وظواهر هذه الأحاديث مع غيرها تدل على أن خديجة –رضي الله تعالى عنها– أفضل وأكمل، ولذلك كانت تغار عائشة –رضي الله عنها– منها غاية الغيرة، وقد

---

4 – أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة – باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة وفضلها رضي الله عنها (٣٦٠٤) (ج ٣ / ص ١٣٨٨) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم – باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها (٢٤٣٠) (ج ٤ / ص ١٨٨٦).

5 – أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء – باب قول الله تعالى: **{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ..}** إلى قوله: **{وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ}** [(١١-١٢) سورة التحريم] (٣٢٣٠) (ج ٣ / ص ١٢٥٢) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم – باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها (٢٤٣١) (ج ٤ / ص ١٨٨٦).

6 – نفس الحديث السابق وهو لفظ البخاري ومسلم رحمهما الله.

بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- وجه ذلك، فالمقصود أن القاعدة هي أن المزية لا تقتضي الأفضلية، والحاصل أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر مزية لعائشة -رضي الله عنها- وذكر فضل خديجة وآسية ومريم، فآسية وخديجة حصل لهن الكمال، ومريم حصل لها الاصطفاء والتفضيل.

وقد استقصيت طرق هذا الحديث وألفاظه في قصة عيسى بن مريم -عليهما السلام- في كتابنا "البداية والنهاية" ولله الحمد والمنة.

ثم أخبر تعالى عن الملائكة أنهم أمروها بكثرة العبادة والخشوع والخضوع والسجود والركوع والدؤوب في العمل لها، لما يريد الله بها من الأمر الذي قدره الله وقضاه مما فيه محنة لها ورفعة في الدارين بما أظهر الله فيها من قدرته العظيمة، حيث خلق منها ولداً من غير أب، فقال تعالى: {يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} [(٤٣) سورة آل عمران].

أما القنوت فهو الطاعة في خشوع، كما قال تعالى: {بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} [(١١٦) سورة البقرة].

أحد معاني القنوت الطاعة في خشوع، وقد سبق ذكر معاني القنوت فلا حاجة لإعادته.

وفي قوله: **{يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}** [(٤٣) سورة آل عمران]: قدم السجود على الركوع مع أن السجود يكون بعد الركوع، فمن أهل العلم من فسر ذلك بأن الواو لا تقتضي الترتيب، ولم يقصد فيه الترتيب، ومنهم من قال: إن ذلك قد يكون في صلاتهم، بحيث لم تكن مرتبة هذا الترتيب في صلاتنا، ومنهم من يقول -كالحافظ ابن القيم -رحمه الله- يقول: إنه بدأ بالأعم ثم الأخص، ثم ما هو أخص، فالقنوت أعم، إذ هو الطاعة والخشوع دوام العبادة وما أشبه ذلك من المعاني، ثم السجود أعم من الركوع؛ وذلك أن السجود يكون في الصلاة ويكون خارج الصلاة، مثل سجود الشكر وسجود التلاوة، وأما الركوع فإنه لا يكون إلا في الصلاة، فتارة تذكر الأشياء مرتبة من الأعم ثم ما دونه، ثم ما هو أخص من ذلك، وقد يبدأ بالعكس أي يبدأ بالأخص ثم ما هو أعم من ثم ما هو أعم مطلقاً، كما في الآية الأخرى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ}** [(٧٧) سورة الحـج] ففي هذه الآية بدأ بالأخص ثم الأعم، أي عكس هذه تماماً، **{يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}** [(٤٣) سورة آل عمران].

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "ثم قال تعالى لرسوله -صلى الله عليه وسلم- بعدما أطلعه على جلية الأمر: {ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ} [(٤٤) سورة آل عمران] أي: نقصُّه عليك، {وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} [(٤٤) سورة آل عمران] أي: ما كنت عندهم يا محمد فتخبرهم عن معاينة عما جرى، بل أطلعك الله على ذلك كأنك كنت حاضراً وشاهداً لما كان من أمرهم حين اقترعوا في شأن مريم أيهم يكفلها، وذلك لرغبتهم في الأجر.

روى ابن جرير عن عكرمة قال: ثم خرجتْ بها -يعني أم مريم بمريم- تحملها في خرقها إلى بني الكاهن ابن هارون أخي موسى -عليهما السلام- قال: وهم يومئذ يلون في بيت المقدس ما يلي الحجبة من الكعبة، فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة فإني حررتها وهي ابنتي، ولا تدخل الكنيسة حائض، وأنا لا أردها إلي بيتي، فقالوا: هذه ابنة إمامنا -وكان عمران يؤمهم في الصلاة- وصاحب قرباننا، فقال زكريا: ادفعوها إليّ فإن خالتها تحتي، فقالوا: لا تطيب أنفسنا هي ابنة إمامنا، فذلك حين اقترعوا بأقلامهم عليها التي يكتبون بها التوراة، فقرعهم زكريا فكفَّلها.

وقد ذكر عكرمة أيضاً والسدي وقتادة والربيع بن أنس وغير واحد، دخل حديث بعضهم في بعض: أنهم دخلوا إلى نهر الأردن واقترعوا هناك على أن يلقوا أقلامهم، فأيهم يثبت في جرية الماء فهو كافلها، فألقوا أقلامهم فاحتملها الماء إلا قلم زكريا فإنه ثبت، ويقال: إنه ذهب صاعداً يشق جرية الماء، وكان مع ذلك كبيرهم وسيدهم وعالمهم وإمامهم ونبيهم صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر النبيين".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذا الأثر الذي ذكره عن عكرمة وفيه: أنها جاءت بها تحملها في خرقة، أو في خرقها إلى بني الكاهن بن هارون أخي موسى -عليهما السلام- إلى آخره، إذا كان المراد بذلك أنهم ينتسبون إلى هارون بحيث يكون جداً بعيداً لهم فهذا يمكن أن يكون، وأما إذا كان المراد ببني الكاهن بن هارون، أنهم أبناء هذا الرجل مباشرة وجدّهم هارون فهذا فيه نظر؛ لأن بين موسى -صلى الله عليه وسلم- وهارون وبين عيسى -عليه الصلاة والسلام- مدة طويلة من الزمن كما هو معروف، ولذلك لما جاء المغيرة بن شعبة -رضي الله عنه- من نجران، وسأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن شبهة وجهها إليه النصارى في نجران، قالوا: كيف يقول القرآن: {يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ} [(٢٨) سورة مريم] وبين هارون وبين عيسى -عليه الصلاة

والسلام- أو مريم مدة طويلة في التاريخ، فأجابه النبي -صلى الله عليه وسلم-: بأنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم، أي أن هذا رجل آخر اسمه هارون، وليس هو هارون بن عمران.

ومن أهل العلم من يقول: إن قوله تعالى: {يَا أُخْتَ هَارُونَ} أي: يا نظيرته في الصلاح والتقى والعفاف والطهر والنزاهة.

لكن ما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أولى بل هو الأحق، بل هو الواجب أن يتبع في تفسير الآية، أي أن هارون هذا شخص آخر.

وهذا الأثر أصلاً هو من الإسرائيليات، ومن المحتمل أن يكون هارون جداً من أجداد بني الكاهن وإن لم يكن قريباً، ويحتمل أن يكون هو مباشرة.

وقوله: {إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ} [(٤٤) سورة آل عمران]، ذكر هنا أنها الأقلام التي يكتبون بها التوراة، وبعضهم يقول: إنها القداح، يعني أنهم يقترعون على كل حال سواء بهذا أو بهذا، والمشهور الذي عليه عامة المفسرين أنهم ألقوا أقلامهم أي: الأقلام المعروفة، وليست القداح، والمشهور المتبادر من إطلاق الأقلام أنها الأقلام التي كانوا يكتبون بها التوراة، وقد جاء في بعض الآثار -وهي أيضاً من الإسرائيليات- أنهم كانوا يكتبون التوراة فجاءت امرأة عمران بمريم، فحصل بينهم هذا الاقتراع بهذه الأقلام التي كانت بأيديهم، فهذا هو قول عامة أهل العلم، بل إن الحافظ ابن القيم -رحمه الله- نقل عليه الاتفاق، لكن من أهل العلم من قال بغير هذا، والله أعلم.

قوله: "**فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة فإني حررتها وهي ابنتي**"، يبدو أن فيها تصحيفاً؛ ذلك أن الموافق للمقام والسياق أن تكون "**وهي أنثى**" وليس ابنتي، ومثل هذا يتصحف بسهولة، فإن رسمه واحد، فالمقصود أن ذكْر الأنثى هنا هو المناسب؛ لأنها ذكرت بعد ذلك ما يمنعها من دخول المسجد وهي أنها أنثى، لكن إذا قالت: وهي ابنتي، فلا فائدة من هذا، والله أعلم.

"{إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ* وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ* قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [(٤٥-٤٧) سورة آل عمران].

هذه بشارة من الملائكة لمريم -عليها السلام- بأن سيوجد منها ولد عظيم له شأن كبير، قال الله تعالى: {إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ} أي بولد يكون وجوده بكلمة من الله، أي يقول له: كن فيكون، وهذا تفسير قوله: {مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ} [(٣٩) سورة آل عمران]، كما ذكره الجمهور.

{اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ}: أي يكون مشهوراً بهذا في الدنيا، يعرفه المؤمنون بذلك".

قوله تعالى: {بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ} جاء مفسراً بقول الله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن} [(٥٩) سورة آل عمران] فهذه هي الكلمة، هي قوله: {كُن} حيث خلقه الله -عز وجل- بقول: {كُن}، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وهذا هو المشهور الذي عليه عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً وإن قال ابن جرير -رحمه الله-: إن الكلمة المراد بها هنا هي البشارة، فهذا فيه نظر، والله أعلم.

"وسمي المسيح؛ لأنه كان إذا مسح أحداً من ذوي العاهات برئ بإذن الله تعالى".

نعم هذا هو المشهور في سبب تسميته بذلك، وبعضهم يقول: لأنه مسح الأرض، حيث لم يكن له محل يستقر فيه، وهذا الكلام لا دليل عليه، ومنهم من يقول: لأنه كان يتمسح بالدهن الذي كان يتمسح به الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وهل كان الأنبياء يتمسحون بدهن معين؟، إذاً على هذا كل الأنبياء سيقال لهم المسيح، وبعضهم يقول: إنه قيل له ذلك؛ لأنه ممسوح القدم، يعني قدمه مستوية أي متميزاً على غيره ليس كحال الناس، وهذا الكلام أيضاً لا دليل عليه.

وبعضهم يقول: مسيح من متمسح بمعنى متطهر من الذنوب، أو غير ذلك مما يقال، كأن يقال: مسحه الجمال، فالمشهور الذي عليه أكثر أهل العلم أنه قيل له ذلك؛ لأنه إذا مسح صاحب عاهة برئ بإذن الله -عز وجل-.

لكن بالنسبة للدجال فالدجال يقال له: المسيح؛ لأنه ممسوح العين، وهذا أظهر ما قيل في تعليله، ومن أهل العلم من يقول: لأنه يمسح الأرض عدا مكة.

"وقوله: {عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ} نسبة له إلى أمه حيث لا أب له".

عيسى -عليه السلام- لا يذكر في القرآن غالباً إلا بنسبته إلى أمه؛ لأنه لا أب له، فالأنبياء الآخرون يقال فيهم: يونس وصالح وهود.. الخ، وأما عيسى -صلى الله عليه وسلم- فغالباً يذكر منسوباً إلى أمه؛ وفي هذا تذكير بالمعجزة، وتشريف له ولأمه التي رماها بنو إسرائيل بأبشع فرية.

"{وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} [(٤٥) سورة آل عمران] **أي له وجاهة ومكانة عند الله في الدنيا بما يوحيه الله إليه من الشريعة، وينزل عليه من الكتاب، وغير ذلك مما منحه به، وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه".**

بعضهم يقول: إن أصل الوجاهة هي القوة والمنعة، لكن الواقع أن الوجاهة أشمل من هذا، وإن كان من معانيها القوة والمنعة، وعلى كل حال فالوجيه هو الشخص المقدم الذي يكون له منزلة ومكانة وقبول وما أشبه ذلك من المعاني.

"وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه، فيقبل منه أسوة بإخوانه من أولي العزم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين".

قوله: **"لأنه كان مسيح القدمين لا أخمص لهما"**، المفترض أن المختصر لا يقتصر على قول واحد بهذه الطريقة، وإن كان ولا بد فإنه يورده بصيغة قيل؛ حتى لا يفهم أنه اختيار ابن كثير، أما بهذه الطريقة التي ساق بها هذا الكلام فلا يفهم منه إلا أن هذا هو ترجيح ابن كثير، وابن كثير هنا لم يرجح أصلاً، لذلك ينبغي التعليق على مثل هذه الأشياء، فيقال مثلاً: وهذا ذكره ابن كثير ولم يرجحه.

"وقوله: {وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً} [(٤٦) سورة آل عمران]**: أي يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له في حال صغره معجزة وآية، وحال كهوليته حين يوحي الله إليه بذلك".**

قوله: **{وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ}** المهد هو الفراش للرضيع، **{وَكَهْلاً}** الكهل: بعضهم يقول: هو ما بين الشباب والشيخوخة، وبعضهم يقسم تقسيمات أخرى، وعلى كل حال عيسى -صلى الله عليه وسلم- رُفع وهو -كما يقول الكثير- ابن ثلاث وثلاثين سنة، وسواء كان ابن ثلاثين أو ثلاث وثلاثين فإن الله -عز وجل- قال:

{وَكَهْلاً} لذلك أخذ بعض أهل العلم من هذه الآية أن من بلغ الثلاثين فقد فارق سن الشباب ودخل في الكهولة، وبعضهم يجعل الكهولة متأخرة أي من الخمسين فما فوق، والشيخوخة بعد ذلك.

فالمقصود أن أهل العلم غير متفقين على تحديد هذه الإطلاقات بحد معين، ولكن يفهم من الآية أن من بلغ الثلاثين يقال له كهل، وقد يطلق في بعض الأعراف -في عرف خاص في وقت معين أو في مكان معين- على ما بعد ذلك، أو على مرحلة من مراحل العمر المتقدمة مثل من بلغ الخمسين، وربما بعد الستين كما هو العرف في هذا العصر حيث لا يقال في هذا العصر لمن بلغ الثلاثين إنه كهل، وإنما يقال لمن تجاوز الستين.

يقول: "{وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً} [(٤٦) سورة آل عمران] أي: **يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له في حال صغره معجزة وآية، وحال كهوليته حين يوحي الله إليه بذلك**"، فقوله: {وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ} ليس المراد أنه يدعو إلى الله في حال المهد، وإنما المقصود بذلك المعجزة كما في قوله في سورة مريم: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا* قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ} [(٢٩-٣٠) سورة مريم] فنطقه في هذه الحال هو المشار إليه بقوله: {وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ} وليس معنى ذلك أنه كان يكلمهم على سبيل الدوام والاستمرار، بل كانت آية ومعجزة أن أنطقه الله -تبارك وتعالى- وأما دعوتهم إلى الله وهو كهل فليس في ذلك أي غرابة؛ لكونه يتكلم ويدعو إلى توحيد الله -عز وجل- لكن كلامه في المهد هو الذي كان على سبيل المعجزة.

"روى محمد بن إسحاق عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما تكلم مولود في صغره إلا عيسى وصاحب جريج))[1].

وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وصبي كان في زمن جريج، وصبي آخر))[2]".

كونه في الحديث الأول ذكر اثنين وفي الآخر ذكر ثلاثة يحمل على أن الله -عز وجل- أطلعه وأوحى إليه، لذلك كل ما صح من الأخبار في هذا فإنه لا يعارَض بعضه ببعض، وإنما يكون الله أطلع نبيه -صلى الله عليه وسلم- على بعضهم في وقت ثم أطلعه على آخرين في وقت آخر، وهكذا.

فمما صح فيه الخبر صاحب جريج في القصة المعروفة لما رمته تلك المرأة بالزنا فهدموا صومعته وآذوه، فتوضأ وصلى ركعتين ثم طعن في بطن الصبي وقال: من أبوك؟ فقال: الراعي، فهذا أحد الذين تكلموا.

وممن تكلموا أيضاً في المهد الصبي الذي كانت تحمله أمه فمر بهما فارس، فقالت: اللهم اجعل ابني مثل هذا، وكان يرضع فترك الثدي ثم نظر إلى ذلك الشخص الفارس وقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على الثدي، فمرت بجارية يضربونها ويتهمونها بالزنا وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل أو نحو ذلك، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه، فقال: اللهم اجعلني مثلها[3].

---

[1] - أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٣٣) (ج ١ / ص ٢٦) وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ج ١ / ص ١٥).

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء- باب {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا} [(١٦) سورة مريم] (٣٢٥٣) (ج ٣ / ص ١٢٦٨) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها (٢٥٥٠) (ج ٤ / ص ١٩٧٦).

[3] - أخرجه البخاري في كتاب المظالم - باب إذا هدم حائطا فليبن مثله (٢٣٥٠) (ج٢ / ص ٨٧٧) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها (٢٥٥٠) (ج ٤/ ص ١٩٧٦).

فالحاصل أن ذلك كان جباراً، وتلك امرأة كانت طيبة وصالحة، وكانوا يتهمونها بشيء هي بريئة منه.

وفي قصة أصحاب الأخدود جاءت امرأة لتلقى فيه ومعها صبي فتلكأت فقال لها: يا أمَّهْ اصبري فإنك على الحق[4]، وذُكر غير هؤلاء ممن تكلموا في المهد.

"{وَمِنَ الصَّالِحِينَ} [(٤٦) سورة آل عمران] **أي: في قوله وعمله، له علم صحيح وعمل صالح، فلما سمعت بشارة الملائكة لها بذلك عن الله -عز وجل- قالت في مناجاتها: {رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ}** [(٤٧) سورة آل عمران]**، تقول: كيف يوجد هذا الولد مني وأنا لست بذات زوج، ولا من عزمي أن أتزوج، ولست بغياً حاشا لله؟! فقال لها الملك عن الله -عز وجل- في جواب هذا السؤال: {كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء}** [(٤٧) سورة آل عمران] **أي: هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء".**

في قولها: **{رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ}** هذا كما قال الله -عز وجل- في سورة مريم: **{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا}** [(١٦) سورة مريم] إلى آخر الآيات التي ذكرها الله -عز وجل- مما يفسر هذه الآية.

وذكر الله -عز وجل- أيضاً في سورة التحريم أن الملك نفخ في فرجها، قال تعالى: **{وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا}** [(١٢) سورة التحريم].

وذكر في موضع آخر أن النفخ كان فيها كما في سورة الأنبياء **{وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا}** [(٩١) سورة الأنبياء] فهذه الآيات تفسر هذه الآية.

"وصرح هاهنا بقوله: {يَخْلُقُ مَا يَشَاء} ولم يقل: يفعل، كما في قصة زكريا".

هذا من التفسير المتشابه اللفظي وهو من اللطائف في التفسير، وهو جواب لسؤال تقديره: لماذا قال هناك في قصة زكريا -عليه الصلاة والسلام- **{كَذَلِكَ اللّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاء}** [(٤٠) سورة آل عمران]، وقال هنا: **{كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء}**؟ فهذا المعنى الذي ذكره ابن كثير هنا يفسر هذا، وهو معنىً جيد.

"ولم يقل: [يفعل] كما في قصة زكريا، بل نص هاهنا على أنه يخلق؛ لئلا يبقى لمبطل شبهة، وأكد ذلك بقوله: {إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [(٤٧) سورة آل عمران] **أي: فلا يتأخر شيئاً، بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة، كقوله تعالى: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ}** [(٥٠) سورة القمر] **أي: إنما نأمر مرة واحدة لا مثنوية فيها فيكون ذلك الشيء سريعاً كلمح بالبصر".**

المعنى الذي ذكره ابن كثير ظاهر، وهو أنه -عز وجل- ذكر في حق عيسى -صلى الله عليه وسلم- الخلق؛ لئلا يكون هناك شبهة في أن عيسى نُفخ فيه من روح الله فيقال: إنه قد حل فيه روح من الله بمعنى أنها غير مخلوقة كما يقولون: حل اللاهوت في الناسوت، فاللاهوت أي الله، والناسوت أي الناس، فالله تعالى ذكر الخلق ليدل على أنها روح مخلوقة، فعيسى مخلوق، والمخلوق لا يكون إلهاً، فهو ليس ابن الله؛ لأن الابن في الواقع جزء من أبيه، ولو كان ابناً له لكان إلهاً، فعيسى -صلى الله عليه وسلم- مخلوق من جملة من خلقهم الله -عز وجل-، فعبر بلفظ الخلق؛ لئلا يتوهم أنه ما دام قد جاء من غير أب، وجاء بنفخ روح من الله فإنه

---

[4] - أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق - باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام (٣٠٠٥) (ج ٤ / ص ٢٢٩٩).

غير مخلوق أو له جزء من الإلهية أو فيه معنى من معاني الإلهية، لا بل هو مخلوق من جملة الخلق، والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ* وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ* وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ* إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ} [(٤٨-٥١) سورة آل عمران].

"يقول تعالى مخبراً عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى -عليه الصلاة والسلام-: أن الله يعلمه الكتاب والحكمة، الظاهر أن المراد بالكتاب هاهنا الكتابة، والحكمة تقدم الكلام على تفسيرها في سورة البقرة".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -رحمه الله-: "**الظاهر أن المراد بالكتاب هاهنا الكتابة**"، قال: المراد به الكتابة، لماذا لم يحمل الكتاب على الكتاب الموحى به إليه وهو الإنجيل مثلاً؟ أو التوراة وهو الكتاب الذي أنزل على موسى -صلى الله عليه وسلم- وجاء عيسى -عليه الصلاة والسلام- مقرراً له؟ ما الذي حمل الحافظ ابن كثير على هذا؟

الذي حمله على هذا هو أن العطف يقتضي المغايرة، فالله سبحانه يقول: **{وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ}** [(٤٨) سورة آل عمران] والقاعدة أن التأسيس مقدم على التوكيد، فالكتاب هنا هو الكتابة، وهذا الذي اختاره ابن كثير -رحمه الله- قال به ابن جرير وجماعة، والقول به هنا ليس فيه تكلف، بل هو ظاهر غاية الظهور، ويشبهه -وإن كان دونه في الوضوح- قوله -تبارك وتعالى-: **{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}** [(٢) سورة الجمعة] فالكتاب هنا يحتمل أن يكون القرآن، لكن إذا قلنا: إن الكتاب هنا هو القرآن سيكون قوله: **{يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ}** [(٢) سورة الجمعة] من قبيل التكرار، ولهذا قال جماعة من أهل العلم: إن الكتاب أيضاً في الآية الأخرى هو الكتابة، واستدلوا بهذا، واستدلوا بقرينة أخرى وهي أنه ناسب هنا ذكر الكتابة لذكر الأميين، فالنبي بعث في الأميين، والأمي هو الذي لا يعرف الكتابة، فامتن الله -عز وجل- ببعثته عليهم فصارت الكتابة فاشية فيهم، لكن هذا القول هنا في الوضوح ليس مثل القول في قوله تعالى: **{وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ}**

[(٤٨) سورة آل عمران] فهذه الآية أوضح في الحمل على الكتابة؛ لأن قوله هناك: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ} مع {يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِه}، يمكن أن يكون بمعنى أنه يعلمهم الكتاب ويقرأ القرآن، لكن هنا صرح بالتوراة والإنجيل.

قوله: "**والحكمة تقدم الكلام على تفسيرها في سورة البقرة**"، نعم تقدم الكلام على الحكمة وأن أصلها وضْع الشيء في موضعه وإيقاعه في موقعه، وتأتي بمعنى الفقه في الدين وتارة تأتي بمعنى النبوة، إلى آخره، وذكرنا وجه الجمع بين هذه الأقوال وأنها ترجع إلى أصل واحد، لكن الظاهر أن المراد بالكتاب هنا الكتابة، والحكمة يقول ابن جرير -رحمه الله-: إنها السنّة هنا في هذه الآية، وليس المقصود سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- وإنما المقصود ما أوحاه الله إليه من غير الكتاب مما أوحى به إليه من ألوان الوحي والهدايات من غير الإنجيل، والله أعلم.

"**{وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ} فالتوراة هو الكتاب الذي أنزله الله على موسى بن عمران، والإنجيل الذي أنزله الله على عيسى ابن مريم -عليهما الصلاة والسلام- وقد كان عيسى -عليه السلام- يحفظ هذا وهذا.**

وقوله: {وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ} [(٤٩) سورة آل عمران] **أي: يجعله رسولاً إلى بني إسرائيل قائلاً لهم: {أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم}** [(٤٩) سورة آل عمران]".

هذا الذي ذكره ابن كثير جيد وهو أقرب هذه الأقوال، وليس فيه تعسف ولا تكلف في التقديرات ونحو ذلك، ومعلوم أنه إذا كان الكلام يقتضي تقديراً فإنه يقدر ما هو أبعد عن التكلف وأقرب إلى بلاغة القرآن وفصاحته وظاهر السياق، فكلام ابن كثير هذا كلام قريب، ولا تعرف قدره إلا إذا نظرت في كلام المفسرين فيما يقدرونه هنا، فهو يقول هنا: {وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ} [(٤٩) سورة آل عمران] أي: يعلمه الكتاب والحكمة ويجعله رسولاً إلى بني إسرائيل، وهذا الذي قال به أيضاً ابن جرير -رحمه الله-.

وغيرهم يقول غير هذا، لكن لا يخلو من تكلف؛ إذ يقول بعضهم: ويعلمه الكتاب والحكمة ويكلمهم رسولاً إلى بني إسرائيل، هذا فيه بعد، ولا يناسب السياق.

وبعضهم يقول: ويعلمه الكتاب والحكمة وأرسلتُ رسولاً إلى بني إسرائيل، وهذا أيضاً غير متلائم كما في تقدير: ويجعله رسولاً إلى بني إسرائيل، وبعضهم يقول: هو معطوف على وجيهاً أي وجيهاً ورسولاً.

والأقرب أن التقدير ويجعله رسولاً إلى بني إسرائيل قائلاً لهم: {أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم} [(٤٩) سورة آل عمران].

وقوله:{أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم} جاءت "أن" فيها منصوبة مع أنها جملة القول والسبب في ذلك أنها متضمنة معنى القول وليست جملة القول الصريح التي تكسر فيها همزة إنَّ في نحو قوله تعالى: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ} [(٣٠) سورة مريم] أي أنه لما كان ذلك متضمناً معنى القول غير الصريح فتحت الهمزة.

"**قائلاً لهم: {أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ..} الآية** [(٤٩) سورة آل عمران]".

قوله: {أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ} يفسرها قوله: {أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ..} الآية [(٤٩) سورة آل عمران].

"**وكذلك كان يفعل، يصور من الطين شكل طير ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن الله -عز وجل- الذي جعل هذا معجزة له تدل على أن الله أرسله.**"

هناك كلام كثير يذكر هنا لا حاجة إليه مثل: ما نوع هذه الطير، وهل كان يخلق أشياء أخرى بإذن الله -عز وجل- غير الطير، ولماذا خصص هذه الأشياء المذكورة؟، فهذا الكلام كله لا حاجة إليه ولا فائدة من الاشتغال به.

"{وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ} [(٤٩) سورة آل عمران] هو الذي يولد أعمى، وهذا المعنى أبلغ في المعجزة وأقوى في التحدي، {والأَبْرَصَ} معروف، {وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ} [(٤٩) سورة آل عمران]".

بعض أهل العلم يقول: هذه أصلاً الناس يعجزون عنها ولا يعرفون لها علاجاً فلذلك ذُكرت، وإلا فإن الله -عز وجل- كان يشفي على يده ألوان العلل، لكن ذكرت هذه لأن الطب يقف أمامها عاجزاً في وقت قد انتشر وفشا في زمانه -عليه الصلاة والسلام-.

"قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بمعجزة تناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى -عليه السلام- السحر وتعظيم السحرة، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحَّار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام وصاروا من الأبرار، وأما عيسى -عليه السلام- فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمه والأبرص، وبعْث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد؟

وكذلك محمد -صلى الله عليه وسلم- بعثه في زمان الفصحاء والبلغاء ونحارير الشعراء، فأتاهم بكتاب من الله -عز وجل- لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبداً {وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا} [(٨٨) سورة الإسراء]، وما ذاك إلا لأن كلام الرب -عز وجل- لا يشبهه كلام الخلق أبداً.

وقوله: {وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ} [(٤٩) سورة آل عمران] أي: أخبركم بما أكل أحدكم الآن وما هو مدخر في بيته لغده".

هذا من الغيب النسبي وليس من الغيب مطلقاً؛ لأن هذا الشخص الذي أُخبر هو يعلم ماذا أكل وماذا ادَّخر، بخلاف الإخبار عما في غدٍ مما يُطلع الله -عز وجل- عليه أنبياءه، لكن هذا يخبره فيقول: أكلت كذا، وادخرت كذا، فيكون آية لهم في أمر قد عرفوه.

"وما هو مدخر في بيته لغده، {إِنَّ فِي ذَلِكَ} أي: في ذلك كله {لآيَةً لَّكُمْ} أي: على صدقي فيما جئتكم به {إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(٤٩) سورة آل عمران]، {وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ} [(٥٠) سورة آل عمران] أي: مقرراً لها ومثبتاً.

{وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ} [(٥٠) سورة آل عمران] فيه دلالة على أن عيسى -عليه السلام- نسخ بعض شريعة التوراة، وكشف لهم عن المغطّى فيما كانوا يتنازعون فيه خطأً، كما قال في الآية الأخرى: {وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ} [(٦٣) سورة الزخرف]، والله أعلم".

هو لم يكن ناسخاً للتوراة، بل كان متعبداً بها، لكنه نسخ بعض الآصار والأغلال التي كانت عليهم، وجاءهم بهذه الآيات الواضحة التي لا تترك في الحق لبساً، ويقول: جئتكم مقرراً لما في التوراة ومخففاً عليكم بعض

الآصار، ومبيناً لكم بعض الأمور التي تختلفون فيها، وهذا لا شك أنه من أعظم النعمة التي ساقها الله –عز وجل– إلى بني إسرائيل.

وكلامه في غاية الاعتدال والصواب لمن يعقل، فهو ما جاءهم بشيء تنفر منه نفوسهم وطباعهم وإنما جاءهم مقرراً لشريعتهم ولكتابهم متعبداً بها فقابلوه بالكفر.

فالحاصل أنه تعبدهم الله بالتوراة لكن لشدة بغض النصارى لليهود وبسبب العداوة التي حصلت بينهم وبين اليهود تركوا العمل بالتوراة وبقوا بدون شريعة، ولم يكن عندهم قانون ونظام يحكم الحياة، والإنجيل لم يكن كتاب شريعة متكاملاً مثل التوراة وإنما فيه نسخ بعض الأشياء، وفيه أشياء كما يذكرون في الآداب والأخلاق والرقائق ونحو ذلك، فبقوا من غير شرع، فاخترعوا لهم كتاباً سموه: "الأمانة العظمى" وضعوا فيه القوانين وصاروا يعملون بها من ذلك الحين.

"ثم قال: {وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ} [(٥٠) سورة آل عمران] **أي: بحجة ودلالة على صدقي فيما أقول لكم، {فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ* إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ}** [(٥٠-٥١) سورة آل عمران] **أي أنا وأنتم سواء في العبودية له، والخضوع والاستكانة إليه، {هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ}** [(٥١) سورة آل عمران].

وقوله تعالى: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ* رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ* وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [(٥٢-٥٤) سورة آل عمران].

يقول تعالى: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى} أي: استشعر منهم التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال".

هذا التفسير لـــ"حسَّ" قريب، لا تكلف فيه، وأصل ذلك هو إدراك الشيء بالحاسة، وصار يعبر به عن العلم والإدراك والمعرفة.

والمقصود أن عيسى –صلى الله عليه وسلم– علم منهم ذلك وأدركه وعرفه، وعلى كل حال صار ذلك معلوماً له مدركاً كالشيء المشاهد، والله –عز وجل– يقول: **{هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ}** [(٩٨) سورة مريم]، **{فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ}** [(٥٢) سورة آل عمران] فسره هنا بقوله: إنه بمعنى الإعراض والجحود والمكابرة، ومن أهل العلم من يقول بأن الكفر هنا يعني إرادة قتله، فأحس منهم الكفر يعني أنهم يعزمون على قتله، وهذا فعلاً من الكفر، فهم كذبوه وجحدوا ما جاء به، وتمالئوا على قتله، فهذه الأقوال لا منافاة بينها.

"{قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ} قال مجاهد: أي من يتبعني إلى الله؟، والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله، كما كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر: ((من رجل يُؤْوِيني حتى أبلغ كلام ربي، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي))[1]".

ما الذي جعل الحافظ ابن كثير –رحمه الله– يقول: **والظاهر أنه أراد: من أنصاري في الدعوة إلى الله"؟**

الذي حمله على ذلك هو التركيب والتعدية بـــ"إلى" حيث قال: **{مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ}** [(٥٢) سورة آل عمران].

---

[1] – أخرجه أبو داود في كتاب السنة – باب في القرآن (٤٧٣٦) (ج ٤ / ص ٣٧٦) والترمذي في كتاب فضائل القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢٩٢٥) (ج ٥ / ص ١٨٤) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٩٤٧).

ابن جرير الطبري -رحمه الله- يجعل "إلى" هنا بمعنى "مع"، وقد ذكرنا مراراً أن حروف الجر تتناوب، فيستعمل بعضها في معنى بعض، فإذا فسرت "إلى" بمعنى "مع" فلا إشكال، حيث يكون المعنى من أنصاري مع الله، كقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ}** [(٢) سورة النساء] يعني مع أموالكم.

وبعض أهل العلم يحاول أن يقدر في الكلام تقديراً يصلح أن يُعدَّى بـ"إلى" فالحافظ ابن كثير هنا قال: "**والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة؟**"، وبعضهم يقول: يوجد بعد أنصاري مقدر محذوف وقع حالاً، أي من أنصاري متوجهاً إلى الله، أو ملتجئاً إلى الله، أو من أنصاري ذاهباً إلى الله؟، وبعضهم يقول قولاً قريباً من قول ابن كثير نحو من أنصاري في السبيل إلى الله، أو في الطريق إلى الله؟، فهذه مثل في الدعوة إلى الله، ويقال غير هذا أيضاً، لكن السبب في هذه الأقوال هو التعدية بـ"إلى" فإما أن نجعل "إلى" بمعنى "مع" وإما أن نقول: هناك تقدير، وهذا المقدر يصلح أن يُعدَّى بـ"إلى".

"حتى وجد الأنصار فآووه ونصروه، وهاجر إليهم فواسوه ومنعوه من الأسود والأحمر -رضي الله عنهم وأرضاهم- وهكذا عيسى ابن مريم -عليه السلام- انتدب له طائفة من بني إسرائيل فآمنوا به وآزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، ولهذا قال الله تعالى مخبراً عنهم: {قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ* رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} [(٥٢-٥٣) سورة آل عمران] **الحواريون، قيل: كانوا قصَّارين".**

الفقهاء يقولون في عقد البيع والشراء: لو باعه ثوباً واشترط قصارته، يعني خياطته أو غسله فالله أعلم..

وأصل الحواري هو الخالص من كل شيء، ولذلك مما قيل في الحَوَر أنه شدة بياض العين مع السواد، وهذا أجمل ولا شك من الذي بياض عينه أصفر، فهو الخالص من كل شيء، فالثياب ما كان شديد البياض، وحواري الرجل بمعنى خلاصة وصفوة أصحابه، فالحواريون هم خلاصة أصحاب المسيح -عليه الصلاة والسلام- وصفوتهم، وقيل لهم ذلك لصفاء نفوسهم أو لصفاء نياتهم، أو لخلوص صحبتهم ومحبتهم ونصحهم وصدقهم وما أشبه ذلك، فالصفوة والخلاصة يقال لها هذا.

وبعضهم نظر إلى شيء حسي مشاهد هوالبياض فقال: قيل لهم ذلك لشدة بياض ثيابهم، وبعضهم يقول: القصارين، وبعضهم يقول غير هذا مما لا دليل عليه، فالحواريون على كل هم خلاصة أصحاب عيسى -عليه السلام-، وأما عددهم فلا طائل تحته، فبعضهم يقول: اثنا عشر، وبعض يقول: أكثر من هذا بكثير، وبعضهم يحاول أن يجمع بين هذه الإسرائيليات ويقول: إنهم كانوا كذا، والخلاصة أن كبارهم أو عرفاءهم كانوا اثنا عشر رجلاً.

"الحواريون: قيل كانوا قصارين، والصحيح أن الحواري الناصر كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما ندب الناس يوم الأحزاب فانتدب الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير -رضي الله تعالى عنه- فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن لكل نبي حوارياً وحواريَّ الزبير))[٢]".

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب فضل الطليعة (٢٦٩١) (ج ٣ / ص ١٠٤٦) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم - باب من فضائل طلحة والزبير رضي الله عنهما(٢٤١٥) (ج ٤ / ص ١٨٧٩).

هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير استشهد عليه بهذا الحديث وهو معنىً صحيح أي الناصر، لكن هذا لا يعارض ما ذكر من أنهم صفوة وخلاصة أصحاب الأنبياء مثلاً، أو خاصة الأنبياء، فخلاصة أصحاب الأنبياء هم ناصروهم.

"وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– في قوله: {فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} [(٥٣) سورة آل عمران]، قال: مع أمة محمد –صلى الله عليه وسلم– وهذا إسناد جيد".

قوله –تبارك وتعالى– هنا: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ}** [(١٤) سورة الصف]: قص الله –عز وجل–علينا ذلك من أجل أن نقتدي بهم، كما قال في الآية الأخرى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ}** [(١٤) سورة الصف]، فذكر الله ذلك من أجل أن تقتدي بهم هذه الأمة في نصرة نبيها –صلى الله عليه وسلم–، والقرآن يفسر بعضه بعضا.

وقوله هنا: **{فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}** أي مع أمة محمد –صلى الله عليه وسلم–، وبعضهم يقول: اكتبنا مع الشاهدين أي: لك بالوحدانية ولنبيك بالرسالة، ويمكن أن يعبر بعبارة أوسع من هذا كما يقول ابن جرير –رحمه الله–: بالحق، أي اكتبنا مع الشاهدين بالحق، ومن الحق الشهادة بالوحدانية، وللنبي –صلى الله عليه وسلم– وأنبيائه بالرسالة وما إلى ذلك من المعاني الداخلة تحتها أو: اكتبنا مع الشهداء الذين يشهدون لأممهم، فالأنبياء يشهدون والأمم تشهد وهذه الأمة تشهد، فلا يخص ذلك بأمة محمد –صلى الله عليه وسلم– باعتبار أن هذه الأمة مما اختصها الله به أن تكون شاهدة على الأمم كما قال تعالى: **{وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ}** [(٧٨) سورة الحـج] ولكن الشاهدين أوسع من هذا، فالأنبياء يشهدون، وأتباع الأنبياء أيضاً يشهدون، كما قال الله –عز وجل–: **{وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء}** [(٦٩) سورة الزمر].

"ثم قال تعالى مخبراً عن بني إسرائيل فيما هموا به من الفتك بعيسى –عليه الصلاة والسلام– وإرادته بالسوء والصلب حين تمالئوا عليه ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان، وكان كافراً فأنهوا إليه أن هاهنا رجلاً يضل الناس ويصدهم عن طاعة الملك، ويفند الرعايا ويفرق بين الأب وابنه، إلى غير ذلك مما تقلدوه في رقابهم ورموه به من الكذب، وأنه ولد زنية، حتى استثاروا غضب الملك، فبعث في طلبه من يأخذه ويصلبه وينكل به، فلما أحاطوا بمنزله، وظنوا أنهم قد ظفروا به نجاه الله تعالى من بينهم، ورفعه من روزنة ذلك البيت إلى السماء، وألقى الله شبهه على رجل كان عنده في المنزل، فلما دخل أولئك اعتقدوه في ظلمة الليل عيسى، فأخذوه وأهانوه وصلبوه ووضعوا على رأسه الشوك، وكان هذا من مكر الله بهم، فإنه نجَّى نبيه ورفعه من بين أظهرهم، وتركهم في ضلالهم يعمهون، يعتقدون أنهم قد ظفروا بطلبتهم، وأسكن الله في قلوبهم قسوة وعناداً للحق ملازماً لهم، وأورثهم ذلة لا تفارقهم إلى يوم التناد، ولهذا قال تعالى: {وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [(٥٤) سورة آل عمران]".

هذا كما قال الله –عز وجل– في الآيات الأخرى: **{وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ}** [(١٥٧) سورة النساء].

"وقوله تعالى: {إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ* فَأَمَّا الَّذِينَ

كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ* وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ* ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ}** [(٥٥-٥٨) سورة آل عمران].

قوله تعالى: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [(٥٥) سورة آل عمران] **المراد بالوفاة هاهنا النوم كما قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ} الآية** [(٦٠) سورة الأنعام]".

العلماء استشكلوا ذكر الوفاة؛ لأن عيسى -صلى الله عليه وسلم- رفع ولم يمت، وبالتالي منهم من ادعى في الآية التقديم والتأخير، أي قال الله: يا عيسى إني رافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا، إلى آخره ثم بعد ذلك متوفيك، وهذا خلاف الأصل، فالأصل أنه إذا دار الكلام بين الترتيب والتقديم والتأخير فالأصل فيه الترتيب.

ومنهم من أجراه على هذا النسق في الترتيب ولم يدَّعِ فيه التقديم والتأخير ثم بعد ذلك اختلفت أقوالهم في تفسير الوفاة، فمن أحسن ما قيل في ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير هنا من أن المقصود بالوفاة هي الوفاة الصغرى؛ لأنها تطلق على الوفاة الكبرى التي هي الموت وتطلق على الوفاة الصغرى التي هي النوم، كما قال تعالى: **{اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ}** [(٤٢) سورة الزمر].

ومنهم من قال: إن الوفاة هنا بمعنى الاستيفاء والقبض، أي أن الله مستوفيك روحاً وجسداً، كما يعبر ابن جرير -رحمه الله- فيقول: أي قابضك إليَّ لكن ليس بمعنى الموت، لكن تقول: فلان استوفى حقه بمعنى أخذه، فتكون الوفاة هنا بمعنى الأخذ والقبض وما أشبه ذلك، وهذا قال به جماعة، ومنهم ابن جرير -رحمه الله-.

ومنهم من يقول غير هذا، لكن ليس المقصود بها الموت قطعاً، وبالتالي فإن قول من قال: إن المقصود أن الله توفاه ست ساعات أو أربع ساعات أو نحو هذا، فهذا كلام يخالف الأدلة التي تدل على رفعه وأنه لم يمت.

ومنهم من يقول: إن المقصود بالوفاة هنا أن نهايته تكون بالوفاة، بمعنى أنهم لن يصلوا إليك وإنما نهايتك لن تكون بالقتل، لكن هذا لا معنى له أن يفسر به قوله تعالى: **{إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ}** [(٥٥) سورة آل عمران]، وعلى كل حال لا يقال -قطعاً-: إنه قد توفي بمعنى مات؛ لأن الله -عز وجل- لا يجمع على الإنسان موتتين بعد نفخ الروح، وأما قوله تعالى: **{رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ}** [(١١) سورة غافر]، فكلام أهل العلم في هذا معروف وهو أن الموتة الأولى هي حينما كانوا نطفاً أو كانوا في حال العدم أو غير ذلك، أما إذا صار إنساناً حياً فيه روح فإنه لا يموت موتتين، فالله -عز وجل- يقول: **{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ}** [(٤٠) سورة الروم] وعيسى -صلى الله عليه وسلم- من جملة هؤلاء الخلق.

"قوله تعالى: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ}، المراد بالوفاة هاهنا النوم، كما قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ} الآية [(٦٠) سورة الأنعام] **وقال تعالى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا} الآية** [(٤٢) سورة الزمر].

وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول إذا قام من النوم: ((الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور))[3]، وقال الله تعالى: {وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا* وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ} [(١٥٦-١٥٧) سورة النساء] إلى قوله ...".

سيأتي -إن شاء الله- في قوله: {وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ} أنها تحتمل أن شبهه ألقي على رجل فظنوا أنه هو كما هو المتبادر، وتحتمل معنى آخر وهو أنه حصل لهم اشتباه والتباس في القضية، ولهذا يفسر هذا القائل قوله تعالى: {وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا} [(١٥٧) سورة النساء] بمعنى أنهم لم يتحققوا هذا الأمر، وهذا كما تقول: قتلت هذه المسألة بحثاً، وهذا ذكره ابن حزم، لكن هذا فيه بعد، والله أعلم..

"وقال الله تعالى: {وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا* وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ} [(١٥٦-١٥٧) سورة النساء] إلى قوله: {وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا* بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا* وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} [(١٥٧-١٥٩) سورة النساء] والضمير في قوله: {قَبْلَ مَوْتِهِ} عائد على عيسى -عليه السلام- أي وإن من أهل الكتاب".

يعني قبل موت عيسى -صلى الله عليه وسلم- بمعنى إذا نزل في آخر الزمان يؤمن به من كان موجوداً من أهل الكتاب، ومعروف أنه يضع الجزية فلا يقبلها، ويحصل على يده ما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم-.

ومن أهل العلم من قال: قوله: {وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ} [(١٥٩) سورة النساء] أي قبل موت الكتابي نفسه، ومعناه أنه لا يموت واحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى الإيمان الصحيح، وهذا نقل عن بعض السلف، عن ابن عباس، حتى قيل له: إن الرجل يقتل أو يموت بلحظة أو يطير رأسه بالسيف، فقال: يؤمن به قبل أن يموت، وهذا خلاف قول عامة السلف فمن بعدهم في تفسير الآية الذين يقولون: {لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ} [(١٥٩) سورة النساء] أي: ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى؛ والقاعدة أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، والمذكور الأقرب هنا هو عيسى -عليه الصلاة والسلام-.

"والضمير في قوله: {قَبْلَ مَوْتِهِ} عائد على عيسى -عليه السلام- أي: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة، على ما سيأتي بيانه، فحينئذ يؤمن به أهل الكتاب كلهم؛ لأنه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام.

وروى ابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال في قوله تعالى: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ} [(٥٥) سورة آل عمران] يعني وفاة المنام، رفعه الله في منامه.

وقوله تعالى: {وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ} [(٥٥) سورة آل عمران] أي برفعي إياك إلى السماء {وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [(٥٥) سورة آل عمران] وهكذا وقع؛ فإن المسيح -عليه السلام- لما رفعه الله إلى السماء تفرقت أصحابه شيعاً بعده، فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا: هو الله، وآخرون قالوا: هو ثالث

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب الدعوات - باب وضع اليد اليمنى تحت الخد اليمنى باب وضع اليد اليمنى تحت الخد اليمنى (٥٩٥٥) (ج ٥ / ص ٢٣٢٧) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٢٧١١) (ج ٤ / ص ٢٠٨٣).

ثلاثة، وقد حكى الله مقالاتهم في القرآن، ورد على كل فريق، فاستمروا على ذلك قريباً من ثلاثمائة سنة، ثم نبغ لهم ملك من ملوك اليونان يقال له: قسطنطين، فدخل في دين النصرانية، قيل: حيلة ليفسده فإنه كان فيلسوفاً، وقيل: جهلاً منه، إلا أنه بدل لهم دين المسيح وحرفه، وزاد فيه ونقص منه، ووضعت له القوانين والأمانة الكبرى التي هي الخيانة الحقيرة، وأحل في زمانه لحم الخنزير".

يعني أن هذا الملك هو الذي أفسد دين النصارى، حتى قيل: إنه أدخل النصرانية في الوثنية ولم يدخل هو في النصرانية وحصل الاجتماع المعروف الشهير في التاريخ وأقروا فيه التثليث، وصار الموحدون مستضعفين مستذلين مضطهدين.

يبقى الإشكال في قوله -تبارك وتعالى- هنا: **{وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}** [(٥٥) سورة آل عمران] يعني ما المراد؟ هل المراد أتباع المسيح من أهل التوحيد من الموحدين؟، فهؤلاء ما كان لهم ظهور بعد عيسى -صلى الله عليه وسلم- بل بالعكس كانوا يتخطفون ويضطهدون، والنصارى مختلفون غاية الاختلاف حتى جاء قسطنطين هذا فزاد في الشر، أو أن المراد **{وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ}** [(٥٥) سورة آل عمران] يعني الذين ينتسبون إلى النصرانية أو قل ممن ينتسبون إلى عيسى -صلى الله عليه وسلم-.

وقوله: **{فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ}** أي فوق الذين كفروا به وهم اليهود، وليس الذين كفروا بالله؛ لأن النصارى لما قالوا بأن الله ثالث ثلاثة ونحو ذلك فهم أيضاً كفروا بالله، لكن النصارى يزعمون أنهم أتباع المسيح، وعلى هذا تكون الآية لا إشكال فيها، ولا شك أن النصارى حصل لهم ظهور على اليهود وصار اليهود يضطهدون في ممالك النصارى فهذا معروف في التاريخ، بل كانوا يتتبعون الواحد بعد الواحد، ويُؤخذون ويقتلون، وحصل أكثر من مرة أن ملوك الرومان واليونان كانوا يتتبعون اليهود حيث صدر أكثر من قرار بتتبع اليهود وقتلهم.

فهؤلاء الأتباع هل المقصود بهم أهل التوحيد أم المقصود بهم من ينتسبون إلى عيسى ولو كانوا على التثليث؟ الحافظ ابن القيم -رحمه الله- يقول: لما كان للنصارى شعبة من أتباع المسيح -عليه الصلاة والسلام- حيث آمنوا بعيسى -صلى الله عليه وسلم- كانوا فوق اليهود، ولما كانت هذه الأمة ملتزمة بالحق كانت ظاهرة على النصارى، فمعنى كلام ابن القيم واضح، وهو أن قوله: **{وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ}** يعني من ينتسبون إليك ولو كانوا من أهل التثليث، فطائفة النصارى فوق طائفة اليهود.

ومن يقول: إن المقصود بالأتباع هم أهل الحق والتوحيد، فهذا الظهور يفسر ببعث محمد -صلى الله عليه وسلم-، وذلك أنه لما جاء محمد -صلى الله عليه وسلم- قتل اليهود وحاربهم وحصل ما حصل، وصاروا في غاية الاستذلال والضعف، ثم لما تُرك اتباعه -صلى الله عليه وسلم- وضيع دينه، علا اليهود وارتفعوا كما هو مشاهد.

"وأحل في زمانه لحم الخنزير، وصلوا له إلى المشرق، وصوروا له الكنائس، وزادوا في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه فيما يزعمون، وصار دين المسيح دين قسطنطين إلا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارات ما يزيد على اثني عشر ألف معبد، وبنى المدينة المنسوبة إليه".

وبعضهم يقول: إنه نقل صومهم من الحر إلى وقت الاعتدال أو البرد، ثم زاده عشرة أيام من أجل المعاوضة، وصار الصوم أربعين يوماً.

قوله: "وبنى المدينة المنسوبة إليه"، يعني القسطنطينية.

"واتبعه الطائفة الملكية منهم، وهم في هذا كله قاهرون لليهود".

توجد طائفة من النصارى معروفة -ذكرها صاحب كتاب الملل والنحل- ينتسبون إلى الملك قسطنطين.

"أيدهم الله عليهم؛ لأنهم أقرب إلى الحق منهم، وإن كان الجميع كفاراً عليهم لعائن الله".

كلام ابن كثير هذا يوافق كلام ابن القيم، وهو أن المقصود بالأتباع هم من ينتسبون إلى عيسى، أي من يدَّعون اتباعه -عليه الصلاة والسلام-.

"فلما بعث الله محمداً -صلى الله عليه وسلم- فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق، كانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض، إذ قد صدقوا الرسول النبي الأمي خاتم الرسل وسيد ولد آدم الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق فكانوا أولى بكل نبي من أمته الذين يزعمون أنهم على ملته وطريقته مع ما قد حرفوا وبدلوا، ثم لو لم يكن شيء من ذلك، لكان قد نسخ الله بشريعته شريعة جميع الرسل بما بعث الله به محمداً -صلى الله عليه وسلم- من الدين الحق الذي لا يغير ولا يبدل إلى قيام الساعة، ولا يزال قائماً منصوراً ظاهراً على كل دين، فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها، واحتازوا جميع الممالك، ودانت لهم جميع الدول، وكسروا كسرى وقصروا قيصر وسلبوهما كنوزهما، وأنفقت في سبيل الله كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم -عز وجل- في قوله: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا..} الآية [(٥٥) سورة النــــور].

ولهذا لما كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقاً، سلبوا النصارى بلاد الشام، وأجلوهم إلى الروم فلجئوا إلى مدينتهم القسطنطينية، ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة، وقد أخبر الصادق المصدوق أمته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية، ويستفيئون ما فيها من الأموال، ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جداً لم يرَ الناس مثلها ولا يرون بعدها نظيرها -وقد جمعت في هذا جزءاً مفرداً- ولهذا قال تعالى: {وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ* فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ} [(٥٥-٥٦) سورة آل عمران]، **وكذلك فعل تعالى في من كفر بالمسيح من اليهود أو غلا فيه أو أطراه من النصارى، عذبهم في الدنيا بالقتل والسبي وأخذ الأموال، وإزالة الأيدي عن الممالك وفي الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق وما لهم من الله من واق.**

{وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ} [(٥٧) سورة آل عمران] **أي: في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالنصر والظفر، وفي الآخرة بالجنات العاليات، {وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}** [(٥٧) سورة آل عمران].

ثم قال تعالى: {ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ} [(٥٨) سورة آل عمران] **أي: هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في أمر عيسى ومبدأ ميلاده وكيفية أمره، هو مما قاله تعالى وأوحاه إليك ونزله عليك من**

اللوح المحفوظ، فلا مرية فيه ولا شك كما قال تعالى في سورة مريم: {ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ* مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [(٣٤-٣٥) سورة مريم]".

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (١١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ* الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ* فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ* إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللّهُ وَإِنَّ اللّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ* فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ} [(٥٩-٦٣) سورة آل عمران].

"يقول -جل وعلا-: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ} في قدرة الله حيث خلقه من غير أب كمثل آدم، فإن الله تعالى خلقه من غير أب ولا أم، بل خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون، فالذي خلق آدم من غير أب وأم قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأحرى، وإن جاز ادعاء البنوة في عيسى لكونه مخلوقاً من غير أب، فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواه في عيسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً، ولكن الرب -جل جلاله- أراد أن يظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى، ولهذا قال تعالى في سورة مريم: {وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ} [(٢١) سورة مريم] **وقال ها هنا: {الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ}** [(٦٠) سورة آل عمران] **أي: هذا القول هو الحق في عيسى الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه، وماذا بعد الحق إلا الضلال.**

ثم قال تعالى آمراً رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يباهل من عاند الحق في أمر عيسى بعد ظهور البيان: {فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ} [(٦١) سورة آل عمران] **أي: نحضرهم في حال المباهلة، ثم نبتهل، أي نلتعن فنجعل لعنة الله على الكاذبين، أي منا أو منكم".**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد..

فقوله -تبارك وتعالى-: **{الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ}** [(٦٠) سورة آل عمران]، هذا الخطاب في ظاهره موجه إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولا حاجة إلى استشكاله؛ لأن الله -عز وجل- يخاطب نبيه -صلى الله عليه وسلم- ويتوجه الخطاب إلى أمته؛ لأنه مقدمها وقدوتها -عليه الصلاة والسلام-.

ومعنى الامتراء في قوله: **{فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ}** أي: من الشاكين في أمر عيسى -عليه الصلاة والسلام-.

وقوله -تبارك وتعالى- بعده: **{فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ}** [(٦١) سورة آل عمران]، أي من حاجك في عيسى من أهل الكتاب من النصارى، هكذا قال كثير من أهل العلم،

ومنهم من ذهب إلى تعميمها ولا إشكال في هذا، على أن أولى من يدخل فيها هم النصارى الذين يقولون: إنه ثالث ثلاثة، أو إنه ابن الله، وذلك أنه لا يدعي أحد غير النصارى مثل هذه الدعاوى في عيسى -عليه الصلاة والسلام- فالآيات في النصارى، لكن لو قال قائل: فمن حاجك فيه من اليهود، بأنه ابن كذا وكذا مما يفترون، فيمكن أن يباهل أيضاً، لكن هذه الآية في الأصل متوجهة إلى النصارى، فهي من الآيات التي نزلت فيهم.

قوله: "{فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ} [(٦١) سورة آل عمران]"، نجد أنه لم يذكر البنات وإنما ذكر الأبناء والنساء والأنفس، فيمكن أن يقال: لأنهن داخلات مع النساء، ومن أهل العلم من يقول: إن الأبناء ذكروا هنا؛ لأنهم هم الذين يحضرون مواطن الخصام دون البنات.

وعلى كل حال النبي -صلى الله عليه وسلم- دعا فاطمة، وأحضر الحسن والحسين وعلياً، ويمكن أن يقال: إنه ذكر أشرف الأولاد وهم الأبناء ليدل بذلك على البنات، فهذا وارد والعلم عند الله -عز وجل-.

وقوله: {ثُمَّ نَبْتَهِلْ} [(٦١) سورة آل عمران] أي: نلتعن، وأصل المباهلة الاجتهاد في الدعاء باللعن وغيره، ثم صارت تستعمل في كل اجتهاد بالدعاء، تقول: فلان يبتهل إلى الله -عز وجل- أن يرزقه وأن يعافيه وأن يدخله الجنة، فهذا الدعاء ليس فيه اجتهاد باللعن، وإنما صار الابتهال يستعمل في معنىً أوسع، والمقصود بها هنا في الآية معنىً خاص وهو الاجتهاد بالدعاء باللعن وغيره على المبطل، وهذه الطريقة ليست من المناظرة وإنما هي لون من المخاصمة لا بالحجاج وإنما بالدعاء على المبطل من الفريقين أن يهلكه وأن يلعنه، إلى غير ذلك مما يمكن أن يدعى عليه.

والمباهلة تكون في هذه المسائل مع الكفار وتكون أيضاً بين المسلمين، ففي بعض مسائل الفرائض حصل من الصحابة كابن عباس -رضي الله عنه- أنه كان يدعو إلى المباهلة فيها، فيقول: من شاء باهلته، وهذا إنما يفعله الإنسان في حال وثوقه التام بما هو عليه من الحق، وقد ذكر بعض أهل العلم كالحافظ ابن حجر -رحمه الله- أنه قد جرت سنة الله -عز وجل- في المبطل ممن دخل في شيء من المباهلة أنه لا يمهل أكثر من سنة، يعني لا يدور الحول عليه إلا وقد نزل به ما دعي به في المباهلة.

"وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا في وفد نجران: أن النصارى حين قدموا فجعلوا يحاجون في عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من البنوة والإلهية، فأنزل الله صدر هذه السورة رداً عليهم، كما ذكره الإمام محمد بن إسحاق بن يسار وغيره".

يعني أن هذا السياق الطويل بهذه التفاصيل يذكرها أصحاب السير، ولكن أصل قدوم وفد نجران ثابت في الصحيحين لكن من غير هذه التفاصيل.

"قال ابن إسحاق في سيرته المشهورة وغيره: وقدم على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وفد نصارى نجران، ستون راكباً، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم يئول إليهم أمرهم، وهم العاقب، واسمه عبد المسيح، والسيد وهو الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل، وأويس بن الحارث وزيد وقيس ويزيد ونبيه وخويلد وعمرو وخالد وعبد الله ويحنس، وأمر هؤلاء يئول إلى ثلاثة منهم، وهم العاقب وكان أمير القوم وذا رأيهم، وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه، والسيد وكان عالمهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم، وأبو حارثة بن علقمة وكان أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدراسهم، وكان رجلاً

من العرب من بني بكر بن وائل، ولكنه تنصر فعظمته الروم وملوكها، وشرفوه وبنوا له الكنائس ومولوه وأخدموه لما يعلمونه من صلابته في دينهم، وقد كان يعرف أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وصفته وشأنه بما علمه من الكتب المتقدمة، ولكن حمله جهله على الاستمرار في النصرانية لما يرى من تعظيمه فيها وجاهه عند أهلها".

المقصود بجهله هنا البغي والتعدي، وليس معناه قلة العلم، فهو كان يعلم، حتى إنه كان مع أخ أو ابن له -كما جاء في السير- وعثرت دابته فقال الذي معه: تعس الأبعد أو كلمة نحوها، فرد عليه هذا أو أضاف ما يدل على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- هو المبعوث حقاً، وأنه هو الذي يجدونه في كتبهم، فلما سأله ذاك عن سبب إعراضه عن الإسلام، قال: أعطونا -أي الروم- ما ترى، فكل ما نحن فيه فهو منهم، فإن تركنا ذلك ذهب كل ما لدينا، وهذا كما يقول المعلمي -رحمه الله- في التنكيل حيث قال: "ومنهم من يكون له في الباطل شهرة ومعيشة"، فهذا مثال عليه، يعني أنه يقتات من هذا الباطل ويكون سبباً لدخله ومعيشته، كأن يكون مغنِّياً أو ممثلاً، وكبعض الصوفية، وكالرافضة الذين ينتسبون لأهل البيت أو نحو هذا ليأخذون الخمس.

"قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن حعفر بن الزبير قال: قدموا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المدينة، فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الحبرات، جبب وأردية، في جمال رجال بني الحارث بن كعب".

هذه الجبب والأردية مخططة تصنع من القطن أو نحو هذا، وهي تجلب من اليمن، والمعنى أنهم دخلوا وهم في حال من الزينة والتهيؤ والأبَّهة.

"قال: يقول من رآهم من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-: ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم، وقد حانت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يصلون، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: دعوهم، فصلوا إلى المشرق".

هذه الروايات في السيرة لا يثبت بها حكم، فأهل السير يتساهلون حيث لم يكن لهم شروط المحدثين، وكثير من أهل العلم يتساهل في رواية هذه الأخبار بشروط معينة، لكن من أهم الشروط ألا يثبت بها عقيدة ولا يثبت بها حكم، ولو طبقت شروط المحدثين على ما في السير لم يبق منها إلا القليل جداً، فمثل هذه لا يثبت فيها حكم، وإلا كان سيقال: إنه يجوز للكفار أن يدخلوا المسجد، وأن يقيموا فيه عباداتهم ولا ينكر عليهم، وهل يقال ذلك في أهل البدع الذين يصلون صلاةً تختلف عن صلاة أهل السنة لو صححنا هذه الرواية؟

لن يكون ذلك لازماً ولو صحت الرواية؛ لأن نهج وطريقة السلف من الإغلاظ على أهل البدع وزجرهم معروفة، فهم لا يمكنون من إظهار بدعهم، لكن لو دخلوا وصلوا مع المسلمين كما يصلي الناس، فهذا لا يمنعون منه؛ لأن الصلاة هي خير ما فعله الناس، فلا يمنعون منها، بل هم يؤمرون بالصلاة أصلاً إذا ما صلوا، لكن لا يُترك المبتدع يفرق الجماعة فيصلي دونهم.

"قال: فكلم رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- منهم أبو حارثة بن علقمة والعاقب عبد المسيح أو السيد الأيهم، وهم من النصرانية على دين الملك، مع اختلاف أمرهم يقولون: هو الله، ويقولون: هو ولد الله، ويقولون: هو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، وكذلك قول النصرانية، فهم يحتجون في قولهم

هو الله، بأنه كان يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص والأسقام، ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً، وذلك كله بأمر الله وليجعله آية للناس.

ويحتجون في قولهم بأنه ابن الله، يقولون: لم يكن له أب يعلم، وقد تكلم في المهد بشيء لم يصنعه أحد من بني آدم قبله.

ويحتجون في قولهم بأنه ثالثة ثلاثة بقول الله تعالى: فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا، فيقولون: لو كان واحداً ما قال إلا: فعلت وقضيت وأمرت وخلقت، ولكنه هو وعيسى ومريم، تعالى الله وتقدس وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً، وفي كل ذلك من قولهم قد نزل القرآن".

يعني نزل القرآن يرد عليهم، ومعلوم أن الواحد يتكلم بضمير الجمع فعلنا وأمرنا ونحو ذلك، و يقصد بذلك تعظيم نفسه، وهذا لا إشكال فيه.

"ثم تكلم ابن إسحاق على التفسير إلى أن قال: فلما أتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الخبر من الله، والفصل من القضاء بينه وبينهم، وأمر بما أمر به من ملاعنتهم إن ردوا ذلك عليه، دعاهم إلى ذلك، فقالوا: يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه، فانصرفوا عنه، ثم خلَوْا بالعاقب، وكان ذا رأيهم، فقالوا: يا عبد المسيح ماذا ترى؟ فقال: والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً لنبي مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنه لَلاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فأتوا النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا ألا نلاعنك، ونتركك على دينك، ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك، ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا، فإنكم عندنا رضاء.

وروى البخاري عن حذيفة -رضي الله تعالى عنه- قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبياً فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعده، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً ولا تبعث معنا إلا أميناً، فقال: لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين، فاستشرف لها أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ورضي عنهم، فقال: ((قم يا أبا عبيدة بن الجراح)) فلما قام قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((هذا أمين هذه الأمة))[1].

وروى البخاري عن أنس -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح))[2].

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال أبو جهل -قبحه الله-: إن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه، قال: فقال: لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عليه

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب المغازي - باب قصة أهل نجران (٤١١٩) (ج ٤ / ص ١٥٩٢).

[2] - أخرجه البخاري في كتاب المغازي - باب قصة أهل نجران (٤١٢١) (ج ٤ / ص ١٥٩٢).

وسلم- لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً[٣] ورواه البخاري[٤] والترمذي والنسائي، وقال الترمذي حسن صحيح".

مثل هذا له حكم الرفع.

"ثم قال الله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ} [(٦٢) سورة آل عمران]، أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا معدل عنه ولا محيد.

{وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ اللّهُ وَإِنَّ اللّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ* فَإِن تَوَلَّوْاْ} [(٦٢-٦٣) سورة آل عمران] أي عن هذا إلى غيره، {فَإِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ} [(٦٣) سورة آل عمران]، أي: من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد والله عليم به، وسيجزيه على ذلك شر الجزاء، وهو القادر الذي لا يفوته شيء، سبحانه وبحمده، ونعوذ به من حلول نقمته.

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [(٦٤) سورة آل عمران]، هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم.

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ} [(٦٤) سورة آل عمران]، والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال هاهنا، ثم وصفها بقوله: {سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} [(٦٤) سورة آل عمران] أي: عدل ونصف، نستوي نحن وأنتم فيها، ثم فسرها بقوله: {أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا} [(٦٤) سورة آل عمران]".

ومما يدل على هذا التفسير بأن سواء بمعنى عدل قراءة ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- فإنها بلفظ عدل بدل سواء، وهذه القراءة ليست متواترة، لكن من المعلوم أن القراءة الشاذة تفسر القراءة المتواترة.

ثم فسرها بقوله: {أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا} [(٦٤) سورة آل عمران].

هذه الآية أصل في دعوة أهل الكتاب، فالذين يجتمعون مع أهل الكتاب فيما يسمونه بالتقريب بين الأديان، هذا باطل لا يجوز، بل هو من أبطل الباطل؛ إذ كيف يجمعون بين الحق والباطل؟

وبعضهم ممن ابتلي بحضور هذه المؤتمرات يزعم بأن ذلك من دعوتهم، وليس كذلك؛ فهم لا يذهبون لدعوتهم، وإنما يذهبون ليجلسون معهم على أساس التقارب بين هذه الأديان، فهم في أحسن أحوالهم يجلسون جلوس الند أو النظير والمماثل، لا يجلس على أنه صاحب حق ويدعوهم إلى الله -عز وجل-، فالواجب هو ما أمر الله -عز وجل- به وهو أن يُدعون فيقال لهم: تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله إلى آخره، فإذا فعلوا ذلك فقد تركوا دينهم وتخلوا عن شركهم، وعن أصل أصولهم وهو عقيدتهم في المسيح -عليه الصلاة والسلام-، هذا هو الأصل في الجلوس معهم، لكن هم لا يقبلون بالجلوس مع من يقول هذا أبداً، إذ يعتبرون هذه فوقية، ومن المعلوم لكل أحد أنهم ما اجتمعوا لمثل هذا أبداً.

---

[٣] - أخرجه أحمد (٢٢٢٥) (ج ١ / ص ٢٤٨) وأبو يعلى (٢٦٠٤) (ج ٤ / ص ٤٧١) وقال شعيب الأرنؤوط: "صحيح".

[٤] - أخرج البخاري الشطر الأول منه في كتاب التفسير - باب تفسير سورة العلق (٤٦٧٥) (ج ٤ / ص ١٨٩٦) ولفظه: "قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ((لو فعله لأخذته الملائكة)).

"ثم فسرها بقوله: {أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا} [(٦٤) سورة آل عمران] لا وثناً ولا صليباً ولا صنماً ولا طاغوتاً ولا ناراً ولا شيئاً، بل نفرد العبادة الله وحده لا شريك له، وهذه دعوة جميع الرسل، قال الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [(٢٥) سورة الأنبياء]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ} [(٣٦) سورة النحل]، ثم قال تعالى: {وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ} [(٦٤) سورة آل عمران]، قال ابن جريج: يعني يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله.

{فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [(٦٤) سورة آل عمران] أي فإن تولوا عن هذا النَّصَف وهذه الدعوة فأشهدوهم أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم.

وفي الكتاب الذي أرسله النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى هرقل: ((بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فأسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون))[٥]".

الأريسيين يُقصد بهم الفلاحين.

"وقد ذكر محمد بن إسحاق وغير واحد أن صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران، وقال الزهري: هم أول من بذل الجزية، ولا خلاف أن آية الجزية نزلت بعد الفتح، فما الجمع بين كتابة هذه الآية قبل الفتح إلى هرقل في جملة الكتاب، وبين ما ذكره محمد بن إسحاق والزهري؟"

الإشكال هو أن آية الجزية من سورة براءة، ولا شك أن سورة براءة آخر ما نزل في القتال، أي ما نزلت إلا بعد فتح مكة، وهي قوله تعالى: **{قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}** [(٢٩) سورة التوبة]، فهذه آية الجزية وهي متأخرة في النزول، وهذا الكتاب الذي كتبه النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى هرقل ذكر فيه الآية، **{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ..}** [(٦٤) سورة آل عمران]، فهل هذه الآية نازلة في وقت مبكر؟

وفد نجران إنما جاء في عام الوفود، وكتاب النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى هرقل وإلى الملوك كان بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة، حيث تفرغ النبي -صلى الله عليه وسلم- للدعوة وكتب إلى الملوك، وهذه الآية مذكورة في كتاب النبي -صلى الله عليه وسلم- لهرقل، فكيف الجواب عن هذا؟

الجواب إما أن يقال: إن هذه الآية كما دل عليه هذا الحديث نازلة قبل ذلك، فليست نازلة في وفد نجران، وهذه الرواية الثابتة في الصحيحين مقدمة على روايات السير التي لا تثبت، فهذا طريق في الترجيح.

---

[٥] - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام والنبوة وأن لا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله (٢٧٨٢) (ج ٣ / ص ١٠٧٤) ومسلم في كتاب الجهاد والسير - باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (١٧٧٣) (ج ٣ / ص ١٣٩٣).

أو يقال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما قصد الآية، ولم تكن قد نزلت؛ بدليل ذكر الواو هنا، ((ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء))، فهي هكذا في الصحيحين، فهذه ليست في الآية، وعلى هذا يكون النبي -صلى الله عليه وسلم- خاطبهم بهذا ولم يقصد الآية، ثم نزلت الآية بعد ذلك موافقة لما ذكره النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيكون ذلك من الموافقات التي وقعت لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقد وقع لعمر -رضي الله عنه- كما هو معلوم جملة من الموافقات، نحو قوله تعالى: **{عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ}** [(٥) سورة التحريم] إلى غير ذلك، فالمقصود أن هذه الآية جاءت موافقة لما كتب النبي -صلى الله عليه وسلم- في خطابه لهرقل، فهذا احتمال.

وإذا قيل: إن الآية هي مقصودة فقد أجاب العلماء على هذه الواو بأنها ليست من الآية، ولكنه خاطبه بكذا، وقال له: ويا أهل الكتاب إلى آخره.

فإما أن نلجأ إلى ترجيح الرواية التي في الصحيح على رواية السير، وإما أن نجيب بما سبق، والله أعلم..

وعلى كل حال فإن وفادتهم ثابتة في الصحيحين، ولا إشكال فيها، لكن الكلام في التفاصيل، هل هذه الآيات نزلت فيهم فعلاً؟ هذا ليس في الصحيحين، وعلى كل حال فالقول بأن سبب نزول هذه الآيات كلها هو وفد نصارى نجران لا أعرف عليه دليلاً صحيحاً، وإنما غاية ما فيه هي الروايات والأخبار التي في السير، وهذه الروايات لا يثبت بها حكم كما سبق، فإن قام ما يعارضها فعندئذ تطبق شروط المحدثين دون تساهل.

وبالنسبة لمسألة الجزية، هل أخذت من وفد نجران أم لا، وهل هي المقصودة بقول العاقب والسيد لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- كما في البخاري: "**إنا نعطيك ما سألتنا وابعث معنا رجلاً أميناً**"؟

كتب السير تذكر أن الجزية أخذت من نصارى نجران، وأنها أول جزية أخذت، لكن الجزية ما نزلت الآية فيها إلا متأخرة، وهي قوله: **{حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ}** [(٢٩) سورة التوبة]، إذاً: ما الذي طلبه منهم النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ من أهل العلم من يقول: إن ذلك وقع على سبيل المصالحة، إلا أن روايات السير تذكر أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أرسل إليهم يدعوهم إلى الإسلام، فإن أبوا فإنهم يدفعون الجزية، فإن أبوا فالقتال، فهل يقال إن الآية متأخرة في النزول بعد تقرير الحكم مثل آية الوضوء **{إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ...}** [(٦) سورة المائدة] حيث إنها لم تنزل إلا بالمدينة ومع ذلك لم يكونوا يصلون في مكة بدون وضوء، وإنما هذا يعتبر مما نزل بعد تقرير الحكم، فالنزول أحياناً يكون مع الحكم وهذا هو الغالب، وأحياناً يكون قبل الحكم، وأحياناً بعده -وليس المقصود هنا بالحكم الحلال والحرام، وإنما المقصود مقتضى الآية وما تضمنته من الحديث عن شيء قد وقع أو لم يقع بعد- وهذا الأخير مثل قوله تعالى: **{سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ}** [(٤٥) سورة القمر]، حتى قال عمر -رضي الله عنه-: أي جمع؟ فرأى ذلك في يوم بدر، فهذه نزلت قبل تقرير الحكم أي أنها تحدثت عن شيء لم يقع بعد، فهل آية الجزية نزلت بعد تقرير الحكم -يعني عكس آية سورة القمر ومثل آية الوضوء-؟

يحتمل أن يكون تقرير حكم الجزية كان أولاً ثم بعد ذلك نزلت الآية التي تتحدث عنها، ويمكن أن يكون النبي -صلى الله عليه وسلم- صالحهم على شيء موافقاً لما هو مقرر أخذه في الجزية، فجاءت بعد ذلك فريضة الله -عز وجل- في الجزية موافقة له، ويمكن أن يكون صالحهم على شيء اتفق معهم عليه، ثم جاء حكم

الجزية بتفاصيلها بعد الفتح، وهذا يكون مثل ما يقال في الزكاة، حيث إن سورة الأنعام -المكية باتفاق- يقول الله -عز وجل- فيها: {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [(١٤١) سورة الأنعام]، والمراد بالحق في الآية -على الأرجح- أنها الزكاة، فالزكاة فرضت آنذاك، لكن المقادير والأموال الزكوية وما أشبه ذلك من الأنصباء إنما فرض في المدينة، أما أصل الزكاة فقد كان يُخرج الإنسان في يوم الحصاد شيئاً غير مقدر، يعطيه من حضره من الفقراء، امتثالاً لقوله تعالى:، {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [(١٤١) سورة الأنعام] أي أن حقه هي الزكاة، ومن أهل العلم من يقول: في المال حق سوى الزكاة، وأنه هو المراد هنا، ثم نزلت الزكاة إضافةً إلى ذلك، والله أعلم.

"والجواب: أن قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية، وأن الذي بذلوه مصالحة عن المباهلة لا على وجه الجزية، بل يكون من باب المهادنة والمصالحة، ووافق نزول آية الجزية بعد ذلك على وفق ذلك، كما جاء فرض الخمس والأربعة أخماس وفق ما فعله عبد الله بن جحش -رضي الله تعالى عنه- في تلك السرية قبل بدر، ثم نزلت فريضة القسم على وفق ذلك".

على هذا القول وفد نجران لم يأت في عام الوفود، ومعنى ذلك -على هذا القول- تكون الآيات نزلت في وفد نجران قبل الحديبية، ثم بعد ذلك كتب النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى الملوك بعد صلح الحديبية وكانت الآية قد نزلت في وفد نصارى نجران، لكن هذا الكلام لا يقطع به؛ إذ ليس فيه دليل يثبت هذا، لكن هو أحد الأجوبة.

"ويحتمل أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لما أمر بكتب هذا في كتابه إلى هرقل لم يكن أُنزل بعد، ثم أنزل القرآن موافقة له -صلى الله عليه وسلم-".

على كل حال هذان جوابان ذكرهما الحافظ ابن كثير، وذكر بعضهم غير هذا، كمن سلك طريق الترجيح.

"كما نزل بموافقة عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- في الحجاب وفي الأسارى، وفي عدم الصلاة على المنافقين، وفي قوله: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [(١٢٥) سورة البقرة]، وفي قوله: {عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ} الآية [(٥) سورة التحريم]".

من الأجوبة أنها نزلت مرتين، نزلت مرة متقدمة، ثم بعد ذلك نزلت مع الآيات حين قدم وفد نصارى نجران، وهذه كلها -طبعاً- دعاوى لا دليل عليها، لكن هي احتمالات وأجوبة تذكر لحل الإشكال، ولا يمتنع نزول الآية أكثر من مرة، حيث يمكن أن تنزل الآية مرتين، وأقرب ما يوضح ذلك بقية الأحرف الستة؛ لأن القرآن كان ينزل على حرف قريش في مكة، ثم بعد أن هاجر النبي -صلى الله عليه وسلم- نزلت الأحرف الستة الباقية، ومعنى ذلك أنه نزلت تلك الآيات مرة أخرى، ومما نزل أكثر من مرة قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ} [(١٢٦) سورة النحل]، نزلت في يوم أحد، ونزلت والنبي -صلى الله عليه وسلم- في طريقه إلى مكة عام الفتح في قصة سعد بن عبادة لما قال ما قال.

ومن أمثلة ذلك أيضاً لما قال المشركون: صف لنا ربك، فأنزل الله: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [(١) سورة الإخلاص]، وهذا كان بمكة، و سأله اليهود مثل هذا السؤال في المدينة فأنزل الله -عز وجل- هذه السورة، فعلى هذا يمكن أن يقال: إن الآية نزلت مرتين، وهو أيضاً احتمال؛ لأن نفس حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- وإن

كان في الصحيح- يقول: فرفع النبي -صلى الله عليه وسلم- فعرفت أنه يوحى إليه، فقد يكون رفع رأسه ينتظر الوحي، فلم ينزل عليه بسورة جديدة أو بآية جديدة فقرأ عليهم السورة السابقة نفسها: **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}** [(١) سورة الإخلاص]، ويحتمل أيضاً أنها نزلت عليه مرة ثانية وليس ذلك بممتنع كما سبق، فالآية قد تنزل مرة أخرى تذكيراً بالحكم، أو لبيان أن حكم هذه النازلة أو هذه الواقعة أو نحو ذلك هو نفس حكم ما قبلها، وأمثلة هذا كثير، والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (١٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ومصطفاه، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً مباركاً فيه، وبعد.

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى-: "ينكر -تبارك وتعالى- على اليهود والنصارى في محاجتهم في إبراهيم الخليل -عليه السلام- ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم.

كما روى محمد بن إسحاق بن يسار عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ..} الآية [(٦٥) سورة آل عمران]، أي كيف تدعون أيها اليهود أنه كان يهودياً، وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى، وكيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانياً، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر؟ ولهذا قال تعالى: {أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [(٦٥) سورة آل عمران].

ثم قال تعالى: {هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ..} الآية [(٦٦) سورة آل عمران]، هذا إنكار على من يحاجُّ فيما لا علم له به، فإن اليهود والنصارى تحاجوا في إبراهيم بلا علم، ولو تحاجوا فيما بأيدهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعثة محمد -صلى الله عليه وسلم- لكان أولى بهم، وإنما تكلموا فيما لم يعلموا به، فأنكر الله عليهم ذلك، وأمرهم برد ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم الأمور على حقائقها وجلياتها، ولهذا قال تعالى: {وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [(٦٦) سورة آل عمران]، ثم قال تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا} [(٦٧) سورة آل عمران]، أي متحنفاً عن الشرك قاصداً إلى الإيمان، {وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(٦٧) سورة آل عمران]، وهذه الآية كالتي تقدمت في سورة البقرة: {وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ...} الآية [(١٣٥) سورة البقرة].

ثم قال تعالى: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} [(٦٨) سورة آل عمران]، يقول تعالى: أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه، {وَهَذَا النَّبِيُّ} يعني محمداً -صلى الله عليه وسلم-، {وَالَّذِينَ آمَنُواْ} من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بعدهم.

روى سعيد بن منصور عن ابن مسعود -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن لكل نبي ولاة من النبيين، وإن وليي منهم أبي وخليل ربي عز وجل)) ثم قرأ: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ..} الآية [(٦٨) سورة آل عمران][1]،

قوله: {وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} [(٦٨) سورة آل عمران] أي: ولي جميع المؤمنين برسله".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد..

فهذه الآية تتحدث عن تنازعهم في إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- فإن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- تنازعته الطوائف، كل طائفة تضيفه إليها وتدعي أنه منها، وسبب النزول الذي ذكره هنا لا يصح، وسواء كان هذا هو سبب نزول الآية أو لم يكن، فمن المعلوم أن اليهود يقولون: إن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- كان منهم، والنصارى كذلك يقولون: إنه منهم، وهذا الآية رد عليهم.

وقوله فيها: **{هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ}** [(٦٦) سورة آل عمران]، المقصود بذلك أنهم حينما يحاجون فيما أنزل عليهم مما بين أيدهم من كلام الله -عز وجل-، وما بلغهم علمه، فإن ذلك أمر سائغ، وأما محاجتهم في أمر كهذا، وهو أن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- كان يهودياً أو نصرانياً، فإن هذا أمر لا يسوغ بل هو مناقض للعقل والواقع، وذلك أن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- كان قبل موسى وعيسى بزمن طويل، فعلى كل حال هذا هو المراد بقوله تعالى: **هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ}** [(٦٦) سورة آل عمران] والله أعلم.

"{وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ* يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ* يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ* وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ* وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ* يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [(٦٩-٧٤) سورة آل عمران] **يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين وبغيهم إياهم الإضلال وأخبر أن وبال ذلك إنما يعود على أنفسهم وهم لا يشعرون أنهم ممكورٌ بهم".**

قوله تعالى: **{وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ}** [(٦٩) سورة آل عمران] هنا كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- على أن الإضلال على ظاهره، وهو إزاغة أهل الإيمان وصرفهم عن الحق، وهذا الذي يدل عليه سبب النزول وتدل عليه الآيات الأخرى.

ومن أهل العلم من يحمل ذلك على معنى الإهلاك، كابن جرير -رحمه الله- **{وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ}** [(٦٩) سورة آل عمران] أي: وما يهلكون إلا أنفسهم، والإهلاك هو من لوازم الإضلال، وليس هو معنى الإضلال، والله أعلم.

---

1 - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب تفسير سورة آل عمران (٢٩٩٥) (ج ٥ / ص ٢٢٣) وأحمد (٤٠٨٨) (ج ١ / ص ٤٢٩) والحاكم (٣١٥١) (ج ٢ / ص ٣٢٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢١٥٨) وهو في كتاب التفسير من سنن سعيد بن منصور.

"ثم قال تعالى منكراً عليهم: **{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ}** [(٧٠) سورة آل عمران] أي: تعلمون صدقها وتتحققون حقها".

يقول سبحانه: **{لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ}**، قال ابن كثير: "أي **تعلمون صدقها وتتحققون حقها**"، يعني تعلمون أنها حق من الله تعالى، وهذا الذي عليه كثير من المفسرين من المحققين كابن جرير وابن القيم. ومن أهل العلم من يقول: إن قوله: **{وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ}** أي: ما في كتبكم من ذلك، يعني أنكم تجدونه في كتبكم، أو **{وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ}** بمثلها من آيات الأنبياء، يعني أنتم لماذا تقرون للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- والنبي -صلى الله عليه وسلم- قد جاء بنظير ذلك من الآيات ثم تنكرونها؟!

وهذه الأقوال غير متعارضة، فالله -عز وجل- ينكر عليهم هذا الكفر بآيات الله، وهم يعلمون أنها حق، باعتبار أنها موجودة في كتبهم، وعندهم أدلة تدل على أنها حق مما رأوا من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من دلائل نبوته، فلا تعارض في هذا حيث يعرفون نعته -صلى الله عليه وسلم-، وأن الدين عند الله الإسلام.

"{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} [(٧١) سورة آل عمران] **أي: تكتمون ما في كتبكم من صفة محمد -صلى الله عليه وسلم- وأنتم تعرفون ذلك وتتحققونه".**

قوله: **{لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ}** اللبس المقصود به الخلط، أي لِمَ تخلطون الحق بالباطل؟، ومن أهل العلم من يقول: إن هذا الخلط المقصود به خلط اليهودية والنصرانية بالإسلام، وهذا فعلاً من لبس الحق بالباطل، ومنهم من يقول كابن جرير: إن المراد بذلك إظهار الإيمان باللسان والبقاء على يهوديتهم أو نصرانيتهم في قلوبهم، يعني حينما أظهروا ذلك حيث منهم من أظهر هذا -كما سيأتي- بدليل قوله تعالى: **{وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}** [(٧٢) سورة آل عمران].

وعلى كل حال لبس الحق بالباطل يدخل فيه هذا، فكل ذلك من لبس الحق بالباطل، ويدخل فيه أيضاً والله أعلم ما كانوا يحرفونه، ومنه ما يحصل من ليِّهم ألسنتهم بالكتاب من أجل أن يوهموا أنه من كتاب الله -عز وجل- وليس كذلك، ويحصل أيضاً بأنواع التحريف كتحريف الألفاظ وتحريف المعاني، فهذا كله من خلط الحق بالباطل، إلى غير ذلك مما يحصل به هذا التخليط.

"{وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ..} الآية [(٧٢) سورة آل عمران]، هذه مكيدة أرادوها ليلبِّسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم".**

المراد بوجه النهار أول النهار وهو أحسنه.

"وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين، ولهذا قالوا: لعلهم يرجعون.

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: في قوله تعالى إخباراً عن اليهود بهذه الآية، يعني يهوداً صلت مع النبي -صلى الله عليه وسلم- صلاة الفجر وكفروا آخر النهار مكراً منهم، ليُروا الناس أن قد بدت لهم منه الضلالة بعد أن كانوا اتبعوه".

يعني اليهود أهل كتاب وأهل علم فإذا دخلوا في الإسلام استبشر الناس من أهل الإيمان، فإذا رجعوا قال الناس: إن هؤلاء ما رجعوا إلا وقد اطلعوا على أمور تدل على بطلان هذا الدين، وأنه ليس من عند الله -عز وجل-.

"**وقوله تعالى: {وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ}** [(٧٣) سورة آل عمران] **أي: لا تطمئنوا وتظهروا سرَّكم وما عندكم إلا لمن تبع دينكم، ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم".**

هذه الآية تحتمل وجوهاً من المعنى، فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ}** [(٧٣) سورة آل عمران] حمله ابن كثير على معنى "**لا تطمئنوا وتظهروا سرَّكم وما عندكم إلا لمن تبع دينكم**".

ومعنى **{وَلاَ تُؤْمِنُواْ}** أي: لا تخبروا أحداً بما عندكم في الكتاب مما يمكن أن يحتج به عليكم، أو يكون سبباً لإيمان أحد برسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلا تخبروا بهذه الحقائق إلا أتباع دينكم، فهذا احتمال، لكن يرد على هذا أيضاً أنهم إن أخبروا أتباع دينهم فقد يكون ذلك سبباً لإسلامهم أيضاً.

فعلى كل حال المعنى الآخر الذي تحتمله الآية **{وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ}** [(٧٣) سورة آل عمران] أنهم قالوا ذلك على وجه الحسد لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، حيث إنهم كانوا قد نزلوا في المدينة أصلاً انتظاراً لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- حيث قد قرب زمان بعثته، فكانوا ينتظرونه ويتوعدون العرب باتباعه وقتلهم معه، فلما بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من العرب، حسدوه وناصبوه العداوة، فقالوا: **{وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ}** [(٧٣) سورة آل عمران] يعني هذا النبي العربي لا تؤمنوا به ولا تصدقوه، وهذا هو الظاهر المتبادر من الآية، أي أنهم يتواصون بعدم الإيمان، ويقولون: يمكن أن يدخل بعضنا في هذا الدين على سبيل الخدعة والمكر ثم يرتد في آخر النهار من أجل أن يزلزلهم وأن يشككهم، أما الإيمان الحقيقي والمتابعة فإن ذلك لا يكون إلا لمن كان على ديننا، أي إلا لمن كان من اليهود.

وقوله: **{قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ}** [(٧٣) سورة آل عمران] هذه جملة اعتراضية -على الأرجح- من كلام الله -عز وجل-، وما بعدها يكون من بقية كلام اليهود، فيكون الكلام هكذا: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم.

ومن أهل العلم من يقول: إن ما بعدها متصل بها هكذا: **{قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ}** [(٧٣) سورة آل عمران] فيكون من كلام الله -عز وجل-.

والأقرب والله أعلم أنها جملة اعتراضية، وكلام أهل العلم في هذه الآية كثير، وهذه الآية أكثر الآيات في سورة آل عمران إشكالاً، وقد اختلفت فيها أقوال السلف وأقوال أهل الإعراب والمعاني، إضافةً إلى سائر المفسرين.

"**قال الله تعالى: {قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ}** [(٧٣) سورة آل عمران] **أي: هو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان بما ينزله على عبده ورسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- من الآيات البينات والدلائل القاطعات**

والحجج الواضحات، وإن كتمتم أيها اليهود ما بأيدكم من صفة محمد النبي الأمي في كتبكم التي نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين.

وقوله: {أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ} [(٧٣) سورة آل عمران] **يقولون: لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين فيتعلموه منكم، ويساووكم فيه ويمتازوا به عليكم لشدة الإيمان به.**

{أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ} أي: يتخذوه حجةً عليكم بما في أيديكم فتقوم به عليكم الدلالة وتتركب الحجة في الدنيا والآخرة".

قوله: **{أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ}** [(٧٣) سورة آل عمران] يعني يقولون: لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، فإذا فسر ذلك بالإخبار كما قال ابن كثير: لا تؤمنوا أي: لا تطلعوهم على ما عندكم من الحقائق التي تدل على صدق ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم-، إذا فسر بذلك يكون معنى **{أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ}** كأنه يقول: كراهة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، يعني ستستوون مع هؤلاء الأميين في العلم الذي خصكم الله -عز وجل- به بما أنزل عليكم من كتب، وأرسل إليكم من رسل، أو بعث فيكم من أنبياء، أو يحاجوكم بهذه العلوم التي اختصكم الله بها وأطلعكم عليها إذا أظهرتموها لهم فيكون فيها حجة لهم عليكم.

وإذا فسر بأن المراد بقولهم: **{وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ}** [(٧٣) سورة آل عمران] أي الإيمان المعروف، يكون معنى **{أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ}** أي أن تكون النبوة والرسالة في غيركم، وقد كانت في بني إسرائيل مدداً متطاولة، بل كل الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- والرسل بعد إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- سوى إسماعيل كانوا في بني إسرائيل، وكان في الزمن الواحد يوجد عشرات الأنبياء، فبنو إسرائيل كان يسوسهم الأنبياء.

فالمقصود أنهم يقولون: إذا أقررتم لهؤلاء، أو أقررتم بنبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- فإن هذا يقتضي أن يساووكم في الفضل، أو يحاجوكم به عند ربكم، ولهذا قال بعده: **{قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ}** [(٧٣) سورة آل عمران]، وكما قال الله -عز وجل- في الآية الأخرى: **{أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا}** [(٥٤) سورة النساء]، فقوله: **{أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ}** يعني يحسدون محمداً -صلى الله عليه وسلم- أو يحسدون هؤلاء العرب على ما آتاهم الله من فضله.

ومن أهل العلم من يقول: إن قوله -تبارك وتعالى-: **{أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ}** متعلق بمحذوف أي: فعلتم ذلك لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، يعني أن ما بكم من الحسد والبغي أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من فضل العلم والكتاب دعاكم إلى أن قلتم ما قلتم، فيكون من تمام الجملة قوله: **{قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ}** [(٧٣) سورة آل عمران] وعلى هذا يكون كلام اليهود انتهى عند قوله تعالى: **{وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ}** [(٧٣) سورة آل عمران] بمعنى أن قوله: **{قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ}** [(٧٣) سورة آل عمران] من كلام الله -تبارك وتعالى- ردّاً عليهم، أي أنه يقول لهم: لماذا تتواصون ألا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، فالفضل بيد الله -عز وجل- وإنما فعلتم ذلك أو قلتم ما قلتم من أجل الحسد والبغي من أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من فضل العلم والكتاب، فهذا هو الذي دعاكم إلى أن تقولوا ما قلتم.

وبعضهم يقول: قوله: {أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ} من تمام كلامهم، بمعنى أنهم يقولون: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم كراهية أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم على أن قوله: {قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ} جملة اعتراضية، ولعل هذا القول هو المتبادر والأقرب من ظاهر السياق، وهو الأقل تكلفاً، والله أعلم.

قوله: {أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ} [(٧٣) سورة آل عمران] بناءً على أن القضية تتصل بالمعلومات وإطلاع الأميين أو المسلمين على بعض ما في كتبهم تكون هذه الجملة {أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ} معطوفة على الجملة التي قبلها {أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ} والمعنى لا تطلعوهم على ذلك فيساووكم في الفضل أو يتخذوا ذلك حجةً عليكم.

وأما إذا فسر الإيمان بمعنى الإقرار والتصديق والإذعان في قوله: {وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ} [(٧٣) سورة آل عمران] فيمكن أن يكون بهذا معطوفاً على {أَن يُؤْتَى} أي: لا تؤمنوا إيماناً صحيحاً لغير أتباع دينكم؛ من أجل ألا يساووكم في الفضل ولا يعُد لكم مزية، ولئلا يتخذ المسلمون ذلك حجةً يحتجون بها عليكم.

لذلك لم يكن شيءٌ أشدَّ على اليهود من دخول بعض علمائهم في الإسلام مثل عبد الله بن سلام -رضي الله عنه- لأنهم يلزمون به ويصير ذلك حجة على إخوانهم حيث يقال لهم: هؤلاء من أتباعكم أقرّوا وصدَّقوا بالرسول -صلى الله عليه وسلم- وآمنوا به، فمن هنا هم يتواصون بهذا ويقولون: لا أحد يظهر منه الإيمان الحقيقي إلا أن يكون من باب التمثيل أو المكيدة؛ لئلا يستوي أحد معكم في الفضل أو يتخذ ذلك حجة عليكم.

وعلى كل حال مثل هذا القول قريب، وهو أقل الأقوال تكلفاً، وإلا فإن أقوال أهل العلم في الآية كثيرة جداً، ومن ذلك أن المحاجة في قوله: {أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ} يمكن أن تكون في الآخرة عند الله تعالى وهو ظاهر أيضاً، والله تعالى أعلم..

"قال الله تعالى: {قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء} [(٧٣) سورة آل عمران] أي الأمور كلها تحت تصرفه، وهو المعطي المانع، يمن على من يشاء بالإيمان والعلم والتصور التام، ويضل من يشاء فيعمي بصره وبصيرته، ويختم على قلبه وسمعه، ويجعل على بصره غشاوة، وله الحجة التامة والحكمة البالغة {وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [(٧٣) سورة آل عمران].

{يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [(٧٤) سورة آل عمران]، أي: اختصكم أيها المؤمنون من الفضل بما لا يُحدُّ ولا يوصف، بما شرف به نبيكم محمداً -صلى الله عليه وسلم- على سائر الأنبياء، وهداكم به إلى أكمل الشرائع.

{وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ* بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [(٧٥-٧٦) سورة آل عمران].

يخبر تعالى عن اليهود بأن فيهم الخونة، ويحذر المؤمنين من الاغترار بهم، فإن منهم من إن تأمنه بقنطار، أي من المال، يؤده إليك، أي وما دونه بطريق الأولى أن يؤديه إليك، {وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا} أي: بالمطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقك، وإذا كان هذا

صنيعه في الدينار فما فوقه أولى أن لا يؤديه إليك، وقد تقدم الكلام على القنطار في أول السورة، وأما الدينار فمعروف.

وقوله: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ} أي: إنما حملهم على جحود الحق أنهم يقولون: ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأميين، وهم العرب، فإن الله قد أحلها لنا، قال الله تعالى: {وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} أي: وقد اختلقوا هذه المقالة وائتفكوا بهذه الضلالة، فإن الله حرم عليهم أكل الأموال إلا بحقها، وإنما هم قوم بهت.

روى عبد الرزاق عن صعصعة بن يزيد أن رجلاً سأل ابن عباس، فقال: إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة، قال ابن عباس: فتقولون ماذا؟ قال: نقول: ليس علينا بذلك بأس، قال: هذا كما قال أهل الكتاب: ليس علينا في الأميين سبيل، إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم.

ثم قال تعالى: {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى} [(٧٦) سورة آل عمران] أي: لكن من أوفى بعهده واتقى منكم يا أهل الكتاب الذي عاهدكم الله عليه من الإيمان بمحمد -صلى الله عليه وسلم- إذا بعث، كما أخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأممهم بذلك، واتقى محارم الله تعالى، واتبع طاعته وشريعته التي بعث بها خاتم رسله وسيد البشر، فإن الله يحب المتقين".

في قوله تعالى: {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى} [(٧٦) سورة آل عمران]، يقول ابن كثير -رحمه الله-: "**أي لكن من أوفى بعهده واتقى منكم يا أهل الكتاب الذي عاهدكم الله عليه من الإيمان**.." إلى آخره.

ومن أهل العلم من يجعل قوله: {بَلَى} مفصولاً عما بعده، بمعنى بلى عليكم سبيل ما دمتم تقولون: ليس علينا في الأميين سبيل، ثم أتى بجملة استئنافية تقرر معنىً، وهو الثناء على الموفين بعهدهم والوعد الجميل لهم، {مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [(٧٦) سورة آل عمران]، هذا احتمال، وإن كان ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- هو المتبادر من ظاهر السياق، والله أعلم.

"{إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [(٧٧) سورة آل عمران].

يقول تعالى: إن الذين يعتاضون عما عاهدوا الله عليه من اتباع محمد -صلى الله عليه وسلم- وذكر صفته للناس وبيان أمره، وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة، الآثمة بالأثمان القليلة الزهيدة، وهي عروض هذه الحياة الدنيا الفانية الزائلة، {أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ} أي: لا نصيب لهم فيها ولا حظَّ لهم منها.

{وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} أي: برحمة منه لهم، يعني لا يكلمهم كلام لطف بهم، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة، {وَلاَ يُزَكِّيهِمْ} أي: من الذنوب والأدناس، بل يأمر بهم إلى النار ولهم عذاب أليم".

لماذا قال هنا: "**لا يكلمهم كلام لطف بهم**" وقال: "**ولا ينظر إليهم بعين الرحمة**"؟

قال ذلك لأنه يكلمهم كلاماً فيه توبيخ لهم كما قال تعالى: {قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} [(١٠٨) سورة المؤمنون] فهذا تكليم لهم، لكن المقصود أنه لا يكلمهم كلام تكريم ولطف، فلهذا قيده، وكذلك قال: لا ينظر إليهم بعين الرحمة؛ لأن الله ينظر إلى خلقه أجمعين وهو مطلع عليهم وبصره نافذ فيهم، لكن النظر يطلق على معنىً خاص، وهذا هو المنفي هنا.

"وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية الكريمة، فلنذكر بعضاً منها:

الحديث الأول:

روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم)) قلت: يا رسول الله، من هم خابوا وخسروا؟ قال: وأعاده رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثلاث مرات قال: ((المسبل والمنفق سلعته بالحلف الكاذب والمنان))[٢] ورواه مسلم وأهل السنن.

الحديث الثاني:

روى الإمام أحمد عن عدي بن عميرة الكندي قال: خاصم رجل من كندة يقول له امرؤ القيس بن عابس، رجلاً من حضرموت إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في أرض، فقضى على الحضرمي بالبينة، فلم يكن له بينة، فقضى على امرئ القيس باليمين، فقال الحضرمي: إن أمكنته من اليمين يا رسول الله ذهبتْ ورب الكعبة أرضي، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((من حلف على يمين كاذبة ليقتطع بها مال أحد، لقي الله -عز وجل- وهو عليه غضبان)) قال رجاء أحد رواته: وتلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً} [(٧٧) سورة آل عمران] فقال امرؤ القيس: ماذا لمن تركها يا رسول الله؟ فقال: ((الجنة)) قال: فاشهد أني قد تركتها له كلها [ورواه النسائي][٣].

الحديث الثالث:

روى أحمد عن عبد الله قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله -عز وجل- وهو عليه غضبان))، فقال الأشعث: فيَّ والله كان ذلك، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض جحدني، فقدمته إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ألك بينة؟))، قلت: لا. فقال لليهودي: ((احلف))، فقلت: يا رسول الله إذن يحلفَ فيذهبَ مالي، فأنزل الله -عز وجل-: {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً..} الآية [(٧٧) سورة آل عمران] [أخرجاه][٤].

الحديث الرابع:

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، رجل منع ابن السبيل فضل ماء عنده، ورجل حلف على

---

2 - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم (١٠٦) (ج ١ / ص ١٠٢) وأبو داود في كتاب اللباس - باب ما جاء في إسبال الإزار (٤٠٨٩) (ج ٤ / ص ١٠٠) وأحمد (٢١٣٥٦) (ج ٥ / ص ١٤٨) والترمذي في كتاب البيوع - باب ما جاء فيمن حلف على سلعة كاذبة (١٢١١) (ج ٣ / ص ٥١٦) والدارمي في كتاب البيوع - باب في اليمين الكاذبة (٢٦٠٥) (ج ٢ / ص ٣٤٥).

3 - أخرجه أحمد (١٧٧٥٢) (ج ٤ / ص ١٩١) والنسائي في السنن الكبرى (٥٩٩٦) (ج ٣ / ص ٤٨٦) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

4 - أخرجه البخاري في كتاب الخصومات - باب كلام الخصوم بعضهم في بعض (٢٢٨٥) (ج ٢ / ص ٨٥١) ومسلم في كتاب الإيمان - باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار (١٣٨) (ج ١ / ص ١٢٢).

سلعة بعد العصر -يعني كاذباً- ورجل بايع إماماً فإن أعطاه وفّى له وإن لم يعطه لم يفِ له)) ورواه أبو داود والترمذي وقال الترمذي: حسن صحيح[5].

{وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [(٧٨) سورة آل عمران].

يخبر تعالى عن اليهود -عليهم لعائن الله- أن منهم فريقاً يحرفون الكلم عن مواضعه، ويبدلون كلام الله، ويزيلونه عن المراد به، ليوهموا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك، وينسبونه إلى الله وهو كذب على الله، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله، ولهذا قال الله تعالى: {وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [(٧٨) سورة آل عمران]، وقال مجاهد والشعبي والحسن وقتادة والربيع بن أنس: {يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ} يحرفونه، وهكذا روى البخاري عن ابن عباس أنهم يحرفون ويزيدون".

يقول تعالى: **{يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ}** أصل اللّي هو الميل بمعنى التحريف، ويدخل فيه تحريف الألفاظ وتحرف المعاني.

"وليس أحد من خلق الله يزيل لفظ كتاب من كتب الله، لكنهم يحرفونه، يتأولونه على غير تأويله".

هذا الأثر عن ابن عباس معناه أن التحريف إنما هو من جهة المعنى فقط؛ لأن التحريف لا يكون في الألفاظ، لأنهم لا يستطيعون ذلك، وهذا قول قال به بعض أهل العلم، في مسألة معروفة وهي هل الكتب التي حُرِّفت هل حرفوا ألفاظها أم أن المقصود بالتحريف هو تحريف المعاني؟

من أهل العلم من يقول هذا، ومنهم من يقول هذا، وابن عباس في هذا الأثر ذكر أنه يكون في المعاني بمعنى أنه يقع في تحريف تفسيرها،، وقد ذكر البخاري هذا الأثر تعليقاً وكأنه -رحمه الله- يرجح هذا، وبهذا لا يختص ذلك بأهل الكتاب، وإنما هو موجود أيضاً عند طوائف من هذه الأمة من المعتزلة والرافضة ونحوهم ممن حرفوا كتاب الله -عز وجل-، فكل منهم يحمله على غير معناه متبعاً للهوى، فهذا من التحريف، فالتحريف المعنوي لا يختص باليهود ولا بالنصارى بل هو موجود في هذه الأمة.

وبالنسبة للكلام في تحريف الألفاظ أخبر الله -عز وجل-عن التوراة أن حفظها موكول إلى الأحبار والربانيين، قال الله -عز وجل-: **{بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء}** [(٤٤) سورة المائدة] فهو سبحانه وكل حفظها إليهم، فكان ذلك فرقاً بينها وبين القرآن، فالقرآن تعهد الله بحفظه، وهذه وكلها إلى علمائهم فحرفت وبدلت، وبقي القرآن محفوظاً.

هذان قولان، وهناك قول ثالث، وهو أن التحريف إنما وقع في القراطيس التي كانوا يبدونها، كما قال الله -عز وجل-: **{تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا}** [(٩١) سورة الأنعام] حيث كانوا يحرفون في تلك القراطيس التي يخرجونها للناس؛ إذ لم يكونوا يخرجون لهم أصل الكتاب، وإنما يخرجون لهم تلك القراطيس، وأما هذه الكتب فهي محفوظة لم تحرف.

---

5 - أخرجه البخاري في كتاب الشهادات - باب اليمين بعد العصر (٢٥٢٧) (ج ٢ / ص ٩٥٠) ومسلم في كتاب الإيمان - باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم (١٠٨) (ج ١ / ص ١٠٣).

وعلى كل حال هذا نوع من التحريف الذي وقعوا به، وهو كتابة تلك القراطيس والتبديل فيها، ووقعوا في التحريف من جهة المعاني، ويدل عليه ما جاء في قصية اليهودي واليهودية لما زنيا كانوا يحممونهم ويضعونهم على حمار... إلى آخره، فدعا النبي -صلى الله عليه وسلم- بالتوراة، فكان الحبر قد وضع أصبعه على آية الزنا، وأخبر عن غير الحق الذي في كتابهم وأنه لا يوجد عندهم الرجم، فهذا كان من تحريف المعنى، ومن الكذب على الله -عز وجل-؛ إذ إن آية الرجم كانت مكتوبة، فلما قال عبد الله بن سلام -رضي الله عنه-: مره يا رسول الله فليرفع أصبعه، هناك ظهرت آية الرجم تلوح، فهذا مما يحتج به من يقول: إن التحريف كان في المعاني.

هذه ثلاثة أقوال معروفة لأهل العلم، والذي يظهر -والله أعلم- وهو الذي عليه كثير من أهل العلم سلفاً وخلفاً أن التحريف واقع في الألفاظ وفي المعاني، ويدل عليه الواقع من خلال التناقضات الموجودة في كتبهم والأناجيل المتعددة؛ إلا أن المخالف الذي يقول إن التحريف كان في المعنى يقول: نُسخ التوراة منتشرة في الآفاق ولو أن أحداً حرف فيها شيئاً لافتضح وظهر تحريفه، لكن يقال: هذا خلاف الواقع، فالواقع يدل على أنها تحرف وتبدل وتغير ولا يتفطنون لها، لأنهم لا يحفظونها أصلاً، وإلا كيف ضاعت؟ وكذلك الإنجيل ما كتب كما هو معروف في التاريخ إلا بعد المسيح -عليه الصلاة والسلام- بمدة طويلة، وهي أناجيل كثيرة ومتعددة، والتحريف فيها لا شك فيه إطلاقاً، ففي كتبهم أشياء تشيب لها رءوس الولدان من نسبة الموبقات والفواحش للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- مما لا يجرؤ الإنسان على نقلها وحكايتها مما يقطع أنه كذب، وأنه ليس من عند الله -عز وجل-.

ومن أهل العلم من بالغ في الطرف الآخر فقال: هذه الكتب كل ما فيها محرف، وبناءً عليه يجوز امتهانها، وهذا كلام غير صحيح، بل فيها أشياء كثيرة ليست محرفة وفيها أشياء محرفة، فلا يجوز امتهانها لما اشتملت عليه من كلام الله -عز وجل- الذي لم يحرف، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- له كلام في هذا حيث يرى أن الذي حُرف من ألفاظها قليل وأن الغالب هو تحريف المعاني.

وعلى كل حال من أكثر ما يُحتج به اليوم على اليهود والنصارى عند مناظرتهم هو التناقضات الموجودة في كتبهم.

وهذه المسألة فيها كلام لأهل العلم، منهم الحافظ ابن حجر -رحمه الله- حيث يقول في الفتح:

قوله: وليس أحد يزيل لفظ كتاب الله من كتب الله -عز وجل-، ولكنهم يحرفونه، يتأولونه عن غير تأويله، في رواية الكشميهني: يتأولونه على غير تأويله، قال شيخنا ابن الملقن في شرحه: هذا الذي قاله أحد القولين في تفسير هذه الآية وهو مختاره -أي البخاري- وقد صرح كثير من أصحابنا بأن اليهود والنصارى بدلوا التوراة والإنجيل، وفرعوا على ذلك جواز امتهان أوراقهما، وهو يخالف ما قاله البخاري هنا، انتهى.

وهو كالصريح في أن قوله: وليس أحد إلى آخره من كلام البخاري، ذيّل به تفسير ابن عباس، وهو يحتمل أن يكون بقية كلام ابن عباس في تفسير الآية، وقال بعض الشراح المتأخرين: اختلف في هذه المسألة على أقوال، أحدها: أنها بدلت كلها وهو مقتضى القول المحكي بجواز الامتهان وهو إفراط، وينبغي حمل

إطلاق من أطلقه على الأكثر وإلا فهي مكابرة، والآيات والأخبار كثيرة في أنه بقي منها أشياء كثيرة لم تبدل، من ذلك قوله تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ} الآية [(١٥٧) سورة الأعراف]، ومن ذلك قصة رجم اليهوديين وفيه وجود آية الرجم، ويؤيده قوله تعالى: {قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(٩٣) سورة آل عمران].

ثانيها: أن التبديل وقع، ولكن في معظمها، وأدلته كثيرة، وينبغي حمل الأول عليه.

ثالثها: وقع في اليسير منها، ومعظمها باق على حاله، ونصره الشيخ تقي الدين ابن تيمية في كتابه الرد الصحيح على من بدل دين المسيح.

رابعها: إنما وقع التبديل والتغيير في المعاني لا في الألفاظ، وهو المذكور هنا، وقد سئل ابن تيمية عن هذه المسألة مجرداً، فأجاب في فتاويه أن للعلماء في ذلك قولين واحتج للثاني من أوجه كثيرة منها قوله تعالى: {لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ} [(١١٥) سورة الأنعام] وهو معارض بقوله تعالى: {فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ} [(١٨١) سورة البقرة]، ولا يتعين الجمع بما ذكر من الحمل على اللفظ في النفي وعلى المعنى في الإثبات؛ لجواز الحمل في النفي على الحكم، وفي الإثبات على ما هو أعم من اللفظ والمعنى، ومنها أن نسخ التوراة في الشرق والغرب والجنوب والشمال لا يختلف، ومن المحال أن يقع التبديل فتتوارد النسخ بذلك على منهاج واحد.

طبعاً شيخ الإسلام لا يقرر هذا، ولكنه يورد أدلة من يقول: إن التحريف كان بالمعنى ويرد عليها.

وهذا استدلال عجيب، لأنه إذا جاز وقوع التبديل، جاز إعدام المبدل، والنسخ الموجودة الآن هي التي استقر عليها الأمر عندهم عند التبديل والأخبار بذلك طافحة، أما فيما يتعلق بالتوراة فلأن بختنصَّر لما غزا بيت المقدس وأهل بني إسرائيل ومزقهم بين قتيل وأسير وأعدم كتبهم، حتى جاء عزيرٌ فأملاها عليهم، وأما فيما يتعلق بالإنجيل فإن الروم لما دخلوا في النصرانية جمع ملكهم أكابرهم على ما في الإنجيل الذي بأيديهم، وتحريفهم المعاني لا ينكر بل هو موجود عندهم بكثرة، وإنما النزاع هل حرفت الألفاظ أو لا؟ وقد وجد في الكتابين ما لا يجوز أن يكون بهذه الألفاظ من عند الله –عز وجل– أصلاً.

وقد سرد أبو محمد بن حزم في كتابه الفصل في الملل والنحل أشياء كثيرة من هذا الجنس، من ذلك أنه ذكر أن في أول فصل في أول ورقة من توراة اليهود التي عند رهبانهم وقرائهم وعاناتهم وعيسويهم حيث كانوا في المشارق والمغارب لا يختلفون فيها على صفة واحدة، لو رام أحد أن يزيد فيها لفظة أو ينقص منها لفظة لافتضح عندهم متفقاً عليها عندهم إلى الأحبار الهارونية الذين كانوا قبل الخراب الثاني يذكرون أنها مبلغة من أولئك إلى عزرا الهاروني، وأن الله تعالى قال: لما أكل آدم من الشجرة، هذا آدم قد صار كواحد منا في معرفة الخير والشر، وأن السحرة عملوا لفرعون نظير ما أرسل عليهم من الدم والضفادع، وأنهم عجزوا عن البعوض، وأن ابنتي لوط بعد هلاك قومه ضاجعت كل منهما أباها بعد أن سقته الخمر، فوطئ كلاً منهما فحملتا منه، إلى غير ذلك من الأمور المنكرة المستبشعة، وذكر في مواضع أخرى أن التبديل وقع فيها إلى أن أعدمت، فأملاها عزرا المذكور على ما هي عليه الآن.

قوله: "**فأملاها عزرا المذكور** "، يعني عزير في القصة التي هي من الإسرائيليات، والتي يوردها بعض المفسرين عند تفسير قوله تعالى: **{أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا}** [(٢٥٩) سورة البقرة]، وحاصلها أنه مات منذ مدة طويلة جداً، ثم لما بُعث وجد اليهود ليس منهم أحد يحفظ التوراة فقرأها عليهم.

والخلاصة أن بعضهم يقول: إنه حصل تحريف فجاء عزير فأملى عليهم التوراة المحفوظة، وأن هذا هو الذي لا تختلف فيه النسخ الآن، لكن يقال: الواقع اليوم يدل على أن التحريف موجود.

ثم ساق أشياء من نص التوراة التي بأيديهم الآن، الكذب فيها ظاهر جداً، ثم قال: وبلغنا عن قوم من المسلمين ينكرون أن التوراة والإنجيل اللتين بأيدي اليهود والنصارى محرفَّان، والحامل لهم على ذلك قلة مبالاتهم بنصوص القرآن والسنة، وقد اشتملا على أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله، ويلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون.

ويقال لهؤلاء المنكرين: قد قال الله تعالى في صفة الصحابة: {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ} إلى آخر السورة [(٢٩) سورة الفتح] **وليس بأيدي اليهود والنصارى شيء من هذا، ويقال لمن ادعى أن نقلهم نقل متواتر: قد اتفقوا على أن لا ذكر لمحمد -صلى الله عليه وسلم- في الكتابين، فإن صدقتموهم فيما بأيديهم لكونه نُقِل نقْل المتواتر فصدقوهم فيما زعموه أن لا ذكر لمحمد -صلى الله عليه وسلم- ولا أصحابه.**

هذا طريق في المجادلة، حيث يقولون: هؤلاء نقلوا التوراة نقلاً متواتراً فكيف يصح أن يقع التحريف في الألفاظ؟ فهو يرد عليهم فيقول: إذا كنتم تستدلون بهذه الطريقة، فإذاً هم يقولون: لا يوجد عندنا وصف النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا الكتاب، فصدقوهم إذاً!! مع أن القرآن مصرح بأن صفته -صلى الله عليه وسلم- مذكورة.

فإن صدقتموهم فيما بأيديهم لكونه نُقِل نقْل المتواتر فصدقوهم فيما زعموه ألا ذكر لمحمد -صلى الله عليه وسلم- ولا أصحابه، وإلا فلا يجوز تصديق بعض وتكذيب بعض مع مجيئهما مجيئاً واحداً. انتهى كلامه وفيه فوائد.

وقال الشيخ بدر الدين الزركشي: اغتر بعض المتأخرين بهذا -يعني بما قال البخاري- فقال: إن في تحريف التوراة خلافاً، هل هو في اللفظ والمعنى أو في المعنى فقط؟ ومال إلى الثاني ورأى جواز مطالعتها، وهو قول باطل، ولا خلاف أنهم حرفوا وبدلوا، والاشتغال بنظرها وكتابتها لا يجوز بالإجماع.

وقد غضب -صلى الله عليه وسلم- حين رأى مع عمر صحيفة فيها شيء من التوراة، وقال: ((لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي))[٦]، ولولا أنه معصية ما غضب فيه.

قلت: إن ثبت الإجماع فلا كلام فيه، وقد قيده بالاشتغال بكتابتها ونظرها، فإن أراد من يتشاغل بذلك دون غيره، فلا يحصل المطلوب، لأنه يفهم أنه لو تشاغل بذلك مع تشاغله بغيره جاز، وإن أراد مطلق التشاغل فهو محل النظر، وفي وصفه القول المذكور بالبطلان مع ما تقدم نظر أيضاً، فقد نسب لوهب بن منبه وهو

---

6 - أخرجه أحمد (١٥١٩٥) (ج ٣ / ص ٣٨٧) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف لضعف مجالد بن سعيد.

من أعلم الناس بالتوراة، ونسب أيضاً لابن عباس ترجمان القرآن، وكان ينبغي له ترك الدفع بالصدر والتشاغل برد أدلة المخالف التي حكيتها.

يريد أن يقول: إن هذا ثابت عن ابن عباس ووهب بن منبه أنها لم تحرف ألفاظها، فلا حاجة أن يحمل على هذه المحامل، وأن يدعى الإجماع على ذلك.

وفي استدلاله على عدم الجواز الذي ادعى الإجماع فيه بقصة عمر..

نعم هي حرِّفت وبدلت لكن قصة عمر يمكن للمخالف أن يجيب عنها فيقول: النبي -صلى الله عليه وسلم- أنكر عليه القراءة فيها والنظر فيها؛ لئلا يشتغلوا بشيء عن القرآن، وإلا فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((لو كان أخي موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي))، وموسى -عليه الصلاة والسلام- نبي الله ويوحى إليه ومع ذلك لا يسعه، فكيف بالتوراة ولو لم تكن قد حرفت؟! فقد جاء القرآن وهو ناسخ لها، فالنبي -عليه الصلاة والسلام- أنكر على عمر هذا الاشتغال والنظر فيها بصرف النظر عن كونها محرفة أو غير محرفة فإن هذا أمر آخر، والمقصود أنه يمكن أن يجاب بهذا.

وفي استدلاله على عدم الجواز الذي ادعى الإجماع فيه بقصة عمر نظر أيضاً، سأذكره بعد تخريج الحديث المذكور، وقد أخرجه أحمد والبزار، واللفظ له من حديث جابر قال: نسخ عمر كتاباً من التوراة بالعربية فجاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

الكلام السابق من كتاب فتح الباري لابن حجر في كتاب التوحيد – باب قول الله تعالى:**{بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ* فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ}** [(٢١-٢٢) سورة البروج] الجزء الثالث عشر، صفحة خمسمائة وخمسة وعشرين، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية – الجزء الثاني من الطبعة القديمة، صفحة مائة وسبعة وأربعين، بعنوان: تحريف أهل الكتاب وتبديلهم أديانهم.

قال الحافظ ابن كثير في كتابه البداية والنهاية:

تحريف أهل الكتاب وتبديلهم أديانهم

أما اليهود فقد أنزل الله عليهم التوراة على يدي موسى بن عمران -عليه السلام- وكانت كما قال الله تعالى: {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ} [(١٥٤) سورة الأنعام]، وقال تعالى: {قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا} [(٩١) سورة الأنعام]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ} [(٤٨) سورة الأنبياء]، وقال تعالى: {وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ* وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [(١١٧-١١٨) سورة الصافات]، وقال تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [(٤٤) سورة المائدة].

فكانوا يحكمون بها وهم متمسكون بها برهة من الزمان، ثم شرعوا في تحريفها وتبديلها وتغييرها وتأويلها وإبداء ما ليس منها كما قال الله تعالى: {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [(٧٨) سورة آل عمران]، فأخبر تعالى أنهم يفسرونها ويتأولونها ويضعونها على غير مواضعها، وهذا ما لا خلاف فيه بين العلماء وهو أنهم يتصرفون في معانيها ويحملونها على غير المراد، كما بدلوا حكم الرجم بالجلد والتحميم، مع بقاء لفظ الرجم فيها، وكما أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد مع أنهم مأمورون بإقامة الحد والقطع على الشريف والوضيع.

فأما تبديل ألفاظها فقال قائلون: إنها جميعها بدلت، وقال آخرون: لم تبدل، واحتجوا بقوله تعالى: **{وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ}** [(٤٣) سورة المائدة] وقوله: **{الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ...}** الآية [(١٥٧) سورة الأعراف]، وبقوله: **{قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}** [(٩٣) سورة آل عمران] **وبقصة الرجم فإنهم كما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر، وفي صحيح مسلم عن البراء بن عازب وجابر بن عبد الله، وفي السنن عن أبي هريرة وغيره لما تحاكموا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في قصة اليهودي واليهودية اللذين زنيا فقال لهم: ((ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟)) فقالوا: نفضحهم ويجلدون، فأمرهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بإحضار التوراة فلما جاءوا بها وجعلوا يقرءونها ويكتمون آية الرجم التي فيها، ووضع عبد الله بن صور يده على آية الرجم وقرأ ما قبلها وما بعدها فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ارفع يدك يا أعور)) فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فأمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- برجمهما وقال: ((اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه))[٧].**

---

7 - أخرجه البخاري في كتاب المناقب - باب قول الله تعالى: {يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [(١٤٦) سورة البقرة] (٣٤٣٦) (ج ٣ / ص ١٣٣٠) ومسلم في كتاب الحدود - باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى (١٦٩٩) (ج ٣ / ص ١٣٢٦) وابن حبان (٤٤٣٥) (ج ١٠ / ص ٢٨٠).

وعند أبي داود أنهم لما جاءوا بها نزع الوسادة من تحته فوضعها تحتها وقال: ((آمنت بك وبمن أنزلك))[8]، وذكر بعضهم أنه قام لها، ولم أقف على إسناده، والله أعلم.

وهذا كله يشكل على ما يقوله كثير من المتكلمين وغيرهم: إن التوراة انقطع تواترها في زمن بختنصر ولم يبق من يحفظها إلا العُزير، ثم العُزير إن كان نبياً فهو معصوم، والتواتر إلى المعصوم يكفي، اللهم إلا أن يقال: إنها لم تتواتر إليه، لكن بعده زكريا ويحيى وعيسى وكلهم كانوا متمسكين بالتوراة فلو لم تكن صحيحة معمولاً بها لما اعتمدوا عليها وهم أنبياء معصومون.

ثم قد قال الله تعالى فيما أنزل على رسوله محمد خاتم الأنبياء –صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء– منكراً على اليهود في قصدهم الفاسد إذ عدلوا عما يعتقدون صحته عندهم وأنهم مأمورون به حتماً إلى التحاكم إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وهم يعاندون ما جاء به لكن لما كان في زعمهم ما قد يوافقهم على ما ابتدعوه من الجلد والتحميم المصادم لما أمر الله به حتماً وقالوا: إن حكم لكم بالجلد والتحميم فاقبلوه.. إلى آخره.

وقال وهب بن منبه: إن التوراة والإنجيل كما أنزلهما الله تعالى، لم يغيَّر منهما حرف ولكنهم يضلون بالتحريف والتأويل وكتبٍ كانوا يكتبونها من عند أنفسهم، ويقولون: هو من عند الله، وما هو من عند الله، فأما كتب الله فإنها محفوظة لا تحول [رواه ابن أبي حاتم].

فإن عنى وهب ما بأيديهم من ذلك فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص، وأما تعريب ذلك المشاهَد بالعربية ففيه خطأ كبير وزيادات كثيرة ونقصان.

نعم، هذا من جهة الترجمة، والترجمة هي بناءً على فهم المترجم، فهي تفسير في الواقع وليست ترجمة حرفية؛ لأن هذا لا يمكن، فليس الكلام في الترجمة، إنما الكلام في الأصول باللغات التي نزلت عليها هذه الكتب.

وهو من باب تفسير المعبِّر المعرِّب.

إذا جئنا بترجمات القرآن الكريم وقمنا بالمقارنة بينها فإننا سنجد التفاوت بينها، ومع ذلك لا يقال: إن حصول هذا التفاوت بين الترجمات يدل على وقوع التحريف في القرآن؛ لأن الترجمة هي من باب التفسير، لذلك لا بد لمن أراد أن يترجم إلى اللغات الأخرى أن يفهم ويرجح، فالمسألة ليست سهلة وإنما تحتاج إلى معرفة تامة باللغتين، وتحتاج أيضاً إلى علم بالتفسير، وللأسف فإن الذي يقع في أحسن أحوال المترجم الآن أنك تجده يعرف اللغتين معرفة جيدة، وأما المعاني فشيء آخر.

وهو من باب تفسير المعبِّر المعرِّب، وفهم كثير منهم بل أكثرهم بل جميعهم فاسد، وأما إن عنى كتب الله التي هي كتبه عنده فتلك كما قال: محفوظة لم يدخلها شيء.

هذا على كلام وهب أي: إن عنى وهب ما بأيديهم من ذلك فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص، وإما إن عنى كتب الله التي هي كتبه من عنده فهذا بعيد أن يكون مراداً لوهب أو لابن عباس؛ لأن المحرفين إنما يتسلطون على ما بأيديهم.

---

8 – أخرجه أبو داود في كتاب الحدود – باب في رجم اليهوديين (٤٤٥١) (ج ٤ / ص ٢٦٤) وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٤٤٤٩).

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (١٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ* وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(٧٩-٨٠) سورة آل عمران].

"أي ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يقول للناس: اعبدوني من دون الله، أي مع الله، فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل، فلئلا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأحرى، فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ، بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين؛ فإنهم إنما يأمرون بما أمر الله به، وبلغتهم إياه رسله الكرام، وإنما ينهونهم عما نهاهم الله عنه، وبلغتهم إياه رسله الكرام، فالرسل -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- هم السفراء بين الله وبين خلقه في أداء ما حملوه من الرسالة وإبلاغ الأمانة، فقاموا بذلك أتمَّ قيام، ونصحوا الخلق وبلغوهم الحق.

وقوله: {وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ} [(٧٩) سورة آل عمران]**، أي ولكن يقول الرسول للناس: كونوا ربانيين، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وأبو رزين وغير واحد: أي حكماء علماء حلماء.**

وقال الضحاك في قوله: {بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ} [(٧٩) سورة آل عمران] **حق على من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً، {وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ} تحفظون ألفاظه".**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد..

فقوله تبارك وتعالى: {وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ}، بعض أهل العلم يقول: هذا منسوب إلى الرب، والرب يطلق على معانٍ -كما سبق في الكلام على الفاتحة- منها السيد ومنها المربي الذي يربي خلقه بالنعم الظاهرة والباطنة، يربي قلوبهم بالإيمان، ويربي أجسادهم بما يسبغ عليهم من نعمه وإفضاله وعطائه وجوده، فالرباني هنا من أهل العلم من يقول: إنه منسوب إلى الرب، ففيه معنى التربيب والتربية، فهو الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره، ومنهم من يقول: {وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ}، يعني أرباب العلم، يعني العالمين بدين الرب -تبارك وتعالى- ورب الشيء هو صاحبه، كما في قول عبد المطلب: أنا رب الإبل، والبيت له رب يحميه، يعني أنا صاحب الإبل، فمنهم من يقول: إن الربانيين بمعني الأصحاب، أي أنهم أصحاب العلم، يعني أهل العلم، ومنهم من يقول: إن الرباني منسوب إلى الرَّبَّان.

وعلى كل حال كثير من السلف يجمع في معناها وتفسيرها بين العلم والحكمة، أو العلم والعمل، والذي يظهر -والله أعلم- أن هذه اللفظة لا تدل على العلم فحسب، بل هي تدل على العلم وعلى معنىً آخر، فمعنى الحكمة والفقه متحقق فيها، ويضاف إلى ذلك العالم الذي يعمل بعلمه، ويعلم الناس صغار العلم قبل كباره، ويكون مصلحاً لغيره، فهو الذي يُحسن سياسة الناس بهذا العلم، ويتكلم حيث يظن أن الكلام ينفع، ويمسك عن بعض العلم حيث لا يكون محلاً لبثه وإشاعته، وما إلى ذلك من المعاني، فهي تشمل هذه الأقوال التي قالها السلف -رضي الله تعالى عنهم-.

وقوله تبارك وتعالى: **{بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ}** [(٧٩) سورة آل عمران]، أي بسبب كونكم عالمين بالكتاب وبسبب دراستكم للعلم، فإن هذا يحمل ويقتضي من صاحبه أن يكون ربانياً، أي أن يكون عاملاً بعلمه، وأن يكون حكيماً مصلحاً لحاله ولحال غيره.

وهذا على هذه القراءة، **{وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ}**، يعني بهذا السبب، أي أن تعليمكم الكتاب ينتج عنه هذه الصفة، والمعنى كونوا ربانيين بسبب تعليمكم؛ فإن الذي يعلم الناس بالكتاب ينبغي أن يكون عاملاً وأن يكون حكيماً في تعليمه، فلا يلقي عليهم كل ما يعلمه، وإنما يلقي عليهم ما يصلح لمثلهم في كل مقام بحسبه، ومن ذلك أنه يعلم الناس صغار العلم قبل كباره، ويحمله تعليم الكتاب أو العلم بالكتاب إلى العمل به، وإلى أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر أيضاً، وحثهم على طاعة الله -عز وجل- وما أشبه ذلك.

وعلى القراءة الأخرى -قراءة أبي عمرو وأهل المدينة-: **{بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمون الْكِتَابَ}** -بفتح التاء وتخفيف اللام المفتوحة- يكون المعنى كونوا ربانيين بسبب علمكم بالكتاب.

ومن أشمل من تكلم في هذه الآية -فيما وقفت عليه- ابن جرير -رحمه الله تعالى-، وخلاصة كلامه:

يقول ابن جرير -رحمة الله تعالى عليه-: قال أبو جعفر، وأولى الأقوال عندي بالصواب في الربانيين أنهم جمع رباني، وأن الرباني الذي يرب الناس، وهو الذي يصلح أمورهم ويربها ويقوم بها، ومنه قول علقمة بن عبدة:

وكنت امرأً أفضت إليك ربابتي ... وقبلك ربتني فضعت ربوب

يعني بقوله: ربتني: ولي أمري والقيام به قبلك من يربه ويصلحه، فلم يصلحوه ولكنهم أضاعوني فضعت، يقال منه: رب أمري فلان، فهو يربه رباً وهو رابه، فإذا أريد به المبالغة في مدحه قيل: هو ربان، كما يقال: هو نعسان من قولهم: نعس ينعس، وأكثر ما يجيء من الأسماء على فعلان ما كان من الأفعال ماضيه على فَعِل، مثل قولهم: هو سكران وعطشان وريان، من سَكِر يسْكَر وعطش يعطش وروي يروى، وقد يجيء مما كان ماضيه على فَعَل يفعُل نحو ما قلنا من نَعَس ينعُس، ورب يرب.

قال: فإذا كان الأمر في ذلك على ما وصفنا، وكان الربان ما ذكرنا، والرباني هو المنسوب إلى من كان بالصفة التي وصفت وكان العالم بالفقه والحكمة من المصلحين يرب أمور الناس، بتعليمه إياهم الخير، ودعائهم إلى ما فيه مصلحتهم، وكان كذلك الحكيم التقي لله والوالي الذي يلي أمور الناس على المنهاج الذي وليه المقسطون من المصلحين أمور الخلق، بالقيام فيهم بما فيه صلاح عاجلهم وآجلهم، وعائدة

النفع عليهم في دينهم ودنياهم، كانوا جميعاً يستحقون أن يكونوا ممن دخل في قوله عز وجل: {وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ} [(٧٩) سورة آل عمران].

فالربانيون إذاً هم عماد الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا، ولذلك قال مجاهد: وهم فوق الأحبار؛ لأن الأحبار هم العلماء، والرباني الجامع إلى العلم والفقه والبصر بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية وما يصلحهم في دنياهم ودينهم.

يعني ليس الفقيه فقط أو العالم فقط، بل العالم الذي يربي الناس، ويرجعون إليه، ويفزعون إليه فيما نابهم في مشكلاتهم، ويكون له قيام بالحق ودعوة لهؤلاء الناس، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وما أشبه ذلك.

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى-:

"ثم قال الله تعالى: {وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا} [(٨٠) سورة آل عمران] أي: ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله، لا نبي مرسل ولا ملك مقرب.

{أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(٨٠) سورة آل عمران]، أي لا يفعل ذلك لأن من دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [(٢٥) سورة الأنبياء]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ} الآية [(٣٦) سورة النحل]، وقال: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} [(٤٥) سورة الزخرف]، وقال إخباراً عن الملائكة عليهم السلام: {وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [(٢٩) سورة الأنبياء].

{وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ* فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [(٨١-٨٢) سورة آل عمران].

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم -عليه السلام- إلى عيسى -عليه السلام- لَمَهْمَا آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة، وبلغ أي مبلغ، ثم جاءه رسول من بعده ليؤمنن به ولينصرنه، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته، ولهذا قال تعالى وتقدس: {وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ} أي: لَمَهْمَا أعطيتكم من كتاب وحكمة".

قوله تبارك تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ} الميثاق: هو العهد المؤكد، والمعنى أن الله أخذ عليهم الميثاق بالإيمان بكل رسول يبعثه الله -عز وجل- فيدركه زمانهم بحيث يتابعونه ويصدقونه.

وقوله تبارك وتعالى: {لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ} كلام أهل العلم كثير في تفسير هذه اللفظة {لَمَا} والمراد بها، وقد سأل عنها سيبويه شيخه الخليل -رحمهما الله- ففسرها بمعنى قريب، حيث فسرها بمعنى الذي، وهذا هو المتبادر والله تعالى أعلم، أي {لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ} بمعنى للذي آتيتكم من كتاب وحكمة،

فــ"ما" بمعنى الذي، واللام هذه، منهم من يقول: إنها للتحقيق، ومنهم من يقول: غير ذلك، وهذا المعنى ظاهر وهو المتبادر والله تعالى أعلم.

وقوله: {لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ} وفي قراءة حمزة -وهي قراءة متواترة- قرأها بكسر اللام في {لِمَــا}، والتعليل في هذه القراءة أظهر.

"**{ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي}** [(٨١) سورة آل عمــران] **وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والربيع وقتادة والسدي: يعني عهدي، وقال محمد بن إسحاق: إصري: أي ثقل ما حملتم من عهدي: أي ميثاقي الشديد المؤكد**".

الإصر هو بمعنى العهد المؤكد الموثق المشدد فيه، فهذه اللفظة تدل على معنى التشديد، فقوله تعالى: {وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ} [(١٥٧) سورة الأعراف] يعني التكاليف الشاقة.

وعلى كل حال سواء كان هذا بإلزام الله -عز وجل- لهم بذلك، أو بما أخذ عليهم مــن المواثيــق والعهــود فالمقصود أن فيها معنى التشديد، فقوله: {وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي} يعني العهد الموثق المشدد فيه والله أعلم.

قوله: {لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ} أي الكتاب الذي أنزله الله عليهم، والحكمة يعني ما أوحي إليهم من غيــر الكتاب أي السنّة -كما سبق في كلام ابن جرير- وليس بالضرورة أن يكون المقصود سنة النبي -صــلى الله عليه وسلم- فالأنبياء يوحى إليهم أشياء غير الكتاب الذي ينزل عليهم.

"**{قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ* فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ}** [(٨١-٨٢) ســورة آل عمــران]، **أي عن هذا العهد والميثاق، {فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}** [(٨٢) سورة آل عمران].

قال علي بن أبي طالب وابن عمه عبد الله بن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: مــا بعــث الله نبيــاً مــن الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخــذ الميثــاق على أمته لئن بُعث محمد -صلى الله عليه وسلم- وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه.

وقال طاوس والحسن البصري وقتادة: أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً.

وهذا لا يضاد ما قاله علي وابن عباس -رضي الله عنهم- فالرسول محمد خــاتم الأنبيــاء -صــلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين- هو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر وجد، لكان هــو الواجــب الطاعة، المقدم على الأنبياء كلهم، ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس، وكــذلك هــو الشفيع في يوم المحشر في إتيان الرب -جل جلاله- لفصل القضاء بين عباده، وهو المقام المحمود الــذي لا يليق إلا له، والذي يحيد عنه أولوا العزم من الأنبياء والمرسلين حتى تنتهي النوبة إليــه، فيكــون هــو المخصوص به -صلوات الله وسلامه عليه-.

{أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ* قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ* وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُــوَ فِــي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [(٨٣-٨٥) سورة آل عمران].

يقول تعالى منكراً على من أراد ديناً سوى دين الله الذي أنزل به كتبه، وأرسل به رسله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، الذي له أسلم من في السماوات والأرض، أي استسلم له من فيهما طوعاً وكرها، كما قال تعالى: {وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} الآية [(١٥) سورة الرعد]، وقال تعالى: {أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ* وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ* يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [(٤٨-٥٠) سورة النحل] فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرهاً؛ فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع.

وقد روى وكيع في تفسيره عن مجاهد: {وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} [(٨٣) سورة آل عمران] قال: هو كقوله: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [(٢٥) سورة لقمان].

وروى عن ابن عباس: {وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} [(٨٣) سورة آل عمران] قال: حين أخذ الميثاق، {وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [(٨٣) سورة آل عمران]، أي يوم المعاد، فيجازي كلاًّ بعمله".

وجه الإشكال هو كيف يكون إسلام الكافر في قوله: {وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} [(٨٣) سورة آل عمران]، فقوله: {طَوْعًا} هذا بالنسبة للمؤمن، وقوله: {وَكَرْهًا} هذا بالنسبة للكافر، فهي إما أن تفسر بهذا بالتفسير، بمعنى أن الله -عز وجل- يتصرف فيه كما يشاء، حتى هذا البدن فإنه يقوم بإقامة الله -عز وجل- له حسب سنة أجراها في تدبيره وقيامه كما هو معلوم، أضف إلى ذلك ما يقع له من الأمور التي يقدرها عليه فهو لا يستطيع الخلاص من ذلك ولا الانفكاك منه، فيولد بقدر الله في وقت محدد، ويموت بقدر الله، والله يكتب رزقه وأجله وعمله، ولا يكون له قليل ولا كثير إلا بإرادة الله -عز وجل- الكونية، ويصرِّفه كيف يشاء، فهذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير أولاً.

أو يكون أسلم كرهاً بمعنى أنه إذا عاين في الآخرة أو عاين في الدنيا عند الهلكة حين لا يستطيع الخلاص والفكاك والنجاة كما حصل لفرعون ولغير فرعون سواء كان في الدنيا أو في الآخرة عند ذلك يذعن ويقر ويستسلم، وهذا المعنى فيه بعد، والله -عز وجل- لم يحدد في ذلك وقتاً وإنما أطلقه، والأصل أن المطلق يبقى على إطلاقه، وهذه الآية لا تفهم بمعزل عن الآيات الأخرى التي تذكر سجود من في السماوات والأرض لله -تبارك وتعالى- وما إلى ذلك من المعاني التي تدل على خضوع الخلق التام لربهم ومليكهم -جل جلاله-.

ومنهم من يقول غير هذا كما ذكر ابن كثير هنا عن ابن عباس أنه قال: إن هذا حين أخذ الميثاق، قال لهم: {أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى} [(١٧٢) سورة الأعراف]، فيكون هذا هو الإسلام، والله أعلم.

"ثم قال تعالى: {قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا} [(٨٤) سورة آل عمران] يعني القرآن، {وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ} [(٨٤) سورة آل عمران] أي من الصحف والوحي، {وَالأَسْبَاطِ} وهم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل -وهو يعقوب- الاثني عشر، {وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى} [(٨٤) سورة آل عمران]".

سبق الكلام عن الأسباط في سورة البقرة، وهل المراد بهم تلك القبائل أو البطون من بني إسرائيل، المتشعبة عن أولاد يعقوب؟ أو المراد بهم أولاد يعقوب؟

من أهل العلم من يقول: المراد بالأسباط أولاد يعقوب، والكلام قي نبوتهم معروف، وأما ما وقع لهم مع يوسف -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: إنه كان قبل نبوتهم.

وعلى كل حال فالقبائل من بني إسرائيل يقال لهم أسباط، والله -عز وجل- ذكر الأسباط في سورة الأعراف فقال: {أَسْبَاطًا أُمَمًا} [(١٦٠) سورة الأعراف]، وفي بعض المواضع يحتمل المقام أن يكون المراد بهم أولاد يعقوب أو المراد بطون بني إسرائيل بمعنى الأنبياء الذين وجدوا فيهم، فيكون معنى {وَالأَسْبَاطِ} أي وما أنزل على هؤلاء الأنبياء من بني إسرائيل.

والله عز وجل -كما سبق- في سورة البقرة يقول: {أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ} [(١٤٠) سورة البقرة]، فالأقرب إلى ظاهر السياق أن يكون المراد بالأسباط أولاد يعقوب -عليه الصلاة والسلام-، مع أن بعض أهل العلم يقول: هم الأنبياء الذين كانوا من ذريتهم ونسلهم، بمعنى أن الأسباط قبائل بني إسرائيل المتناسلة من هؤلاء والله أعلم.

"{وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى} [(٨٤) سورة آل عمران] يعني بذلك التوراة والإنجيل، {وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ} [(٨٤) سورة آل عمران]، وهذا يعم جميع الأنبياء جملة، {لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ} [(٨٤) سورة آل عمران]، يعني بل نؤمن بجميعهم، {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [(٨٤) سورة آل عمران] فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبيٍ أرسل، وبكل كتاب أنزل، لا يكفرون بشيء من ذلك، بل هم مصدقون بما أنزل من عند الله، وبكل نبيٍ بعثه الله.

ثم قال تعالى: {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ} الآية [(٨٥) سورة آل عمران] أي: من سلك طريقاً سوى ما شرعه الله فلن يقبل منه، {وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الصحيح: ((من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد))[1].

وروى الإمام أحمد عن الحسن حدثنا أبو هريرة -رضي الله تعالى عنه- إذ ذاك ونحن بالمدينة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((تجيء الأعمال يوم القيامة، فتجيء الصلاة فتقول: يا رب أنا الصلاة، فيقول: إنك على خير، وتجيء الصدقة فتقول: يا رب أنا الصدقة، فيقول: إنك على خير، ثم يجيء الصيام فيقول: يا رب أنا الصيام، فيقول: إنك على خير، ثم تجيء الأعمال، كل ذلك يقول الله تعالى: إنك على خير، ثم يجيء الإسلام فيقول: يا رب أنت السلام وأنا الإسلام، فيقول الله تعالى: إنك على خير، بك اليوم آخذ وبك أعطي، قال الله في كتابه: {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [(٨٥) سورة آل عمران])) تفرد به أحمد[2]".

على كل حال هذا الحديث فيه كلام، فإسناده لا يخلو من ضعف.

"{كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ* أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ* خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ

---

1 - أخرجه مسلم في كتاب الأقضية - باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨) (ج ٣ / ص ١٣٤٣).

2 - أخرجه أحمد (٨٧٢٧) (ج ٢ / ص ٣٦٢) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف وذكره الألباني في السلسلة الضعيفة.

الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ* إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ من بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٨٦-٨٩) سورة آل عمران].

روى ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتدَّ ولحق بالشرك، ثم ندم فأرسل إلى قومه أن سلوا لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هل لي من توبة؟ قال: فنزلت: {كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ...} [(٨٦) سورة آل عمران] إلى قوله: {فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٨٩) سورة آل عمران] فأرسل إليه قومه فأسلم، وهكذا رواه النسائي والحاكم وابن حبان، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

فقوله تعالى: {كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ} [(٨٦) سورة آل عمران] أي: قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول، ووضح لهم الأمر ثم ارتدوا إلى ظلمة الشرك، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعدما تلبسوا به من العماية، ولهذا قال تعالى: {وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [(٨٦) سورة آل عمران].

ثم قال تعالى: {أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [(٨٧) سورة آل عمران] أي: يلعنهم الله ويلعنهم خلقه، {خَالِدِينَ فِيهَا} أي: في اللعنة".

في قوله: {خَالِدِينَ فِيهَا} يحتمل أن يكون المراد أي اللعنة؛ لأنها هي المذكورة قبلُ، {أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّهِ..}، ويحتمل أن يكون المراد بذلك العقوبة، وعلى كل حال فإن بين القولين ملازمة لا تخفى، وذلك أن اللعنة هي سبب للعقوبة، والخلود إنما يعبر به غالباً عن العقوبة أي أن صاحبها يكون خالداً في العذاب أو في النار، وهذا أقرب وأكثر في الاستعمال من إضافته إلى اللعن، ولهذا فإن بعض المفسرين ومنهم كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- يقول: خالدين في العقوبة، والأمر كما ذكرت أنه بين القولين ملازمة، والله أعلم.

"{لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ} [(٨٨) سورة آل عمران]، أي لا يفتر عنهم العذاب ولا يخفف عنهم ساعة واحدة.

ثم قال تعالى: {إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ من بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٨٩) سورة آل عمران] وهذا من لطفه وبره ورأفته ورحمته وعائدته على خلقه أنه من تاب إليه تاب عليه".

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (١٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ* إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ} [(٩٠-٩١) سورة آل عمران].

"يقول تعالى متوعداً ومهدداً لمن كفر بعد إيمانه ثم ازداد كفراً، أي ستمر عليه إلى الممات، ومخبراً بأنهم لن تقبل لهم توبة عند مماتهم، كما قال تعالى: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ..} الآية [(١٨) سورة النساء]، ولهذا قال ها هنا: {لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ} [(٩٠) سورة آل عمران] أي: الخارجون عن المنهج الحق إلى طرق الغي".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد..

فقوله -تبارك وتعالى- هنا: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ} [(٩٠) سورة آل عمران] هذه الآية فيها إشكال معروف عند أهل العلم وذلك أن الله -عز وجل- أخبرنا في غير هذا الموضع من كتابه أنه يقبل التوبة عن عباده، وأن أهل الذنوب مهما تعاظمت ذنوبهم فإن الله -عز وجل- يفتح لهم باب التوبة، حتى إنه عزَّ وجل يقول للذين نسبوا له الصاحبة والولد متلطفاً بهم غاية التلطف: {أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ} [(٧٤) سورة المائدة] إلى غير ذلك مما هو معلوم، وهذه الآية يقول الله فيها إنه لن يقبل توبتهم، فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يفسر هذه الآية بالآية الأخرى وهي أن الإنسان إذا أخر التوبة فإنه لا تقبل توبته عند الموت، أي إنه فسرها بقوله تعالى: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ} [(١٨) سورة النساء] وهذا قول معروف قال به طوائف من أهل العلم، وعلى هذا القول ينتفي الإشكال، حيث قال: {لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ} [(٩٠) سورة آل عمران] يعني الذين أخروها إلى حال الغرغرة أو عند الموت، فهذا لا تقبل توبته ولو كانت من الذنوب والمعاصي كما هو معلوم.

ومنهم من حمل ذلك على من مات على الكفر؛ لأنه قال: {وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ} [(١٨) سورة النساء]، بمعنى أن هؤلاء الذين يموتون على الكفر هم الذين أرادهم الله -عز وجل- بهذه الآية، لكن هذا الجواب فيه إشكال، لأن هؤلاء ما تابوا، والله -عز وجل- هنا يقول: {لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ} [(٩٠) سورة آل عمران] فمن مات على الكفر فإنه لم يتب.

ومن أهل العلم من يقول -ككبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-: إن هذه الآية في اليهود حيث آمنوا بالنبي -صلى الله عليه وسلم- قبل أن يبعث، بما كانوا يجدونه في كتبهم، فعرفوه من صفته، فهؤلاء

آمنوا، فلما بعث كفروا به -صلى الله عليه وسلم- وقاموا بأمور من الجرائم والذنوب، سواء كان في حقه -عليه الصلاة والسلام- أو في غير ذلك، لذلك قال: {ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا} [(٩٠) سورة آل عمران]، فالذنوب والمعاصي التي يكتسبها الكافر هي زيادة في كفره كما قال الله -عز وجل- عن المشركين: {إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ} [(٣٧) سورة التوبة]، فالنسيء هو تأخير الأشهر، فبدل أن يكون المحرم العام القادم في وقته يستبدلونه بصفر، وهكذا بدل أن يكون رجب في وقته يقدم عنه شعبان ورجب يؤخر، ففعلهم هذا سماه الله -عز وجل- زيادة في الكفر، فهؤلاء إذا تابوا من شيء من ذنوبهم ومعاصيهم عدا كفرهم بالنبي -صلى الله عليه وسلم- فلن تقبل توبتهم، هذا على قول ابن جرير ومن وافقه -رحمهم الله- أنها خاصة في اليهود.

ومن أهل العلم من يقول: هؤلاء الذين آمنوا ثم ارتدوا، فما كان لهم من توبة وهي من جملة الأعمال الصالحة قبل ردتهم فإنها لن تقبل، أي ما وقع منهم من توبة من الذنوب والمعاصي قبل الردة لا تقبل؛ لأن الردة أبطلت أعمالهم السابقة، وهذا القول قد لا يظهر كل الظهور.

ومن أهل العلم من يقول: إن المقصود بهذه الآية أنهم لن يوفقوا للتوبة، وبناءً على ذلك فإن توبتهم لن تقبل، يعني عُبِّر بأحد المتلازمين عن الآخر فقال: {لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ} [(٩٠) سورة آل عمران] أي لن يوفقوا للتوبة، فهؤلاء عرفوا الحق {ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا} [(٩٠) سورة آل عمران]، فهم دانوا بالحق ثم رجعوا عنه، ثم ازدادوا غياً وضلالاً، فهؤلاء لن يوفقوا للتوبة، وإذا لم يوفقوا للتوبة فإن توبتهم لن تقبل بطبيعة الحال.

فهذه احتمالات، ومن أهل العلم من قال بأبعد من هذا، كمن قال: لن تقبل توبتهم إن تابوا إلى كفر آخر حتى يتوبوا من كفرهم توبة صحيحة بالرجوع إلى الحق الذي هو دين الإسلام، فلو تاب من اليهودية ودخل في النصرانية فإنه لن يقبل منه، وهكذا.

"ولهذا قال هاهنا: {لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ} [(٩٠) سورة آل عمران] أي: الخارجون عن المنهج الحق إلى طرق الغي.

روى الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أن قوماً أسلموا ثم ارتدوا، ثم أسلموا ثم ارتدوا، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم، فذكروا ذلك لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فنزلت هذه الآية {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ} [(٩٠) سورة آل عمران]. وإسناده جيد".

على كل حال هذه الآية يمكن أن تفسَّر الآية الأخرى أيضاً وهي قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا} [(١٣٧) سورة النساء] حيث عقبها بقوله: {لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً} [(١٣٧) سورة النساء] وهنا في آل عمران قال: {لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ} [(٩٠) سورة آل عمران] وهذه المعاني متلازمة، فهم إذا قبلت توبتهم غفر الله لهم، فعبر بنفي المغفرة هناك، وهنا عبر بنفي قبول التوبة، فيمكن أن يقال -والله أعلم-: إن هذا مما يؤيد قول من قال: إن المقصود بقوله: {لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ} [(٩٠) سورة آل عمران] أنهم لن يوفقوا للتوبة، وبناءً عليه فإنهم لن تقبل توبتهم؛ لأنهم لم يتوبوا أصلاً، وهذا يرجع إلى قول من قال: إن هذه الآية فيمن مات على كفره، ثم إذا نظرت إلى حال من تاب عند الموت فهو في حكم من

مات على كفره؛ لأن توبته لم تقع في محل يتحقق فيه القبول فكأنها منعدمة لم توجد، والخلاصة أنك تجد أن بعض هذه الأقوال يمكن أن يرجع إلى بعض بهذا الاعتبار، والله تعالى أعلم.

"ثم قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ} [(٩١) سورة آل عمران] أي من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبداً، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهباً فيما يراه قربة، كما سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن عبد الله بن جدعان، وكان يقري الضيف ويفك العاني ويطعم الطعام، هل ينفعه ذلك؟ فقال: ((لا؛ إنه لم يقل يوماً من الدهر: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين))[1] وكذلك لو افتدى بملء الأرض ذهباً ما قُبل منه كما قال تعالى: {وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ} [(١٢٣) سورة البقرة]".

قوله: **{مِّلْءُ الأرْضِ}** المقصود به مقدار ما يملأ الأرض، كما تقول: ملء هذا الكأس مثلاً، بمعنى مقدار ذلك.

"وقال تعالى: {لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ} [(٣١) سورة إبراهيم] وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [(٣٦) سورة المائدة]".

في الآية الأولى: **{وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ}** [(١٢٣) سورة البقرة] جاء لفظ "عدل" نكرة في سياق النفي فهي للعموم، أي: لا يقبل منها عدل بإطلاق، وهنا في هذه الآية قال: **{فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا}** [(٩١) سورة آل عمران]، فهنا جاء ذلك محدداً بهذا المقدار -بملء الأرض- وهناك أطلقه، أي فلن يقبل منهم الفدية ولا العدل ولو بذلوا في ذلك ملء الأرض ذهباً أو أكثر من ذلك أو أقلّ،قال الله -عز وجل-: **{وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ}** [(١٢٣) سورة البقرة] أياً كان، وقال: **{لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ}** [(٣١) سورة إبراهيم] وقال: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ}** [(٣٦) سورة المائدة] ذكر هنا ملء الأرض ومثله معه، يعني ضعف ما هاهنا، فكل ذلك وغيره على كل حال يقرر أن هؤلاء لا فكاك لهم، ولهذا ذكر الأمور الثلاثة في سورة البقرة، فقال سبحانه: **{وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ}** [(٤٨) سورة البقرة] فلا يقبل فيه شفاعة شافع، ولا يفتدي عن نفسه بشيء ولا يمكن لأحد أن يخلصه بالقوة، فلا خلاص لا بواسطة ولا بمقابل ولا بالقوة، فكل ذلك نفاه الله -عز وجل- عنهم كما قال: **{فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}** [(١٥) سورة الحديد] وقال: **{وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا}** [(٧٠) سورة الأنعام] نسأل الله العافية.

قوله: **{وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ}:** ليس المقصود بالعدل هنا ما يقابل الظلم وإنما المقصود ما يعاوض به، أي ما يقدمه فكاكاً وفداءً لنفسه.

"ولهذا قال تعالى هاهنا: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ} [(٩١) سورة آل عمران] فعطف {وَلَوِ افْتَدَى بِهِ} على الأول، فدل على أنه غيره، وما ذكرناه أحسن من أن يقال: إن الواو زائدة والله أعلم".

---

1 - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل (٢١٤) (ج ١ / ص ١٩٦).

هذا الكلام الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- هو وجه حسن، ولنتأمل الآية: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ* إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ} [(٩٠-٩١) سورة آل عمران] أي: لن يقبل منه ملء الأرض ذهباً ولو كان ذلك على سبيل الفدية، فابن كثير -رحمه الله- يقول هنا: "**ولهذا قال تعالى هاهنا:** {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ...} إلى آخره، **فعطف** {وَلَوِ افْتَدَى بِهِ} **على الأول فدل على أنه غيره**" وهذا باعتبار أن العطف يقتضي المغايرة، أي أن قوله: {فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا}، يكون معنى مستقلاً، بمعنى أنه يفسَّر بالآيات الأخرى كما في قوله تعالى: {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا} [(٢٣) سورة الفرقان]، وكقوله -تبارك وتعالى- عن أعمال الكفار: {كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ} [(١٨) سورة إبراهيم]، وأخبر عنها بغير ذلك مما يدل على بطلانها وحبوطها، وأنها غير نافعة لهم كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ} [(٣٩) سورة النـــور] فلن تؤثر لهم جزاءً في الآخرة وإنما هي باطلة حابطة، فهنا يكون الشق الأول يتحدث عن هذا المعنى وهو قوله: {فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا} يعني لو بذله في سبيل الله في أعمال صالحة يتقرب بها إلى ربه -تبارك وتعالى- فإنها مردودة، ثم ذكر معنى آخر وهو أنه لو كان هذا البذل لهذا المال الكثير على سبيل الافتداء، أي من أجل أن يفدي نفسه بهذا المال ليتخلص، فإن ذلك لن يقبل منه، يقول ابن كثير عن هذا التفسير: "**وما ذكرناه أحسن من أن يقال: إن الواو زائدة**"؛ ذلك أنه إذا قيل: إن الواو زائدة يكون المعنى: لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً لو افتدى به، بمعنى أن ذلك كله كان في شيء واحد هو الافتداء فقط بخلاف التفسير الأول.

ثم إن ادعاء الزيادة لا يصح، وهذا مع تحفظنا على لفظة زائدة؛ لأنه لا زائد في القرآن، فإذا قيل: إنها زائدة لفظاً ومعنى، فهذا لا يصح لأن القرآن كما هو معلوم ليس فيه حشو، وإنما زيادة المبنى لزيادة المعنى، فلا يوجد في القرآن حرف إلا وله معنى، لكنهم يقصدون الزيادة من جهة الإعراب فقط، ولذلك يتأدب بعضهم في العبارة فينكر التعبير بهذه اللفظة ويقول: إنها منافية للأدب مع القرآن، وإنما الأدب اللائق أن يقال: هي صلة، وهذا التعبير الأخير في كتب التفسير كثير، فالحاصل أن الأصل عدم الزيادة، وأن كل حرف أو لفظة لها معنى، وإذا دار الكلام بين الإعمال والإهمال فالأصل الإعمال، وإذا دار الكلام بين الزيادة وعدمها فالأصل عدم الزيادة، فمهما أمكن حمل الكلام على معنىً صحيح فإنه أولى من ادعاء الزيادة، ولذلك فإن الوجه الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- أولى من قول من قال: إنها زائدة، وأولى من تفسير من فسره بالمعنى، والمراد بالتفسير بالمعنى أن يفسر المفسر الآية بقوله: وهو محمول على المعنى، يقول هذا من غير مراعاة للألفاظ ولا للترتيب أحياناً؛ لأن السياق أو ترتيب الكلام يكون عنده فيه إشكال، وهذا له أمثلة كثيرة في التفسير.

"ويقتضي ذلك ألا ينقذه من عذاب الله شيء ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهباً، ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهباً، بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها.

وروى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((**يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول له: يا ابن آدم كيف وجدت منزلك؟ فيقول: أي ربي خير منزل. فيقول: سل**

وتمنَّ، فيقول: ما أسأل ولا أتمنى إلا أن تردني إلى الدنيا فأقتل في سبيلك عشر مرار؛ لما يرى من فضل الشهادة، ويؤتى بالرجل من أهل النار فيقول له: يا ابن آدم كيف وجدت منزلك؟ فيقول: يا رب شرَّ منزل، فيقول له: تفتدي مني بطلاع الأرض ذهباً، فيقول: أي ربِّ نعم، فيقول: كذبت، قد سألتك أقل من ذلك وأيسر فلم تفعل، فيرد إلى النار))[2].

ولهذا قال: {أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ} [(٩١) سورة آل عمران] أي: **وما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله، ولا يجيرهم من أليم عقابه.**

{لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ} [(٩٢) سورة آل عمران].

روى وكيع في تفسيره عن عمرو بن ميمون: {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ} قال: البر الجنة".

لما ذكر الله -عز وجل- حال الكافرين وبين أن ما يبذلونه من النفقات التي يتقربون بها إلى الله -عز وجل- مردود، وأنه مهما بذلوا من أجل فكاك أنفسهم من عذاب الله -عز وجل- فإن ذلك لن يحصل لهم؛ فالعذاب أمر واقع بهم لا محالة، خاطب الله -عز وجل- بعد ذلك المؤمنين ببيان ما ينفعهم ويوصلهم ويبلغهم الدرجات العُلى عند الله -تبارك وتعالى-، وتحصيل مرضاته وما يدخلهم جنته فقال: **{لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ}** [(٩٢) سورة آل عمران].

قوله: **{لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ}** يقول: **"روى وكيع في تفسيره عن عمرو بن ميمون: {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ} قال: الجنة"**، وبعضهم يقول: **{لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ}** يعني العمل الصالح الذي يقرب إلى وجهه الكريم ويدخل جنته، والواقع أن هذه الأقوال متلازمة، فالعمل الصالح هو الذي يدخل به الإنسان الجنة بعد رحمة الله -عز وجل- وفضله عليه، والله -عز وجل- يقول لأهل الجنة: **{ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}** [(٣٢) سورة النحل]، فسواء قلنا: المقصود بقوله: **{لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ}** الجنة، أو قلنا: العمل الصالح، فهذا من باب ذكر السبب أو المسبب، ولا يخفى ما بين السبب والمسبب من الملازمة، فلا نحتاج في مثل هذا أن نرجح بين القولين.

و"من" في قوله: {**مِمَّا تُحِبُّونَ**} تحتمل أن تكون بيانية، وتحتمل أن تكون تبعيضية، ويؤيد القول بأنها تبعيضية قراءة شاذة لابن مسعود -رضي الله عنه- وفيها: "بعض ما تحبون" أي: "لن تنالوا البر حتى تنفقوا بعض ما تحبون"، بمعنى أن الإنسان لا ينفق كل ما يحب وإنما ينفق بعض ما يحب.

"وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- يقول: كان أبو طلحة أكثر أنصاريٍّ بالمدينة مالاً، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب".

كانت مستقبلة المسجد من جهة الشمال، وهي الآن داخلة في المسجد، فإذا جئت المسجد من باب عمر أو الباب المجيدي اللذين في الجهة الخلفية، فهي على يسارك قليلاً أي أنها كانت في غاية القرب من المسجد.

"قال أنس -رضي الله تعالى عنه-: فلما نزلت {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ} [(٩٢) سورة آل عمران]، قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول: {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ} وإن أحب أموالي إليّ بيرحاء، وإنها صدقة لله، أرجو برها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك

---

[2] – أخرجه أحمد (١٣١٨٥) (ج ٣ / ص ٢٠٧) والحاكم (٢٤٠٥) (ج ٢ / ص ٨٥) وقال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح على شرط مسلم.

الله، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((بخ بخ، ذاك مال رابح، ذاك مال رابح، وقد سمعت، وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين)) فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه[٣]. [أخرجاه].

وفي الصحيحين أن عمر -رضي الله تعالى عنه- قال: يا رسول الله لم أصب مالاً قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر، فما تأمرني به؟ قال: ((حبِّس الأصل وسبل الثمرة))[٤]".

الأمثلة على هذا التصرف من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- وغيرهم كثيرة، ومن ذلك أن زيد بن حارثة -رضي الله عنه- لما سمع هذه الآية جاء بفرس له يقال له: "سَبَل" ودفعه إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليجعله في سبيل الله.

ومن ذلك فعْل ابن عمر -رضي الله عنه- في جاريته الرومية "مرجانة" التي كان يحبها غاية الحب، فأعتقها، وكذلك عمر -رضي الله عنه- في جارية من سبي جلولاء، وغير ذلك مما كانوا يفعلونه في تحري هذا المعنى، وهو بذل ما يحبون في سبيل الله.

"{كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* فَمَنِ افْتَرَىَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ* قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(٩٣-٩٥) سورة آل عمران].

روى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: حضرت عصابة من اليهود نبي الله -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي، قال: ((سلوني عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتُتابعنّي على الإسلام))".

هذه الآية **{كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ}** [(٩٣) سورة آل عمران] كلام أهل العلم فيها متقارب، والآية ليس فيها إشكال فهي واضحة المعنى، لكن الحافظ ابن القيم -رحمه الله- ذكر أمراً أشار إلى أنه هو المقصود من سياق الآية، فعامة أهل العلم يقولون: إن هذه الآية ترد على اليهود لما زعموا أن يعقوب -صلى الله عليه وسلم- حينما حرم على نفسه ألبان الإبل ولحومها كان ذلك عندهم في التوراة فأكذبهم الله -عز وجل- وأخبر أن جميع المطعومات كانت حلاً له ولأولاده، ولكنه حرم ذلك على نفسه على سبيل النذر، وكان ذلك جائزاً في شريعتهم، ولم يحرمه الله -تبارك وتعالى- عليه، ثم استن به بنوه فجانبوها، ولم يحرمها الله -عز وجل- عليهم حتى نزلت التوراة، فحرم الله -تبارك وتعالى- في التوراة أشياء على بني إسرائيل كما سيأتي، فأما هذه التي حرمها يعقوب -صلى الله عليه وسلم- على نفسه لم تكن مما حرمه الله -تبارك وتعالى- عليه، بل كان كل الطعام مما أحله الله لهم، ولم يكن ذلك محرماً بالتوراة، فالمقصود أن هذا هو المعنى الذي يدور حوله المفسرون، أي أنه ردٌّ على اليهود هذه الدعوى، لكن ابن القيم -رحمه الله-

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة آل عمران (٤٢٧٩) (ج ٤ / ص ١٦٥٩) ومسلم في كتاب الزكاة - باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين (٩٩٨) (ج ٢ / ص ٦٩٣).

[4] - أخرجه البخاري في كتاب الشروط - باب الشروط في الوقف (٢٥٨٦) (ج ٢ / ص ٩٨٢) ومسلم في كتاب الوصية - باب الوقف (١٦٣٢) (ج ٣ / ص ١٢٥٥).

ذكر معنىً وقال: وقد حام حوله المفسرون لكنهم لم يصرحوا به، وهو أن ذكر الطعام كان مثالاً، وأن الآية ترد على اليهود فيما هو أبلغ من ذلك، وهو الرد عليهم حيث أنكروا نسخ الشرائع، وبناءً عليه قالوا: نحن متعبدون بالتوراة أبداً، يعني لا تنسخ إلى الأبد، ويأتون بنصوص يزعمون أنها من التوراة يحتجون بها على قولهم، ويقولون: إن التوراة لا تنسخ وأن شريعة موسى -صلى الله عليه وسلم- باقية إلى قيام الساعة، وكما هو معلوم أن اليهود أنكروا النسخ وقالوا: إنه يستلزم البداء، وقد سبق الكلام عليه عند قوله تعالى: **{مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا}** [(١٠٦) سورة البقرة] قالوا: يستلزم البداء، وقلنا: إن المقصود بالبداء: الظهور والانكشاف بعد الخفاء، يعني كأنه بدا لله أمر لم يكن ظاهراً له، وإنما يحصل هذا لمن ليس له علم محيط بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

فالمقصود أن اليهود أنكروا النسخ كما هو معروف، فهذه الآية ترد عليهم، تقول: أنتم في التوراة حرمت عليكم أشياء وأشياء، كما قال الله -عز وجل-: **{وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ}** [(١٤٦) سورة الأنعام] إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على تحريم أشياء عليهم لم تكن محرمة قبل التوراة على بني إسرائيل، فهذا برهان على النسخ وأن التوراة نسخت أشياء، ولم يكن ذلك رفعاً للبراءة الأصلية بل كان ذلك مباحاً إباحةً شرعية، قال تعالى: **{كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ}** [(٩٣) سورة آل عمران]، ولو كان رفعاً للبراءة الأصلية لم يكن نسخاً، وقد عرفنا الفرق بين رفع البراءة الأصلية وبين رفع الإباحة الشرعية.

"قالوا أخبرنا عن أربع خلال، أخبرنا أيّ الطعام حرم إسرائيل على نفسه؟ وكيف ماء المرأة وماء الرجل؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى؟ وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم؟ ومن وليُّه من الملائكة؟ فأخذ عليهم العهد لأن أخبرهم ليتابعنه، فقال: ((أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضاً شديداً وطال سقمه فنذر لله نذراً لئن شفاه الله من سقمه ليحرمن أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه، وكان أحب الطعام إليه لُحْمان الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها؟)) فقالوا: اللهم نعم. قال: ((اللهم اشهد عليهم))، وقال: ((أنشدكم بالذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، إن علا ماء الرجل ماء المرأة كان ذكراً بإذن الله، وإن علا ماء المرأة ماء الرجل كان أنثى بإذن الله؟)) قالوا: نعم، قال: ((اللهم اشهد عليهم))[5]".

هذا الحديث جمع بين الأمرين -بين الشبه وبين الذكورة والأنوثة- وبيَّن أن ذلك مرتبط تمام الارتباط بهذا المعنى، وهذا ما لا يعرفه الأطباء ولا يقرونه ولا يعترفون به ولم يصلوا إليه أصلاً، ولو أن أصحاب الإعجاز في الكتاب والسنة جعلوا جهودهم منصبة على هذه الأشياء التي لا يحتاجون فيها إلى تفسير معاني القرآن ومعاني السنة من غير علم لكان أنفع وأحسن، يعني مثل حديث بول الجارية وبول الغلام، بناءً على

---

[5] - أخرجه أحمد (٢٥١٤) (ج ١ / ص ٢٧٨) والطبراني في الكبير (١٣٠٤٥) (ج ١٢ / ص ٢٤٦).

أن خصائص بول الغلام تختلف عن خصائص بول الجارية، فينضح من هذا ويغسل من هذا، لو أجروا تحليلات ودراسات وكذا لكان أنفع بكثير، وكذلك هنا لو درسوا مثل ها الأشياء لكان أنفع.

ناقشت بعض الاستشاريين في هذا الجانب، يقولون: المرأة ما لها ماء أصلاً، وهذا قول الفلاسفة القدماء، وهو الذي عليه الأطباء، اليوم وأظنهم يُجمعون عليه، إذ ما رأيت لأحد كلاماً يخالف هذا، وإنما يقولون: إن الخلق ليس له علاقة بماء المرأة حتى وإن فرضنا أن لها ماء، وإنما الذي يحصل هو أن البويضة تلقح وينتهي كل شيء، فهذا الحديث يرد عليهم، ولذلك لما قيل للنبي –صلى الله عليه وسلم–: أو تحتلم المرأة؟ قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((ففيمَ يشبهها ولدها؟))[6].

"وقال: ((أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه؟)) قالوا: اللهم نعم، قال: ((اللهم اشهد)) قالوا: وأنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة، فعندها نجامعك أو نفارقك، قال: ((إن وليي جبريل ولم يبعث الله نبياً قط إلا هو وليه)) قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك غيره لتابعناك، فعند ذلك قال الله تعالى: {قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ..} الآية [(٩٧) سورة البقرة].

وقوله: {مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ} [(٩٣) سورة آل عمران] أي حرَّم ذلك على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، قلت: ولهذا السياق بعدما تقدم مناسبتان: إحداهما: أن إسرائيل –عليه السلام– حرم أحب الأشياء إليه وتركها لله".

قوله: {مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ} يعني أنه لم يحرَّم على بني إسرائيل شيء قبل نزول التوراة وهناك استثناء لم يكن بتحريم الله –عز وجل–، وإنما ما حرم يعقوب –صلى الله عليه وسلم– على نفسه، فتابعه بنوه من غير تحريم الله –عز وجل– عليهم، فنزلت التوراة وحُرِّم فيها أشياء بسبب بغيهم وظلمهم، كما قال الله –عز وجل–: {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ} [(١٦٠) سورة النساء]، فالتحريم ثابت بالتوراة حيث حرم عليهم أشياء كثيرة إلى درجة أن ذلك يثقل عليهم ويشق عليهم، حتى إنك إذا نظرت إلى قوله تعالى: {وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ} [(١٤٦) سورة الأنعام] تجد المشقة مفروضة عليهم بحيث إن الواحد منهم يحتاج إلى أن يستقصي في هذه الذبائح؛ لأن هذا يحل وهذا لا يحل!!.

"إحداهما: أن إسرائيل –عليه السلام– حرم أحب الأشياء إليه وتركها لله، وكان هذا سائغاً في شريعتهم، فله مناسبة بعد قوله: {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ} [(٩٢) سورة آل عمران]".

هذا الكلام يربط فيه ابن كثير –رحمه الله– بين هذه الآية وبين التي قبلها، وهذا الوجه من الربط يقول فيه: إن الله –عز وجل– قال لهذه الأمة: {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ} [(٩٢) سورة آل عمران] ويعقوب –صلى الله عليه وسلم– نذر لله أن يترك أحب الطعام والشراب إليه وهو لحوم الإبل وألبانها.

فالمقصود أن يعقوب –صلى الله عليه وسلم– تخلى عن أحب الطعام والشراب إليه، ومعلوم أن الطعام والشراب أحد الأطيبين، فالأطيبان عند العرب الطعام والشراب والنكاح، وبعضهم يقول غير هذا.

---

[6] – أخرجه البخاري في كتاب العلم – باب الحياء في العلم (١٣٠) (ج ١ / ص ٦٠) ومسلم في كتاب الحيض – باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها (٣١٣) (ج ١ / ص ٢٥١).

واللبن إذا أطلق في القرآن والسنة ولغة العرب فالمقصود به الحليب وليس ما يطلق عليه اليوم عند المعاصرين، قال تعالى: **{لَّبَنًا خَالِصًا}** [(٦٦) سورة النحل].

"فهذا هو المشروع عندنا، وهو الإنفاق في طاعة الله مما يحبه العبد ويشتهيه، كما قال تعالى: {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ} [(١٧٧) سورة البقرة] **وقال تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ} الآية** [(٨) سورة الإنسان].

المناسبة الثانية: لما تقدم السياق في الرد على النصارى، واعتقادهم الباطل في المسيح، وتبيين زيف ما ذهبوا إليه، وظهور الحق واليقين في أمر عيسى -عليه السلام- وأمِّه، وكيف خلقه الله بقدرته ومشيئته، وبعثَه إلى بني إسرائيل يدعو إلى عبادة ربه -تبارك وتعالى- شرع في الرد على اليهود -قبحهم الله- وبيان أن النسخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع، فإن الله تعالى قد نص في كتابهم التوراة..."

خلاصة وجه الارتباط بين الآيتين:

وجه الارتباط بين قوله: **{كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ}** [(٩٣) سورة آل عمران] مع قوله في الآية التي قبلها: **{لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ}** [(٩٢) سورة آل عمران] إما أن يقال: لما قرر -تبارك وتعالى-أن الإنسان لن يبلغ العمل الطيب الصالح والدرجات العالية ودخول الجنة إلا بإنفاق ما يحب، ذكر لهم مثالاً على ذلك وهو ما حصل من يعقوب -صلى الله عليه وسلم- من تركه أحب الطعام والشراب إليه على سبيل النذر لمّا أصابه عرق النسا.

وإما أن يقال -وهو الوجه الثاني-: إن الله -عز وجل- لما رد على النصارى في الأمور التي سبقت، شَرَع في الرد على اليهود، فهو رد على النصارى في كذبهم ودعاواهم أن المسيح هو ابن الله... إلى آخره، وشرع في الرد على اليهود، وهذه المناسبات هي محتملة، فهي وجه يستنبطه المفسر أو يذكره المفسر بناءً على اجتهاده، ولذلك تجد أهل العلم يختلفون فيها، هذا يذكر مناسبة وهذا يذكر مناسبة، ولا يُقطع بشيء من ذلك، وسبق الكلام على أن المناسبات إن كانت ظاهرة، بمعنى أنه يوجد ارتباط ظاهر فلا بأس، وأحياناً يصعب هذا، فيكون ذلك على سبيل التكلف، فهذا لا يلتفت إليه، فهذه الاحتمالات هي بسبب أن هذه القضايا يجتهد فيها المفسر فيلوح له وجه من الارتباط فيذكره، ويلوح لآخر وجه فيذكره، ولذلك تجد أن ما يذكرونه في المناسبات يتفاوت ويختلف، ومن أهل العلم من أنكر هذا بالكلية وقال: هذا من القول على الله بلا علم وتكلُّف في التفسير، لذلك فإن الاعتدال في الأمور هو المطلوب.

"فإن الله تعالى قد نص في كتابهم التوراة أن نوحاً -عليه السلام- لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لُحمان الإبل وألبانها، فاتبعه بنوه في ذلك، وجاءت التوراة بتحريم ذلك، وأشياء أخر زيادة على ذلك.

وكان الله -عز وجل- قد أذن لآدم في تزويج بناته من بنيه وقد حُرِّم ذلك بعد ذلك، وكان التسري على الزوجة مباحاً في شريعة إبراهيم -عليه السلام- وقد فعله إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة، وقد حُرِّم مثل هذا في التوراة عليهم، وكذلك كان الجمع بين الأختين سائغاً وقد فعله يعقوب -عليه السلام- جمع بين الأختين، ثم حُرِّم عليهم ذلك في التوراة، وهذا كله منصوص عليه في التوراة عندهم، وهذا هو النسخ بعينه، فكذلك فليكن ما شرعه الله للمسيح -عليه السلام- في إحلاله بعض ما حرم في التوراة، فما

بالهم لم يتبعوه، بل كذبوه وخالفوه، وكذلك ما بعث الله به محمداً -صلى الله عليه وسلم- من الدين القويم والصراط المستقيم، وملة أبيه إبراهيم -عليه السلام- فما بالهم لا يؤمنون، ولهذا قال تعالى: {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ} [(٩٣) سورة آل عمران]".

يلاحظ الآن أن هذا المعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- هو الذي أشار إليه ابن القيم حين قال: حام حوله المفسرون ولم يصلوا إليه، وابن كثير ممن عاصر ابن القيم -رحمهما الله- وقد استفاد من شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- ولذلك فإنه في المقدمة ذكر أشياء مما يتعلق ببعض أصول التفسير هي من كلام شيخ الإسلام وإن لم يذكره ولم يصرح به، فهو لاشك أنه استفاد من شيخ الإسلام كثيراً في هذا وفي غيره، أما ابن القيم فلا أعرف إن كان قد استفاد منه أم لا لكنه معاصر له.

"ولهذا قال تعالى: {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ} [(٩٣) سورة آل عمران] أي: كان حلاًّ لهم جميع الأطعمة قبل نزول التوراة إلا ما حرمه إسرائيل، ثم قال تعالى: {قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(٩٣) سورة آل عمران]، فإنها ناطقة بما قلناه.

{فَمَنِ افْتَرَىَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [(٩٤) سورة آل عمران] أي: فمن كذب على الله وادعى أنه شرع لهم السبت والتمسك بالتوراة دائماً وأنه لم يبعث نبياً يدعو إلى الله بالبراهين والحجج بعد هذا الذي بيناه من وقوع النسخ وظهور ما ذكرناه {فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [(٩٤) سورة آل عمران].

ثم قال تعالى: {قُلْ صَدَقَ اللّهُ} [(٩٥) سورة آل عمران] أي: قل يا محمد صدق الله فيما أخبر به، وفيما شرعه في القرآن.

{فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(٩٥) سورة آل عمران] أي: اتبعوا ملة إبراهيم التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد -صلى الله عليه وسلم- فإنه الحق الذي لاشك فيه ولا مرية، وهي الطريقة التي لم يأت نبي بأكمل منها ولا أبين ولا أوضح ولا أتم كما قال تعالى: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(١٦١) سورة الأنعام] وقال تعالى: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(١٢٣) سورة النحل]".

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (١٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال صاحب كتاب المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير -رحمهما الله تعالى جميعاً- في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [(٩٦-٩٧) سورة آل عمران].

"يخبر تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ} أي لعموم الناس لعبادتهم ونسكهم، يطوفون به ويصلون إليه ويعتكفون عنده.

{لَلَّذِي بِبَكَّةَ} يعني الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل -عليه السلام- الذي يزعم كل من طائفتي النصارى واليهود أنهم على دينه ومنهجه، ولا يحجون إلى البيت الذي بناه عن أمر الله له في ذلك، ونادى الناس إلى حجه، ولهذا قال تعالى: {مُبَارَكًا} أي: وضع مباركاً وهدىً للعالمين.

وقد روى الإمام أحمد عن أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- قال: قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أولاً؟ قال: ((المسجد الحرام)) قلت: ثم أي؟ قال: ((المسجد الأقصى)) قلت: كم بينهما؟ قال: ((أربعون سنة)) قلت: ثم أي؟ قال: ((ثم حيث أدركت الصلاة فصلِّ فكلها مسجد)) [وأخرجه البخاري ومسلم][١].

وقوله تعالى: {لَلَّذِي بِبَكَّةَ} بكة من أسماء مكة على المشهور، قيل: سميت بذلك لأنها تبك أعناق الظلمة والجبابرة، بمعنى أنهم يذلّون بها ويخضعون عندها، وقيل: لأن الناس يتباكون فيها أي: يزدحمون، وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد..

ففي قوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ} قال: **أي لعموم الناس لعبادتهم ونسكهم**، هذا أمر معروف لا يحتاج إلى تدليل؛ لأن المقصود بالبيت الذي وضع للناس إنما وضع للعبادة، وإلا فإن البيوت موجودة منذ أن أنزل الله -عز وجل- آدم -عليه الصلاة والسلام-، فالناس كما هو معلوم بحاجة إلى مساكن، وهذه قضية لا يكاد يختلف فيها المفسرون.

وفي قوله: {لَلَّذِي بِبَكَّةَ} يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **"لأن الناس يتباكون فيها أي: يزدحمون"**، يعني في الطواف مثلاً، يقال: بكَّ القوم بعضهم بعضاً، أي تزاحموا، وهذا التعليل لتسمية بكة هو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، وبعضهم يقول -كما ذكر الحافظ ابن كثير قبله-: لأنها تبكُّ

---

[١] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء - باب قول اله تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [(٣٠) سورة ص] (٣٢٤٣) (ج ٣ / ص ١٢٦٠) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٠) (ج ١ / ص ٣٧٠).

الجبابرة، وبعض أهل العلم يقول: إن مكة وبكَّة لغتان لشيء واحد، فبكَّة بمعنى مكة، وبعضهم يقول: إن بكَّة هي موضع البيت، ومكة للحرم بأجمعه لا يختص ذلك بالبيت، وبعضهم يقول: إن بكة اسم للمسجد، ومكة للحرم بأكمله، والعلم عند الله -عز وجل-.

"وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة: مكة وبكة والبيت العتيق والبيت الحرام والبلد الأمين والمأمون، وأم رحم، وأم القرى، وصلاح، والعرش على وزن بدر، والقادس لأنها تطهر من الذنوب، والمقدسة، والناسَّة -بالنون وبالباء أيضاً- والحاطمة والنساسة، والرأس وكوثا، والبلدة، والبنيَّة والكعبة".

البَنيَّة اسم للكعبة، وفي كثير من الأخبار نجد من يحلف فيقول مثلاً: أقسم برب البَنيَّة.

وقال سفيان الثوري: هو كافر بهذه البَنيَّة إذا دخلها ، وذلك لما توعده أبو جعفر المنصور وجيء بالخشابين من أجل أن يصلب وكان سفيان مستلقياً في حجر الفضيل بن عياض، فلما قالوا له: لا يشمت بنا أهل البدع قم، يعني توارى عن الناس، فقال: هو كافر برب هذه البَنيَّة إن دخلها أبو جعفر المنصور، فمات قبل أن يدخلها.

وعلى كل حال يقولون: إن الشيء إذا كان شريفاً كثرت أسماؤه، كما هو الحال في أسماء السيف وفي أسماء الأسد، ونحو ذلك، وهذا ليس باطِّراد، فهناك أشياء لا شرف لها ومع هذا لها أسماء كثيرة، لكن يمكن أن يقال: في الغالب إن الشيء إذا كان شريفاً كثرت أسماءه.

"وقوله تعالى: {فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ} أي: دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم، وأن الله عظمه وشرفه".

ذكر الحافظ ابن القيم -رحمه الله- أن هذه الآيات تزيد على أربعين، وذكر الله -عز وجل- منها هنا مقام إبراهيم، سواء كان المراد بمقام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- هو موضع القدمين الذي هو على حاله إلى اليوم، إلا أن موضع الأصابع قد ذهبت من كثرة مس الناس له حينما كان ذلك متاحاً لهم، أما موضع القدم فهو هو، لا كما ظن بعض أهل العلم من أن ذلك إنما وضع كالرمز فحسب، وأن ذلك ليس هو موضع القدم، فهكذا فهم بعضهم من الأثر الوارد عن أنس -رضي الله تعالى عنه- لكن هذا فيه نظر، والله تعالى أعلم.

فعلى كل حال سواء قيل: إن مقام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- موضع القدمين المعروف أو كان المراد به مقامات إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- في الحج عموماً؛ لأن مقام إبراهيم مفرد أضيف إلى معرفة، ومعلوم أن المفرد إذا أضيف إلى معرفة فإنه يفيد العموم سواء كان ذلك من قبيل الإضافة إلى الضمير، كقوله: {أَوْ صَدِيقِكُمْ} [(٦١) سورة النـــور] يعني أو أصدقائكم، أو أضيف إلى اسم ظاهر كقوله تعالى: {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ} [(٨٣) سورة النحل]، أي: يعرفون نعم الله، فهذا قول مشهور ومعروف لأهل العلم وهو أن المراد بمقام إبراهيم أي مقاماته -صلى الله عليه وسلم- في الحج، مثل: رمي الجمار والسعي والطواف وما أشبه ذلك مما هو معلوم، فالآية تحتمل هذا وهذا، وإن كان ذلك أظهر عند الإطلاق في موضع القدمين، ومثل هذا يقال أيضاً في قوله -تبارك وتعالى-: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [(١٢٥) سورة البقرة] وعلى القراءة الأخرى: (واتَّخَذُوا من مقام إبراهيم مصلى) بفتح التاء المشددة وفتح الخاء من قوله: (واتخذوا).

فالأظهر في الآية أن المراد به موضع القدمين، وموافقة عمر -رضي الله عنه- في هذا معروفة، حيث قال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت الآية موافقة لقول عمر رضي الله تعالى عنه.

والقول الآخر في الآية: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [(١٢٥) سورة البقرة] أي: متعبداً في السعي بين الصفا والمروة والطواف في البيت ورمي الجمار وما أشبه ذلك، وليس المقصود به الصلاة ذات الركوع والسجود، والله أعلم.

"ثم قال تعالى: {مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ}، يعني الذي لما ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران، حيث كان يقف عليه ويناوله ولده إسماعيل".

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- اختار هذا القول؛ لأنه هو المتبادر عند الإطلاق، والقاعدة أن ما يتبادر عند الإطلاق مما هو ظاهر القرآن لا يصح العدول عنه إلا بدليل يجب الرجوع إليه، إلا أن صاحب القول الآخر حمل ذلك على أعم معانيه بحيث يدخل فيه موضع القدمين فيكون أشمل، ويؤيد هذا أن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، وإذا احتملت الآية معنيين فأكثر ولم يوجد مانع من حملها على هذه المعاني فإنها تحمل عليها، والله أعلم.

"وقد كان ملتصقاً بجدار البيت حتى أخره عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- في إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطُّوَّاف منه ولا يشوشون على المصلين عنده بعد الطواف، لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [(١٢٥) سورة البقرة]، وقد قدمنا الأحاديث في ذلك فأغنى عن إعادتها هاهنا ولله الحمد والمنة".

هل المقصود بالصلاة خلف المقام الصلاة في البقعة التي هو فيها، أو المقصود ذات المقام بحيث إذا أُبعد من مكانه ووضع في جهة أخرى تصلى فيه؟

الأقرب والله تعالى أعلم هو الثاني وليس الأول، ولذلك لما قُدم أو أخر في عهد عمر -رضي الله تعالى عنه- ما كان الناس يصلون قبالة الموضع الذي نقل منه، وإنما صاروا يصلون خلفه، وهكذا، فالمقصود هو نفس هذا الحجر الذي فيه هذا الأثر.

"وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ} [(٩٧) سورة آل عمران] أي: فمنهن مقام إبراهيم والمشعر".

هذا باعتبار المعنى الثاني الذي هو أعم وهو أن المقصود مقامات إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- في الحج.

"وقال مجاهد: أثر قدميه في المقام آية بيِّنة، وكذا روي عن عمر بن عبد العزيز والحسن وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان وغيرهم، وقال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبــة   على قدميــه حافيــاً غيــر ناعــلِ

وقوله تعالى: {وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} [(٩٧) سورة آل عمران]، يعني حرم مكة، إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية، كما قال الحسن البصري وغيره: كان الرجل يقتل، فيضع في عنقه صوفة ويدخل الحرم، فيلقاه ابن المقتول، فلا يهيجه حتى يخرج".

من الآيات التي ذكرها بعض أهل العلم عند قوله تعالى: {فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ} [(٩٧) سورة آل عمران] إضافة إلى مقام إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- أنهم قالوا: إذا كان الغيث بناحية الركن اليماني، كانت الخصوبة في اليمن، وإن كان في ناحية الركن الشامي كانت الخصوبة في الشام، وإذا عمَّ البيت فالخصوبة في الجميع، وذكروا أيضاً أشياء أخرى بعضها لا يثبت كقولهم: إن الطيور لا تمر فوق البيت، وهذا غير صحيح.

وقوله تعالى: {وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} [(٩٧) سورة آل عمران] يعني حرم مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية.

وهذه الآية: {وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} [(٩٧) سورة آل عمران] تحتمل أن تكون على سبيل الخبر، بمعنى أن ذلك يكون من قبيل الأمر الكوني القدري، وهذا فيه بعد، بل هو بعيد غاية البعد؛ لأن الواقع يخالفه، ويحتمل أن يكون ذلك من قبيل الخبر من ناحية الصياغة، يعني الصيغة صيغة خبر لكنه متضمن للإنشاء، يعني متضمن للأمر، أي هو أمر في صيغة الخبر، والمعنى: من دخله فأمِّنوه، وهذا مثل قوله تعالى: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ} [(٢٣٣) سورة البقرة] أي على الوالدات أن يرضعن أولادهن، وقوله: {وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} [(٩٧) سورة آل عمران]، أي من دخل البيت الحرام يجب أن يؤمَّن، والأقرب في معنى الآية أنها بمعنى الإنشاء.

والعلماء تكلموا كثيراً فيمن جنى جناية في الحرم هل يؤخذ أم لا؟ وكذلك فيمن جنى جناية خارج الحرم ثم دخل إلى الحرم، وتكلموا أيضاً عما إذا حصل من طائفة من الناس بغي في الحرم هل تُقاتل أم لا تقاتل؟ فكلام أهل العلم معروف في هذا، يقول أبو حنيفة: يضيق عليه حتى يخرج، ومنهم من يقول: إنه يؤخذ، ولعل هذا يأتي إن شاء الله تعالى عند الكلام على الأشدق لما كان أميراً على المدينة، وكان يجيش الجيوش إلى مكة.

وقد أخذ بعض أهل العلم من حديث: ((خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم))[٢] أن هذه لما كان من عادتها التعدي فإنها تقتل ولو كان ذلك في الحرم مع أنها مجبولة على ذلك، بمعنى أن هذه طبيعتها وليس لها عقل وليس عليها تكليف، فكيف بالإنسان الذي هو مكلف ومؤاخذ، وعلى كل حال ليس هذا موضع الكلام على مثل هذه القضايا بالتفصيل، لكن قصدنا الإشارة إلى أن المراد بقوله: {وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} [(٩٧) سورة آل عمران]، أي هكذا ينبغي أن تكون الحال، ولكن هذا لا يعني أن من جنى جناية لا يؤخذ، بل الأقرب والله تعالى أعلم أنه يؤخذ ولا يترك.

"وقال الله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ} الآية [(٦٧) سورة العنكبوت]، وقال تعالى: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ* الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ} [(٣-٤) سورة قريش]، وحتى إنه من جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها، وتنفيره عن أوكاره، وحرمة قطع شجرها وقلع حشيشها، كما ثبتت الأحاديث والآثار في ذلك عن جماعة من الصحابة مرفوعاً وموقوفاً، ففي الصحيحين

---

2 - أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق - باب خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم (٣١٣٦) (ج ٣ / ص ١٢٠٤) ومسلم في كتاب الحج - باب ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب في الحل والحرم (١١٩٨) (ج ٢ / ص ٨٥٦) ولفظ: ((في الحل والحرم)) لمسلم.

واللفظ لمسلم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم الفتح -فتح مكة-: ((لا هجرة ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا))[٣].

وقال يوم الفتح -فتح مكة-: ((إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا في ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاها)) فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم، فقال: ((إلا الإذخر))[٤]".

القين: يعني الصناع، والمعنى ليتخذ ذلك في الصناعة فالحداد مثلاً يحتاج أن يوقد به من أجل أن يقوم بالحدادة وصناعة المعادن.

قال: "**ولبيوتهم**"، أي يستخدم في بناء البيوت وكذلك القبور، فيوضع فوق الخشب في بناء البيوت -وهذا في البيوت القديمة كما هو معروف- ثم يوضع فوقه الطين وذلك لأجل سد الفراغات، كما يوضع أيضاً في القبور؛ لأن رائحته طيبة، ومن أجل سد الفراغات في القبر حيث يوضع الإنسان في اللحد ثم يوضع اللَّبِن، فمن أجل رص هذا اللَّبِن يستعملون هذا، كما أنه يستخدم في الصناعة إذا يبس، ولذلك أخذ بعض أهل العلم من هذا الحديث أن ذلك في الرطب واليابس، فقول النبي -صلى الله عليه وسلم- : ((ولا يختلى خلاها)) يعني الحشيش مطلقاً، وبعضهم قيَّده بالرطب، وأما اليابس فقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يعضد شوكه)) مع أن الإمام الشافعي -رحمه الله- يقول: لا بأس بقطعه لأنه يؤذي، أي مثل ما أباح النبي -صلى الله عليه وسلم- قتل الفواسق لأذيتها، فهذا كذلك، والحديث ظاهر في أنه لا يقطع شوكه.

لكن قوله: ((ولا يختلى خلاها)) -على القول بأنه الحشيش الرطب- أخذ منه بعض أهل العلم من جهة مفهوم المخالفة أن اليابس لا بأس به، ومن منع من هذا استدل بهذا الحديث، وهو أنه لقينهم، والذي يوقدون عليه إنما هو اليابس بدون شك، ومن قال بأنه لا بأس باليابس، قال: هذا أصلاً ميت مثل ما لو وجد الصيد ميتاً.

"ولهما واللفظ لمسلم أيضاً عن أبي شريح العدوي -رضي الله تعالى عنه- أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة.."

عمرو بن سعيد هذا هو الأشدق الذي ذكرته آنفاً، كان أميراً على المدينة ويبعث البعوث لقتال عبد الله بن الزبير.

"أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة: ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولاً قام به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الغد من يوم الفتح، سمعته أذناي، ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي حين تكلم به: إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال: ((إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحلُّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخَّص بقتال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-

---

3 - أخرجه البخاري في أبواب الإحصار وجزاء الصيد - باب لا يحل القتال بمكة (١٧٣٧) (ج ٢ / ص ٦٥١) ومسلم في كتاب الحج - باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام (١٣٥٣) (ج ٢ / ص ٩٨٦).

4 - أخرجه البخاري في أبواب الإحصار وجزاء الصيد - باب لا يحل القتال بمكة (١٧٣٧) (ج ٢ / ص ٦٥١) ومسلم في كتاب الحج - باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام (١٣٥٣) (ج ٢ / ص ٩٨٦).

فيها فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد الغائب)) فقيل لأبي شريح -رضي الله تعالى عنه- ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيذ عاصياً ولا فارّاً بدم ولا فارًّا بخربة[5]**".**

قوله: "**بخربة**"، بكسر الراء وبعضهم يضبطها بفتحها، والمراد بها الجناية، وهنا يقصد أن ابن الزبير -رضي الله عنه- ألحد في الحرم، أو لاذ بجناية بالحرم واستعصم بالبيت، فهو رأى أنه يجوز قتاله لهذا المعنى.

"وعن جابر -رضي الله تعالى عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة السلاح))[6] **[رواه مسلم].**

وعن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهرى -رضي الله تعالى عنه- أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول وهو واقف بالحزورة في سوق مكة.."

هذا سوق مكة قديماً ودخل في الحرم منذ زمن طويل.

"((والله إنكِ لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت))[7] **[رواه الإمام أحمد وهذا لفظه والترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح].**

وقوله: {وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً} [(٩٧) سورة آل عمران] **هذه آية وجوب الحج، وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقواعده".**

هذا لاشك فيه، والحافظ ابن القيم -رحمه الله- أخذ من هذه الآية الدلالة على وجوب الحج من نحو عشرة أوجه، والأدلة كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله- كثيرة.

وقوله تبارك في الآية الأخرى: **{وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ}** [(١٩٦) سورة البقرة] ربما فهم منها بعضهم أن المأمور به الإتمام وليس الابتداء، وهذا غير صحيح أصلاً لا في نفس الآية ولا بالنظر إلى الآيات والنصوص والأحاديث الأخرى.

فالآية **{وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ}** [(١٩٦) سورة البقرة] يمكن أن يقال: إن الأصل لما كان ثابتاً معلوماً عندهم، وإنما وقع الإخلال من جهة النقص والتبديل، حيث كان الحمس – وهم قريش ومن ولدت- يقفون في طرف الحرم ولا يخرجون إلى عرفة كان ذلك من قبيل النقص في حجهم، قال الله -عز وجل-: **{وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ}** [(١٩٦) سورة البقرة] فهم لم يكونوا يجادلون في مشروعية الحج وفي وجوبه؛ إذ كانوا على بقية من دين إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، ولهذا فإنه لما كان الأصل مقرراً عندهم جاء الأمر بما وقع فيه اللبس والنقص، وهذه طريقة معروفة يتكلم بها العرب ويعبرون بمثل هذا فيما يُحتاج إليه، يعني أن البيان إنما

---

5 – أخرجه البخاري في كتاب العلم – باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب (١٠٤) (ج ١ / ص ٥١) ومسلم في كتاب الحج – باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام (١٣٥٤) (ج ٢ / ص ٩٨٧).

6 – أخرجه مسلم في كتاب الحج – باب النهي عن حمل السلاح بمكة بلا حاجة (١٣٥٦) (ج ٢ / ص ٩٨٩).

7 – أخرجه الترمذي في كتاب المناقب – باب في فضل مكة (٣٩٢٥) (ج ٥ / ص ٧٢٢) وابن ماجه في كتاب المناسك – باب فضل مكة (٣١٠٨) (ج ٢ / ص ١٠٣٧) والنسائي في السنن الكبرى في كتاب الحج – باب فضل مكة (٤٢٥٢) (ج ٢ / ص ٤٧٩) وأحمد (١٨٧٣٧) (ج ٤ / ص ٣٠٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٠٨٩).

يكون فيما يحتاج إليه فحسب، أما أن يتكلم على الأشياء المقررة الواضحة التي لا يجادلون فيها، فهذا تطويل للكلام من غير حاجة.

"وأجمع المسلمون على ذلك إجماعاً ضرورياً، وإنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص والإجماع.

روى الإمام أحمد –رحمه الله تعالى– عن أبي هريرة –رضي الله تعالى عنه– قال: خطبنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال: ((أيها الناس قد فُرض عليكم الحج فحجوا))، فقال رجل: أكلَّ عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم)) ثم قال: ((ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه)) [ورواه مسلم نحوه][8]".

قوله –صلى الله عليه وسلم–: ((قد فرض عليكم الحج)) أي كتب عليكم وأُلزمتم به؛ ويدل على ذلك سؤال الرجل، وكذلك قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((لو قلت نعم لوجبت))، وأذكر هذا المعنى لأمر وهو أن لفظة الفرض شاع في اصطلاح المتأخرين أنها بمعنى الإيجاب، وعند الحنفية آكد من الواجب، يعني ما ثبت بدليل قطعي، مع أن هذا ليس هو المتبادر أو الاصطلاح المتعارف عند المخاطبين بالقرآن، فإن لفظة الفرض قد تدل على معانٍ أخرى، فمثلاً: يقول الله تعالى: **{قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ}** [(٢) سورة التحريم] فهنا ليس معناها الإيجاب وإنما معناها الإباحة، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: **{قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ}** [(٥٠) سورة الأحزاب] فلفظة "فرض" تأتي بمعنى التشريع والإباحة والإيجاب، فليس المعنى المتبادر لها في الاصطلاح العرفي عند المتقدمين الذين خوطبوا بالقرآن الإيجاب، ولذلك لا نستعجل كلما رأينا لفضة "فرض" في القرآن فنقول: هو بمعنى الوجوب، فهذا اصطلاح متأخر ولا يجوز حمل ألفاظ القرآن ومعانيه على اصطلاح حادث، لكن ينظر إلى السياق والقرائن، فيحمل في كل موضع على ما يناسبه ويليق به.

"وأما الاستطاعة فأقسام: تارة يكون الشخص مستطيعاً بنفسه، وتارة بغيره كما هو مقرر في كتب الأحكام".

قوله: **"وتارة يكون بغيره"**، يعني إذا كان الإنسان غنياً لكن لا يستطيع أن يصل إلى البيت بنفسه فإنه ينيب أحداً آخر ليحج عنه.

"روى أبو عيسى الترمذي عن ابن عمر –رضي الله تعالى عنهما– قال: قام رجل إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال: من الحاج يا رسول الله؟ قال: ((الشعث التفل)) فقام آخر فقال: أي الحج أفضل يا رسول الله؟ قال: ((العجُّ والثجُّ)) فقام آخر فقال: ما السبيل يا رسول الله؟ قال: ((الزاد والراحلة)) وهكذا رواه ابن ماجه[9]".

---

8 – أخرجه مسلم في كتاب الحج – باب فرض الحج مرة في العمر (١٣٣٧) (ج ٢ / ص ٩٧٥).

9 – أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – باب تفسير سورة آل عمران (٢٩٩٨) (ج ٥ / ص ٢٢٥) وابن ماجه في كتاب المناسك – باب ما يوجب الحج (٢٨٩٦) (ج ٢ / ص ٩٦٧) وحسنه الألباني في المشكاة برقم (٢٥٢٧).

هذا الحديث الذي يبين أن الزاد والراحلة هي الاستطاعة، الكلام فيه معروف، وهو أن الحديث فيه ضعف، أو هذه الرواية فيها ضعف، وعلى كل حال فإن الاستطاعة في قوله تعالى: **{مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً}** [(٩٧) سورة آل عمران] الأقرب -والله أعلم- أنها تحمل على أعم المعاني، ولا يختص ذلك بالمال أو بالراحلة، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- فقد يكون الإنسان من أهل مكة أو ممن جاورها فلا يحتاج إلى راحلة؛ لأنه ذو قوة ونشاط وقدرة يستطيع المشي في المشاعر، فمثل هذا يجب عليه الحج، فالمقصود أن الاستطاعة هنا لم تحد بحد معين، فتحمل على أعم المعاني؛ لأنه قد يكون أيضاً عند الإنسان الراحلة والزاد وعنده المال ولكن الطريق غير مأمون وتوجد مخاوف لا يستطيع معها الوصول إلى الحج، فهذا غير مستطيع، وقد يكون عنده الزاد والراحلة ولكنه ضعيف البدن كأن يكون هرماً أو مريضاً، فمثل هذا غير مستطيع، وقد يكون صحيحاً قوياً وعنده الزاد والراحلة لكن هذا المكلف امرأة ليس لها محرم فإنها على الأرجح يسقط عنها الحج بالنفس، وبالتالي إذا كانت قادرة بمالها فإنه يجب عليها أن تنيب من يحج عنها، وهكذا مسألة الاستطاعة يدخل فيها كل هذه الأمور.

"وروى الحاكم عن أنس -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سئل عن قول الله -عز وجل-: {مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً} [(٩٧) سورة آل عمران] فقيل: ما السبيل؟ قال: ((الزاد والراحلة)) ثم قال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه[١٠].

وروى أحمد أيضاً عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من أراد الحج فليتعجل)) [ورواه أبو داود][١١].

وقوله تعالى: {وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [(٩٧) سورة آل عمران] قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وغير واحد: أي: ومن جحد فريضة الحج فقد كفر والله غني عنه".

هذه الآية لها نظائر في كتاب الله، منها: قوله تعالى: **{وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ}** [(٨) سورة إبراهيم]، وفي سورة الزمر يقول تعالى: **{إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ}** [(٧) سورة الزمر]، ويقول تعالى: **{فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ}** [(٦) سورة التغابن].

يقول: **"وقوله تعالى: {وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [(٩٧) سورة آل عمران]، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وغير واحد: أي: ومن جحد فريضة الحج فقد كفر والله غني عنه"**، خص هنا الكفر بنوعٍ منه وهو جحد هذا العمل أو العبادة التي شرعها الله -عز وجل- وبينها غاية البيان وألزم المكلفين بها، قال تعالى: **{وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}** أي: من جحد فرضه فإن الله غني عنه.

---

[10] - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب تفسير سورة آل عمران (٢٩٩٨) (ج ٥ / ص ٢٢٥) والحاكم (١٦١٣) (ج ١ / ص ٦٠٩) وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي برقم (٢٩٩٨).

[11] - أخرجه أبو داود في كتاب المناسك - باب تعجيل الحج (١٧٣٤) (ج ٢ / ص ٧٥) وابن ماجه في كتاب المناسك - باب الخروج إلى الحج (٢٨٨٣) (ج ٢ / ص ٩٦٢) وأحمد (١٨٣٤) (ج ١ / ص ٢١٤) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٠٠٤).

ومثل هذه الآية يستدل بها أيضاً من يقول: إن تارك الحج وهو قادر يكفر، ومعلوم ما جاء عن عمر -رضي الله تعالى عنه-: "ما هم بمسلمين، ما هم بمسلمين"، وعلى كل حال فالقول بأن قوله: {وَمَن كَفَرَ} أي من جحد فرضية الحج فقد كفر هو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله تعالى-.

"وقد روى أبو بكر الإسماعيلي الحافظ عن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- قال: من أطاق الحج فلم يحج، فسواء عليه يهودياً مات أو نصرانياً، وهذا إسناد صحيح إلى عمر -رضي الله تعالى عنه-".

على كل حال من أهل العلم من حمل الآية على ظاهرها، ومنهم من قال: إن هذا على سبيل التغليظ لتأكيد الحج، وبيان أهميته وعظمه ومكانته.

"{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَاللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ* قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاء وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [(٩٨-٩٩) سورة آل عمران].

هذا تعنيف من الله تعالى لكفرة أهل الكتاب على عنادهم للحق وكفرهم بآيات الله وصدهم عن سبيله من أراده من أهل الإيمان، بجهدهم وطاقتهم مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من الله بما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين، والسادة المرسلين -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- وما بشروا به ونوهوا به من ذكر النبي الأمي الهاشمي العربي المكي سيد ولد آدم وخاتم الأنبياء ورسول رب الأرض والسماء، وقد توعدهم الله على ذلك بأنه شهيد على صنيعهم ذلك، بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء ومقابلتهم الرسول المبشر به بالتكذيب والجحود والعناد، فأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون، أي: وسيجزيهم على ذلك يوم لا ينفع مال ولا بنون".

يقول -تبارك وتعالى-: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا} [(٩٨-٩٩) سورة آل عمران]: قوله: {تَبْغُونَهَا عِوَجًا} أي: معوجة، والمعنى أنكم تطلبون لها اعوجاجاً وميلاً عن القصد.

وقوله: {وَأَنتُمْ شُهَدَاء} بعض أهل العلم يقول: أي عقلاء، وبعضهم يفسرها بمعنى عدول عند أهل ملتكم، والعدل لا يحصل منه مثل هذا الكتمان والتلبيس، فهم يكتمون الحق يبغونها عوجاً أي: مائلةً معوجةً عن سبيل القصد بما كتموا وحرفوا وبدلوا وغيروا وكذبوا.

والأقرب -والله تعالى أعلم- أن قوله: {وَأَنتُمْ شُهَدَاء} المراد به: وأنتم تشهدون على صدق ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأن هذا القرآن من عند الله، وأنهم يجدون ذلك عندهم في كتبهم، فهم يعرفون ذلك ويستيقنونه، كما دل عليه القرآن في مواضع نحو قوله تعالى: {يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ} [(١٤٦) سورة البقرة] فقوله: {وَأَنتُمْ شُهَدَاء} أي على صحة وصدق ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم-. والحافظ ابن كثير -رحمه الله- لم يتعرض لهذا في الأصل، وعلى كل حال هذا القول الأخير هو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (١٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ* وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(١٠٠-١٠١) سورة آل عمران].

"يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا طائفة من أهل الكتاب الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، وما مَنَحهم به من إرسال رسوله كما قال تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم} الآية [(١٠٩) سورة البقرة] وهكذا قال هاهنا: {إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} [(١٠٠) سورة آل عمران] ثُمَّ قَالَ: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ} [(١٠١) سورة آل عمران] يعني أن الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه؛ فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلا ونهارًا، وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم، وهذا كقوله تعالى: {وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(٨) سورة الحديد] والآية بعدها.

وكما جاء في الحديث أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال يوما لأصحابه: ((أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَعْجَبُ إِلَيْكُمْ إِيمَانًا؟)) قالوا: الملائكة، قال: ((وَكَيْفَ لا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟!)) وذكروا الأنبياء قال: ((وَكَيْفَ لا يُؤْمِنُونَ وَالْوَحْيُ يَنزلُ عَلَيْهِمْ؟!)) قالوا: فنحن قال: ((وَكَيْفَ لا تُؤْمِنُونَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟!)) قالوا: فأيّ الناس أعجب إيمانًا؟ قال: ((قَوْمٌ يَجِيئُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ يَجِدُونَ صُحُفًا يُؤْمِنُونَ بِمَا فِيهَا))[١]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ}** [(١٠١) سورة آل عمران]، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فسر هذه الآية بالقرآن وفسرها بالسنة، ومعلوم أن هذا الضرب من التفسير يعتبر في المرتبة العليا، لكن لما كانت الآيات التي ذكرها -إضافة إلى الحديث- محتملة أن تكون بمعنى هذه الآية، خاصة وأن الحديث لا تعرض فيه لآية آل عمران فإن ذلك غير مقطوع به، ولهذا فهم منها بعض أهل العلم أنها بمعنى الإنكار، فالحافظ ابن كثير حملها على معنى الاستبعاد، أي أن ذلك بعيد منكم لوجود كذا وكذا؛ أي لأن آيات الله تتلى عليكم وفيكم رسوله فيبعد منكم هذا غاية البعد.

لكن المعنى الثاني هو أن ذلك للإنكار، أي كيف تكفرون بالله وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله؟! لا سيما مع ما يذكر في السير من سبب نزول هذه الآية إن صحَّ، وهو ذلك اليهودي الذي جاء إلى أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- من الأوس والخزرج وهم جلوس وبينهم من المودة والمحبة ما غاظه، فردَّد

---

[١] - رواه البزار (ج ٢ / ص ٣٤٧) وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ثم تراجع عن ذلك وصححه في السلسلة الصحيحة برقم (٣٢١٥).

بعض الأشعار التي قيلت في يوم بعاث وذكَّرهم بما جرى بينهم من حرب طويلة، وكانت الغلبة في يوم بعاث للأوس فتثاور القوم فحصل بينهم تراد ثم قام رجل وجثا على ركبتيه وقال: إن شئتم رددناها جذعة، فقالوا: نعم، ثم تواعدوا في الظاهرة في الحرة، وحملوا السلاح وخرجوا، فجاء النبي –صلى الله عليه وسلم– يمشي بين الصفين، وينكر عليهم هذا الذي وقع، وهو يقول محذراً لهم من هذا: ((لا ترجعوا بعدي كفاراً))[2] أو كلاماً نحو هذا، فلو صحَّ أن هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ* وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ} [(١٠٠-١٠١) سورة آل عمران] [(١٠٠) سورة آل عمران] نزلت بسبب هذا يكون المعنى كيف تكفرون بطاعتكم هذا الذي جاءكم من عند من دفعه ليحركوا النفوس، ويثيروا كوامنها ويجددوا الأحقاد والثارات القديمة، وبهذا الاعتبار هو ينكر عليهم ما وقع بينهم حيث اصطفوا للقتال فقال: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ} [(١٠١) سورة آل عمران] أي كيف يقع منكم هذا؟ فالآية تحتمل هذا وتحتمل هذا، وإنما ذكرتُ هذا لأن تفسير القرآن بالقرآن يدخله الاجتهاد، وكذلك الأمر في أحد النوعين من تفسير القرآن بالسنة وهو ما لم يتعرض فيه النبي –صلى الله عليه وسلم– للآية ولكن المفسر عمد إلى الحديث وفهم منه الارتباط أو معنىً يرتبط بالآية فربط بين الآية والحديث وقد يكون الارتباط بينهما غير موجود أصلاً.

وعلى كل حال هذا الذي ذكره ابن كثير –رحمه الله– من أنها للاستبعاد لعله هو الأقرب، والله تعالى أعلم.

"ثم قال تعالى: {وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(١٠١) سورة آل عمران] أيّ: ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العُمْدة في الهداية والعُدَّة في مباعدة الغواية والوسيلة إلى الرشاد وطريق السداد، وحصول المراد.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ* وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [(١٠٢-١٠٣) سورة آل عمران].

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود –رضي الله تعالى عنه–: {اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} قال: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر، وهذا إسناد صحيح موقوف رواه الحاكم في مستدركه عن ابن مسعود مرفوعاً، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، كذا قال، والأظهر أنه موقوف والله أعلم.

وروي عن أنس –رضي الله تعالى عنه– أنه قال: لا يتق العبد الله حق تقاته حتى يخزن لسانه".

بعض أهل العلم من السلف قال: إن هذه الآية منسوخة ومشى على هذا بعض المتأخرين حيث قالوا: نسخها قول الله –تبارك وتعالى–: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [(١٦) سورة التغابن] وذلك أن تقوى الله حق تقاته كما قالوا: أمر لا يطاق، والشريعة لا تكليف فيها بما لا يطاق كما قال تعالى: {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا} [(٢٨٦) سورة البقرة] حتى إن بعض السلف قال: ليس في آل عمران آية منسوخة سوى هذه الآية.

2 – أخرجه البخاري في كتاب العلم – باب الإنصات للعلماء (١٢١) (ج ١ / ص ٥٦) ومسلم في كتاب الإيمان – باب بيان معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض (٦٥) (ج ١ / ص ٨١).

والأقرب –والله تعالى أعلم– أن هذه الآية ليست منسوخة، وقول من قال من السلف بأن الآية منسوخة يحمل على المعنى الأوسع للنسخ، فمن السلف –رضي الله تعالى عنهم– من يطلق النسخ على معنى أوسع مما اصطلح عليه المتأخرون، فاصطلاحهم –رحمهم الله– للنسخ يقصدون به كل ما يعرض للنص العام من تخصيص، وما يعرض للنص المطلق من تقييد، وما يعرض للنص المجمل من تبيين، وأما المتأخرون فإنهم يقصدون بالنسخ رفع الحكم الشرعي، وعلى هذا يمكن حمل قول القائل بنسخ هذه الآية على أنه يريد البيان، بمعنى أن آية التغابن مبيِّنة لآية آل عمران، إلا أننا لا نستطيع أن نجزم عند قول كل قائل أنه قصد البيان أو قصد الرفع أو غير ذلك، لكن على كل حال لا يلزم أن يكون مراد كل من عبر بالنسخ أنه أراد الرفع، وهناك قاعدة لا بد من معرفتها في هذا الباب وهي أن النسخ لا يثبت بالاحتمال، فدعاوى النسخ كثيرة جداً، وليس كل ما لاح من تعارض ظاهر بين آيتين يمكن أن يدعى فيه النسخ، ومعلوم أن الجمع بين النصوص هو المطلوب أولاً ما أمكن، وهنا يمكن الجمع بين آيتي التغابن وآل عمران، فيقال: من قواعد الشريعة المقررة أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها فلا تكليف في الشريعة بما لا يطاق، وهذا أصل دلت عليه الأدلة الشرعية فلا يقال: إن المراد بقوله تعالى: **{اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [(١٠٢) سورة آل عمران] هو ما فهمه بعضهم من أن المقصود بذلك أن يصل الإنسان إلى الحد الأعلى للتقوى فلا يقع منه صغيرة ولا كبيرة؛ فإن كل ابن آدم خطاء، ولا بد للإنسان من هفوة وزلة وتقصير، والله –عز وجل– قال عن رسوله –صلى الله عليه وسلم–: **{لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}** [(٢) سورة الفتح] لذلك فإن الأقرب أن يقال في هذه الآية –والله تعالى أعلم– إنها ليست منسوخة بل هي مبيَّنة بقوله تعالى: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}** [(١٦) سورة التغابن]، وبعبارة أخرى يقال: إن المراد بقوله: **{اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ}** [(١٠٢) سورة آل عمران] أن يطاع فلا يعصى وأن يشكر فلا يكفر بقدر الوسع والطاقة، ويبين هذا المعنى قوله: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}** [(١٦) سورة التغابن].

هذا هو المراد بهذه الآية والله أعلم، وهذا هو الذي مشى عليه كثير من المحققين وأنها ليست منسوخة، وبالنسبة للحافظ ابن كثير –رحمه الله– فإنه لم يذكر النسخ.

"وقوله: {وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٠٢) سورة آل عمران] أي: حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيءٍ مات عليه، ومن مات على شيءٍ بُعث عليه، فعياذاً بالله من خلاف ذلك".

هذا من أحسن ما تفسر به هذه الجملة، وقد سبق الكلام على هذا المعنى في وصية يعقوب –عليه الصلاة والسلام– لبنيه عند قوله: **{يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [(١٣٢) سورة البقرة]، فالإشكال الذي قد يَرِد ووقف عنده بعض المفسرين هو أن الإنسان لا يملك خاتمته ولا يدري بماذا يختم له، وفي الحديث: ((إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها))[3] الحديث، فالأعمال بالخواتيم، والله –عز وجل– ينهى عباده فيقول:

---

[3] – رواه البخاري في كتاب القدر– برقم (١٢٢٦) (٦/٢٤٣٣)، ومسلم في كتاب القدر – باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته برقم (٢٦٤٣) (٤/٢٠٣٦).

{وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٠٢) سورة آل عمران] فما المقصود بذلك ما دام غير مستطاع للإنسان أن يحدد خاتمته؟

قد يقال في هذا ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهذا بناءً على قاعدةِ أن الخطاب إذا توجه للمكلفين في أمر لا يدخل في طوقهم فإنه يتوجه إلى سببه أو إلى أثره، فمثلاً: من شروط التوبة الندم، لكن هل يملك الإنسان أنه يندم متى ما شاء؟ لا يمكن أبداً، فقد يريد الإنسان الندم لكن لا يستطيع ذلك، بل كلما تذكر المعصية التي فعلها فرح وسُرَّ بذلك وتحركت شهوته، فمثل هذا يؤمر أن يتوجه إلى سبب الندم فيتفكر في معنىً وهو أنه عصى الله -عز وجل- واجترأ عليه وأن الله قد رآه وكتب ذلك الكاتبون، وأن الحساب ينتظره، فإذا تذكر هذه المعاني خاف ورجف قبله وندم وتاب إلى الله -عز وجل-، هذا مثال في توجهه إلى سببه.

وأما في توجهه إلى أثره فمثل قوله تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [(٢) سورة النـــــور] فالرأفة رحمة رقيقة تقع في قلب الإنسان من غير إرادة، فإذا رأى إنساناً يجلد فإنه يرقُّ له ويرحمه، فمثل هذا لا يلام وإنما يتوجه الخطاب إلى الأثر الذي قد يقع وهو تخفيف الحد أو إلغاؤه.

فهنا في قوله: {وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٠٢) سورة آل عمران] نقول: إن الإنسان لا يملك خاتمته، والله لا يكلف بما لا يطاق، وبالتالي فالخطاب يتوجه إلى سببه، وسببه هو ما ذكره الحافظ ابن كثير وهو مبني على هذا الأصل، ولذلك لم يقل ابن كثير -رحمه الله-: {وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٠٢) سورة آل عمران] أي: اجعلوا خاتمتكم الإسلام؛ لأن هذا أمر لا يستطيع الإنسان أن يحدده، فالخاتمة لا نملكها، لكن نسأل الله -عز وجل- حسنها، والمقصود أن يقال: إن الخطاب يتوجه إلى السبب وهو أنه على الإنسان أن يحسن العمل وأن يستقيم سلوكه على الصراط المستقيم في الدنيا كما أمره الله -عز وجل- فهذا مؤذن -إن شاء الله- أن يموت على ما عاش عليه.

"وروى الإمام أحمد عن مجاهد أنّ الناس كانوا يطوفون بالبيت، وابنُ عباس -رضي الله تعالى عنهما- جالس معه محْجَن فقال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (({يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} وَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ لأمَرّتْ عَلَى أهْلِ الأرْضِ عِيشَتَهُمْ فَكَيْفَ بِمَنْ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إلا الزَّقُّوم))[4] وهكذا رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبَّان في صحيحه والحاكم في مستدركه، وقال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن جابر -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول قبل موته بثلاث: ((لا يَمُوتَنَّ أحَدُكُمْ إلا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ عز وجل))[5] ورواه مسلم.

---

[4] - أخرجه الترمذي في كتاب صفة جهنم - باب ما جاء في صفة شراب أهل النار (٢٥٨٥) (ج ٤ / ص ٧٠٦) وابن ماجه في كتاب الزهد - باب ذكر الشفاعة (٤٣٢٥) (ج ٢ / ص ١٤٤٦) وأحمد (٢٧٣٥) (ج ١ / ص ٣٠٠).

[5] - أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٢٨٧٧) (ج ٤ / ص ٢٢٠٥).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: **((يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي))**[٦].

ما العلاقة بين هذه الأحاديث وبين قوله: **{وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [(١٠٢) سورة آل عمران]؟

يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: تتضح العلاقة في المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير، وهو أن الإنسان يموت على ما عاش عليه، وهذا مقتضى حسن الظن بالله -تبارك وتعالى- من أنه لا يضيع عبده وأنه رءوف بعباده لا يخيب آمالهم فمن أحسن في العمل فإن الله -عز وجل- يسدده ويثبته عند الموت ولا يختم له بالخاتمة السيئة وإنما يختم له بالسعادة، فينبغي إحسان الظن بالله -تبارك وتعالى- بهذا الاعتبار، وهذا هو وجه الارتباط بن هذه الأحاديث وبين الآية، وابن كثير -رحمه الله- لم يذكر هذا الكلام تفسيراً لقوله تعالى: **{وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [(١٠٢) سورة آل عمران] وإنما ذكره -والله تعالى أعلم- ليكمِّل به المعنى الذي ذكره، وهو أن من عاش على شيء مات عليه، فمقتضى حسن الظن بالله -تبارك وتعالى- أن الله يكمل لعبده صلاح الحال إلى الممات فيوافي على ما كان عليه في الحياة الدنيا، والله أعلم.

"قوله تعالى: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ} [(١٠٣) سورة آل عمران] قيل: بحبل الله أي بعهد الله كما قال في الآية بعدها: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ} [(١١٢) سورة آل عمران] أي بعهد وذمة".

الحبل يقال للسبب الذي يتوصل به إلى الشيء، فبعض السلف -رضي الله تعالى عنهم- فسره بالطاعة فقال: **{وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ}** أي بطاعته، وبعضهم فسره بالإسلام، وبعضهم فسره بالإخلاص، وبعضهم فسره بعبارات نحو هذا، وكبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- ذكر عبارة تشمل هذه الأمور، فقال: **{وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ}** أي: بدينه وطاعته.

فهذا هو الاعتصام بحبله، فيدخل فيه ما ذكر في تفسيره من أن المراد بذلك القرآن، فالقرآن هو منهاج الدين، ومن قال: أي بطاعته أو بدينه فلا فرق إذ كل ذلك يدور في فلك واحد، وهذا الذي يسمونه خلاف التنوع، ولهذا لسنا بحاجة أن نرجح بين هذه الأقوال، والله أعلم.

والحافظ ابن القيم له كلام جيد للغاية في هذا المعنى، وقد ذكرت مراراً أن من أراد أن يبني نفسه في التفسير فليدمن قراءة كلام ابن القيم وشيخ الإسلام ابن تيمية والشنقيطي، وتفسير ابن كثير، وتفسير ابن جرير، وإن أراد أن يستزيد فعليه بتفسير الطاهر بن عاشور، فهذه الكتب تبني طالب العلم وتؤصِّله؛ لأن هؤلاء كثيراً ما يشيرون إلى الملحظ والمأخذ وطريقة الجمع بين الأقوال، أو نحو هذا من الأمور التي يحتاج إليها طالب العلم، فإذا أدمن طالب العلم القراءة مع دراسة الموافقات للشاطبي مثلاً فإنه يكون له نفَس خاص فيتميز ولا يكون مجرد ناقل في التفسير، وإنما يكون له بصر فيه وذوق وقدرة على الاختيار والجمع بين الأقوال إذا أمكن وما أشبه هذا، ولنقرأ كلام ابن القيم -رحمه الله- هنا:

---

[٦] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: **{وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ}** [(٢٨) سورة آل عمران] (٦٩٧٠) (ج ٦ / ص ٢٦٩٤) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب الحث على ذكر الله تعالى (٢٦٧٥) (ج ٤ / ص ٢٠٦١).

قال الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ [(١٠٣) سورة آل عمران] وقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [(٧٨) سورة الحـــج]، والاعتصام افتعال من العصمة، وهو التمسك بما يعصمك ويمنعك من المحذور والمخوف، فالعصمة الحِميَة والاعتصام الاحتماء ومنه سميت القلاع العواصم لمنعها وحمايتها، ومدار السعادة الدنيوية والأخروية على الاعتصام بالله والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين، فأما الاعتصام بحبله فإنه يعصم من الضلالة والاعتصام به يعصم من الهلكة.

في الآية التي قبلها يقول سبحانه: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [(١٠١) سورة آل عمران] والاعتصام بالله يقي المعتصم من الهلكة فلا يضل ولا يحصل له ما يكره، والاعتصام بحبل الله هو المذكور هنا.

فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده فهو محتاج إلى هداية الطريق والسلامة فيها فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له، فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة وأن يهديه إلى الطريق، والعُدَّة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها، فالاعتصام بحبل الله يوجب له الهداية واتباع الدليل.

الاعتصام بحبل الله هو كما سبق أنه الاعتصام بالقرآن وبالإسلام وبطاعة الله -عز وجل- وهدايته، فذلك يقيه من الضلالة والانحراف، والاعتصام به -جل وعلا- فيه حماية للمعتصم به.

والاعتصام بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح والمادة التي يستلئم بها في طريقه، ولهذا اختلفت عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله بعد إشارتهم كلهم إلى هذا المعنى، فقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: تمسكوا بدين الله.

وقال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: هو الجماعة، وقال: عليكم بالجماعة فإنها حبل الله الذي أمر به، وإنما تكرهون في الجماعة، والطاعة خير مما تحبون في الفرقة.

وقال مجاهد وعطاء: بعهد الله، وقال قتادة والسدي وكثير من أهل التفسير: هو القرآن.

قال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن هذا القرآن هو حبل الله ونوره المبين، والشفاء النافع، وعصمة من تمسك به، ونجاة من تبعه))[7].

وقال علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في القرآن: ((هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تختلف به الألسن، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء))[8].

الأثر هذا لا يصح رفعه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وقال مقاتل: بأمر الله وطاعته، ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى.

---

7 - أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨٦٦٥) (ج ٩ / ص ١٣٠) والبيهقي في شعب الإيمان (١٩٣٣) (ج ٢ / ص ٣٢٤) وابن أبي شيبة في مصنفه (ج ٧ / ص ١٦٥) وضعفه الألباني في الضعيفة برقم (٦٨٤٢).

8 - أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن - باب ما جاء في فضل القرآن (٢٩٠٦) (ج ٥ / ص ١٧٢) وضعفه الألباني في المشكاة برقم (٢١٣٨).

وفي الموطأ من حديث مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويسخط لكم ثلاثاً)).

ابن القيم جمع بين الأقوال وكما قال: فالسائر إلى الله بحاجة إلى هاد يهديه، وبحاجة إلى قوة ومنعة وحماية، فالاعتصام بالله يوفر له المنعة والقوة، والاعتصام بحبل الله يوفر له الهداية، ولهذا فُسِّر هنا بالإسلام وبطاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم- ونحو ذلك من المعاني، فهذا هو الاعتصام بحبل الله، فهذا من أحسن ما يقال في التفسير، لذلك فإن النظر في كلام السلف -رضي الله تعالى عنهم- يحتاج فيه إلى مثل هذا البصر، والسابقون -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- كانوا يعبرون عن المعنى بعبارات غريبة كأن يكون بمثال أو بجزء المعنى، أو بنحو ذلك مما يقربه للسامع فلا يدققون كثيراً، لذلك من الخطأ أن تفرد هذه الأقوال على أنها من قبيل الخلاف ثم يطلب الترجيح بينها، وإنما ينبغي أن يعبر عنها بعبارة وافية شاملة، وللأسف نجد أن بعض كتب التفسير أو بعض المختصرات تعمد إلى قول مثل هذه الأقوال ثم تذكره في هذا الموضع، مع أن المعنى أشمل من هذا، ولو أنه كُتِب هذا المختصر أو هذا المهذب بنَفس وتحرير مثل هذا الذي ذكره ابن القيم -رحمه الله- فذلك الأولى والأحسن؛ لأنه بهذه الطريقة سيكون قد عُبِّر فيه بعبارات لائقة تجمع عبارات السلف -رضي الله تعالى عنهم- فلا يكون ذلك مقتصراً على أحد الألفاظ أو العبارات أو المعاني التي هي جزء مما ذكره أو مما يدخل في معنى الآية الواسع، والله تعالى أعلم.

وأنا أقول هذا الكلام لأهميته حيث إن كتب التفسير مليئة بمثل هذا التعبير، أعني تعداد الأقوال على أنها القول الأول والثاني والثالث والرابع، وهكذا بحيث إذا نظر فيها طالب العلم فإنه ربما تحيَّر وأشكل عليه الأمر.

"وقوله: {وَلاَ تَفَرَّقُواْ} [(١٠٣) سورة آل عمران] أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة، وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهي عن التفرق، والأمر بالاجتماع والائتلاف، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثًا وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاثًا، يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا، وأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلاهُ اللهُ أَمْرَكُمْ؛ وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وإِضَاعَةَ الْمَالِ))[9].

وقوله: {وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا} إلى آخر الآية [(١٠٣) سورة آل عمران] وهذا السياق في شأن الأوْس والخَزْرَج فإنه كانت بينهم حُروبٌ كثيرة في الجاهلية وعداوة شديدة وضغائن وإحَنٌ وذُحُول".

قوله: "**وذُحُول**.": يعني أحقاد وثارات، لكن هذا في الواقع لا يختص بالأوس والخزرج، فالعرب في الجاهلية عموماً كانوا يعيشون في حروب وثارات ربما دامت الواحدة منها أكثر من مائة سنة، فحرب بعاث مثلاً استمرت نحو مائة وعشرين سنة على أسباب تافهة، بمعنى أنها كانت تجدد حتى فني رءوسهم وكبارهم وزعماؤهم، فلما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- وجد تلك الرءوس قد حصدت من هذه الحرب، فالمقصود أن العداوة كانت موجودة بين قبائل العرب حتى ممن ليسوا من الأوس والخزرج، فالحروب والأحلاف كانت

[9] - أخرجه مسلم في كتاب الأقضية - باب اليمين على المدعى عليه (١٧١٥) (ج ٣ / ص ١٣٤٠).

قائمة، وهذا شيء لا يخفى في تاريخ العرب فهم كانوا أعداء فألَّف الله بين قلوب العرب والعجم جميعاً فحصلت مكان تلك العداوات الأخوة والرابطة الإيمانية.

ومما يدل على أن العداوات لم تكن منحصرة بين الأوس والخزرج أن وفد عبد القيس لما جاءوا للنبي -صلى الله عليه وسلم- قالوا له: إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر الحرام وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، بمعنى أنهم كان بينهم حروب فكانوا لا يأمنون على أنفسهم.

"عداوة شديدة وضغائن وإحَنٌ وذُحُول طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم صاروا إخوانا متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى، قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ* وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ} إلى آخر الآية [(٦٢-٦٣) سورة الأنفال] وكانوا على شفا حُفْرة من النار بسبب كفرهم فأنقذهم الله منها أنْ هَدَاهُم للإيمان وقد امتن عليهم بذلك رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-"

هنا يفسر -رحمه الله- قوله تعالى: **{وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ}** [(١٠٣) سورة آل عمران] وإن لم يذكر جزءاً من الآية المتصل بهذا لكنه دخل فيها.

والمقصود بشفا حفرة أي على طرف أو على شفير جهنم، والمعنى أنه لم يكن بينكم وبين دخول النار إلا أن تموتوا فتدخلوها، لكن أنقذكم الله -عز وجل- من ذلك ببعث محمد -صلى الله عليه وسلم-، فمن ترك ما بعث به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- واستبدل الإيمان بروابط أخرى كرابطة القبيلة عادت تلك العداوات، ومن استبدلها بالتراب عادت تلك العداوات، ومن استبدلها بالدم كالقوميات ونحو ذلك عادت تلك العداوات بين المسلمين العرب والعجم وأهل هذا البلد وذاك، وفي داخل البلد الواحد؛ والسبب أن هؤلاء من هذه الناحية أو من هذه القبيلة أو نحو ذلك، فتبقى بينهم المشاحنة والكراهية والمنافرة، فلا يمكن أن يجمع هذه الأمة إلا الرابطة الإيمانية، قال تعالى مؤكداً هذه الرابطة: **{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}** [(١) سورة المسد] مع أنه عمُّ النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن أهل مكة ومن العرب ومن قريش، ومع ذلك تبت يداه؛ لأنه ليس مؤمناً.

ويقول النبي -صلى الله عليه وسلم- مؤكداً هذه الرابطة: ((سلمان منا أهل البيت))[10] وهكذا صار البعيد قريباً والقريب بعيداً، فالرابطة هي الرابطة الإيمانية، وليست شيئاً آخر، فمتى رجع الناس إلى الجاهلية بأي لون من ألوانها سواء كانت بالدم أو التراب رجعت تلك العداوات بين الأمة.

"وقد امتن عليهم بذلك رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- يوم قَسَم غنائم حُنَيْن، فَعتَبَ من عتب منهم لمّا فَضَّل عليهم في القسْمَة بما أراه الله، فخطبهم فقال: ((يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلاَلا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي وَعَالَةً فأغْنَاكُمْ اللهُ بِي؟)) فكلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمنّ[11]".

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

---

10 - أخرجه الطبراني في الكبير (٦٠٥٢) (ج ٦ / ص ٢١٢) والحاكم (٦٥٣٩) (ج ٣ / ص ٦٩١) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٣٢٧٢).

11 - أخرجه مسلم في كتاب الزكاة - باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه (١٠٦١) (ج ٢ / ص ٧٣٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (١٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ* وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(١٠٠-١٠١) سورة آل عمران].

"يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا طائفة من أهل الكتاب الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، وما منَحهم به من إرسال رسوله كما قال تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم} الآية [(١٠٩) سورة البقرة] وهكذا قال هاهنا: {إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} [(١٠٠) سورة آل عمران] ثُمَّ قَالَ: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ} [(١٠١) سورة آل عمران] يعني أن الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه؛ فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلا ونهارًا، وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم، وهذا كقوله تعالى: {وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(٨) سورة الحديد] والآية بعدها.

وكما جاء في الحديث أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال يوما لأصحابه: ((أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَعْجَبُ إِلَيْكُمْ إِيمَانًا؟)) قالوا: الملائكة، قال: ((وَكَيْفَ لا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟!)) وذكروا الأنبياء قال: ((وَكَيْفَ لا يُؤْمِنُونَ وَالْوَحْيُ يَنزلُ عَلَيْهِمْ؟!)) قالوا: فنحن قال: ((وَكَيْفَ لا تُؤْمِنُونَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟!)) قالوا: فأيّ الناس أعجب إيمانًا؟ قال: ((قَوْمٌ يَجِيئُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ يَجِدُونَ صُحُفًا يُؤْمِنُونَ بِمَا فِيهَا))[1]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ}** [(١٠١) سورة آل عمران]، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فسر هذه الآية بالقرآن وفسرها بالسنة، ومعلوم أن هذا الضرب من التفسير يعتبر في المرتبة العليا، لكن لما كانت الآيات التي ذكرها -إضافة إلى الحديث- محتملة أن تكون بمعنى هذه الآية، خاصة وأن الحديث لا تعرض فيه لآية آل عمران فإن ذلك غير مقطوع به، ولهذا فهم منها بعض أهل العلم أنها بمعنى الإنكار، فالحافظ ابن كثير حملها على معنى الاستبعاد، أي أن ذلك بعيد منكم لوجود كذا وكذا؛ أي لأن آيات الله تتلى عليكم وفيكم رسوله فيبعد منكم هذا غاية البعد.

لكن المعنى الثاني هو أن ذلك للإنكار، أي كيف تكفرون بالله وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله؟! لا سيما مع ما يذكر في السير من سبب نزول هذه الآية إن صحَّ، وهو ذلك اليهودي الذي جاء إلى أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- من الأوس والخزرج وهم جلوس وبينهم من المودة والمحبة ما غاظه، فردَّد

---

[1] - رواه البزار (ج ٢ / ص ٣٤٧) وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ثم تراجع عن ذلك وصححه في السلسلة الصحيحة برقم (٣٢١٥).

بعض الأشعار التي قيلت في يوم بعاث وذكَّرهم بما جرى بينهم من حرب طويلة، وكانت الغلبة في يوم بعاث للأوس فتثاور القوم فحصل بينهم تراد ثم قام رجل وجثا على ركبتيه وقال: إن شئتم رددناها جذعة، فقالوا: نعم، ثم تواعدوا في الظاهرة في الحرة، وحملوا السلاح وخرجوا، فجاء النبي -صلى الله عليه وسلم- يمشي بين الصفين، وينكر عليهم هذا الذي وقع، وهو يقول محذراً لهم من هذا: ((لا ترجعوا بعدي كفاراً))[2] أو كلاماً نحو هذا، فلو صحَّ أن هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ* وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ} [(١٠٠-١٠١) سورة آل عمران] [(١٠٠) سورة آل عمران] نزلت بسبب هذا يكون المعنى كيف تكفرون بطاعتكم هذا الذي جاءكم من عند من دفعه ليحركوا النفوس، ويثيروا كوامنها ويجددوا الأحقاد والثارات القديمة، وبهذا الاعتبار هو ينكر عليهم ما وقع بينهم حيث اصطفوا للقتال فقال: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ} [(١٠١) سورة آل عمران] أي كيف يقع منكم هذا؟ فالآية تحتمل هذا وتحتمل هذا، وإنما ذكرتُ هذا لأن تفسير القرآن بالقرآن يدخله الاجتهاد، وكذلك الأمر في أحد النوعين من تفسير القرآن بالسنة وهو ما لم يتعرض فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- للآية ولكن المفسر عمد إلى الحديث وفهم منه الارتباط أو معنىً يرتبط بالآية فربط بين الآية والحديث وقد يكون الارتباط بينهما غير موجود أصلاً.

وعلى كل حال هذا الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- من أنها للاستبعاد لعله هو الأقرب، والله تعالى أعلم.

"ثم قال تعالى: {وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(١٠١) سورة آل عمران] أيّ: ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العُمْدة في الهداية والعُدَّة في مباعدة الغواية والوسيلة إلى الرشاد وطريق السداد، وحصول المراد.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ* وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [(١٠٢-١٠٣) سورة آل عمران].

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: {اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} قال: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر، وهذا إسناد صحيح موقوف رواه الحاكم في مستدركه عن ابن مسعود مرفوعاً، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، كذا قال، والأظهر أنه موقوف والله أعلم.

وروي عن أنس -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: لا يتق العبد الله حق تقاته حتى يخزن لسانه".

بعض أهل العلم من السلف قال: إن هذه الآية منسوخة ومشى على هذا بعض المتأخرين حيث قالوا: نسخها قول الله -تبارك وتعالى-: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [(١٦) سورة التغابن] وذلك أن تقوى الله حق تقاته كما قالوا: أمر لا يطاق، والشريعة لا تكليف فيها بما لا يطاق كما قال تعالى: {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا} [(٢٨٦) سورة البقرة] حتى إن بعض السلف قال: ليس في آل عمران آية منسوخة سوى هذه الآية.

---

2 - أخرجه البخاري في كتاب العلم - باب الإنصات للعلماء (١٢١) (ج ١ / ص ٥٦) ومسلم في كتاب الإيمان - باب بيان معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض (٦٥) (ج ١ / ص ٨١).

والأقرب -والله تعالى أعلم- أن هذه الآية ليست منسوخة، وقول من قال من السلف بأن الآية منسوخة يحمل على المعنى الأوسع للنسخ، فمن السلف -رضي الله تعالى عنهم- من يطلق النسخ على معنى أوسع مما اصطلح عليه المتأخرون، فاصطلاحهم -رحمهم الله- للنسخ يقصدون به كل ما يعرض للنص العام من تخصيص، وما يعرض للنص المطلق من تقييد، وما يعرض للنص المجمل من تبيين، وأما المتأخرون فإنهم يقصدون بالنسخ رفع الحكم الشرعي، وعلى هذا يمكن حمل قول القائل بنسخ هذه الآية على أنه يريد البيان، بمعنى أن آية التغابن مبيِّنة لآية آل عمران، إلا أننا لا نستطيع أن نجزم عند قول كل قائل أنه قصد البيان أو قصد الرفع أو غير ذلك، لكن على كل حال لا يلزم أن يكون مراد كل من عبر بالنسخ أنه أراد الرفع، وهناك قاعدة لا بد من معرفتها في هذا الباب وهي أن النسخ لا يثبت بالاحتمال، فدعاوى النسخ كثيرة جداً، وليس كل ما لاح من تعارض ظاهر بين آيتين يمكن أن يدعى فيه النسخ، ومعلوم أن الجمع بين النصوص هو المطلوب أولاً ما أمكن، وهنا يمكن الجمع بين آيتي التغابن وآل عمران، فيقال: من قواعد الشريعة المقررة أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها فلا تكليف في الشريعة بما لا يطاق، وهذا أصل دلت عليه الأدلة الشرعية فلا يقال: إن المراد بقوله تعالى: **{اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [(١٠٢) سورة آل عمران] هو ما فهمه بعضهم من أن المقصود بذلك أن يصل الإنسان إلى الحد الأعلى للتقوى فلا يقع منه صغيرة ولا كبيرة؛ فإن كل ابن آدم خطاء، ولا بد للإنسان من هفوة وزلة وتقصير، والله -عز وجل- قال عن رسوله -صلى الله عليه وسلم-: **{لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}** [(٢) سورة الفتح] لذلك فإن الأقرب أن يقال في هذه الآية -والله تعالى أعلم- إنها ليست منسوخة بل هي مبيَّنة بقوله تعالى: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}** [(١٦) سورة التغابن]، وبعبارة أخرى يقال: إن المراد بقوله: **{اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ}** [(١٠٢) سورة آل عمران] أن يطاع فلا يعصى وأن يشكر فلا يكفر بقدر الوسع والطاقة، ويبين هذا المعنى قوله: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}** [(١٦) سورة التغابن].

هذا هو المراد بهذه الآية والله أعلم، وهذا هو الذي مشى عليه كثير من المحققين وأنها ليست منسوخة، وبالنسبة للحافظ ابن كثير -رحمه الله- فإنه لم يذكر النسخ.

"وقوله: {وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٠٢) سورة آل عمران] أي: حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيءٍ مات عليه، ومن مات على شيءٍ بُعث عليه، فعياذاً بالله من خلاف ذلك".

هذا من أحسن ما تفسر به هذه الجملة، وقد سبق الكلام على هذا المعنى في وصية يعقوب -عليه الصلاة والسلام- لبنيه عند قوله: **{يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [(١٣٢) سورة البقرة]، فالإشكال الذي قد يَرِد ووقف عنده بعض المفسرين هو أن الإنسان لا يملك خاتمته ولا يدري بماذا يختم له، وفي الحديث: ((إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها))[3] الحديث، فالأعمال بالخواتيم، والله -عز وجل- ينهى عباده فيقول:

[3] - رواه البخاري في كتاب القدر- برقم (١٢٢٦) (٦/٢٤٣٣)، ومسلم في كتاب القدر - باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته برقم (٢٦٤٣) (٤/٢٠٣٦).

{وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٠٢) سورة آل عمران] فما المقصود بذلك ما دام غير مستطاع للإنسان أن يحدد خاتمته؟

قد يقال في هذا ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهذا بناءً على قاعدةِ أن الخطاب إذا توجه للمكلفين في أمر لا يدخل في طوقهم فإنه يتوجه إلى سببه أو إلى أثره، فمثلاً: من شروط التوبة الندم، لكن هل يملك الإنسان أنه يندم متى ما شاء؟ لا يمكن أبداً، فقد يريد الإنسان الندم لكن لا يستطيع ذلك، بل كلما تذكر المعصية التي فعلها فرح وسُرَّ بذلك وتحركت شهوته، فمثل هذا يؤمر أن يتوجه إلى سبب الندم فيتفكر في معنىً وهو أنه عصى الله -عز وجل- واجترأ عليه وأن الله قد رآه وكتب ذلك الكاتبون، وأن الحساب ينتظره، فإذا تذكر هذه المعاني خاف ورجف قلبه وندم وتاب إلى الله -عز وجل-، هذا مثال في توجهه إلى سببه.

وأما في توجهه إلى أثره فمثل قوله تعالى: **{الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}** [(٢) سورة النـــور] فالرأفة رحمة رقيقة تقع في قلب الإنسان من غير إرادة، فإذا رأى إنساناً يجلد فإنه يرقُّ له ويرحمه، فمثل هذا لا يلام وإنما يتوجه الخطاب إلى الأثر الذي قد يقع وهو تخفيف الحد أو إلغاؤه.

فهنا في قوله: **{وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [(١٠٢) سورة آل عمران] نقول: إن الإنسان لا يملك خاتمته، والله لا يكلف بما لا يطاق، وبالتالي فالخطاب يتوجه إلى سببه، وسببه هو ما ذكره الحافظ ابن كثير وهو مبني على هذا الأصل، ولذلك لم يقل ابن كثير -رحمه الله-: **{وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [(١٠٢) سورة آل عمران] أي: اجعلوا خاتمتكم الإسلام؛ لأن هذا أمر لا يستطيع الإنسان أن يحدده، فالخاتمة لا نملكها، لكن نسأل الله -عز وجل- حسنها، والمقصود أن يقال: إن الخطاب يتوجه إلى السبب وهو أنه على الإنسان أن يحسن العمل وأن يستقيم سلوكه على الصراط المستقيم في الدنيا كما أمره الله -عز وجل- فهذا مؤذن -إن شاء الله- أن يموت على ما عاش عليه.

"وروى الإمام أحمد عن مجاهد أنّ الناس كانوا يطوفون بالبيت، وابنُ عباس -رضي الله تعالى عنهما- جالس معه محْجَن فقال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (({يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} وَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ لأَمَرّتْ عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ عِيشَتَهُمْ فَكَيْفَ بِمَنْ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إلا الزَّقُّوم))[٤] وهكذا رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبَّان في صحيحه والحاكم في مستدركه، وقال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن جابر -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول قبل موته بثلاث: ((لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ عز وجل))[٥] ورواه مسلم.

---

[٤] - أخرجه الترمذي في كتاب صفة جهنم - باب ما جاء في صفة شراب أهل النار (٢٥٨٥) (ج ٤ / ص ٧٠٦) وابن ماجه في كتاب الزهد - باب ذكر الشفاعة (٤٣٢٥) (ج ٢ / ص ١٤٤٦) وأحمد (٢٧٣٥) (ج ١ / ص ٣٠٠).

[٥] - أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٢٨٧٧) (ج ٤ / ص ٢٢٠٥).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي))[6].

ما العلاقة بين هذه الأحاديث وبين قوله: **{وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [(١٠٢) سورة آل عمران]؟

يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: تتضح العلاقة في المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير، وهو أن الإنسان يموت على ما عاش عليه، وهذا مقتضى حسن الظن بالله -تبارك وتعالى- من أنه لا يضيع عبده وأنه رءوف بعباده لا يخيب آمالهم فمن أحسن في العمل فإن الله -عز وجل- يسدده ويثبته عند الموت ولا يختم له بالخاتمة السيئة وإنما يختم له بالسعادة، فينبغي إحسان الظن بالله -تبارك وتعالى- بهذا الاعتبار، وهذا هو وجه الارتباط بن هذه الأحاديث وبين الآية، وابن كثير -رحمه الله- لم يذكر هذا الكلام تفسيراً لقوله تعالى: **{وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [(١٠٢) سورة آل عمران] وإنما ذكره -والله تعالى أعلم- ليكمِّل به المعنى الذي ذكره، وهو أن من عاش على شيء مات عليه، فمقتضى حسن الظن بالله -تبارك وتعالى- أن الله يكمل لعبده صلاح الحال إلى الممات فيوافي على ما كان عليه في الحياة الدنيا، والله أعلم.

"قوله تعالى: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ} [(١٠٣) سورة آل عمران] قيل: بحبل الله أي بعهد الله كما قال في الآية بعدها: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ} [(١١٢) سورة آل عمران] أي بعهد وذمة".

الحبل يقال للسبب الذي يتوصل به إلى الشيء، فبعض السلف -رضي الله تعالى عنهم- فسره بالطاعة فقال: **{وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ}** أي بطاعته، وبعضهم فسره بالإسلام، وبعضهم فسره بالإخلاص، وبعضهم فسره بعبارات نحو هذا، وكبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- ذكر عبارة تشمل هذه الأمور، فقال: **{وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ}** أي: بدينه وطاعته.

فهذا هو الاعتصام بحبله، فيدخل فيه ما ذكر في تفسيره من أن المراد بذلك القرآن، فالقرآن هو منهاج الدين، ومن قال: أي بطاعته أو بدينه فلا فرق إذ كل ذلك يدور في فلك واحد، وهذا الذي يسمونه خلاف التنوع، ولهذا لسنا بحاجة أن نرجح بين هذه الأقوال، والله أعلم.

والحافظ ابن القيم له كلام جيد للغاية في هذا المعنى، وقد ذكرت مراراً أن من أراد أن يبني نفسه في التفسير فليدمن قراءة كلام ابن القيم وشيخ الإسلام ابن تيمية والشنقيطي، وتفسير ابن كثير، وتفسير ابن جرير، وإن أراد أن يستزيد فعليه بتفسير الطاهر بن عاشور، فهذه الكتب تبني طالب العلم وتؤصِّله؛ لأن هؤلاء كثيراً ما يشيرون إلى الملحظ والمأخذ وطريقة الجمع بين الأقوال، أو نحو هذا من الأمور التي يحتاج إليها طالب العلم، فإذا أدمن طالب العلم القراءة مع دراسة الموافقات للشاطبي مثلاً فإنه يكون له نفَس خاص فيتميز ولا يكون مجرد ناقل في التفسير، وإنما يكون له بصر فيه وذوق وقدرة على الاختيار والجمع بين الأقوال إذا أمكن وما أشبه هذا، ولنقرأ كلام ابن القيم -رحمه الله- هنا:

[6] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: **{وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ}** [(٢٨) سورة آل عمران] (٦٩٧٠) (ج ٦ / ص ٢٦٩٤) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب الحث على ذكر الله تعالى (٢٦٧٥) (ج ٤ / ص ٢٠٦١).

قال الله تعالى: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ} [(١٠٣) سورة آل عمران] وقال: {وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [(٧٨) سورة الحـج]، والاعتصام افتعال من العصمة، وهو التمسك بما يعصمك ويمنعك من المحذور والمخوف، فالعصمة الحِميَة والاعتصام الاحتماء ومنه سميت القلاع العواصم لمنعها وحمايتها، ومدار السعادة الدنيوية والأخروية على الاعتصام بالله والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين، فأما الاعتصام بحبله فإنه يعصم من الضلالة والاعتصام به يعصم من الهلكة.

في الآية التي قبلها يقول سبحانه: **{وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}** [(١٠١) سورة آل عمران] والاعتصام بالله يقي المعتصم من الهلكة فلا يضل ولا يحصل له ما يكره، والاعتصام بحبل الله هو المذكور هنا.

فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده فهو محتاج إلى هداية الطريق والسلامة فيها فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له، فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة وأن يهديه إلى الطريق، والعُدَّة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها، فالاعتصام بحبل الله يوجب له الهداية واتباع الدليل.

الاعتصام بحبل الله هو كما سبق أنه الاعتصام بالقرآن وبالإسلام وبطاعة الله -عز وجل- وهدايته، فذلك يقيه من الضلالة والانحراف، والاعتصام به -جل وعلا- فيه حماية للمعتصم به.

والاعتصام بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح والمادة التي يستلئم بها في طريقه، ولهذا اختلفت عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله بعد إشارتهم كلهم إلى هذا المعنى، فقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: تمسكوا بدين الله.

وقال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: هو الجماعة، وقال: عليكم بالجماعة فإنها حبل الله الذي أمر به، وإنما تكرهون في الجماعة، والطاعة خير مما تحبون في الفرقة.

وقال مجاهد وعطاء: بعهد الله، وقال قتادة والسدي وكثير من أهل التفسير: هو القرآن.

قال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن هذا القرآن هو حبل الله ونوره المبين، والشفاء النافع، وعصمة من تمسك به، ونجاة من تبعه))[7].

وقال علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في القرآن: ((هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تختلف به الألسن، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء))[8].

الأثر هذا لا يصح رفعه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وقال مقاتل: بأمر الله وطاعته، ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى.

---

7 - أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨٦٦٥) (ج ٩ / ص ١٣٠) والبيهقي في شعب الإيمان (١٩٣٣) (ج ٢ / ص ٣٢٤) وابن أبي شيبة في مصنفه (ج ٧ / ص ١٦٥) وضعفه الألباني في الضعيفة برقم (٦٨٤٢).

8 - أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن - باب ما جاء في فضل القرآن (٢٩٠٦) (ج ٥ / ص ١٧٢) وضعفه الألباني في المشكاة برقم (٢١٣٨).

وفي الموطأ من حديث مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويسخط لكم ثلاثاً)).

ابن القيم جمع بين الأقوال وكما قال: فالسائر إلى الله بحاجة إلى هاد يهديه، وبحاجة إلى قوة ومنعة وحماية، فالاعتصام بالله يوفر له المنعة والقوة، والاعتصام بحبل الله يوفر له الهداية، ولهذا فُسِّر هنا بالإسلام وبطاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم- ونحو ذلك من المعاني، فهذا هو الاعتصام بحبل الله، فهذا من أحسن ما يقال في التفسير، لذلك فإن النظر في كلام السلف -رضي الله تعالى عنهم- يحتاج فيه إلى مثل هذا البصر، والسابقون -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- كانوا يعبرون عن المعنى بعبارات غريبة كأن يكون بمثال أو بجزء المعنى، أو بنحو ذلك مما يقربه للسامع فلا يدققون كثيراً، لذلك من الخطأ أن تفرد هذه الأقوال على أنها من قبيل الخلاف ثم يطلب الترجيح بينها، وإنما ينبغي أن يعبر عنها بعبارة وافية شاملة، وللأسف نجد أن بعض كتب التفسير أو بعض المختصرات تعمد إلى قول مثل هذه الأقوال ثم تذكره في هذا الموضع، مع أن المعنى أشمل من هذا، ولو أنه كُتب هذا المختصر أو هذا المهذب بنَفس وتحرير مثل هذا الذي ذكره ابن القيم -رحمه الله- فذلك الأولى والأحسن؛ لأنه بهذه الطريقة سيكون قد عُبِّر فيه بعبارات لائقة تجمع عبارات السلف -رضي الله تعالى عنهم- فلا يكون ذلك مقتصراً على أحد الألفاظ أو العبارات أو المعاني التي هي جزء مما ذكره أو مما يدخل في معنى الآية الواسع، والله تعالى أعلم.

وأنا أقول هذا الكلام لأهميته حيث إن كتب التفسير مليئة بمثل هذا التعبير، أعني تعداد الأقوال على أنها القول الأول والثاني والثالث والرابع، وهكذا بحيث إذا نظر فيها طالب العلم فإنه ربما تحيَّر وأشكل عليه الأمر.

"وقوله: {وَلاَ تَفَرَّقُواْ} [(١٠٣) سورة آل عمران] أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة، وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهي عن التفرق، والأمر بالاجتماع والائتلاف، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثًا وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاثًا، يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا، وأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلاهُ اللهُ أَمْرَكُمْ؛ وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وإِضَاعَةَ الْمَالِ))[9].

وقوله: {وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا} إلى آخر الآية [(١٠٣) سورة آل عمران] وهذا السياق في شأن الأوْس والخَزْرَج فإنه كانت بينهم حُروبٌ كثيرة في الجاهلية وعداوة شديدة وضغائن وإحَنٌ وذُحُول".

قوله: "**وذُحُول.**": يعني أحقاد وثارات، لكن هذا في الواقع لا يختص بالأوس والخزرج، فالعرب في الجاهلية عموماً كانوا يعيشون في حروب وثارات ربما دامت الواحدة منها أكثر من مائة سنة، فحرب بعاث مثلاً استمرت نحو مائة وعشرين سنة على أسباب تافهة، بمعنى أنها كانت تجدد حتى فني رءوسهم وكبارهم وزعماؤهم، فلما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- وجد تلك الرءوس قد حصدت من هذه الحرب، فالمقصود أن العداوة كانت موجودة بين قبائل العرب حتى ممن ليسوا من الأوس والخزرج، فالحروب والأحلاف كانت

---

9 - أخرجه مسلم في كتاب الأقضية - باب اليمين على المدعى عليه (١٧١٥) (ج ٣ / ص ١٣٤٠).

قائمة، وهذا شيء لا يخفى في تاريخ العرب فهم كانوا أعداء فألَّف الله بين قلوب العرب والعجم جميعاً فحصلت مكان تلك العداوات الأخوة والرابطة الإيمانية.

ومما يدل على أن العداوات لم تكن منحصرة بين الأوس والخزرج أن وفد عبد القيس لما جاءوا للنبي –صلى الله عليه وسلم– قالوا له: إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر الحرام وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، بمعنى أنهم كان بينهم حروب فكانوا لا يأمنون على أنفسهم.

"عداوة شديدة وضغائن وإحَنٌ وذُحُول طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم صاروا إخوانا متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى، قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ* وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ} إلى آخر الآية [(٦٢-٦٣) سورة الأنفال] وكانوا على شفا حُفْرة من النار بسبب كفرهم فأنقذهم الله منها أنْ هَدَاهُم للإيمان وقد امتن عليهم بذلك رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم–"
هنا يفسر –رحمه الله– قوله تعالى: **{وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ}** [(١٠٣) سورة آل عمران] وإن لم يذكر جزءاً من الآية المتصل بهذا لكنه دخل فيها.

والمقصود بشفا حفرة أي على طرف أو على شفير جهنم، والمعنى أنه لم يكن بينكم وبين دخول النار إلا أن تموتوا فتدخلوها، لكن أنقذكم الله –عز وجل– من ذلك ببعث محمد –صلى الله عليه وسلم–، فمن ترك ما بعث به رسول الله –صلى الله عليه وسلم– واستبدل الإيمان بروابط أخرى كرابطة القبيلة عادت تلك العداوات، ومن استبدلها بالتراب عادت تلك العداوات، ومن استبدلها بالدم كالقوميات ونحو ذلك عادت تلك العداوات بين المسلمين العرب والعجم وأهل هذا البلد وذاك، وفي داخل البلد الواحد؛ والسبب أن هؤلاء من هذه الناحية أو من هذه القبيلة أو نحو ذلك، فتبقى بينهم المشاحنة والكراهية والمنافرة، فلا يمكن أن يجمع هذه الأمة إلا الرابطة الإيمانية، قال تعالى مؤكداً هذه الرابطة: **{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}** [(١) سورة المسد] مع أنه عمُّ النبي –صلى الله عليه وسلم– ومن أهل مكة ومن العرب ومن قريش، ومع ذلك تبت يداه؛ لأنه ليس مؤمناً.

ويقول النبي –صلى الله عليه وسلم– مؤكداً هذه الرابطة: ((سلمان منا أهل البيت))[١٠] وهكذا صار البعيد قريباً والقريب بعيداً، فالرابطة هي الرابطة الإيمانية، وليست شيئاً آخر، فمتى رجع الناس إلى الجاهلية بأي لون من ألوانها سواء كانت بالدم أو التراب رجعت تلك العداوات بين الأمة.

"وقد امتن عليهم بذلك رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم– يوم قَسَم غنائم حُنَيْن، فَعتَبَ من عتب منهم لمّا فَضَّل عليهم في القِسْمَة بما أراه الله، فخطبهم فقال: ((يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلاَلا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي وَعَالَةً فأَغْنَاكُمْ اللهُ بِي؟)) فكلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمنّ[١١]".

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

---

[10] – أخرجه الطبراني في الكبير (٦٠٥٢) (ج ٦ / ص ٢١٢) والحاكم (٦٥٣٩) (ج ٣ / ص ٦٩١) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٣٢٧٢).

[11] – أخرجه مسلم في كتاب الزكاة – باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه (١٠٦١) (ج ٢ / ص ٧٣٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (١٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ* وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(١٠٠-١٠١) سورة آل عمران].

"يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا طائفة من أهل الكتاب الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، وما مَنَحهم به من إرسال رسوله كما قال تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم} الآية [(١٠٩) سورة البقرة] وهكذا قال هاهنا: {إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} [(١٠٠) سورة آل عمران] ثُمَّ قَالَ: {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ} [(١٠١) سورة آل عمران] يعني أن الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه؛ فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلا ونهارًا، وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم، وهذا كقوله تعالى: {وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(٨) سورة الحديد] والآية بعدها.

وكما جاء في الحديث أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال يوما لأصحابه: ((أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَعْجَبُ إِلَيْكُمْ إِيمَانًا؟)) قالوا: الملائكة، قال: ((وَكَيْفَ لا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟!)) وذكروا الأنبياء قال: ((وَكَيْفَ لا يُؤْمِنُونَ وَالْوَحْيُ يَنزلُ عَلَيْهِمْ؟!)) قالوا: فنحن قال: ((وَكَيْفَ لا تُؤْمِنُونَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟!)) قالوا: فأيّ الناس أعجب إيمانًا؟ قال: ((قَوْمٌ يَجِيئُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ يَجِدُونَ صُحُفًا يُؤْمِنُونَ بِمَا فِيهَا))[1]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ}** [(١٠١) سورة آل عمران]، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فسر هذه الآية بالقرآن وفسرها بالسنة، ومعلوم أن هذا الضرب من التفسير يعتبر في المرتبة العليا، لكن لما كانت الآيات التي ذكرها -إضافة إلى الحديث- محتملة أن تكون بمعنى هذه الآية، خاصة وأن الحديث لا تعرض فيه لآية آل عمران فإن ذلك غير مقطوع به، ولهذا فهم منها بعض أهل العلم أنها بمعنى الإنكار، فالحافظ ابن كثير حملها على معنى الاستبعاد، أي أن ذلك بعيد منكم لوجود كذا وكذا؛ أي لأن آيات الله تتلى عليكم وفيكم رسوله فيبعد منكم هذا غاية البعد.

لكن المعنى الثاني هو أن ذلك للإنكار، أي كيف تكفرون بالله وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله؟! لا سيما مع ما يذكر في السير من سبب نزول هذه الآية إن صحَّ، وهو ذلك اليهودي الذي جاء إلى أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- من الأوس والخزرج وهم جلوس وبينهم من المودة والمحبة ما غاظه، فردَّد

[1] - رواه البزار (ج ٢ / ص ٣٤٧) وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة ثم تراجع عن ذلك وصححه في السلسلة الصحيحة برقم (٣٢١٥).

بعض الأشعار التي قيلت في يوم بعاث وذكَّرهم بما جرى بينهم من حرب طويلة، وكانت الغلبة في يوم بعاث للأوس فتثاور القوم فحصل بينهم ترادّ ثم قام رجل وجثا على ركبتيه وقال: إن شئتم رددناها جذعة، فقالوا: نعم، ثم تواعدوا في الظاهرة في الحرة، وحملوا السلاح وخرجوا، فجاء النبي -صلى الله عليه وسلم- يمشي بين الصفين، وينكر عليهم هذا الذي وقع، وهو يقول محذراً لهم من هذا: ((لا ترجعوا بعدي كفاراً))[2] أو كلاماً نحو هذا، فلو صحَّ أن هذه الآية: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ* وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ}** [(١٠٠-١٠١) سورة آل عمران] [(١٠٠) سورة آل عمران] نزلت بسبب هذا يكون المعنى كيف تكفرون بطاعتكم هذا الذي جاءكم من عند من دفعه ليحركوا النفوس، ويثيروا كوامنها ويجددوا الأحقاد والثارات القديمة، وبهذا الاعتبار هو ينكر عليهم ما وقع بينهم حيث اصطفوا للقتال فقال: **{وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ}** [(١٠١) سورة آل عمران] أي كيف يقع منكم هذا؟ فالآية تحتمل هذا وتحتمل هذا، وإنما ذكرتُ هذا لأن تفسير القرآن بالقرآن يدخله الاجتهاد، وكذلك الأمر في أحد النوعين من تفسير القرآن بالسنة وهو ما لم يتعرض فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- للآية ولكن المفسر عمد إلى الحديث وفهم منه الارتباط أو معنىً يرتبط بالآية فربط بين الآية والحديث وقد يكون الارتباط بينهما غير موجود أصلاً.

وعلى كل حال هذا الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- من أنها للاستبعاد لعله هو الأقرب، والله تعالى أعلم.

"ثم قال تعالى: {وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(١٠١) سورة آل عمران] أيّ: ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العُمْدة في الهداية والعُدَّة في مباعدة الغواية والوسيلة إلى الرشاد وطريق السداد، وحصول المراد.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ* وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [(١٠٢-١٠٣) سورة آل عمران].

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: {اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} قال: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر، وهذا إسناد صحيح موقوف رواه الحاكم في مستدركه عن ابن مسعود مرفوعاً، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، كذا قال، والأظهر أنه موقوف والله أعلم.

وروي عن أنس -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: لا يتق العبد الله حق تقاته حتى يخزن لسانه".

بعض أهل العلم من السلف قال: إن هذه الآية منسوخة ومشى على هذا بعض المتأخرين حيث قالوا: نسخها قول الله -تبارك وتعالى-: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}** [(١٦) سورة التغابن] وذلك أن تقوى الله حق تقاته كما قالوا: أمر لا يطاق، والشريعة لا تكليف فيها بما لا يطاق كما قال تعالى: **{لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا}** [(٢٨٦) سورة البقرة] حتى إن بعض السلف قال: ليس في آل عمران آية منسوخة سوى هذه الآية.

2 - أخرجه البخاري في كتاب العلم - باب الإنصات للعلماء (١٢١) (ج ١ / ص ٥٦) ومسلم في كتاب الإيمان - باب بيان معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض (٦٥) (ج ١ / ص ٨١).

والأقرب –والله تعالى أعلم– أن هذه الآية ليست منسوخة، وقول من قال من السلف بأن الآية منسوخة يحمل على المعنى الأوسع للنسخ، فمن السلف –رضي الله تعالى عنهم– من يطلق النسخ على معنى أوسع مما اصطلح عليه المتأخرون، فاصطلاحهم –رحمهم الله– للنسخ يقصدون به كل ما يعرض للنص العام من تخصيص، وما يعرض للنص المطلق من تقييد، وما يعرض للنص المجمل من تبيين، وأما المتأخرون فإنهم يقصدون بالنسخ رفع الحكم الشرعي، وعلى هذا يمكن حمل قول القائل بنسخ هذه الآية على أنه يريد البيان، بمعنى أن آية التغابن مبيِّنة لآية آل عمران، إلا أننا لا نستطيع أن نجزم عند قول كل قائل أنه قصد البيان أو قصد الرفع أو غير ذلك، لكن على كل حال لا يلزم أن يكون مراد كل من عبر بالنسخ أنه أراد الرفع، وهناك قاعدة لا بد من معرفتها في هذا الباب وهي أن النسخ لا يثبت بالاحتمال، فدعاوى النسخ كثيرة جداً، وليس كل ما لاح من تعارض ظاهر بين آيتين يمكن أن يدعى فيه النسخ، ومعلوم أن الجمع بين النصوص هو المطلوب أولاً ما أمكن، وهنا يمكن الجمع بين آيتي التغابن وآل عمران، فيقال: من قواعد الشريعة المقررة أن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها فلا تكليف في الشريعة بما لا يطاق، وهذا أصل دلت عليه الأدلة الشرعية فلا يقال: إن المراد بقوله تعالى: **{اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [(١٠٢) سورة آل عمران] هو ما فهمه بعضهم من أن المقصود بذلك أن يصل الإنسان إلى الحد الأعلى للتقوى فلا يقع منه صغيرة ولا كبيرة؛ فإن كل ابن آدم خطاء، ولا بد للإنسان من هفوة وزلة وتقصير، والله –عز وجل– قال عن رسوله –صلى الله عليه وسلم–: **{لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}** [(٢) سورة الفتح] لذلك فإن الأقرب أن يقال في هذه الآية –والله تعالى أعلم– إنها ليست منسوخة بل هي مبيَّنة بقوله تعالى: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}** [(١٦) سورة التغابن]، وبعبارة أخرى يقال: إن المراد بقوله: **{اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ}** [(١٠٢) سورة آل عمران] أن يطاع فلا يعصى وأن يشكر فلا يكفر بقدر الوسع والطاقة، ويبين هذا المعنى قوله: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}** [(١٦) سورة التغابن].

هذا هو المراد بهذه الآية والله أعلم، وهذا هو الذي مشى عليه كثير من المحققين وأنها ليست منسوخة، وبالنسبة للحافظ ابن كثير –رحمه الله– فإنه لم يذكر النسخ.

"وقوله: {وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٠٢) سورة آل عمران] **أي: حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيءٍ مات عليه، ومن مات على شيءٍ بُعث عليه، فعياذاً بالله من خلاف ذلك".**

هذا من أحسن ما تفسر به هذه الجملة، وقد سبق الكلام على هذا المعنى في وصية يعقوب –عليه الصلاة والسلام– لبنيه عند قوله: **{يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [(١٣٢) سورة البقرة]، فالإشكال الذي قد يَرِد ووقف عنده بعض المفسرين هو أن الإنسان لا يملك خاتمته ولا يدري بماذا يختم له، وفي الحديث: ((إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها))[3] الحديث، فالأعمال بالخواتيم، والله –عز وجل– ينهى عباده فيقول:

---

[3] – رواه البخاري في كتاب القدر– برقم (١٢٢٦) (٦/٢٤٣٣)، ومسلم في كتاب القدر – باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته برقم (٢٦٤٣) (٤/٢٠٣٦).

{وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٠٢) سورة آل عمران] فما المقصود بذلك ما دام غير مستطاع للإنسان أن يحدد خاتمته؟

قد يقال في هذا ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهذا بناءً على قاعدةٍ أن الخطاب إذا توجه للمكلفين في أمر لا يدخل في طوقهم فإنه يتوجه إلى سببه أو إلى أثره، فمثلاً: من شروط التوبة الندم، لكن هل يملك الإنسان أنه يندم متى ما شاء؟ لا يمكن أبداً، فقد يريد الإنسان الندم لكن لا يستطيع ذلك، بل كلما تذكر المعصية التي فعلها فرح وسُرَّ بذلك وتحركت شهوته، فمثل هذا يؤمر أن يتوجه إلى سبب الندم فيتفكر في معنىً وهو أنه عصى الله -عز وجل- واجترأ عليه وأن الله قد رآه وكتب ذلك الكاتبون، وأن الحساب ينتظره، فإذا تذكر هذه المعاني خاف ورجف قلبه وندم وتاب إلى الله -عز وجل-، هذا مثال في توجهه إلى سببه.

وأما في توجهه إلى أثره فمثل قوله تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [(٢) سورة النـــــور] فالرأفة رحمة رقيقة تقع في قلب الإنسان من غير إرادة، فإذا رأى إنساناً يجلد فإنه يرقُّ له ويرحمه، فمثل هذا لا يلام وإنما يتوجه الخطاب إلى الأثر الذي قد يقع وهو تخفيف الحد أو إلغاؤه.

فهنا في قوله: {وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٠٢) سورة آل عمران] نقول: إن الإنسان لا يملك خاتمته، والله لا يكلف بما لا يطاق، وبالتالي فالخطاب يتوجه إلى سببه، وسببه هو ما ذكره الحافظ ابن كثير وهو مبني على هذا الأصل، ولذلك لم يقل ابن كثير -رحمه الله-: {وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٠٢) سورة آل عمران] أي: اجعلوا خاتمتكم الإسلام؛ لأن هذا أمر لا يستطيع الإنسان أن يحدده، فالخاتمة لا نملكها، لكن نسأل الله -عز وجل- حسنها، والمقصود أن يقال: إن الخطاب يتوجه إلى السبب وهو أنه على الإنسان أن يحسن العمل وأن يستقيم سلوكه على الصراط المستقيم في الدنيا كما أمره الله -عز وجل- فهذا مؤذن -إن شاء الله- أن يموت على ما عاش عليه.

"وروى الإمام أحمد عن مجاهد أنّ الناس كانوا يطوفون بالبيت، وابنُ عباس -رضي الله تعالى عنهما- جالس معه مِحْجَن فقال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (({يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} وَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ لأَمَرّتْ عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ عِيشَتَهُمْ فَكَيْفَ بِمَنْ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إلا الزَّقُّوم))[4] وهكذا رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبَّان في صحيحه والحاكم في مستدركه، وقال الترمذي: حسن صحيح، وقال الحاكم على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن جابر -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول قبل موته بثلاث: ((لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ عز وجل))[5] ورواه مسلم.

---

4 - أخرجه الترمذي في كتاب صفة جهنم - باب ما جاء في صفة شراب أهل النار (٢٥٨٥) (ج ٤ / ص ٧٠٦) وابن ماجه في كتاب الزهد - باب ذكر الشفاعة (٤٣٢٥) (ج ٢ / ص ١٤٤٦) وأحمد (٢٧٣٥) (ج ١ / ص ٣٠٠).

5 - أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٢٨٧٧) (ج ٤ / ص ٢٢٠٥).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي))[6].

ما العلاقة بين هذه الأحاديث وبين قوله: **{وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [(١٠٢) سورة آل عمران]؟

يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: تتضح العلاقة في المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير، وهو أن الإنسان يموت على ما عاش عليه، وهذا مقتضى حسن الظن بالله -تبارك وتعالى- من أنه لا يضيع عبده وأنه رءوف بعباده لا يخيب آمالهم فمن أحسن في العمل فإن الله -عز وجل- يسدده ويثبته عند الموت ولا يختم له بالخاتمة السيئة وإنما يختم له بالسعادة، فينبغي إحسان الظن بالله -تبارك وتعالى- بهذا الاعتبار، وهذا هو وجه الارتباط بن هذه الأحاديث وبين الآية، وابن كثير -رحمه الله- لم يذكر هذا الكلام تفسيراً لقوله تعالى: **{وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}** [(١٠٢) سورة آل عمران] وإنما ذكره -والله تعالى أعلم- ليكمِّل به المعنى الذي ذكره، وهو أن من عاش على شيء مات عليه، فمقتضى حسن الظن بالله -تبارك وتعالى- أن الله يكمل لعبده صلاح الحال إلى الممات فيوافي على ما كان عليه في الحياة الدنيا، والله أعلم.

"قوله تعالى: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ} [(١٠٣) سورة آل عمران] قيل: بحبل الله أي بعهد الله كما قال في الآية بعدها: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ} [(١١٢) سورة آل عمران] أي بعهد وذمة".

الحبل يقال للسبب الذي يتوصل به إلى الشيء، فبعض السلف -رضي الله تعالى عنهم- فسره بالطاعة فقال: **{وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ}** أي بطاعته، وبعضهم فسره بالإسلام، وبعضهم فسره بالإخلاص، وبعضهم فسره بعبارات نحو هذا، وكبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- ذكر عبارة تشمل هذه الأمور، فقال: **{وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ}** أي: بدينه وطاعته.

فهذا هو الاعتصام بحبله، فيدخل فيه ما ذكر في تفسيره من أن المراد بذلك القرآن، فالقرآن هو منهاج الدين، ومن قال: أي بطاعته أو بدينه فلا فرق إذ كل ذلك يدور في فلك واحد، وهذا الذي يسمونه خلاف التنوع، ولهذا لسنا بحاجة أن نرجح بين هذه الأقوال، والله أعلم.

والحافظ ابن القيم له كلام جيد للغاية في هذا المعنى، وقد ذكرت مراراً أن من أراد أن يبني نفسه في التفسير فليدمن قراءة كلام ابن القيم وشيخ الإسلام ابن تيمية والشنقيطي، وتفسير ابن كثير، وتفسير ابن جرير، وإن أراد أن يستزيد فعليه بتفسير الطاهر بن عاشور، فهذه الكتب تبني طالب العلم وتؤصِّله؛ لأن هؤلاء كثيراً ما يشيرون إلى الملحظ والمأخذ وطريقة الجمع بين الأقوال، أو نحو هذا من الأمور التي يحتاج إليها طالب العلم، فإذا أدمن طالب العلم القراءة مع دراسة الموافقات للشاطبي مثلاً فإنه يكون له نفَس خاص فيتميز ولا يكون مجرد ناقل في التفسير، وإنما يكون له بصر فيه وذوق وقدرة على الاختيار والجمع بين الأقوال إذا أمكن وما أشبه هذا، ولنقرأ كلام ابن القيم -رحمه الله- هنا:

---

[6] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: **{وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ}** [(٢٨) سورة آل عمران] (٦٩٧٠) (ج ٦ / ص ٢٦٩٤) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب الحث على ذكر الله تعالى (٢٦٧٥) (ج ٤ / ص ٢٠٦١).

قال الله تعالى: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ} [(١٠٣) سورة آل عمران] وقال: {وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [(٧٨) سورة الحـــج]، والاعتصام افتعال من العصمة، وهو التمسك بما يعصمك ويمنعك من المحذور والمخوف، فالعصمة الحِميَة والاعتصام الاحتماء ومنه سميت القلاع العواصم لمنعها وحمايتها، ومدار السعادة الدنيوية والأخروية على الاعتصام بالله والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين، فأما الاعتصام بحبله فإنه يعصم من الضلالة والاعتصام به يعصم من الهلكة.

في الآية التي قبلها يقول سبحانه: {وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(١٠١) سورة آل عمران] والاعتصام بالله يقي المعتصم من الهلكة فلا يضل ولا يحصل له ما يكره، والاعتصام بحبل الله هو المذكور هنا.

فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده فهو محتاج إلى هداية الطريق والسلامة فيها فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له، فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة وأن يهديه إلى الطريق، والعُدَّة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها، فالاعتصام بحبل الله يوجب له الهداية واتباع الدليل.

الاعتصام بحبل الله هو كما سبق أنه الاعتصام بالقرآن وبالإسلام وبطاعة الله -عز وجل- وهدايته، فذلك يقيه من الضلالة والانحراف، والاعتصام به -جل وعلا- فيه حماية للمعتصم به.

والاعتصام بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح والمادة التي يستلئم بها في طريقه، ولهذا اختلفت عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله بعد إشارتهم كلهم إلى هذا المعنى، فقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: تمسكوا بدين الله.

وقال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: هو الجماعة، وقال: عليكم بالجماعة فإنها حبل الله الذي أمر به، وإنما تكرهون في الجماعة، والطاعة خير مما تحبون في الفرقة.

وقال مجاهد وعطاء: بعهد الله، وقال قتادة والسدي وكثير من أهل التفسير: هو القرآن.

قال ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن هذا القرآن هو حبل الله ونوره المبين، والشفاء النافع، وعصمة من تمسك به، ونجاة من تبعه))[7].

وقال علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في القرآن: ((هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تختلف به الألسن، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء))[8].

الأثر هذا لا يصح رفعه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وقال مقاتل: بأمر الله وطاعته، ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى.

---

[7] - أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨٦٦٥) (ج ٩ / ص ١٣٠) والبيهقي في شعب الإيمان (١٩٣٣) (ج ٢ / ص ٣٢٤) وابن أبي شيبة في مصنفه (ج ٧ / ص ١٦٥) وضعفه الألباني في الضعيفة برقم (٦٨٤٢).

[8] - أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن - باب ما جاء في فضل القرآن (٢٩٠٦) (ج ٥ / ص ١٧٢) وضعفه الألباني في المشكاة برقم (٢١٣٨).

وفي الموطأ من حديث مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويسخط لكم ثلاثاً)).

ابن القيم جمع بين الأقوال وكما قال: فالسائر إلى الله بحاجة إلى هاد يهديه، وبحاجة إلى قوة ومنعة وحماية، فالاعتصام بالله يوفر له المنعة والقوة، والاعتصام بحبل الله يوفر له الهداية، ولهذا فُسِّر هنا بالإسلام وبطاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم- ونحو ذلك من المعاني، فهذا هو الاعتصام بحبل الله، فهذا من أحسن ما يقال في التفسير، لذلك فإن النظر في كلام السلف -رضي الله تعالى عنهم- يحتاج فيه إلى مثل هذا البصر، والسابقون -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- كانوا يعبرون عن المعنى بعبارات غريبة كأن يكون بمثال أو بجزء المعنى، أو بنحو ذلك مما يقربه للسامع فلا يدققون كثيراً، لذلك من الخطأ أن تفرد هذه الأقوال على أنها من قبيل الخلاف ثم يطلب الترجيح بينها، وإنما ينبغي أن يعبر عنها بعبارة وافية شاملة، وللأسف نجد أن بعض كتب التفسير أو بعض المختصرات تعمد إلى قول مثل هذه الأقوال ثم تذكره في هذا الموضع، مع أن المعنى أشمل من هذا، ولو أنه كُتِب هذا المختصر أو هذا المهذب بنَفس وتحرير مثل هذا الذي ذكره ابن القيم -رحمه الله- فذلك الأولى والأحسن؛ لأنه بهذه الطريقة سيكون قد عُبِّر فيه بعبارات لائقة تجمع عبارات السلف -رضي الله تعالى عنهم- فلا يكون ذلك مقتصراً على أحد الألفاظ أو العبارات أو المعاني التي هي جزء مما ذكره أو مما يدخل في معنى الآية الواسع، والله تعالى أعلم.

وأنا أقول هذا الكلام لأهميته حيث إن كتب التفسير مليئة بمثل هذا التعبير، أعني تعداد الأقوال على أنها القول الأول والثاني والثالث والرابع، وهكذا بحيث إذا نظر فيها طالب العلم فإنه ربما تحيَّر وأشكل عليه الأمر.

"وقوله: {وَلاَ تَفَرَّقُواْ} [(١٠٣) سورة آل عمران] أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة، وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهي عن التفرق، والأمر بالاجتماع والائتلاف، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثًا وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلاثًا، يَرْضى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا، وأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلاهُ اللهُ أَمْرَكُمْ؛ وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وإِضَاعَةَ الْمَالِ))[9].

وقوله: {وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا} إلى آخر الآية [(١٠٣) سورة آل عمران] وهذا السياق في شأن الأوْس والخَزْرَج فإنه كانت بينهم حُروبٌ كثيرة في الجاهلية وعداوة شديدة وضغائن وإحَنٌ وذُحُول".

قوله: "**وذُحُول.**": يعني أحقاد وثارات، لكن هذا في الواقع لا يختص بالأوس والخزرج، فالعرب في الجاهلية عموماً كانوا يعيشون في حروب وثارات ربما دامت الواحدة منها أكثر من مائة سنة، فحرب بعاث مثلاً استمرت نحو مائة وعشرين سنة على أسباب تافهة، بمعنى أنها كانت تجدد حتى فني رءوسهم وكبارهم وزعماؤهم، فلما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- وجد تلك الرءوس قد حصدت من هذه الحرب، فالمقصود أن العداوة كانت موجودة بين قبائل العرب حتى ممن ليسوا من الأوس والخزرج، فالحروب والأحلاف كانت

[9] - أخرجه مسلم في كتاب الأقضية - باب اليمين على المدعى عليه (١٧١٥) (ج ٣ / ص ١٣٤٠).

قائمة، وهذا شيء لا يخفى في تاريخ العرب فهم كانوا أعداء فألَّف الله بين قلوب العرب والعجم جميعاً فحصلت مكان تلك العداوات الأخوة والرابطة الإيمانية.

ومما يدل على أن العداوات لم تكن منحصرة بين الأوس والخزرج أن وفد عبد القيس لما جاءوا للنبي -صلى الله عليه وسلم- قالوا له: إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر الحرام وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، بمعنى أنهم كان بينهم حروب فكانوا لا يأمنون على أنفسهم.

"عداوة شديدة وضغائن وإحَنٌ وذُحُول طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم صاروا إخوانا متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى، قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ* وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ} إلى آخر الآية [(٦٢-٦٣) سورة الأنفال] وكانوا على شفا حُفْرة من النار بسبب كفرهم فأنقذهم الله منها أنْ هَدَاهُم للإيمان وقد امتن عليهم بذلك رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-"

هنا يفسر -رحمه الله- قوله تعالى: {وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ} [(١٠٣) سورة آل عمران] وإن لم يذكر جزءاً من الآية المتصل بهذا لكنه دخل فيها.

والمقصود بشفا حفرة أي على طرف أو على شفير جهنم، والمعنى أنه لم يكن بينكم وبين دخول النار إلا أن تموتوا فتدخلوها، لكن أنقذكم الله -عز وجل- من ذلك ببعث محمد -صلى الله عليه وسلم-، فمن ترك ما بعث به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- واستبدل الإيمان بروابط أخرى كرابطة القبيلة عادت تلك العداوات، ومن استبدلها بالتراب عادت تلك العداوات، ومن استبدلها بالدم كالقوميات ونحو ذلك عادت تلك العداوات بين المسلمين العرب والعجم وأهل هذا البلد وذاك، وفي داخل البلد الواحد؛ والسبب أن هؤلاء من هذه الناحية أو من هذه القبيلة أو نحو ذلك، فتبقى بينهم المشاحنة والكراهية والمنافرة، فلا يمكن أن يجمع هذه الأمة إلا الرابطة الإيمانية، قال تعالى مؤكداً هذه الرابطة: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} [(١) سورة المسد] مع أنه عمُّ النبي -صلى الله عليه وسلم- ومن أهل مكة ومن العرب ومن قريش، ومع ذلك تبت يداه؛ لأنه ليس مؤمناً.

ويقول النبي -صلى الله عليه وسلم- مؤكداً هذه الرابطة: ((سلمان منا أهل البيت))[10] وهكذا صار البعيد قريباً والقريب بعيداً، فالرابطة هي الرابطة الإيمانية، وليست شيئاً آخر، فمتى رجع الناس إلى الجاهلية بأي لون من ألوانها سواء كانت بالدم أو التراب رجعت تلك العداوات بين الأمة.

"وقد امتن عليهم بذلك رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- يوم قَسَم غنائم حُنَيْن، فعَتَبَ من عتب منهم لمّا فَضَّل عليهم في القِسْمَة بما أراه الله، فخطبهم فقال: ((يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلاَلا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي وَعَالَةً فأَغْنَاكُمْ اللهُ بِي؟)) فكلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمنّ[11]".

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

---

10 - أخرجه الطبراني في الكبير (٦٠٥٢) (ج ٦ / ص ٢١٢) والحاكم (٦٥٣٩) (ج ٣ / ص ٦٩١) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٣٢٧٢).

11 - أخرجه مسلم في كتاب الزكاة - باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه (١٠٦١) (ج ٢ / ص ٧٣٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (١٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ* يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ* وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ* تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ* وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ} [(١٠٤-١٠٩) سورة آل عمران].

"يقول تعالى: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ} منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، {وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [(١٠٤) سورة آل عمران] قال الضحاك: هم خاصة الصحابة وخاصة الرواة، يعني المجاهدين والعلماء، والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان))[1] وفي رواية: ((وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل))[2].

وروى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان -رضي الله تعالى عنهما- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنَّه فلا يستجيبُ لكم))[3] ورواه الترمذي وقال: حسن، والأحاديث في هذا الباب كثيرة مع الآيات الكريمة، كما سيأتي تفسيرها في أماكنها".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد..

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ}** قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن، وهذا الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بناءً على أن

---

1 - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان (٤٩) (ج ١ / ص ٦٩).

2 - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان (٥٠) (ج ١ / ص ٦٩).

3 - أخرجه الترمذي في كتاب الفتن - باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢١٦٩) (ج ٤ / ص ٤٦٨) وأحمد (٢٣٣٧٥) (ج ٥ / ص ٣٩١) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٣١٣).

"مِن" للتبعيض، وعلى ذلك يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من قبيل فرض الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين، فالمقصود وجوده دون النظر إلى فاعله، والآية تحتمل هذا احتمالاً قريباً.

والمعنى الآخر أن تكون "مِن" بيانية، فقوله: **{وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ}** أي: ولتكونوا أمة، كما يقول الإنسان لأولاده: أريد منكم أبناء بررة، أو أريد منكم أن تكونوا صالحين، فالمقصود أنه لا يريد من بعضهم أبناء بررة دون البعض، وإنما يريد منهم أن يصيروا كذلك جميعاً، وهنا **{وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ}** أي كونوا أمة، تقول: أريد أن أجعل من فلان رجلاً متميزاً أو عالماً وهكذا، فإذا كانت "مِن" بيانية فبناء عليه يكون المعنى: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من قبيل فرض العين، فيجب على كل إنسان أن يأمر بالمعروف وأن ينهى عن المنكر، ولا تبرأ ذمته إلا بذلك، ولا يقول: غيري سيقوم به، فالآية معناها كونوا جميعاً أمة تقوم بهذا، كما قال الله – عز وجل-: **{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ}** [(١١٠) سورة آل عمران] وهذه الآية يمكن أن يحتج بها لهذا القول، كما يمكن لصاحب القول الأول القائل بأن "مِن" تبعيضية، أن يقول: إن قوله: **{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ}** أي أن هذا وجد في هذه الأمة فصارت قائمة بأمر الله –عز وجل- بقيام البعض بهذه الفريضة.

وعلى كل حال خلاف العلماء في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هل هو فرض عين أو فرض كفاية مرجعه إلى هذه الآية، فأصل الخلاف يدور على هذه الآية، ثم بعد ذلك يستدلون بأدلة منها قوله –صلى الله عليه وسلم-: ((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده)) فيقولون: المعنى هنا من رأى منكم منكراً فإنه يجب عليه ولا يعفيه أن يقوم أحد آخر بهذا.

والأقرب –والله تعالى أعلم- أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، وأن "مِن" هنا للتبعيض وليست بيانية، وأن ذلك إذا وجد فإن الأمة تكون بتلك المرتبة والمنزلة التي ذكرها الله في قوله: **{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}** [(١١٠) سورة آل عمران]، بقيام بعضهم بذلك.

وأما قوله –صلى الله عليه وسلم-: ((من رأى منكم منكراً فليغيره بيده)) فإنه يجب عليه أن يغيره بحسب استطاعته، فإن قام به غيره حصل المقصود، والله أعلم.

"ثم قال تعالى: {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ} الآية [(١٠٥) سورة آل عمران].

ينهى –تبارك وتعالى- هذه الأمة أن تكون كالأمم الماضين في تفرقهم واختلافهم، وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام الحجة عليهم.

روى الإمام أحمد عن أبي عامر عبد الله بن لحي قال: حججنا مع معاوية بن أبي سفيان –رضي الله تعالى عنهما- فلما قدمنا مكة قام حين صلى الظهر فقال: إن رسول الله –صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملَّة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملَّة –يعني الأهواء- كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله)) والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما

جاء به نبيكم -صلى الله عليه وسلم- لَغيركم من الناس أحرى ألا يقوم به وهكذا رواه أبو داود عن أحمد ابن حنبل ومحمد بن يحيى[4]**.**

وقوله تعالى: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} [(١٠٦) سورة آل عمران] يعني يوم القيامة حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-.

{فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} [(١٠٦) سورة آل عمران] قال الحسن البصري: وهم المنافقون، {فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} [(١٠٦) سورة آل عمران] وهذا الوصف يعم كل كافر".

هذه الآيات في غاية الترابط، فالله -عز وجل- قال: **{وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}** [(١٠٤) سورة آل عمران] ثم قال: **{وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ}** [(١٠٥) سورة آل عمران] فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو سبيل الاجتماع ودفع أسباب الشر والتفرق والتطاحن، فإذا تُرك الناس كما يشاءون افترقت الأمة وصار أصحاب الشهوات يغرقون في شهواتهم، ونشأت الأهواء والبدع والضلالات وحصل الانقسام في الأمة والافتراق ولا بُد، وإذا حصل هذا فهذا هو عين التفرق، وكما قيل: من خالف عقده عقدك خالف قلبه قلبك، فالذي يخالفك في الاعتقاد مهما سميت اعتقاده ومهما لطفت له العبارة فسميته طيفاً أو سميته بالآخَر فإن ذلك لا يغير من كوامن النفوس أبداً، ولذلك إذا جاءت اللحظات التي يتنفس فيها ظهرت عندئذ شروره وغوائل بدعته وضلالته.

ولو نظرنا إلى ما حولنا من البلاد فإننا نرى ذلك ظاهراً عياناً، ففي لبنان مثلاً هل يوجد وهابية مسيطرة متسلطة تستحق الإبادة كما يقولون؟ لا يوجد ذلك أبداً، فلماذا يحصل في لبنان ما يحصل الآن ولماذا حصل ما حصل قبل نحو عشرين سنة؟

إنما هو الحقد والقتل الذريع لأناس مساكين أبعد ما يكونون عن الدين، ومع ذلك يقتلون قتلاً في الشوارع، وتقطع الأيدي من أجل أن تؤخذ الساعة أو السوار من المرأة أو نحو ذلك، وهكذا تجد الجثث منتفخة في الشوارع بعد أن تمزق عنها الثياب، وبوادر هذا ظاهرة الآن، وفي العراق الأمر أشدّ، فهل كان عند هؤلاء هيمنة طائفة على البقية؟

ليس الأمر كذلك أبداً، فهذه بلاد ليس للعقيدة والدين عندهم أي تأثير في أمور الحياة إلا ما رحم ربي، ومع ذلك إذا افترقت الأمة إلى عقائد وبدع وأهواء وضلالات فهذا هو الخطر الذي يهددها، لكن حينما يوجد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -بمعنى أنه كلما ظهرت بادرة تنكر وقيل لصاحبها: توقف- ثم يظهر العلم فلا يبقى الناس على جهل، ولذلك إذا خالف من خالف فإنه يكون قد خالف عن علم، ولهذا قال بعده: **{وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ}** [(١٠٥) سورة آل عمران] ولهذا قال الله عن أهل الكتاب: **{وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ}** [(١٩) سورة آل عمران] فهذا هو حالهم وواقعهم، فإذا قمنا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أقمنا الحجة على الناس وقطعنا دابر الشر من أوله، وإذا ترك الأمر بحجة الحرية الفكرية والحرية المطلقة بحيث يفعل المرء ما يشاء من الذنوب والمعاصي عندئذ تتفرق

---

[4] - أخرجه أحمد (١٦٩٧٩) وأبو داود عن أحمد في كتاب السنة - باب شرح السنة (٤٥٩٩) (ج ٤ / ص ٣٢٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٦٤١).

الأمة وتنقسم وتكون طوائف وشيعاً وأحزاباً يعادي بعضها بعضاً، وللعلم فإنه لا يمكن أبداً أن تنقسم الأمة إلى طوائف وأحزاب بينها توافق أو تواصل أو تقريب في وجهات النظر حتى وإن اجتمعوا في مكان واحد، بل كل واحد ينظر إلى الآخر بالريبة وهو يحدث نفسه متى يتمكن حتى يبطش به، وهذا هو واقع الحال، فتغيير الأسماء والعبارات من صاحب الهوى والبدعة والكافر وما إلى ذلك إلى طيف والآخَر وما شابهه لا يغير شيئاً.

يقول الله -عز وجل-: **{يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ}** [(١٠٦) سورة آل عمران]، في هذه الآية ذكر -تبارك وتعالى- جزاء هؤلاء جميعاً، وكثير من السلف قالوا: هؤلاء هم أصحاب البدع، والحقيقة أن أهل البدع يدخلون في هذا، ويدخل فيه كل من عمل عملاً يسود وجهه، لكن السياق في الكفار؛ لأن الله -عز وجل- قال بعدها: **{فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}** [(١٠٦) سورة آل عمران] ولهذا قال من قال من السلف: إنها في المنافقين، وهم كفار في الباطن، فقوله: **{أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}** [(١٠٦) سورة آل عمران] يعني بعد إيمانكم الذي زعمتموه وأظهرتموه وإلا فإنهم لم يؤمنوا أصلاً.

وبعضهم قال: إن هذه الآية في أهل الكتاب؛ لقوله: **{أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}** [(١٠٦) سورة آل عمران]، والمعنى أنهم آمنوا بكتابهم وكفروا بمحمد -صلى الله عليه وسلم-.

وعلى كل حال يدخل في هذه الآية كل الكفار ويدخل فيها أهل النفاق، ولأهل البدع نصيب من هذا السواد بقدر ما عندهم من الضلالات والأهواء والبدع، ويكون للإنسان من بياض الوجه والأمن في الآخرة بقدر ما عنده من الاتباع والاستقامة ولزوم السنة، ولهذا فإن قوله -تبارك وتعالى-: **{الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}** [(٨٢) سورة الأنعام]، والنبي -صلى الله عليه وسلم- فسر الظلم في هذه الآية بالشرك، فهذا هو معنى الآية، لكن ذلك لا يمنع أن يقال: إنه ينقص من أمن الإنسان ومن اهتدائه بقدر ما ينقص من إيمانه؛ لأن الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، ولهذا يتفاوتون في النعيم بحسب تفاوتهم في الإيمان، وهكذا يتفاوتون في الموقف يوم المحشر في العرق والشدة بقدر إيمانهم، والله المستعان.

وقوله تعالى: **{يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ}** [(١٠٦) سورة آل عمران]، من أهل العلم من ربطها بما قبلها ككبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- حيث يقول: إنها مرتبطة بما قبلها باعتبار **{وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ}** [(١٠٥-١٠٦) سورة آل عمران] ومتى يكون العذاب العظيم؟ يكون يوم تبيض وجوه وتسود وجوه، أي هو عذاب كائن لهم في ذلك اليوم، ومن أهل العلم من يرى أنها مستأنفة، وعلى كل حال هذه الآية أيضاً يحتمل أن يكون المراد بها أهل الردة، وهم بلا شك داخلون في هذا، وكل هذا من أجل قوله تعالى: **{أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}** [(١٠٦) سورة آل عمران] لكن إذا نظرت إلى المنقول عن السلف في التفسير رأيت كثرة من يقول: إنها في أهل البدع.

"{وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(١٠٧) سورة آل عمران] **يعني الجنة ماكثون فيها أبداً لا يبغون عنها حولاً.**

وقد روى أبو عيسى الترمذي عند تفسير هذه الآية عن أبي غالب قال: رأى أبو أمامة -رضي الله تعالى عنه- رءوساً منصوبةً على درج دمشق، فقال أبو أمامة: كلاب النار شرّ قتلى تحت أديم السماء، خير قتلى من قتلوه، ثم قرأ {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} إلى آخر الآية، قلت لأبي أمامة: أنت سمعته من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال: لو لم أسمعه إلا مرةً أو مرتين أو ثلاثاً أو أربعاً.. حتى عدَّ سبعاً ما حدثتكموه، ثم قال: هذا حديث حسن، ورواه ابن ماجه، وأخرجه أحمد في مسنده بنحوه(٥)".

هذا حديث مرفوع أطلق فيه هذا الوصف وحمل فيه الآية **{يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ}** على الخوارج، ويقول: سمعته من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وإن كان هذا ليس بقاطع، بمعنى أنه قد يكون الذي سمعه من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هو أنهم كلاب النار، شر قتلى تحت أديم السماء، خير قتلى من قتلوه، ثم قرأ، يعني قد لا يكون سمع الآية تقرأ في هذا المقام من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولكن الظاهر أنه سمع ذلك جميعاً من النبي -صلى الله عليه وسلم-، فحملُها على أهل البدع وأنهم يدخلون في هذا يكون بحسبه، أي يكون فيهم من هذا السواد بحسب ما عندهم من البدع، فأصحاب البدع المكفرة لهم السواد التام، ومن كان دونهم فله من السواد بحسبه، والله -عز وجل- يقول: **{وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ}** [(٦٠) سورة الزمر]، وقال: **{وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ* تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ* أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ}** [(٤٠-٤٢) سورة عبس]، وهكذا في قوله: **{وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}** [(٢٧) سورة يونس].

"ثم قال تعالى: {تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ} [(١٠٨) سورة آل عمران] **أي هذه آيات الله وحججه وبيناته نتلوها عليك يا محمد، {بِالْحَقِّ} أي: نكشف ما الأمر عليه في الدنيا والآخرة.**

{وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ} [(١٠٨) سورة آل عمران] **أي: ليس بظالم لهم بل هو الحكم العدل الذي لا يجور، لأنه القادر على كل شيء، العالم بكل شيء، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحداً من خلقه، ولهذا قال تعالى: {وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ}** [(١٠٩) سورة آل عمران] **أي: الجميع ملك له وعبيد له، {وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ}** [(١٠٩) سورة آل عمران] **أي: هو المتصرف في الدنيا والآخرة، الحاكم في الدنيا والآخرة.**

{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ* لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ* ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} [(١١٠-١١٢) سورة آل عمران]".

---

[5] - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه و سلم - باب تفسير سورة البقرة (٣٠٠٠) (ج ٥ / ص ٢٢٦) وابن ماجه في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم - باب في ذكر الخوارج (١٧٦) (ج ١ / ص ٦٢) وأحمد (٢٢٢٦٢) (ج ٥ / ص ٢٥٦) وحسنه الألباني في المشكاة برقم (٣٥٥٤).

في قوله تعالى في الآية السابقة: {وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} [(١٠٩) سورة آل عمران]، الله -تبارك وتعالى- ذكر جزاء الذين اسودت وجوههم وجزاء الذين ابيضت وجوههم، قال تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ* وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(١٠٦-١٠٧) سورة آل عمران] فالله -عز وجل- حينما عذب هؤلاء ونعَّم هؤلاء لم يكن ظالماً لهم، بل له ما في السماوات وما في الأرض، فالخلق كلهم عبيده، فلم يكن ذلك التعذيب لنقص في ملكه، بل ملكه تام، ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

"يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم فقال تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [(١١٠) سورة آل عمران].

روى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه-: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} قال: خير الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام، وهكذا قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وعطية العوفي وعكرمة وعطاء والربيع بن أنس: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} يعني خير الناس للناس، والمعنى أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس ولهذا قال: {تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ} [(١١٠) سورة آل عمران]".

في قوله: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} هل "كان" تامة أم ناقصة؟

الفرق بين "كان" التامة و"كان" الناقصة أن "كان" التامة لا تحتاج إلى مبتدأ وخبر، فهي ليست من النواسخ، وعلى هذا يكون المعنى وُجِدتُم خير أمة، كما تقول مثلاً: قال الله له: كن فكان، فهذه تامة معناها فوُجد، فإذا كانت هنا في الآية تامة فهي ليست بمعنى المضي، وإنما يكون هذا وصف ثابت لهم، أما إذا كانت ناقصة ناسخة تنسخ المبتدأ والخبر بحيث يكون المبتدأ اسماً لها والخبر خبراً لها، فعندئذ هل تكون "كنتم" يعني في الزمن الماضي خير أمة أخرجت للناس فقط؟

ليس هذا هو المراد، وإنما من فسرها بأنها ناقصة واعتبر فيها معنى المضي، قال: إن "كنتم" يعني في اللوح المحفوظ خير أمة أخرجت للناس، ومنهم من يقول: كنتم منذ آمنتم خير أمة أخرجت للناس.

ومن أهل العلم من يقول كابن جرير -رحمه الله-: إن "كان" هذه ذكْرها وعدم ذكرها سواء من جهة الدلالة على المعنى الأصلي الذي سيقت له الآية، وهو أن هذا الوصف ثابت لهذه الأمة في الحال أي حينما نزلت عليها هذه الآية وليس ذلك في المضي، ومثل هذه الآية قوله تعالى: {وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ} [(٨٦) سورة الأعراف] وقوله: {وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ} [(٢٦) سورة الأنفال] وما شابه ذلك، فالمعنى أنتم خير أمة أخرجت للناس.

"وفي مسند الإمام أحمد وجامع الترمذي وسنن ابن ماجه ومستدرك الحاكم، من رواية حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أنتم توفون سبعين

أمة أنتم خيرها وأنتم أكرم على الله عز وجل))[6] وهو حديث مشهور وقد حسنه الترمذي ويروى من حديث معاذ بن جبل وأبي سعيد -رضي الله تعالى عنهما- نحوه.

وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد -صلوات الله وسلامه عليه- فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبياً قبله ولا رسولاً من الرسل، فالعمل على منهاجه وسبيله يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه، كما روى الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أعطيت ما لم يُعطَ أحد من الأنبياء)) فقلنا: يا رسول الله ما هو؟ قال: ((نصرت بالرعب، وأعطيت مفاتيح الأرض وسميت أحمد، وجعل التراب لي طهوراً، وجعلت أمتي خير الأمم))[7] وإسناده حسن، وقد وردت أحاديث يناسب ذكر بعضها هاهنا.

وثبت في الصحيحين من رواية الزهري عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة -رضي الله عنه- حدثه قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((يدخل الجنة من أمتي زمرة وهم سبعون ألفاً، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر)) فقال أبو هريرة: فقام عكاشة بن محصن الأسدي -رضي الله تعالى عنه- يرفع نمرة عليه، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((اللهم اجعله منهم)) ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: ((سبقك بها عكاشة))[8]".

قوله: **{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}** إلى آخره، يعني أنتم خير أمة أظهرت للناس، حيث اتصفتم بهذه الصفة تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وهذا يدل على أن الأمة إذا تخلت عن هذا فقد تخلت عن سبب خيريتها وتفضيلها، وهذا يدل أيضاً على أن هذه الأمة أفضل الأمم، وأنها أفضل من بني إسرائيل، وإن كان الله -عز وجل- قد قال في حق بني إسرائيل: **{وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}** [(٤٧) سورة البقرة] فيعني أنه فضلهم على عالم زمانهم، فلما كفروا مقتهم الله -عز وجل- ولعنهم وقطعهم في الأرض أمماً، وحصل بهم ما حصل.

"نوع آخر من الأحاديث الدالة على فضيلة هذه الأمة وشرفها وكرامتها على الله -عز وجل- وأنها خير الأمم في الدنيا والآخرة.

روى الإمام أحمد عن جابر -رضي الله عنه- أنه سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَكُونَ مَنْ يَتَّبِعُنِي مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ رُبْعَ الْجَنَّةِ)) قال: فكبَّرنا، ثم قال: ((أَرْجُو أَنْ يَكُونُوا ثلثَ النَّاسِ)) قال: فكبرنا، ثم قال: ((أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا الشَّطْرَ)) وهكذا رواه عن طريق آخر وهو على شرط مسلم[9].

---

[6] - أخرجه الترمذي في كتاب التفسير - باب تفسير سورة آل عمران (٣٠٠١) (ج ٥ / ص ٢٢٦) وابن ماجه في كتاب الزهد - باب صفة أمة محمد صلى الله عليه وسلم (٤٢٨٨) (ج ٢ / ص ١٤٣٣) وأحمد (٢٠٠٢٩) (ج ٤ / ص ٤٤٧).

[7] - أخرجه أحمد (٧٦٣) (ج ١ / ص ٩٨) وهو في السلسلة الصحيحة برقم (٣٩٣٩).

[8] - أخرجه البخاري في كتاب اللباس - باب البرود والحبرة والشملة (٥٤٧٤) (ج ٥ / ص ٢١٨٩) ومسلم في كتاب الإيمان - باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (٢١٦) (ج ١ / ص ١٩٧).

[9] - أخرجه أحمد (١٥١٥٤) (ج ٣ / ص ٣٨٣) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

وثبت في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: قال لنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟)) فكبرنا، ثم قال: ((أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟)) فكبرنا، ثم قال: ((إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شطر أَهْلِ الْجَنَّة))[10].

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن بريدة -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أهل الجنة عشرون ومائة صف، هذه الأمة من ذلك ثمانون صفاً)) وكذلك رواه عن طريق آخر وأخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن، ورواه ابن ماجه[11].

وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولاً الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه الناس لنا فيه تبع، غداً لليهود وللنصارى بعد غد)) [رواه البخاري ومسلم مرفوعاً بنحوه][12].

ورواه مسلم أيضاً عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول من يدخل الجنة)) وذكر تمام الحديث[13].

فهذه الأحاديث وغيرها في معنى قوله تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ} [(١١٠) سورة آل عمران] فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا الثناء عليهم والمدح لهم، كما قال قتادة: بلغنا أن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- في حجة حجها رأى من الناس رِعةً فقرأ هذه الآية".

قوله: "رأى من الناس رِعةً "، يعني سوء هيئة أو سوء تصرف، يعني رأى منهم ما ينافي الأدب.

"أن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- في حجة حجها رأى من الناس رعة فقرأ هذه الآية: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} ثم قال: من سرَّه أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله فيها [رواه ابن جرير].

ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله تعالى: {كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ} الآية [(٧٩) سورة المائدة] ولهذا لما مدح تعالى هذه الأمة على هذه الصفات شرع في ذم أهل الكتاب وتأنيبهم، فقال تعالى: {وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ} أي: بما أنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم- {لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} أي: قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان".

---

10 – أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء – باب قصة يأجوج ومأجوج (٣١٧٠) (ج ٣ / ص ١٢٢١) ومسلم في كتاب الإيمان – باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة (٢٢١) (ج ١ / ص ٢٠٠).

11 – أخرجه الترمذي في كتاب صفة الجنة – باب ما جاء في صفة أهل الجنة (٢٥٤٦) (ج ٤ / ص ٦٨٣) وابن ماجه في كتاب الزهد – باب صفة أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- (٤٢٨٩) (ج ٢ / ص ١٤٣٤) وأحمد (٢٢٩٩٠) (ج ٥ / ص ٣٤٧) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح.

12 – أخرجه البخاري في كتاب الجمعة – باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم (٨٥٦) (ج ١ / ص ٣٠٥) ومسلم في كتاب الجمعة – باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٢٠١٧) (ج ٣ / ص ٦).

13 – صحيح مسلم – كتاب الجمعة – باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٢٠١٧) (ج ٣ / ص ٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (١٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "نوع آخر من الأحاديث الدالة على فضيلة هذه الأمة وشرفها وكرامتها على الله -عز وجل- وأنها خير الأمم في الدنيا والآخرة.

روى الإمام أحمد عن جابر -رضي الله عنه- أنه سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَكُونَ مَنْ يَتَّبِعُنِي مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ رُبْعَ الْجَنَّةِ)) قال: فكبَّرنا، ثم قال: ((أَرْجُو أَنْ يَكُونُوا ثلثَ النَّاسِ)) قال: فكبرنا، ثم قال: ((أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا الشَّطْرَ)) وهكذا رواه عن طريق آخر وهو على شرط مسلم[١].

وثبت في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: قال لنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنِّةِ؟)) فكبرنا، ثم قال: ((أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟)) فكبرنا، ثم قال: ((إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شطر أَهْلِ الْجَنَّةِ))[٢].

حديث آخر: روى الإمام أحمد عن بريدة -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أهل الجنة عشرون ومائة صف، هذه الأمة من ذلك ثمانون صفاً)) وكذلك رواه عن طريق آخر وأخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن، ورواه ابن ماجه[٣].

وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول الناس دخولاً الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه، الناس لنا فيه تبع، غداً لليهود وللنصارى بعد غد)) [رواه البخاري ومسلم مرفوعاً بنحوه][٤].

ورواه مسلم أيضاً عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، نحن أول من يدخل الجنة)) وذكر تمام الحديث[٥].

---

[1] - أخرجه أحمد (١٥١٥٤) (ج ٣ / ص ٣٨٣) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء - باب قصة يأجوج ومأجوج (٣١٧٠) (ج ٣ / ص ١٢٢١) ومسلم في كتاب الإيمان - باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة (٢٢١) (ج ١ / ص ٢٠٠).

[3] - أخرجه الترمذي في كتاب صفة الجنة - باب ما جاء في صفة أهل الجنة (٢٥٤٦) (ج ٤ / ص ٦٨٣) وابن ماجه في كتاب الزهد - باب صفة أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- (٤٢٨٩) (ج ٢ / ص ١٤٣٤) وأحمد (٢٢٩٩٠) (ج ٥ / ص ٣٤٧) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح.

[4] - أخرجه البخاري في كتاب الجمعة - باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل من النساء والصبيان وغيرهم (٨٥٦) (ج ١ / ص ٣٠٥) ومسلم في كتاب الجمعة - باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٢٠١٧) (ج ٣ / ص ٦).

[5] - صحيح مسلم - كتاب الجمعة - باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٢٠١٧) (ج ٣ / ص ٦).

فهذه الأحاديث وغيرها في معنى قوله تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ} [(١١٠) سورة آل عمران] **فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا الثناء عليهم والمدح لهم كما قال قتادة: بلغنا أن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- في حجة حجها رأى من الناس رِعةً فقرأ هذه الآية: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} ثم قال: من سرَّه أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله فيها** [رواه ابن جرير].

ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمَّهم الله بقوله تعالى: {كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ} الآية [(٧٩) سورة المائدة] **ولهذا لما مدح تعالى هذه الأمة على هذه الصفات شرع في ذم أهل الكتاب وتأنيبهم، فقال تعالى: {وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ} أي: بما أنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم- {لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}** [(١١٠) سورة آل عمران] **أي قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم، وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان".**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: "**رأى من الناس رِعةً**"، أي أنه رأى منهم ما لا يليق وذلك أنهم ازدحموا عليه ورأى منهم بعض ما يكره، والرِّعة -بكسر الراء- براد بها سوء الهيئة ويراد بها سوء الفعل، فالمقصود أنه رأى منهم ما لا يليق.

وهذه الأحاديث التي ذكرها إضافة إلى الآية **{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}** لا تعارض ما سبق من قول الله -تبارك وتعالى- في بني إسرائيل: **{وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}** [(٤٧) سورة البقرة].

وقد ذكرنا هناك بأن المقصود بتلك الآية هو أنهم فضلوا على عالمي زمانهم ولم يفضلوا على هذه الأمة، ثم بعد ذلك نزع الله منهم هذا التفضيل وأورث الكتاب لهذه الأمة، كما قال تعالى: **{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ}** الآية [(٣٢) سورة فاطر] وهم هذه الأمة، فخير أمة على الإطلاق هي أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- والنصوص مصرِّحة بهذا لا خفاء فيها.

وأما ما ذكر الله -عز وجل- بعده من قوله: **{وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}** [(١١٠) سورة آل عمران] فالمقصود أنهم لو آمنوا بمحمد -صلى الله عليه وسلم- ودخلوا في الإسلام لكان خيراً لهم.

فالله تعالى في هذه الآية قسمهم على طائفتين منهم من آمن ومنهم من لم يؤمن وهم الذين عبر عنهم بالفاسقين؛ لأنهم خرجوا عن الإيمان الذي وجب عليهم ولم يتابعوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم إنه بعد ذلك فصل في حال الفريقين كما سيأتي في قوله تعالى: **{لَيْسُواْ سَوَاء}** [(١١٣) سورة آل عمران] فهذا تفصيل لهذا على قول طائفة من أهل العلم كما سيأتي.

وقوله تعالى: **{مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}** [(١١٠) سورة آل عمران] يحتمل أن يكون المقصود بذلك قبل مبعث النبي -صلى الله عليه وسلم- أي أن منهم من كان على دينه متمسكاً به متابعاً لنبيه، ومنهم من كان خارجاً عن ذلك، فهذا تحتمله الآية، وقد يكون المراد -والله تعالى أعلم- هو ما ذكرته أولاً، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

"ثم قال تعالى مخبراً عباده المؤمنين ومُبشِّرًا لهم أن النصر والظَّفر لهم على أهل الكتاب الكفرة الملحدين، فقال تعالى: {لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ} [(١١١) سورة آل عمران] وهكذا وقع، فإنهم يوم خيبر أذلّهم الله وأرْغَم أنوفهم".

قوله: {لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى} يمكن أن يكون هذا الاستثناء بـــ"إلا" مفرغاً من أعم الأحوال، ويمكن أن يكون مقطعاً بمعنى لكن، أي لن يضروكم لكن.

والمراد بالأذى في قوله: {لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى} يعني كأن يُسمعوكم ما تكرهون في نبيكم وكتابكم وتسمعون منهم ما تكرهون في عيسى -عليه الصلاة والسلام- وفي أمِّه وما إلى ذلك من القبائح التي تسمعونها منهم.

والأذى والضرر بينهما فرق فالله -عز وجل- يقول في الحديث القدسي: ((إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني))[6] ومع ذلك يقول في كتابه الكريم: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [(٥٧) سورة الأحزاب] ويقول في الحديث القدسي الآخر: ((يؤذيني ابن آدم))[7] وذلك أن الأذى يمكن أن يوصله الإنسان إلى الله -تبارك وتعالى- كالذي ينسب إليه الصاحبة والولد ويشرك بالله -عز وجل-، ويكذب عليه وما أشبه ذلك، فهذا من الأذى، لكن الضرر أبلغ من الأذى فلا يستطيع أحد أن يلحق الضرر بالله -تبارك وتعالى-، فالله -تبارك وتعالى- يقول هنا: {لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى} [(١١١) سورة آل عمران] فالأذى ليس بضرر وإنما هو دونه، ومعنى الآية: لن يصلوا إليكم بما يحبون من النكاية والقتل وما أشبه ذلك، ولكنه أذى بما تكرهون سماعه حيث يسمعونكم ما تكرهون من قالة السوء ونحو هذا فحسب، فلن يصل الأمر إلى أبعد من ذلك مما يكون أثره في الواقع من النيل منكم وإصابة أهل الإيمان بالقتل ونحوه.

"وهكذا وقع، فإنهم يوم خيبر أذلّهم الله وأرْغَم أنوفهم، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة كلهم أذلهم الله، وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- في غير ما موطن، وسلبوهم ملك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين، ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم -عليه السلام- وهم كذلك، ويحكم -عليه السلام- بشرع محمد -عليه أفضل الصلاة والسلام- فيَكْسر الصَّليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزْية، ولا يقبل إلا الإسلام.

ثم قال تعالى: {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ} [(١١٢) سورة آل عمران] أي: ألزمهم الله الذلة والصَّغَار أينما كانوا فلا يأمنون {إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ} أي: بذمة من الله، وهو عَقْد الذمة لهم وضَرْب الجزية عليهم، وإلزامهم أحكام الملة.

{وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ} أي: أمان منهم لهم، كما في المُهَادَن والمعاهَد والأسير إذا أمَّنَه واحد من المسلمين ولو امرأة، وكذَا عبد، على أحد قولي العلماء.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ} أي: بعهد من الله وعهد من الناس، هكذا قال مُجاهد، وعِكْرِمة، وعَطَاء، والضَّحَّاك، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي، والرَّبِيع بن أنس".

---

[6] - أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب تحريم الظلم (٢٥٧٧) (ج ٤ / ص ١٩٩٤).

[7] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: {يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ} [(١٥) سورة الفتح] (٧٠٥٣) (ج ٦ / ص ٢٧٢٢) ومسلم في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها - باب النهي عن سب الدهر (٢٢٤٦) (ج ٤ / ص ١٧٦٢).

بعض أهل العلم يفسر الحبل من الله -عز وجل- بأنه العهد الذي يعطيهم إياه أهل الإيمان؛ لأن عقد أهل الإيمان وحلهم مع غيرهم من الكفار إنما يكون موافقاً لأمر الله -تبارك وتعالى-، فالعلاقات بينهم وبين سائر الطوائف والأمم تكون موافقة لشرع الله تبارك و تعالى، وعلى هذا يكون الحبل من الله -عز وجل- هو ما يعطيهم أهل الإيمان من العهد والأمان والعقد ونحو ذلك.

والحبل من الناس هو ما يعطيهم إياه غير المسلمين من العهود والأمان ونحو ذلك، فهذا قول مشهور قال به كثير من أهل العلم من السلف فمن بعدهم.

وبعضهم يقول: الحبل من الله هو العهد من الله، والحبل من الناس هو ما يعطيهم إياه عباده مما يكون بينهم من العهود ونحو هذا، فالحاصل أن الآية قيل فيها غير هذا أيضاً، لكن هذا أشهر هذه الأقوال، والله أعلم.

"وقوله: {وَبَآءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ} [(١١٢) سورة آل عمران] **أي أُلزموا فالتزَمُوا بغضب من الله وهم يستحقونه {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المَسْكَنَةُ}** [(١١٢) سورة آل عمران] **أي: أُلزموها قَدراً وشَرْعاً".**

الغضب والمسكنة لا تفارقهم بحال من الأحوال حتى ولو كان لهم عهد، والمراد بالمسكنة معروف، فهي خشوع الفقر وذل النفس والحاجة وخشوع الظاهر تذللاً وانكساراً لضعف الحال، فهذا أمر لا يكاد يفارقهم.

"ولهذا قال: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} [(١١٢) سورة آل عمران] **أي وإنما حملهم على ذلك الكِبْر والبَغْي وَالْحسَد، فأعْقَبَهم ذلك الذلة والصغَار والمسكنة أبداً متصلاً بذلة الآخرة.**

ثم قال تعالى: {ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} [(١١٢) سورة آل عمران] **أي: إنما حملهم على الكفر بآيات الله وقتل رسل الله وقُيِّضوا لذلك أنّهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله -عز وجل- والغشيان لمعاصي الله، والاعتداء في شرع الله، فعياذاً بالله من ذلك، والله -عز وجل- المستعان.**

{لَيْسُواْ سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ* يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ* وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ* إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ* مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هِذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [(١١٣-١١٧) سورة آل عمران].

قال محمد بن إسحاق وغيره ورواه العَوْفِيّ عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: إن هذه الآيات نزلت فيمن آمَنَ من أحبار أهل الكتاب".

هناك ذَكَر أن أهل الكتاب على طائفتين منهم من آمن وأكثرهم الفاسقون، وذكر حال هؤلاء الفاسقين وأنهم لن يضروكم إلا أذى، وأنهم ضربت عليهم الذلة والمسكنة إلى آخر ما ذكر، ثم ذكر بعد ذلك تفصيلاً فقال: **{لَيْسُواْ سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ}** [(١١٣) سورة آل عمران]، فأثنى على أهل الإيمان منهم، وهم الذين آمنوا بمحمد -صلى الله عليه وسلم- والآية تحتمل معنىً آخر وهو أنه وصف أهل الإيمان منهم قبل مبعث النبي -صلى الله عليه وسلم- ممن كانوا على الدين الصحيح.

وعلى كل حال فإنه بعد بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يُقبل من أحد دين سوى الإسلام ومتابعة النبي -عليه الصلاة والسلام- ولا يمكن بعد مبعث النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يوصف أحد من أهل الكتاب بأنه على شيء وأنه على استقامة أو يُثنى عليه، فالمقصود أن هذه الآية على المعنى الأول أنها في المؤمنين بمحمد -صلى الله عليه وسلم- كما ذكر هنا، وكما قال الله -عز وجل-: **{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ}** [(١٢١) سورة البقرة] وفي الآية الأخرى **{وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ}** [(١٩٩) سورة آل عمران] وكذلك قوله: **{وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ}** [(٨٣) سورة المائدة] إلى آخر الآية، فهؤلاء كلهم كما قال الله -عز وجل-: **{لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى}** [(٨٢) سورة المائدة] ليس كل النصارى، وإنما قال: **{ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ* وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ* وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ}** [(٨٢-٨٤) سورة المائدة] إلى آخر ما ذكر، فهذا لا يقوله الكفار منهم، وإنما هي في الذين آمنوا أمثال النجاشي وعبد الله بن سلام وأمثال هؤلاء ممن تابع النبي -صلى الله عليه وسلم- فإن الأوصاف المذكورة بعدها لا يمكن أن تكون إلا فيمن آمن بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وبالكتاب الذي جاء به، فهي مصرحة بذلك.

وهذه الآيات يُلبَّس بها كثيراً هذه الأيام في الثناء على النصارى ومدحهم وأنهم أقرب إلى المسلمين، وهؤلاء لا تسيل دموعهم إذا سمعوا ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- ولا يقولون: ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين، فهم لا يؤمنون إطلاقاً، فينبغي للإنسان أن لا يبتر الآية وإنما يكمل الآية فيتضح المراد بها، وإلا فإن هؤلاء النصارى اليوم لا فرق بينهم وبين اليهود، فهم عرفوا الحق وجحدوه، فجمعوا بين الضلال وبين الغضب، فكفرهم اجتمع فيه الجهل والعناد والمكابرة فكل ذلك وقع لهم، فهؤلاء ليسوا أقرب للمسلمين، وما يجري للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها عامته إنما يقع بسبب النصارى، والله المستعان.

"إن هذه الآيات نزلت فيمن آمَنَ من أحبار أهل الكتاب كعبد الله بن سَلام وأسَد بن عُبَيْد وثعلبة بن سَعْية وأسَيد بن سعْية وغيرهم، أي: لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا، ولهذا قال تعالى: {لَيْسُواْ سَوَاء} [(١١٣) سورة آل عمران] **أي: ليسوا كلهم على حد سواء، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم، ولهذا قال تعالى: {مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ}** [(١١٣) سورة آل عمران]".

قوله: **{لَيْسُواْ سَوَاء}** يعني الذين آمنوا بالنبي -صلى الله عليه وسلم- والذين كفروا به، وهذا على المعنى الذي ذكرته آنفاً، وهو اختيار كثير من المحققين ومنهم ابن جرير -رحمه الله-.

"ولهذا قال تعالى: {مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ} [(١١٣) سورة آل عمران] **أي: قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه متبعة نبي الله فهي {قَآئِمَةٌ} يعني مستقيمة {يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ}** [(١١٣) سورة آل عمران] **أي: يقومون الليل ويكثرون التهجد".**

قوله: **{يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ}** يعني في ساعات الليل، فآناء جمع مفرده إنْيٌ، والمراد ساعات الليل.

وقوله: {وَهُمْ يَسْجُدُونَ} هل المراد أنهم يتلون آيات الله في ساعات الليل وفي السجود أيضاً مع أنه ورد النهي عن ذلك كما جاء من حديث علي وابن عباس، فهل المراد أنهم يقرءون القرآن في السجود؟

هكذا فهم بعض أهل العلم واستشكلوا -بناءً عليه- معنى الآية بهذا الاعتبار، والذي يظهر -والله أعلم- أنه ليس المراد أنهم يتلون آيات الله في ساعات الليل وفي السجود، ولذا فسره طائفة من أهل العلم بأن المراد أنهم يتلونه في الصلاة وأنه عبر عنها بركن منها، فالشيء قد يعبر عنه بجزئه وعليه يكون المعنى أنهم يتلونه في ساعات الليل وفي الصلاة فالصلاة يقال لها: سجود.

ولعل الأحسن من هذا أن يقال: إنهم يتلون آيات الله آناء الليل، في ساعات الليل وهم مع ذلك يسجدون لله -تبارك وتعالى- ويتقربون إليه، لا أنهم يقرءونه في حال السجود لكن ذكر لهم صفتين هما: أنهم يتلون آيات الله وهم مع ذلك يسجدون لله -تبارك وتعالى-، فإذا فُهم هذا المعنى فيمكن أن يقال بعد ذلك: إن المراد بالسجود هو الصلاة، ومن المعلوم أن السجود لا يكون منفرداً وإنما يكون في صلاة إلا في حالات مخصوصة كسجود الشكر وسجود التلاوة.

"أي: يقومون الليل ويكثرون التهجد ويتلون القرآن في صلواتهم {يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ} [(١١٤) سورة آل عمران] وهؤلاء هم المذكورون في آخر السورة: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ} الآية [(١٩٩) سورة آل عمران]".

هذا تصريح من الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بأن هؤلاء هم أهل الإيمان، أي من آمن بمحمد -صلى الله عليه وسلم- فالثناء الذي في هذه الآية على طائفة منهم هم الذين دخلوا في الإسلام.

"وهكذا قال هاهنا: {وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ} [(١١٥) سورة آل عمران] أي: لا يضيع عند الله بل يجزيهم به أوفر الجزاء {وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} [(١١٥) سورة آل عمران] أي: لا يخفى عليه عمل عامل ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملاً".

في قوله: {فَلَن يُكْفَرُوْهُ} هذا الفعل "يكفروه" عداه إلى مفعولين مع أنه لا يتعدى إلا إلى مفعول واحد، تقول: كفر بكذا، لكن قال هنا: {فَلَن يُكْفَرُوْهُ} فالمفعول الأول يرجع إليهم والمفعول الثاني يرجع إلى العمل الذي عملوه، وفي مثل هذه الحال يمكن أن يقال: إنه قد ضُمِّن معنى فعل آخر يصح أن يُعدَّى إلى مفعولين مثل الحرمان، أي: وما يفعلوا من خير فلن يحرموه، تقول مثلاً: حرمت زيداً حقه، فصار متعدياً إلى مفعولين بخلاف كفَر فالأصل أنه يُعدَّى إلى مفعول واحد، فلما عدي إلى مفعولين دلَّ ذلك على أنه قد ضمن معنى فعل آخر يصح أن يعدَّى إلى مفعولين وهو الحرمان، فيكون المعنى فلن يحرموه، أي أن هؤلاء يقع لهم وعد الله -عز وجل- بأن لا يجحد عملهم وإحسانهم ولن يحصل لهم شيء من الحرمان من الأجر مما عملوا من الصالحات والله أعلم.

وهذه الآية {وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ} [(١١٥) سورة آل عمران] فيها قراءة أخرى متواترة هي (وما تفعلوا من خير فلن تكفروه).

وهذه الآية على قراءة التاء (وما تفعلوا من خير فلن تكفروه) يكون الخطاب فيها موجهاً إلى عموم هذه الأمة، يعني أن الله تعالى أثنى على الذين آمنوا من أهل الكتاب ثم خاطب عموم الأمة، وأما على القراءة الأولى {وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ} فواضح أن المقصود بهم أهل الكتاب.

"ثم قال تعالى مخبرًا عن الكفرة المشركين بأنه {لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئًا} أي: لا يُرَدّ عنهم بأس الله ولا عذابه إذا أراده بهم {وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(١١٦) سورة آل عمران]".

لما ذكر تعالى حال الذين تابعوا النبي -صلى الله عليه وسلم- وآمنوا، ذكر بعدُ عموم الكفار -ويدخل فيهم دخولاً أولياً كفار أهل الكتاب- وذكر أنهم لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً.

وبالنسبة لذكر الأولاد والأموال وجهه لا يخفى، وذلك أن أقرب الناس إلى الإنسان هم ولده الذين يتعزى بهم ويتقوى بهم ويتكثر بهم، والأموال يُجري فيها حكمه ويتصرف فيها كما يشاء فهي ملك له، فإذا كان أقرب الناس إليه وأمواله التي يُجري فيها حكمه لا تنفعه فغيره لا ينفعه من باب أولى.

أضف إلى ذلك أن عامة ما يُفتن به الناس مما يصدهم عن الحق ويصرفهم عنه هي الأموال والأولاد، والله يقول: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [(٤٦) سورة الكهف].

ولما ذكر الله تعالى المنافقين وما وصفهم به أخبر أنه لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم؛ لأنه وقع منهم هذا النفاق والتلوُّن من أجل إحراز الأموال والأولاد، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((الولد مجبنة محزنة مبخلة))[8].

"ثم ضرب مثلاً لما ينفقه الكفار في هذه الدار -قاله مجاهد والحسن والسُّدِّي- فقال تعالى: {مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هِذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ} [(١١٧) سورة آل عمران] أي: برد شديد، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وعِكْرِمة، وسعيد بن جبَير وقتادة والحسن، والضحاك، والرَّبِيع بن أنس وغيرهم.

وقال عطاء: برد وجَلِيد، وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أيضاً ومجاهد {فِيهَا صِرٌّ} أي: نار، وهو يرجع إلى الأول؛ فإن البرد الشديد ولا سيّما الجليد يحرق الزروع والثمار كما يُحرق الشيء بالنار".

هذا وجه جيد للجمع بين الأقوال، وهذا من مزايا هذا التفسير، فهذه اللفظة {فِيهَا صِرٌّ} بعضهم فسرها بالبرد، وبعضهم فسرها بالريح، وبعضهم فسرها بالنار المحرقة، والصرير هو الصوت، وهذا الصوت قد يكون في الريح لشدتها وقد يكون ذلك في النار، وهذه المعاني المذكورة في هذه الآية لا منافاة بينها ولا يحتاج ذلك منا إلى ترجيح، وإنما يقال{فِيهَا صِرٌّ} أي أنها ريح لها صوت لشدتها وقوتها، فهي ريح باردة تتلف حروثهم وزروعهم وثمارهم فيكون ذلك أثر الإحراق بالنار فكأن هذه الزروع قد أحرقت، وهذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير هنا وهو اختيار الحافظ ابن القيم -رحمه الله- خلافاً لبعض السلف -رضي الله عنهم- الذين حددوا أنها البرد الشديد كما مشى على ذلك ابن جرير -رحمه الله- حيث فسرها بالريح الباردة، وعلى كل حال لا حاجة للاقتصار على قول ابن جرير؛ لأنه يمكن أن يجمع بين هذه الأقوال ويكون ذلك من قبيل اختلاف التنوع لا

---

[8] - أخرجه الطبراني في الكبير (٦٥١) (ج ١ / ص ٢٣٦) والحاكم (٤٧٧١) (ج ٣ / ص ١٧٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧١٦٠).

اختلاف التضاد وهذا باعتبار ما يئول إليه الحال عند الجمع بين الأقوال، وإلا فإنه يوجد فرق كبير بين الريح وبين النار وبين البرد فهذا في الواقع اختلاف تضاد، لكن من اختلاف التضاد ما يمكن جمع الأقوال فيه كهذا المثال.

"{أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ} [(١١٧) سورة آل عمران] أي: فأحرقته، يعني بذلك السَّفْعة إذا نزلت على حَرْث قد آن جِدَادُه أو حصاده فدمرته وأعدَمَتْ ما فيه من ثمر أو زرع فذهبت به وأفسدته، فعَدِمَه صاحبه أحوج ما كان إليه، فكذلك الكفار يمحق الله ثواب أعمالهم في هذه الدنيا وثمرتها كما أذهب ثمرة هذا الحرث بذنوب صاحبه، وكذلك هؤلاء بنوها على غير أصل وعلى غير أساس {وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [(١١٧) سورة آل عمران]".

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (١٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ* هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ* إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [(١١٨-١٢٠) سورة آل عمران].

"يقول -تبارك وتعالى- ناهياً عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة، أي: يطلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم، والمنافقون بجهدهم وطاقتهم لا يألون المؤمنين خبالاً أي: يسعون في مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ}** [(١١٨) سورة آل عمران] أي من غيركم من الكفار بجميع طوائفهم وأصنافهم، والبطانة شبهت بما يلي الجسد من الثياب، وإن شئت أن تقول: بما يلي البطن من الثياب، فهؤلاء لما كانوا من خاصتهم ومن المقربين الذين يطلعون على دخائلهم وما يختص بهم كانوا بمنزلة ما يلي الجسد من الثياب لشدة قربهم منهم ومعرفتهم واطلاعهم على أحوالهم، كاتخاذهم كُتَّاباً يطلعون على دخائل الأمور، أو اتخاذهم مستشارين أو نحو ذلك.

قوله: **{لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً}** أي لا يقصرون في أي نقص يستطيعون إيصاله إليكم، فهم لا يدخرون في ذلك جهداً، بل كل شيء يدخل عليكم الفساد من جهتهم فهم مجتهدون في تحصيله.

والخبال يطلق على الفساد سواء كان ذلك في البدن أو العقل أو المال، فقوله: **{لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً}** أي: لا يفتئون ولا يقصرون بل يبذلون كل جهد مستطاع في إضعافكم وكل ما يجلب الوهن إليكم.

"لا يألون المؤمنين خبالاً أي: يسعون في مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن وبما يستطيعونه من المكر والخديعة، ويودون ما يُعْنِتُ المؤمنين ويخرجهم ويَشُقّ عليهم.

وقوله: {لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ} أي من غيركم من أهل الأديان، وبطانة الرجل هم خاصّة أهله الذين يطلعون على داخلة أمره.

وقد روى البخاري والنسائي وغيرهما عن أبي سعيد -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما بعث الله مِن نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان، بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله))[1].

وروى ابن أبي حاتم عن ابن أبي الدِّهْقانة قال: قيل لعمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه-: إن هاهنا غلاماً من أهل الحيرة حافظ كاتب فلو اتخذته كاتباً؟ قال: قد اتخذت إذًا بطانة من دون المؤمنين.

ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين واطلاع على دواخل أمُورهم التي يُخْشَى أن يُفْشوها إلى الأعداء من أهل الحرب؛ ولهذا قال تعالى: {لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ} [(١١٨) سورة آل عمران].

ثم قال تعالى: {قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ} [(١١٨) سورة آل عمران] أي: قد لاح على صَفَحات وجوههم وفلتات ألسنتهم من العداوة مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل؛ ولهذا قال تعالى: {قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ} [(١١٨) سورة آل عمران].

وقوله تعالى: {هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ} [(١١٩) سورة آل عمران] أي: أنتم أيها المؤمنون تحبون المنافقين بما يظهرون لكم من الإيمان فتحبونهم على ذلك وهم لا يحبونكم لا باطناً ولا ظاهراً.

{وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ} أي: ليس عندكم في شيء منه شك ولا ريب، وهم عندهم الشك والريب والحَيرة".

قوله: {وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ} يمكن أن يكون الكتاب هنا اسم جنس، وكما في أصول الفقه وفي أصول التفسير أن المفرد -اسم الجنس- قد يراد به العموم، وهذا من أمثلته، {وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ} ومثل ذلك المفرد المضاف إلى معرفة سواء كان المضاف إليه ضميراً أو كان اسماً ظاهراً، وقد يأتي المفرد مراداً به الجمع إذا كان اسم جنس، فالله -عز وجل- يقول: {أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء} [(٣١) سورة النـــور] يعني أو الأطفال، وقوله: {وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ} [(١١٩) سورة آل عمران] أي بالكتب كلها، قال تعالى: {كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ} [(٢٨٥) سورة البقرة].

"وروى محمد بن إسحاق عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ} [(١١٩) سورة آل عمران] أي: بكتابكم وكتابهم، وبما مضى من الكتب قبل ذلك، وهم يكفرون بكتابكم، فأنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم. [رواه ابن جرير].

{وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ} [(١١٩) سورة آل عمران] والأنامل أطراف الأصابع، قاله قتادة.

وهذا شأن المنافقين يظهرون للمؤمنين الإيمان والمودّة، وهم في الباطن بخلاف ذلك من كل وجه، كما قال تعالى: {وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ} [(١١٩) سورة آل عمران] وذلك أشد الغيظ والحنق، قال الله تعالى: {قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [(١١٩) سورة آل عمران] أي: مهما كنتم تحسدون

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الأحكام - باب بطانة الإمام وأهل مشورته (٦٧٧٣) (ج ٦ / ص ٢٦٣٢).

عليه المؤمنين ويغيظكم ذلك منهم فاعلموا أن الله متم نعمته على عباده المؤمنين ومكمل دينه ومُعْلٍ كلمتَه ومظهر دينَه، فموتوا أنتم بغيظكم {إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [(١١٩) سورة آل عمران]".

يعني هؤلاء من شدة الحنق تصطك أسنانهم على أناملهم، ومعلوم أن من بلغ به الحنق غايته فإنه قد تصطك أسنانه بعضها على بعض، وقد تصطك على أنامله أو نحو ذلك، فهذا يمثل به على شدة الحنق، والذين يحللون التحليلات النفسية يعبرون عن ذلك بتفريغ الطاقة، أي أنه لشدة حنقه ربما صك بعض أسنانه على بعض بقوة، ويقولون: إن هذا كالذي عنده طاقة شديدة في الحركة وفي نحو ذلك فيهز رجله وهو جالس أو ينكت بشيء أو يتحرك أو يحرك يده، أو يحرك شيئاً معه، أو نحو هذا، وعلى كل حال لا شك أن هذا يعبر به عن شدة الغيظ، فهو يريد أن يفرغ هذا الغيظ فلا يجد شيئاً غير أن يلتقم أنامله من شدة ما يتمنى أن يظفر بكم.

"{إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [(١١٩) سورة آل عمران] **أي: هو عليم بما تنطوي عليه ضمائركم وتُكنُّه سَرَائرُكُم من البغضاء والحسد والغلِّ للمؤمنين، وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تؤمّلون، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها، فلا خروج لكم منها.**

ثم قال تعالى: {إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا} [(١٢٠) سورة آل عمران] **وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب، ونصر وتأييد، وكثروا وعزّ أنصارهم، ساء ذلك المنافقين، وإن أصاب المسلمين سَنَة -أي جَدْب- أو أُديل عليهم الأعداء؛ لما لله تعالى في ذلك من الحكمة -كما جرى يوم أحد- فَرِح المنافقون بذلك".**

في قوله تعالى: **{إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا}** [(١٢٠) سورة آل عمران] فرّق هذا التفريق فعبر بالمس في الحسنة وعبر بالإصابة في السيئة إشارة إلى أن الكفار يستاءون ويحزنون إن حصل للمؤمنين أدنى خير فهم لا يريدون أن يقع للمؤمنين خير قليل ولا كثير، وأما في السيئة فإنهم لا يفرحون إذا وقع لهم شيء يسير من المكاره وإنما الذي يسرهم هو وقوع المكاره الجَزْلة والنكايات والمصائب العظيمة، وهكذا هو حال المبغض المعادي، ولذلك فإن عداوتنا للكفار تقتضي أن نستاء من ارتفاع مؤشر العملات عندهم، أو سوق الأسهم ولو شيئاً يسيراً، وأما في المصائب فنحن نسأل دائماً ونتطلع أن تكون المصيبة جَزْلة، ونفرح لما يقع لهم من الكوارث والمصائب والدواهي العظام ونستبشر بهذا ونتمنى أن تكون آثارها مدمرة وأن الخسائر قد بلغت غايتها ولا نفرح بالمصائب اليسيرة التي تقع لهم، وهذا هو حال المتعادين عادة، فهم لشدة عداوتهم لأهل الإيمان يفرحون بالمصائب التي تقع لهم وهي ذات وقع واعتبار ونكاية.

"{وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا} الآية [(١٢٠) سورة آل عمران] **يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيدِ الفجار باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته، ومن توكل عليه كفاه.**

ثم شرع تعالى في ذكر قصة أحد وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين والتمييز بين المؤمنين والمنافقين وبيان صَبْر الصابرين فقال تعالى: {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللّهُ

سَمِيعٌ عَلِيمٌ* إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ* وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [(١٢١-١٢٣) سورة آل عمران]".

هناك قاعدة تقول: إن "إذ" منصوبة دائماً بـــ"اذكر" مقدراً، فيكون المعنى: واذكر إذ غدوت من أهلك تُبوِّئ المؤمنين مقاعد للقتال، فيمكن أن يكون ذلك على سبيل الاستئناف -جملة جديدة- يذكر فيها ما وقع لهم في أحد.

ومثل ابن جرير -رحمه الله- يربط بين هذه الآية وبين الآيات السابقة، فهو في السابق قال: إن تصبروا على طاعة الله وعن معصيته وما يقع لكم من الآلام والمصائب وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً، وإن خالفتم أمري ولم تصبروا على طاعتي فإنه يقع لكم ما وقع لمن قبلكم، واذكروا إذ غدا النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى أحد، فذكرهم بهذا المصاب والهزيمة التي وقعت وما حصل فيها من الجراح والقتل بسبب المعصية وقلة الصبر، فالذين نزلوا من الجبل لم يمتثلوا أمر الله -عز وجل- وكان ذلك من قلة صبرهم وتقواهم فكانت النتيجة أن هزموا، فعلى هذا الاعتبار يكون ذلك مرتبطاً بما قبله، والعلم عند الله عز وجل.

"المرادُ بهذه الوقعة يوم أُحُد عند الجمهور".

هذا الذي عليه عامة أهل العلم، وابن عباس -رضي الله عنه- يقول عن سورة آل عمران: هذه أحدية، يعني أنها تتحدث عن غزوة أحد، ومن هنا إلى رأس ستين آية كل ذلك يتحدث عن غزوة أحد مع ما يتخلله من الكلام على بعض القضايا مثل الربا ونحو ذلك، وإلا فإن الكلام هو في غزوة أحد، وبعض أهل العلم قال: هذا في غزوة بدر، وبعضهم قال: في غزوة الخندق، ولكن هذا بعيد، ولو استشكل هذا بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كما جاء في بعض الروايات في السير أنه خرج بعد صلاة الجمعة وفي بعضها أنه خرج يوم السبت، في بعضها أنه خرج بعد صلاة الجمعة لما شاور أصحابه كما هو معروف ثم دخل ولبس آلة الحرب فخرج مساء الجمعة، فهذا قد يستشكل مع قوله تعالى: **{وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ}** [(١٢١) سورة آل عمران] فقالوا: هو لم يخرج في أول الصباح، فمن هنا قال بعض أهل العلم: إنها ليست في أحد، لكن الذي عليه عامة أهل العلم أنها في أحد، وهذا لا شك فيه والله تعالى أعلم، وأما وجه هذا التعبير، **{وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ}** [(١٢١) سورة آل عمران] فإن هذا وإن كان في أصل الاستعمال يقال عن الذي يخرج في أول النهار لكن صار يستعمل في غير هذا على سبيل التوسع لمطلق الخروج في أي وقت، وهذا مثل استعمالات لفظ "أضحى" أي إذا دخل في وقت الضحى لكنه صار يعبر به على سبيل التوسع في الاستعمال فيما يمكن أن يكون بمعنى صار، تقول: أضحى زيد عليلاً أي: صار عليلاً، وإن كان أصل معناه دخل في وقت الضحى، والله أعلم.

"المرادُ بهذه الوقعة يوم أُحُد عند الجمهور، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- والحسن وقتادة، والسُّدِّي، وغير واحد، وكانت وقعةُ أحد يومَ السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة، وقال عكرمة: يوم السبت للنصف من شوال، فالله أعلم".

يعني أن النبي -صلى الله عليه وسلم- خرج يوم الجمعة، وصارت الوقعة في يوم السبت.

"وكان سببها أن المشركين حين قتل من قتل من أشرافهم يوم بدر وسلمت العيرُ بما فيها من التجارة التي كانت مع أبي سفيان، فلما رجع قَفَلُهُم إلى مكة قال أبناء من قُتل ورؤساء من بقي لأبي سفيان: ارصد هذه الأموال لقتال محمد، فأنفقوها في ذلك، وجمعوا الجموع والأحابيش وأقبلوا في نحو من ثلاثة آلاف حتى نزلوا قريباً من أحد تلقاء المدينة، فصلى رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- يومَ الجمعة، فلما فرغ منها صَلى على رجل من بني النجار، يقال له: مالك بن عمرو، واستشار الناس: أيخرج إليهم أم يمكث بالمدينة؟ فأشار عبد الله بن أُبيّ بالمقام بالمدينة، فإن أقاموا أقاموا بشرٍّ محبس وإن دخلوها قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين.

وأشار آخرون من الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- ممن لم يشهد بدراً بالخروج إليهم، فدخل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلبس لأمته وخرج عليهم".

قوله: "**فلبس لأمته**"، يعني لبس أداة الحرب، وكل أداة الحرب يقال لها: لأمة، السيف والرمح والمغفر، والدرع وما أشبه هذا مما يلبسه المحارب ويحمله معه يقال له: لأمة الحرب.

"فلبس لأمته وخرج عليهم وقد ندم بعضهم وقالوا: لعلنا استكرَهْنَا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: يا رسول الله إن شئت أن نمكث؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما ينبغِي لنَبِي إذا لبس لأمته أن يرجِع حتى يحكم الله له))[2] فسار -عليه السلام- في ألف من أصحابه، فلما كانوا بالشوط رجع عبد الله بن أبي في ثلث الجيش مغضباً".

الشوط مكان بين جبل الرماة وبين المدينة.

"رجع عبد الله بن أبي في ثلث الجيش مغضباً؛ لكونه لم يرجع إلى قوله، وقال هو وأصحابه: لو نعلم اليوم قتالاً لاتبعناكم، ولكنا لا نراكم تقاتلون اليوم.

واستمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سائراً حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي، وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال: ((لا يقاتلن أحد حتى نأمره بالقتال))".

قوله: **حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي**، يعني في جانب الوادي، وذلك أنك لو وقفت متجهاً إلى المدينة وأنت على جبل الرماة فإنك ستجد الوادي يمر بينك وبين المدينة، وهذا الوادي هو الذي أرسل النبي -صلى الله عليه وسلم- عليه أمثال حمزة ومجموعة من الجيش، وبالنسبة للرماة فقد كانوا ينضحون خيل المشركين؛ لئلا تعلو المسلمين ولئلا يتسلل أحد من جهة هذا الوادي؛ لأن المنطقة إلى ناحية المدينة كانت مزارع ونخيل، وهذا الوادي يمكن أن يمر به الفرسان أو نحو ذلك ولا يشاهدهم الناس.

كما أن هذا الوادي -إن لم تخنِّي الذاكرة- هو امتداد لما يعرف الآن بوادي العَاقول الذي يأتي من طريق القصيم من عند حرة النار، فالسائر فيه يأتي ويمر من جانب جبل الرماة، فالمسلمون كان ظهرهم إلى الجبل حيث كانت فيه مساحات كأنها داخل الجبل قليلاً وكان الرماة يحمونهم؛ لئلا يعلوهم المشركون، فكانوا يحتمون بالجبل ومن الناحية الثانية بجبل الرماة.

---

[2] - أخرجه الحاكم (٢٥٨٨) (ج ٢ / ص ١٤١) وصححه الألباني في صحيح السيرة.

"وتهيأ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– للقتال وهو في سبعمائة من أصحابه –رضي الله تعالى عنهم– وأمَّر على الرماة عبد الله بن جبير أخا بني عمرو بن عوف والرماة يومئذ خمسون رجلاً فقال لهم: ((انضحوا الخيل عنا ولا نؤتين من قبلكم، والزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أوعلينا، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم))[٣].

وظاهر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بين درعين، وأعطى اللواء مصعب بن عمير أخا بني عبد الدار. وأجاز رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بعض الغلمان يومئذ وأرجأ آخرين، حتى أمضاهم يوم الخندق بعد هذا اليوم بقريب من سنتين.

وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف ومعهم مائتا فرس قد جنبوها فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، ودفعوا إلى بني عبد الدار اللواء. ثم كان بين الفريقين ما سيأتي تفصيله في مواضعه عند هذه الآيات إن شاء الله تعالى.

ولهذا قال تعالى: {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ} [(١٢١) سورة آل عمران] أي: تنزلهم منازلهم وتجعلهم ميمنة وميسرة وحيث أمرتهم".

أصل التبوء هو اتخاذ المباءة، تقول: فقد باء بغضب من الله، فليتبوأ مقعده من النار، فهو اتخاذ المباءة، أي المكان الذي ينزل فيه الإنسان وقوله: {تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ} أي أن النبي –صلى الله عليه وسلم– يحدد موقع جيش المسلمين فيضع الميمنة هاهنا والميسرة هاهنا وظهورهم إلى الجبل بمعنى أنه يُعبِّئ الجيش بحيث يعرف كل مقاتل موقعه في هذا الجيش.

"أي: تنزلهم منازلهم وتجعلهم ميمنة وميسرة وحيث أمرتهم {وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [(١٢١) سورة آل عمران] أي: سميع لما تقولون عليم بضمائركم.

وقوله تعالى: {إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ} الآية [(١٢٢) سورة آل عمران]".

يعني وإن كان وقع منهم هذا النقص حيث هموا بالانصراف إلا أن هذه تزكية لهم وشهادة أن ولاءهم لله –عز وجل– ولم يكن ولاؤهم للكفار أو للمنافقين أو أن ولاءهم مطعون فيه، فليسوا بمنافقين وإنما وقع لهم شيء من الضعف، حيث هموا بالرجوع إلى المدينة، ولكن الله ثبتهم، وهذه الشهادة هي التي قال فيها أبو سفيان: ما يسرني أنها لم تنزل، لقول الله: {وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا} [(١٢٢) سورة آل عمران].

وفي قوله تعالى في سورة الأحزاب: {وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ} [(١٥) سورة الأحزاب] كثير من المفسرين يقولون: المراد به بنو حارثة وبنو سلمة الذين قال الله فيهم هنا: إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ} [(١٢٢) سورة آل عمران] فهم تابوا من هذا وعاهدوا الله –عز وجل– أن لا يقع ذلك منهم ثم لما كان في يوم الخندق كان بعضهم يتنصل ويعتذر، ويقولون: {إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ} [(١٣) سورة الأحزاب] حيث إنها مكشوفة خارج الخندق مما يلي ناحية مسجد القبلتين، أي خارج الخندق، والخندق مباشرة تحت الجبل المعروف الآن

[٣] – فقه السيرة للغزالي وصححه الألباني.

بجبل سلع في السيح، فهم يقولون: هي مكشوفة للعدو فكان بعضهم يتنصل، وإن شئت فقل ضعفاء الإيمان والمنافقون.

"**وقوله تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ}** [(١٢٣) سورة آل عمران] **أي: يوم بدر، وكان في يوم جمعة وافق السابع عشر من شهر رمضان من سنة اثنتين من الهجرة، وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله ودمغَ فيه الشرك وخرَّب محلَّه مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً فيهم فرسان وسبعُون بعيراً، والباقون مشاة ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه، وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد والبَيض، والعدة الكاملة والخيول المسومة".**

في قوله: "**والبَيض**" البيض جمع بيضة، وهي الخوذة من الحديد التي يضعها المقاتل على رأسه، وهي غير المغفر، فالمغفر مثل الدرع يضعه المقاتل على رأسه، حيث يضع تحته مثل الطاقية وهو من فوقها كالدرع تماماً منسوج من حلق ويحمي به رأسه، والمغفر كذلك عبارة عن حديد مصمت صبة واحدة وليس حلقات، وأظنه مثل طاقية الحديد تماماً.

"**في سوابغ الحديد والبَيض، والعدة الكاملة والخيول المسومة والحلي الزائد، فأعز الله رسوله، وأظهر وحيه وتنزيله، وبيَّض وجه النبي وقبيله، وأخْزى الشيطان وجيله، ولهذا قال تعالى ممتناً على عباده المؤمنين وحزبه المتقين: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ}** [(١٢٣) سورة آل عمران] **أي: قليل عددكم؛ ليعلموا أن النصر إنما هو من عند الله، لا بكثرة العدد والعُدَد؛ ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا}** [(٢٥) سورة التوبة] **إلى {وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}** [(٢٧) سورة التوبة].

وبدر: محلة بين مكة والمدينة، تعرف ببئرها، منسوبة إلى رجل حفرها يقال له: بدر بن النارين.

وقوله: {فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [(١٢٣) سورة آل عمران] **أي: تقومون بطاعته".**

يعني من أجل أن تشكروه، وهذا باعتبار أن "لعل" المراد بها هنا التعليل وليس الترجي.

"{إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ* بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ* وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ* لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ* لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذَّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ* وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(١٢٤-١٢٩) سورة آل عمران].

اختلف المفسرون في هذا الوعد هل كان يوم بَدْر أو يوم أُحُد على قولين: أحدهما: أن قوله: {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ} [(١٢٤) سورة آل عمران] **متعلق بقوله: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ}** [(١٢٣) سورة آل عمران].

ورُوِي هذا عن الحسن البصري وعامر الشعبي والرَّبِيع بن أنس وغيرهم، واختاره ابن جرير.

قال عباد بن منصور عن الحسن في قوله: {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ} [(١٢٤) سورة آل عمران] **قال: هذا يوم بَدْر** [رواه ابن أبي حاتم].

ثم روى عن عامر الشعبي أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كُرْز بن جابر يُمدّ المشركين فشق ذلك عليهم، فأنزل الله تعالى: {أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ} [(١٢٤) سورة آل عمران] إلى قوله: {مُسَوِّمِينَ} [(١٢٥) سورة آل عمران]".

الملائكة نزلوا في ثلاث غزوات هي بدر والخندق وحنين، وما يتبع الخندق وهو قريظة، أما بدر فمما لا شك فيه هو نزول الألف، لقوله تعالى: **{أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ}** [(٩) سورة الأنفال]، فهذا لا شك فيه، وهل قاتلوا في يوم بدر؟

الراجح أنهم قاتلوا، وفي صحيح مسلم: أقدم حيزوم، وهو فرس جبريل -عليه الصلاة والسلام-، وجاء في هذا آثار وأحاديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وعن الصحابة الذين شهدوا الوقعة وكانوا يعرفون به من قُتل من المشركين ممن قتلهم الملائكة مثل ضرب السوط الذي قد تغير وازرق أو اخضر، فهؤلاء من قتلى الملائكة، وجاء في الآثار أنهم كانوا يتبعون رجلاً فسقط رأسه قبل أن يصله السيف، فكل هذا يدل على أن الملائكة قاتلوا.

فالمقصود أن عدد الملائكة في يوم بدر لا يقل عن الألف، وهذا لا شك فيه، لقوله تعالى: **{أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ}** [(٩) سورة الأنفال] فهذا وعد من الله تعالى بأنه سيمدهم بألف منهم إلا أن ذكر الألف لا يمنع الزيادة على الألف؛ لأنه قال: **{مُرْدِفِينَ}** فهذا يعني أنهم يمكن أن يزاد عليهم.

وهنا يقول تعالى: **{أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ}** [(١٢٤) سورة آل عمران] ثم قال: **{بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ}** [(١٢٥) سورة آل عمران].

وقوله: **{مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا}** أي: من ساعتهم هذه -يعني المشركين- أو من ناحيتهم هذه أو من غضبهم هذا، حيث يقال لمن غضب إنه فار، والمشركون إنما خرجوا من مكة إلى أحد للتشفي لما وقع لهم من القتل في بدر، فقوله: **{مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا}** أي: من غضبتهم هذه -على أحد المعاني- أو يكون من فورهم من ساعتهم، أو من فورهم من هذه الناحية، أو كان المقصود به المدد الذي سيأتي من كرز هذا، فالمقصود أن هذا وعد معلق بثلاثة أشياء هي: الصبر والتقوى ومجيء هؤلاء.

على كل حال نزول الألف في بدر لا شك فيه، وأما الزيادة على الألف فهل هي المقصودة هنا في بدر أو في أحد؟ الأقرب أن هذا أيضاً في بدر، ومسألة هل تحقَّقَ الشرطُ فزادهم الله -عز وجل- وصاروا ثلاثة آلاف ثم خمسة؟ هذا فيه خلاف بين أهل العلم، لكن أصل نزول الملائكة في يوم بدر هذا لا شك فيه وكذلك هل قاتلوا؟ الراجح أنهم قاتلوا، ويدل على هذا أدلة كثيرة، أما في الخندق فقد أرسل الله عليهم الريح وأنزل جنوداً زلزل بهم العدو كما قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا}** [(٩) سورة الأحزاب] فالله -عز وجل- زلزل بهم ولم يقع قتال كما قال تعالى: **{وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ}** [(٢٥) سورة الأحزاب] فالحاصل أنه في الخندق لم يحصل قتال وإنما حصل زلزلة للمشركين، ثم في غزوة بني قريظة لما دخل النبي -صلى الله عليه وسلم- يغتسل ووضع السلاح جاء جبريل وقال:

وضعتم السلاح وإن الملائكة لم تضع أسلحتها، وأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يأمر أصحابه أن يخرجوا إلى قريظة، قال جبريل -عليه الصلاة والسلام-: فإني مزلزل بهم.

وفي يوم حنين يقول تعالى: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ* ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا} [(٢٥-٢٦) سورة التوبة] فالملائكة نزلت في يوم حنين، وكثير من أهل العلم يقولون: إنهم نزلوا لتثبيت المؤمنين وإنهم لم يقاتلوا في يوم حنين، والعلم عند الله -عز وجل-، فالحاصل أن الأقرب أن هذه الآيات في يوم بدر، وقوله: {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ} [(١٢٤) سورة آل عمران] يمكن أن يكون كما قال ابن جرير -رحمه الله- وجماعة من السلف ومن بعدهم: إنه متعلق بقوله: ولقد نصركم الله ببدر إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم، وهكذا إذا قيل متعلق بكذا، فتربط أجزاء الكلام بهذه الطريقة.

"فبلغت كُرْزًا الهزيمة، فلم يمد المشركين ولم يمد الله المسلمين بالخمسة، وقال الرَّبيع بن أنس: أمد الله المسلمين بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف، فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية -على هذا القول- وبين قوله تعالى في قصة بدر: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ} [(٩) سورة الأنفال] إلى قوله: {إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [(١٠) سورة الأنفال]، فالجواب: أن التنصيص على الألف هاهنا لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها، لقوله: {مُرْدِفِينَ} بمعنى يَرْدِفُهم غيرُهم ويَتْبَعهم ألوف أخر مثلهم، وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران، فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر، والله أعلم".

ابن جرير جزم بالألف في يوم بدر وتوقف في الثلاثة الآلاف والخمسة الآلاف، فقال: ليس عندنا دليل نستطيع الوقوف عنده أنه نزل هذا العدد ثلاثة آلاف أو خمسة آلاف، لكن يحتمل أن يكون هؤلاء قد نزلوا، أو لم ينزلوا، فليس هناك ما يرفع الخلاف، أما ألف فهو مجزوم به، أما في أحد فلم يُمَدوا بالملائكة على الراجح.

"وقوله: {بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ} [(١٢٥) سورة آل عمران] يعني: تصبروا على مُصَابرة عَدُوّكم وتتقوني وتطيعوا أمري.

وقوله تعالى: {وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا} [(١٢٥) سورة آل عمران] قال الحسن وقتادة والربيع والسُّدِّي أي من وجههم هذا، وقال العَوْفيّ عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-..."

قوله: **من وجههم هذا**، يعني من خروجهم هذا.

"وقال العَوْفيّ عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- من سفرهم هذا".

وهذا بمعنى الأول، فقوله: من فورهم هذا، أو من وجههم أو من سفرهم هذا، كل ذلك بمعنىً واحد، وهذا من اختلاف التنوع.

"ويقال: من غضبهم هذا".

يقال: من غضبهم هذا باعتبار معنى الفوران وهو الغضب، أي: فاروا غضباً فمخرجهم كان بناء على هذا الغضب، وعلى كل حال كل ذلك واقع فيهم فيمكن أن يقال: من فورهم هذا أي: من مخرجهم ووجههم الذي خرجوا فيه غضبة بمصابهم في يوم بدر.

"القول الثاني: أن هذا الوعد متعلق بقوله: {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ} [(١٢١) سورة آل عمران]".

نحن عرفنا أن الراجح في قوله: **{وَإِذْ غَدَوْتَ}** أنها في يوم أحد وليست في يوم بدر، فإذا كان وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم، فعلى هذا الاعتبار لم يحصل الصبر مع أنهم وعدوا بثلاثة ويزيدون إلى خمسة، فلما لم يحصل منهم الصبر ولا التقوى حيث خالفوا أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فحصلت الهزيمة ولم يمدهم الله بالملائكة، لكن الأرجح هو الأول، والله أعلم.

"وذلك يوم أحد، ولكن لم يحصل الإمداد بالملائكة يومئذ؛ لقوله تعالى: {بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ} [(١٢٥) سورة آل عمران] فلم يصبروا بل فروا فلم يُمَدوا بملك واحد.

وقوله تعالى: {يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ} [(١٢٥) سورة آل عمران] أي: معلَّمين بالسِّيما".

قوله: **{يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم}** المدد هو إعطاء الشيء حالاً بعد حال، أو شيئاً بعد شيء.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{مُسَوِّمِينَ}** [(١٢٥) سورة آل عمران] هذه قراءة متواترة والقراءة الأخرى أيضاً متواترة وهي مسوَّمِين وعلى هذه القراءة الثانية يكون المعنى معلَّمين بعلامات يُعرفون بها، وقد جاء في بعض الروايات عن بعض السلف وليس فيه دليل صريح واضح يجب الوقوف عنده في هذه العلامة والسمة فيما أعلم، فمنهم من يقول: العمائم، بعضهم يقول: صفر، و بعضهم يقول: سود، وبعضهم يقول: بيض، وبعضهم يقول: حمر، وبعضهم يقول غير هذا.

فالمقصود أنه على قراءة مسوَّمِين أي: أنهم قد وضعت لهم علامات، والقراءة الثانية مسوِّمِين، أي قد جعلوا علامات لأنفسهم، فهذا هو الفرق بين مسوَّمين ومسوِّمين.

"وقال أبو إسحاق السَّبِيعي عن حارثة بن مضرب، عن علي بن أبي طالب، -رضي الله تعالى عنه- قال: كان سِيَما الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض، وكان سيماهم أيضا في نواصي خيلِهم.

وقال مكحول: مسوَّمين بالعمائم، وكان سيما الملائكة يوم بدر عمائم سود ويوم حنين عمائم حمر.

وروى عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر.

وروى ابن أبي حاتم عن يحيى بن عباد: أن الزبير -رضي الله تعالى عنه- كان عليه يوم بدر عمامة صفراء مُعْتَجِرًا بها فنزلت الملائكة عليهم عمائم صفر".

وجاء في بعض الروايات أنها خضر وفي بعضها أنها حمر أي في وقعة بدر، وهنا في الرواية التي سبقت أنها في يوم بدر عمائم سود، و في يوم حنين عمائم حمر، وفي بعض الروايات أنها في يوم بدر عمائم حمر، وعلى كل حال هذا كله فيه مثل هذا التفاوت والاختلاف، والمقصود أنه كانت لهم علامة، والله تعالى أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٢٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: "وقوله تعالى: {وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ} [(١٢٦) سورة آل عمران] أي: وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالهم إلا بشارةً لكم وتطييباً لقلوبكم وتطميناً، وإلا فإنما النصر من عند الله الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال: {ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ* سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ* وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ} [(٤-٦) سورة محمد] ولهذا قال هاهنا: {وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [(١٢٦) سورة آل عمران] أي: هو ذو العزة التي لا تُرام، والحكمةُ في قَدَرِه والإحكام".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ}** [(١٢٦) سورة آل عمران] الحافظ ابن كثير -رحمه الله- حمل ذلك على إنزال الملائكة، يعني وما جعله الله -أي المدد بالملائكة الذي في قوله: **{أَنِّي مُمِدُّكُم}** [(٩) سورة الأنفال]- إلا بشرى لكم، وهذا هو المشهور وهو الأليق بالسياق.

ومن أهل العلم من جعل ذلك يرجع إلى التسويم، يعني مسومين وما جعله الله إلا بشرى لكم، وهذا لا يظهر كل الظهور والله تعالى أعلم، وعلى كل حال هذه الآية يستدل بها من يقول: إن الملائكة لم تقاتل لا في بدر، ولا في غير بدر، وقالوا: إن الله -عز وجل- ذكر ذلك بصيغة الحصر، يعني وما جعله -أي الإنزال- إلا بشرى، وأقوى صيغة من صيغ الحصر هي النفي والاستثناء، وهو هنا لم يذكر القتال وإنما البشارة وطمأنينة القلب، لكن على كل حال السياق هنا يدل على أن النصر لا يتنزل من جهة سوى الله -تبارك وتعالى- فالذين يُنزِّلون النصر ليسوا هم الملائكة ولا غير الملائكة؛ وذلك من أجل أن ترتبط القلوب بالله -جل جلاله- فحينما يذكر هذه القضية لتحقيق هذا المعنى فإن ذلك لا يدل على نفي أمور أخرى حصلت مع تنزيل الملائكة -عليهم السلام- ولذلك فإن الأرجح من قولي العلماء وهو المشهور الذي عليه عامة أهل العلم أن الملائكة قاتلوا في يوم بدر.

ومما يحتج به من يقول: إن الملائكة لم تقاتل، من النظر أنهم يقولون: ما الحاجة أن ينزل الله ألفاً أو ثلاثة آلاف أو خمسة آلاف، وملك واحد يمكن أن يسحق هؤلاء جميعاً ويقتلع الأرض التي يطئون عليها؟

يقال لهم: إن الله -عز وجل- له في ذلك حكم بالغة، وإلا فإن النصر يأتي من غير تنزيل الملائكة أصلاً، فالله -عز وجل- يخذلهم ويموتون في أماكنهم، والله -عز وجل- يقول: **{وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن**

{لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ} [(٤) سورة محمد] فالمقصود أن مثل هذه الأسئلة والإشكالات لا ترد؛ لأن لله حكماً، والله -عز وجل- يفعل ما يشاء لا معقب لحكمه.

"ثم قال تعالى: {لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ} [(١٢٧) سورة آل عمران] أي: أمركم بالجهاد والجلاد، لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير، ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة في الكفار المجاهَدين، فقال: {لِيَقْطَعَ طَرَفًا} [(١٢٧) سورة آل عمران] أي: ليهلك أمة {مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ} [(١٢٧) سورة آل عمران]".

في قوله تعالى: {لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ} ابن كثير -رحمه الله- ذكر معنىً عام، أي أنه أمركم بالجهاد ليقطع طرفاً من الذين كفروا.

وبعض أهل العلم يربط ذلك بكلام قبله فيقول: إنه متعلق بقوله: ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ليقطع طرفاً من الذين كفروا، وذلك بما حصل من قتل سبعين منهم وأسرِ سبعين، وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- أي أنه متعلق بقوله: ولقد نصركم الله ببدر، أي إن الذي حصل في بدر من الانتصار كان من أجل أن يقطع طرفاً من الذين كفروا، وبهذا الاعتبار يكون ذلك مختصاً ببدر، لكن على كلام ابن كثير المعنى أعم من هذا وهو أن الله أمر بالجهاد من أجل حكم بالغة، ومنها ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين فلا يحصل مقصودهم.

ومن أهل العلم من يقول: إنه متعلق بقوله: وما النصر إلا من عند الله ليقطع طرفاً، وهذا القول أبعد من الأول، والله تعالى أعلم.

وبعضهم يقول: إنه متعلق بالإمداد بالملائكة، أي يمددكم ربكم، بهؤلاء الملائكة ليقطع طرفاً من الذين كفروا، وعلى كل حال الآيات: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ} [(١٢٣) سورة آل عمران]، {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ} [(١٢٤) سورة آل عمران] {وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ} [(١٢٦) سورة آل عمران]، {وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [(١٢٦) سورة آل عمران] {لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ} [(١٢٧) سورة آل عمران] فالذين قالوا: إنه متعلق بقوله: {وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [(١٢٦) سورة آل عمران] وصلوها بالتي قبلها مباشرة، أي وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ليقطع، وأقرب هذه المعاني والله تعالى أعلم هو الأول؛ لأن ما ذكر بعده إنما هو تكملة وهو بمنزلة الشرح له، أي: ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم، وما جعله الله إلا بشرى، ثم قال: حصل كل هذا ليقطع طرفاً من الذين كفروا.

فقال: {لِيَقْطَعَ طَرَفًا} [(١٢٧) سورة آل عمران] أي: ليهلك أمة.

"**ليهلك أمة**" يعني طائفة، أي فريقاً من الكفار.

"{مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ} [(١٢٧) سورة آل عمران] أي: يخزيهم ويردهم بغيظهم".

الكبت هو الخزي والحزن أي: إنه يخزيهم ويحزنهم بما يقع لهم من المصائب.

"أي: يخزيهم ويردهم بغيظهم، لمّا لم ينالوا منكم ما أرادوا؛ ولهذا قال: {أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ} [(١٢٧) سورة آل عمران] أي: يرجعوا {خَآئِبِينَ} لم يحصلوا على ما أمّلوا.

ثم اعترض بجملة دلت على أنّ الحكم في الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له فقال تعالى: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ} [(١٢٨) سورة آل عمران] أي: بل الأمر كلّه إليَّ، كما قال تعالى: {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [(٤٠) سورة الرعد] وقال: {لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء} [(٢٧٢) سورة البقرة] وقال: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ} [(٥٦) سورة القصص].

قال محمد بن إسحاق في قوله: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ} أي: ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم.

ثم ذكر تعالى بقية الأقسام فقال: {أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} [(١٢٨) سورة آل عمران] أي: مما هم فيه من الكفر ويهديهم بعد الضلالة {أَوْ يُعَذَّبَهُمْ} أي: في الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم؛ ولهذا قال: {فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ} أي: يستحقون ذلك".

هنا الآية: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذَّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ} [(١٢٨) سورة آل عمران] قال قبلها: {لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ} [(١٢٧) سورة آل عمران].

بعض أهل العلم يقول: إن قوله تعالى: {أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} معطوف على قوله: {أَوْ يَكْبِتَهُمْ} وأن "أو" بمعنى إلا، فيكون الكلام بمعنى إلا أن يتوب عليهم، أي: ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم إلا أن يتوب عليهم. وعلى كل حال يمكن أن تفهم الآية من غير هذا التفسير الذي لا يتبادر إلى ذهن السامع، ويحمل الكلام على ظاهره في أنهم قد يقع لهم هذا أو هذا أو هذا، وأن الله –عز وجل– يتصرف فيهم كما يشاء فهم عبيده، وليس الأمر إليك وإنما عليك البلاغ.

والمقصود بقوله: {أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} أي بالهداية إلى الإيمان؛ لأن الله –عز وجل– لا يتوب على الكافرين، ولكن توبته على عبده تأتي بمعنى أن يوفقه للتوبة والرجوع إليه، وتأتي بمعنى قبول التوبة، والتوبة معناها الرجوع فتوبة الله –عز وجل– على العبد أي برجوعه على عبده بالقبول والمغفرة فقبِل توبته، وغفر ذنبه.

"وروى البخاري عن سالم عن أبيه –رضي الله تعالى عنه– أنه سمع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الثانية من الفجر: ((اللهم العن فلاناً وفلاناً)) بعدما يقول: ((سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد)) فأنزل الله تعالى: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ} الآية [(١٢٨) سورة آل عمران]. وهكذا رواه النسائي[1].

وروى الإمام أحمد عن سالم عن أبيه –رضي الله تعالى عنه– قال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: ((اللهم العن فلاناً، اللهم العن الحارث بن هشام، اللهم العن سهيل بن عمرو، اللهم العن صفوان بن أمية))[2] فنزلت هذه الآية: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذَّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ} [(١٢٨) سورة آل عمران] فتِيبَ عليهم كلهم.

---

[1] – أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة آل عمران (٤٢٨٣) (ج ٤ / ص ١٦٦١).والنسائي في كتاب صفة الصلاة – باب لعن المنافقين في القنوت(١٠٧٨) (ج ٢ / ص ٢٠٣).

[2] – أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – باب تفسير سورة آل عمران (٣٠٠٤) (ج ٥ / ص ٢٢٧) وأحمد (٥٦٧٤) (ج ٩ / ص ٤٨٦) وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (٣٠٠٤).

وروى البخاري أيضاً عن أبي هريرة، -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع، وربما قال إذا قال: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد: ((اللهم أنجِ الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف)) يجهر بذلك، وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: ((اللهم العن فلانا وفلانا)) لأحياء من أحياء العرب، حتى أنزل الله: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ} الآية [(١٢٨) سورة آل عمران][٣]".

على كل حال قوله: **{لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ}** مع هذه الأسباب المذكورة في النزول فهم منها بعض أهل العلم أن النهي إنما هو عن ذلك كله، وهذا يحتاج إلى نظر وتحرير؛ وذلك أنه يحتمل أن يكون نهاه؛ لأنه -عز وجل- سبق في علمه وقدره هداية هؤلاء الناس، فنهاه عن الدعاء عليهم، وعلى كل حال يكون ذلك مختصاً بهذه الواقعة جمعاً بين الأدلة، وذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- دعا على الكفار في مواطن متعددة في الصلاة وفي خارج الصلاة، ودعا -صلى الله عليه وسلم- على قبائل، ودعا على أشخاص، ولعن رجالاً بأعيانهم، وإنما نُهي في هذا الموطن، كما أنه -عليه الصلاة والسلام- دعا لأقوام في القنوت في الصلاة، فالدعاء على الكفار ولعنهم هذا أمر لا إشكال فيه، وهو أمر دلَّ عليه الكتاب والسنة، ونوح -عليه الصلاة والسلام- قال: **{رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا}** [(٢٦) سورة نوح] وقال موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام-: **{رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ}** [(٨٨) سورة يونس] فدعوا عليهم بالربط على القلوب حتى لا يؤمنوا، وليس هناك شيء أبلغ من هذا، والأدلة على هذا كثيرة جداً، والذين يتكلفون ويقولون على الله -عز وجل- بلا علم وتضيق صدورهم من الدعاء على الكفار ترد عليهم مثل هذه النصوص، وقد يدعو النبي -عليه الصلاة والسلام- لأقوام، وكل مقام بحسبه، فالمقام تارة يقتضي الدعاء عليهم وتارة يقتضي الدعاء لهم، فلسنا مطالبين دائماً بالدعاء للكفار بالهداية، بل أحياناً قد ندعو على كافر أن الله لا يهديه ولا يوفقه، وأن يميته على الكفر، وأن يختم له بخاتمة السوء، وأن يأخذه ويرينا فيه عجائب قدرته وهذا مثل ما دعا موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام- على فرعون، ففي كل مقام حال مناسبة، والله تعالى أعلم.

"وقال البخاري: قال حميد وثابت عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه-: "شُجَ النبي -صلى الله عليه وسلم- يوم أحد، فقال: ((كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟)) فنزلت: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ} [(١٢٨) سورة آل عمران] [٤].

---

[٣] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة آل عمران (٤٢٨٤) (ج ٤ / ص ١٦٦١) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة (٦٧٥) (ج ١ / ص ٤٦٦) واللفظ للبخاري.

[٤] - أخرجه البخاري معلقاً في كتاب المغازي - باب **{لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذَّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ}** [(١٢٨) سورة آل عمران] (ج ٤ / ص ١٤٩٣) وأخرجه مسلم عن أنس في كتاب الجهاد والسير - باب غزوة أحد (١٧٩١) (ج ٣ / ص ١٤١٧).

وروى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله تعالى عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كسرت رباعيته يوم أحد، وشج في جبهته حتى سال الدم على وجهه، فقال: ((كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم عز وجل؟)) فأنزل الله: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذَّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ} [(١٢٨) سورة آل عمران][5] ورواه مسلم[6]".

هذه الروايات المتعددة في سبب النزول روايات صحيحة وهي صريحة، ومعنى الصريح من أسباب النزول هو ما ذكر فيه سبب أو حادثة أو سؤال، ثم قال بعد: فأنزل الله كذا، أو فنزلت الآية، فهذا كله من قبيل الصريح، تارة بأنها نزلت في لعن النبي -صلى الله عليه وسلم- لرجال من قريش بأعيانهم، أو في دعائه -صلى الله عليه وسلم- على قبائل، أو فيما حصل له -صلى الله عليه وسلم- في أحد حينما قال ما قال، هذه كلها أسباب صحيحة وصريحة، فإن تقارب الزمان كان ذلك متقارباً، والقاعدة أنه إذا تعددت أسباب النزول فإنه ينظر إلى الثبوت ثم نختار الصحيح، ثم العبارة فنختار الصريح، ثم إنْ تقارب الزمان حُملت الآية على هذه الأسباب جميعاً، يقال: حصل كذا، وحصل كذا، فنزلت الآية بعد هذه الأشياء جميعاً، وإنْ تباعد حُمل على تكرر النزول، أي أنها نزلت في أكثر من مناسبة، وبعض أهل العلم في مثل هذا الموطن يعمد إلى الترجيح بطريقة من طرق الترجيح الكثيرة، كأن يرجح مثلاً رواية الصحيحين، أو رواية البخاري أو نحو هذا، ولكن الترجيح فيه إهدار لأحد الأدلة والجمع مطلوب ما أمكن، فمثل هذه الأشياء حينما دعا النبي -صلى الله عليه وسلم- على هؤلاء من قريش وغيرهم وما وقع في أحد، هذه القضايا متقاربة، حيث إن هناك أشياء وقعت بعد أحد فينظر في مثل هذا.

"ثم قال تعالى: {وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} [(١٢٩) سورة آل عمران] أي: **الجميع ملك له، وأهلهما عبيد بين يديه** {يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء} [(١٢٩) سورة آل عمران] أي **هو المتصرف فلا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون،** {وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(١٢٩) سورة آل عمران].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ* وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ* وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ* وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ* أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [(١٣٠-١٣٦) سورة آل عمران]".

هذه الآية تتحدث عن الربا، وسياق الآيات جميعاً يتحدث عن غزوة أحد، فإدخال هذه الآية في وسط الآيات التي تتحدث عن أحد هل له وجه يظهر لنا؟ هل يمكن أن نستشف من هذا شيئاً؟ ما وجه الارتباط في المعنى؟

---

5 - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - باب تفسير سورة آل عمران (٣٠٠٢) (ج ٥ / ص ٢٢٦) وأحمد (١١٩٧٤) (ج ٣ / ص ٩٩) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

6 - صحيح مسلم عن أنس في كتاب الجهاد والسير - باب غزوة أحد (١٧٩١) (ج ٣ / ص ١٤١٧).

حينما ذكر الله -عز وجل- آيات الصيام ثم ذكر في أثنائها **{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}** [(١٨٦) سورة البقرة] قال العلماء: إن للصوم مزية وللدعاء تعلق خاص بالصيام أو برمضان لوجود ليلة القدر مثلاً، أو لأن للصائم دعوة مستجابة؛ لذلك دخلت آية الدعاء بين آيات الصيام.

ووجه ذكر معصية التعامل بالربا أثناء الحديث عن غزوة أحد يمكن أن يكون سببه ذكر المعصية التي سببت الهزيمة.

ويمكن أن يقال أيضاً: إن الربا حرب لله ولرسوله كما قال تعالى في الآية الأخرى: **{فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ}** [(٢٧٩) سورة البقرة] فالمواطن التي يُتعاطى فيها الربا هي قلاع لحرب الله ورسوله، والمشتغلون الموظفون فيها هم جنود في تلك القلاع يحاربون الله ورسوله، فإذا كان ذلك موجوداً في المجتمع، فكيف ينتظر النصر من يحارب الله ورسوله؟، فهذه الهزيمة التي وقعت وما ذكر من أسباب النصر ذُكر في أثنائه الربا الذي خصه الله -عز وجل- من بين سائر الذنوب بأنه حرب لله ولرسوله -صلى الله عليه وسلم- والله أعلم..

"يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الربا وأكله أضعافاً مضاعفة".

قوله تعالى: **{لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً}** [(١٣٠) سورة آل عمران] فهم منه بعض المحللين لكثير من أنواع الربا أن الذي نهي عنه هو أن يؤكل الربا بهذه الصفة، فقالوا: هذا الذي لا يجوز وما عداه جائز، أي أنه إذا كان الذي يؤخذ نسبته خمسة بالمائة أو سبعة بالمائة أو عشرة بالمائة وما أشبه هذا فليس هذا أضعافاً مضاعفة!! لكن هذا الفهم الأعجمي ليس صحيحاً وإنما الصحيح أن يقال: إنه -تبارك وتعالى- ذكر صورة مقززة هي من أقبح صور الربا التي تفتك في المجتمع وهي أخذه بهذه الصفة حيث كان ذلك فاشياً في الجاهلية، وإلا فالمقصود أن الربا بجميع أنواعه محرم سواء كان بهذه الصفة أو بغيرها والمفهوم هنا غير معتبر؛ لأن من المواطن التي لا يعتبر فيها مفهوم المخالفة أن تكون الآيات نزلت على وفاق واقع معين، وهذه الآية نزلت بناءً علي وفاق معين كان فاشياً في الجاهلية وهو هذه الصورة المذكورة، ومثل هذه الآية قوله تبارك وتعالى: **{لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ}** [(٢٨) سورة آل عمران] حيث نزلت بسبب أناس والوا الكفار من دون المؤمنين، فلو أن إنساناً قال: أنا أوالي الكفار والمؤمنين معاً، نقول له: لا، فالآية لا مفهوم لها؛ لأنها نزلت على وفاق واقع معين، كما قال في المراقي:

كـــذا دليـــل للخطـــاب انـــضافا	ودع إذا الـــساكت عنـــه خافـــا
أو جهل الحكم أو النطـق انجلـب	للسؤل أو جرى على الـذي غلـب
أو امتنـــــان أو وفــــاق الواقـــع	والجهـلِ والتأكيـد عنـد الـسامع

هذه هي الحالات التي لا يعتبر فيها مفهوم المخالفة، فالأصل أنه حجة عند الجمهور، لكن في حالات معينة لا يكون فيها حجة كما في هذه الآية..

"كما كانوا يقولون في الجاهلية -إذا حل أجل الدين: إما أن يقضي وإما أن يربي، فإن قضاه وإلا زاده في المدة وزاده الآخَر في القدر، وهكذا كل عام، فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيرًا مضاعفاً".

أي أنه بهذه الطريقة يصير أضعافاً مضاعفة حيث يصير المال المطلوب سداده أكبر من أصل المال المقرَض.

"وأمر تعالى عباده بالتقوى لعلهم يفلحون في الأولى والأخرى ثم توعدهم بالنار وحذرهم منها، فقال تعالى: **{وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ* وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}** **[(١٣١-١٣٢) سورة آل عمران]".**

يقول تعالى: **{وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}** [(١٨٩) سورة البقرة]، ولفظة "لعل" إما أن تحمل على التعليل وإما أن تحمل على معنى الترجي، ومعلوم أن الله لا يحصل منه الترجي؛ لأن الترجي إنما يقع ممن لا يعلم عواقب الأشياء لكنه يترجى وقوع الشيء ولا يدري هل يقع أم لا يقع.

وإذا فسرت "لعل" بأنها للترجي في مثل هذه الآية، فيكون ذلك باعتبار حال المخاطب، يعني على رجائكم، فقوله تعالى مثلاً: **{فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}** [(٤٤) سورة طـه] يعني على رجائكما يا موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام-.

"ثم ندبهم إلى المبادرة إلى فعْل الخيرات والمسارعة إلى نيل القربات، فقال تعالى: **{وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}** **[(١٣٣) سورة آل عمران] أي: كما أعدّت النار للكافرين.**

وقد قيل: إن معنى قوله: **{عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ}** **تنبيها على اتساع طولها، كما قال في صفة فرش الجنة:** **{بِطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ}** **[(٥٤) سورة الرحمن] أي: فما ظنك بالظهائر؟".**

وجه الارتباط بين المثالين أنه في هذه الآية: **{بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ}** يقصد أنه ليس بحاجة إلى أن يبين حال الظواهر، بمعنى أنه إذا كانت البواطن التي توضع عادة من وضيع الثياب من الأقمشة التي لا قيمة لها؛ لأنها لا تظهر للناس جعلت من إستبرق فما بالك بالظواهر؟ إذاً: هذه لا يُحتاج أن توصف.

وإذا كان تراب الجنة من مسك، والزعفران حشيش نابت فيها فما بالك بجواهرها، فالمقصود أن هناك أشياء ينبه بها على أشياء.

وهنا في قوله -تبارك وتعالى-: **{عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ}** يحتمل معنيين:

المعنى الأول: بما أن السماوات جمع، والأرض جنس يصدق على الأرضين السبع، فمن أهل العلم من يقول: إن المراد أن هذه السماوات العظيمة إذا بسطت كبسط الثياب ووصل بعضها ببعض، وبسطت الأرض بطبقاتها السبع ووصلت وصل الثياب فهذا هو عرض الجنة.

المعنى الثاني: من أهل العلم من يقول: إن ذلك على طريقة العرب في المبالغة، فإذا أرادوا ذكر سعة شيء ذكروا مثل هذا، فقوله: **{عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ}** أي أنها واسعة العرض.

ومن أهل العلم من قال: إن ذكر العرض يغني عن ذكر الطول؛ لأن العرض عادة أقل من الطول، والعرب تذكر عرض الشيء ليفهم السامع قدر طوله، فإذا كان العرض بهذا المقدار **{عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ}**، إذاً: فطولها لا شك أنه أعظم من هذا، ولكن هذا لا يجزم به هنا حيث لا يلزم أن تكون الجنة مستطيلة.

والعلماء يتكلمون في الأفلاك أن لها صفة الكروية، وأن العرش بمنزلة القبة أو بمنزلة السقف للجنة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس الأعلى فإنه أعلى الجنة وسقفه عرش

الرحمن))[7] وذكر أنه تفجر منه أنهار الجنة، فلا يلزم أن تكون الجنة مستطيلة، لكن فهم بعض أهل العلم من ذكر العرض وأنه بهذه المثابة من الاتساع أن ذلك دليل على أن الطول أعظم، وهذا لا يلزم؛ فالعرب قد تذكر العرض في أغلب كلامها، والله أعلم.

"وقيل: بل عرضها كطولها؛ لأنها قبة تحت العرش، والشيء المقبب والمستدير عرضه كطوله، وقد دل على ذلك ما ثبت في الصحيح: ((إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وسقفه عرش الرحمن))[8]، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الحديد: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ} الآية [(٢١) سورة الحديد]".

قوله: **{كَعَرْضِ السَّمَاء}** السماء هنا جنس والجنس يصدق على الواحد والكثير فلا إشكال بين هذه الآية وآية آل عمران: **{عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ}** [(١٣٣) سورة آل عمران].

"روى البزار عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: جاء رجل إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: أرأيت قوله تعالى: **{وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ}** [(١٣٣) سورة آل عمران] **فأين النار؟ قال: ((أرأيت الليل إذا جاء لبس كل شيء فأين النهار؟)) قال: حيث شاء الله، قال: ((وكذلك النار تكون حيث شاء الله عز وجل))[9]، وهذا يحتمل معنيين:**

أحدهما: أن يكون المعنى في ذلك أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار ألا يكون في مكان وإن كنا لا نعلمه، وكذلك النار تكون حيث يشاء الله عز وجل.

الثاني: أن يكون المعنى أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب، فإن الليل يكون من الجانب الآخر، فكذلك الجنة في أعلى عليّين فوق السماوات تحت العرش وعرضها كما قال الله -عز وجل-: {كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ} [(٢١) سورة الحديد] **والنار في أسفل سافلين فلا تنافي بين كونها كعرض السماوات والأرض، وبين وجود النار، والله أعلم".**

على كل حال هذه الأمور الغيبية الإنسان لا يخوض فيها، وإنما يؤمن بها كما أخبر الله -عز وجل-.

"ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة فقال: {الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء} [(١٣٤) سورة آل عمران] **أي: في الشدة والرخاء والمنشط والمكره والصحة والمرض، وفي جميع الأحوال، كما قال: {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً}** [(٢٧٤) سورة البقرة] **والمعنى أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والإنفاق في مراضيه والإحسان إلى خلقه من قراباتهم وغيرهم بأنواع البر".**

يعني قدموا الإحسان والبذل والنفقة حيث دعت الحاجة سواء كان ذلك في الليل أو في النهار، وينفقون في السراء وفي الضراء، ومن الناس من يبخل في حال السراء ولا ينشط للنفقة، ومن الناس من يمسك في حال الضراء ويزداد خوفه على ما في يده وتنتابه ألوان الوساوس فيزداد حرصه فلا يبذل شيئاً.

---

7 - سيأتي تخريجه.

8 - أخرجه أحمد (٢٢٧٩٠) (ج ٥ / ص ٣٢١) وأصله في البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب درجات المجاهدين في سبيل الله يقال هذه سبيلي وهذا سبيلي (٢٦٣٧) (ج ٣ / ص ١٠٢٨).

9 - أخرجه ابن حبان (١٠٣) (ج ١ / ص ٣٠٦) والحاكم (١٠٣) (ج ١ / ص٩٢) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

"وقوله تعالى: {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ} [(١٣٤) سورة آل عمران] أي: إذا ثار بهم الغيظ كظموه بمعنى كتموه فلم يُعملوه وعفوا مع ذلك عمن أساء إليهم.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ليس الشديد بالصرعة، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب))[١٠] وقد رواه الشيخان.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من أنظر معسراً أو وضع له وقاه الله من فيح جهنم، ألا إن عمل الجنة حَزْنٌ بربوة -ثلاثاً- ألا إن عمل النار سهل بسهوة))".

قوله: **((حَزْنٌ بربوة))** الربوة هي المكان المرتفع والحزن هو الصعب أو الذي يصعب المشي فيه فهو ليس سهلاً، والمعنى أن ذلك يحتاج إلى جهد ومجاهدة ومشقة وصبر وتحمل.

وقوله: **((ألا إن عمل النار سهل بسهوة))** السهوة هي الأرض ذات التربة اللينة السهلة التي يسهل المشي عليها دون مشقة.

"((من أنظر معسراً أو وضع له وقاه الله من فيح جهنم، ألا إن عمل الجنة حَزْنٌ بربوة -ثلاثاً- ألا إن عمل النار سهل بسهوة، والسعيد من وقي الفتن، وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد، ما كظمها عبد لله إلا ملأ جوفه إيماناً))[١١] انفرد به أحمد، وإسناده حسن ليس فيه مجروح، ومتنه حسن".

وبعض أهل العلم ضعف الحديث؛ لأن فيه رجلاً مجهولاً، لكن قوله: **((من أنظر معسراً))** يوجد ما يشهد له[١٢]، ولهذا فهو يحتمل التحسين، لكن إسناده عند الإمام أحمد فيه رجل مجهول.

"وروى الإمام أحمد عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله على رءوس الخلائق، حتى يخيره من أي الحور شاء))[١٣] ورواه أبو داود والترمذي، وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب.

وروى ابن مردويه عن ابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ما تجرع عبد من جرعة أفضل أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله)) [رواه ابن جرير وكذا رواه ابن ماجه][١٤]".

وهذا يشهد لبعض الحديث السابق، وهذا هو المعتاد المعمول به.

---

[10] - أخرجه البخاري في كتاب الأدب - باب الحذر من الغضب (٥٧٦٣) (ج ٥ / ص ٢٢٦٧) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء يذهب الغضب (٢٦٠٩) (ج ٤ / ص ٢٠١٤).

[11] - أخرجه أحمد (٣٠١٧) (ج ١ / ص ٣٢٧) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف جداً.

[12] - صحيح مسلم في كتاب الزهد والرقائق - باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر (٣٠٠٦) (ج ٤ / ص ٢٣٠١).

[13] - أخرجه أبو داود في كتاب الأدب - باب من كظم غيظاً (٤٧٧٩) (ج ٤ / ص ٣٩٤) وابن ماجه في كتاب الزهد - باب الحلم (٤١٨٦) (ج ٢ / ص ١٤٠٠) وأحمد (١٥٦٧٥) (ج ٣ / ص ٤٤٠) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

[14] - أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد - باب الحلم (٤١٨٩) (ج ٢ / ص ١٤٠١) وأحمد (٦١١٤) (ج ٢ / ص ١٢٨) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٧٥٢).

"فقوله تعالى: {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ} [(١٣٤) سورة آل عمران] أي لا يُعملون غضبهم في الناس بل يكفون عنهم شرهم، ويحتسبون ذلك عند الله عز وجل.

ثم قال تعالى: {وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ} [(١٣٤) سورة آل عمران] أي: مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم في أنفسهم، فلا يبقى في أنفسهم موجدة على أحد، وهذا أكمل الأحوال، ولهذا قال: {وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} فهذا من مقامات الإحسان، وفي الحديث: ((ثلاث أقسم عليهن: ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه الله))[١٥]".

هذا التفسير مثل ما تقول: عفت الريح الأثر إذا طمسته ومحته فلا يبقى له في النفس بقية أو أثر، وأما الصفح فهو الإعراض كما في قوله تعالى: {فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ} [(١٠٩) سورة البقرة] فالصفح من صفحة العنق وهو أن يُعرض الإنسان عن إساءة المسيء، وقد يُعرض الإنسان لكن يبقى في نفسه شيء، وقد يذهب الذي في النفس لكنه يحتاج إلى معاتبة لسبب أو لآخر، والذي ينبغي للمسلم أن يعفو ويصفح.

"وقوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ} [(١٣٥) سورة آل عمران] أي: إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار".

قوله: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً} هذا يحتمل أن يكون من قبيل الاستئناف، أي أنه كلام مستأنف جديد باعتبار أن هذه فئة أخرى غير الأولى، فالفئة الأولى أكمل، وهي فئة {الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ} [(١٣٤) سورة آل عمران]، فهؤلاء أصحاب الدرجات العالية، ثم تأتي طبقة دون هؤلاء من أهل الجنة وهم الذين يحصل منهم إساءة وتقصير ولكنهم لا يصرون على ذلك بل يتوبون، وهم فئة الذين {إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ} [(١٣٥) سورة آل عمران] فهذا احتمال مشى عليه بعض أهل العلم، والمعنى الثاني -وهو الأقرب والله تعالى أعلم، واختاره ابن جرير -رحمه الله-: أن ذلك من قبيل العطف على ما سبق، وأن هذه الأوصاف جميعاً لطائفة واحدة، أي أنهم بهذه المثابة من الإحسان والبذل والإنفاق والعفو والكظم للغيظ، وإذا بدر منهم شيء فإنهم لا يصرون على ذلك، بل يبادرون إلى التوبة.

"روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن رجلاً أذنب ذنبا، فقال: رب إني أذنبت ذنباً فاغفره، فقال الله -عز وجل-: عبدي عمل ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنبا آخر فقال: رب، إني عملت ذنباً فاغفره، فقال -تبارك وتعالى-: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب، إني عملت ذنباً فاغفره لي، فقال الله -عز وجل-: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر فقال: رب، إني عملت ذنبا فاغفره لي فقال الله -عز وجل-: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، أشهدكم أني قد غفرت لعبدي، فليعمل ما شاء)) [أخرجه في الصحيح بنحوه][١٦]".

---

15 – أخرجه أحمد (١٨٠٦٠) (ج ٤ / ص ٢٣١) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٠٢٤).

16 – أخرجه البخاري في كتاب التوحيد – باب قول الله تعالى: {يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ} [(١٥) سورة الفتح] (٧٠٦٨) (ج ٦ / ص ٢٧٢٥) وأحمد (٧٩٣٥) (ج ٢ / ص ٢٩٦).

يذكر هذا الحديث ونظائره عند الكلام على الرجاء، ومثل هذه الأحاديث لا تكون مسوغاً للإنسان أن يستمرئ الذنوب والمعاصي، وإنما هي في الإنسان الذي تغلبه نفسه فيتوب ولا يصر على الذنب ثم تغلبه نفسه فيبادر إلى التوبة، فمثل هذه النصوص يعالج بها اليائس والقانط وأولئك الجهال الذين يأتيهم الشيطان، ويقول: أنتم تعملون ذنوباً ثم تظهرون للناس بحلية وصورة أخرى فأنتم تنافقون، وهكذا يحرضهم على ترك العمل الصالح بالكلية، فمثل هؤلاء تفيدهم مثل هذه الأحاديث، لكن هناك أحاديث ونصوص وآيات أخرى تدل على شدة أخذ الله –عز وجل– وعقابه ونكاله، فيجب أن تجمع هذه النصوص مع تلك.

"وقد روى عبد الرزاق عن أنس بن مالك –رضي الله تعالى عنه– قال: بلغني أن إبليس حين نزلت: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ} الآية [(١٣٥) سورة آل عمران] بكى.

وقوله تعالى: {وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ} [(١٣٥) سورة آل عمران] أي: لا يغفرها أحد سواه.

وقوله: {وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [(١٣٥) سورة آل عمران] أي: تابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله عن قريب، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها".

قوله: {ذَكَرُواْ اللّهَ} [(١٣٥) سورة آل عمران] يحتمل أن يكون ذكروه بألسنتهم، ويحتمل أنهم ذكروه بقلوبهم، أو ذكروا وعده ووعيده وعظمته وما ينتظرهم من الوقوف بين يديه، فحصل منهم الاستدراك والرجوع والندم والتوبة، ومعلوم أنه ليس من شرط التوبة أن يذكر الإنسان ربه بلسانه إذا أذنب، ولكن المحرك للتوبة ابتداءً هو أن يتذكر الإنسان عظمة الله –عز وجل– وما وقع في حقه من الإساءة والتجرؤ عليه وعلى حدوده، فيكون ذلك دافعاً له إلى الندم؛ لأن الندم أمر قد يطلبه المكلف ولا يحصل له، فالخطاب إذا توجه إلى المكلف بشيء لا يدخل تحت طوقه فإنه يتوجه إلى سببه أو إلى آثاره، فالندم يكون بتذكر عظمة الله –عز وجل– المؤدي إلى الندم، بمعنى أنهم لم يستمروا على الغفلة، فيحصل لهم الإبصار بسبب ذلك.

"وقوله: {وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [(١٣٥) سورة آل عمران] أي: تابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله عن قريب ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها، ولو تكرر منهم الذنب تابوا عنه.

وقوله: {وَهُمْ يَعْلَمُونَ} قال مجاهد وعبد الله بن عبيد بن عُمَير: {وَهُمْ يَعْلَمُونَ} أن من تاب تاب الله عليه.

وهذا كقوله تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ} [(١٠٤) سورة التوبة] وكقوله: {وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا} [(١١٠) سورة النساء] ونظائر هذا كثيرة جداً".

ويحتمل معنىً آخر ذكره بعض أهل العلم، واختاره ابن جرير –رحمه الله– ولعله هو المتبادر، وهو أن معنى وهم يعلمون، أي: بسوء صنيعهم وقبح عملهم وجنايتهم، فمعنى ذلك أنهم لم يفعلوا هذا الفعل القبيح جهلاً منهم بقبحه وأن الله –عز وجل– حرمه وإنما المقصود ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون قبح هذا، فإنهم إن كانوا يعلمون أن الله حرمه فهم يبادرون إلى التوبة منه.

"وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال وهو على المنبر: ((ارحموا ترحموا، واغفروا يغفر لكم، ويل لأقماع القول، ويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون))[١٧] تفرد به أحمد.

ثم قال تعالى -بعد وصفهم بما وصفهم به-: {أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ} [(١٣٦) سورة آل عمران] أي: جزاؤهم على هذه الصفات {مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} [(١٣٦) سورة آل عمران] أي: من أنواع المشروبات {خَالِدِينَ فِيهَا} أي: ماكثين فيها {وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} يمدح تعالى الجنة".

17 - أخرجه أحمد (٦٥٤١) (ج ٢ / ص ١٦٥) وإسناده حسن كما قال الأرناؤوط.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٢١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ* هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ* وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ* إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ* وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ* أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ* وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} [(١٣٧-١٤٣) سورة آل عمران].

"يقول تعالى مخاطباً عباده المؤمنين الذين أصيبوا يوم أحد وقتل منهم سبعون: {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ} أي: قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء ثم كانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين ولهذا قال تعالى: {فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [(١٣٧) سورة آل عمران].

ثم قال تعالى: {هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ} [(١٣٨) سورة آل عمران] **يعني القرآن فيه بيان للأمور على جليتها، وكيف كان الأمم الأقدمون مع أعدائهم".**

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ}** [(١٣٧) سورة آل عمران] المراد به المثلات التي وقعت للأمم المكذبة حيث أجرى الله -عز وجل- العادة بأن يعذب المكذبين الظالمين من الأمم التي كانت قبلنا ويأخذهم بذنوبهم فأرشد إلى النظر في هذا فقال: **{فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ}** [(١٣٧) سورة آل عمران]، وهذا الأمر هو لمن كان عنده شيء من التردد والشك أو التكذيب.

ولا مستمسَك في هذه الآية لطوائف المتكلمين ممن قالوا: إن أول ما يجب على المكلف هو النظر؛ لأن الله قال: **{فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ}** [(١٣٧) سورة آل عمران] وإنما أمر الله -عز وجل- بالنظر لمن كان عنده تردد أو شك أو تكذيب، ولم يؤمر به أهل الإيمان الذين ثبتوا، فهم لا يحتاجون إلى مثل هذا، كأبي بكر الصديق وأمثاله، وقد قال القائل:

وليس يصح في الأذهان شيءٌ ... إذا احتاج النهار إلى دليل

قوله -تبارك وتعالى-: **{هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ}** [(١٣٨) سورة آل عمران]، قال: **يعني القرآن فيه بيان للأمور على جليتها**، وبعض أهل العلم يقول: إن اسم الإشارة في قوله: **{هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ}** يعود إلى الآية التي قبلها وهي قوله: **{قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ}** [(١٣٧) سورة آل عمران] أي أن السياق يكون هكذا: **{قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ..}** [(١٣٧) سورة آل عمران]، ثم قال: **{هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ}** [(١٣٨) سورة آل عمران]، وهذا فيه بعد

والله تعالى أعلم، والأحسن من هذا هو ما ذكره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- من أن المراد بقوله: {هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ} [(١٣٨) سورة آل عمران] ما ذكره الله -عز وجل- قبله من التفاصيل والأمور التي بيّن بها حال أهل الإيمان والمكذبين الكافرين، وما جرى لهؤلاء، وما جرى لهؤلاء، وما وقع في يوم أحد، وأسباب ذلك، فهذا التفصيل الذي سبق في الآيات هو المراد بقوله: {هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ} [(١٣٨) سورة آل عمران].

وما ذكره الحافظ ابن كثير هنا من أنه القرآن لا يبعد من هذا كثيراً؛ لأن القرآن بيان للناس، وهذه الأشياء التي ذكرها الله -عز وجل- من الآيات هي من جملة هذا القرآن وما تضمنه من البيان والهدايات التي يحتاج إليها الناس، والعلم عند الله عز وجل..

"{وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ} [(١٣٨) سورة آل عمران] يعني القرآن فيه خبر ما قبلكم وهدىً لقلوبكم، وموعظة للمتقين، أي: زاجر عن المحارم والمآثم.

ثم قال تعالى مسلياً للمؤمنين: {وَلاَ تَهِنُوا} [(١٣٩) سورة آل عمران] أي: لا تضعفوا بسبب ما جرى {وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(١٣٩) سورة آل عمران] أي: العاقبة والنصرة لكم أيها المؤمنون".

في قوله تعالى: {وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(١٣٩) سورة آل عمران] يمكن أن يكون قوله: {إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} متعلقاً بقوله: {وَلاَ تَهِنُوا} أي: لا تهنوا ولا تحزنوا إن كنتم مؤمنين، فإن المؤمن يصبر ويثبت ويرضى بما قدره الله -عز وجل- عليه، ويستشعر هذه المعاني.

وبعض أهل العلم يقول: إنه يتعلق بقوله: {وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ} أي: ولا تهنوا ولا تحزنوا فإنكم الأعلون {إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} يعني أن هذا الوصف -من كونهم أعلى من الكفار وإن هُزموا- إنما يكون إذا كانوا محققين للإيمان.

ومثل ابن جرير الطبري -رحمه الله- يقول: إن قوله: {إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} أي إن كنتم مصدقين لرسولي فيما أخبركم به من النصر والظفر وأن العاقبة لكم وما يئول إليه أمركم؛ لأن العبرة إنما هي في المآل والنهايات، وأما ما يعرض للناس من هزيمة وانكسار في بعض الأحيان فذلك لا يعني أنه نهاية المطاف، وكما هو معلوم فإن الرسل -كما في حديث هرقل مع أبي سفيان- تارة يدالون وتارة يدال عليهم، فالحرب سجال، لكن النهاية والعاقبة تكون لأتباع الأنبياء وللأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-.

وعلى كل حال مثل هذا الأسلوب {وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(١٣٩) سورة آل عمران] يستعمل عادة للتحريض والتحضيض، وهذا كثير في القرآن، وتقول: إن كنت ابن الكرام فافعل كذا، فالله -عز وجل- يأمرهم أو ينهاهم ثم يقول: إن كنتم مؤمنين فامتثلوا ذلك، فهنا قال: {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(١٣٩) سورة آل عمران]، والله تعالى أعلم.

"{إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ} [(١٤٠) سورة آل عمران] أي: إن كنتم قد أصابتكم جراح، وقُتل منكم طائفة، فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح".

القرح هو الجرح، فقوله: {إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ} أي: جراح، وهنا يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: {إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ} أي: إن كنتم قد أصابتكم جراح وقُتل منكم طائفة، فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح، وهذا الذي أصاب أهل الإيمان المقصود به قطعاً ما وقع لهم في يوم أحد، فهذه السورة تتحدث عن وقعة أحد، حيث قتل منهم سبعون، وأما الذي أشار الله -عز وجل- إليه بقوله: {فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ} [(١٤٠) سورة آل عمران

فمن أهل العلم من يقول: إن المراد بذلك ما وقع للمشركين في يوم أحد؛ وذلك أنه في أول الغزوة ولوا مدبرين وسقط اللواء، فلم يجرؤ أحد على أخذه، وقتل حملته وقتل منهم نحو تسعة وكانت الهزيمة، فهذا القتل الذي وقع للمشركين في أول المعركة بعض أهل العلم يقول: إنه هو القرح المشار إليه في هذه الآية، ويكون هو المشار إليه بقوله تعالى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ} [(١٥٢) سورة آل عمران]، والحس هو القتل والاستئصال، نقول: حسهم بالسيف، كما سيأتي، فقوله تعالى: {إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ} [(١٥٢) سورة آل عمران] يعني صرفكم عنهم وتحول ميزان المعركة، وهذا المعنى عند من قال: إنه القرح الذي أصاب المشركين في يوم أحد، لكن الأقرب والله أعلم أن المراد به ما وقع لهم في يوم بدر، ولهذا قال: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا} [(١٦٥) سورة آل عمران]، وإصابة المثلين إنما وقع في يوم بدر حيث قتل من المشركين سبعون وأسر سبعون، وفي يوم أحد قتل من المسلمين سبعون ولم يؤسر أحد، فهذا دليل على أن المراد ما وقع للمشركين في يوم بدر، وهو المشار إليه في قوله: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [(١٢) سورة الأنفال]، فوقع لهم ما وقع في يوم بدر.

وأما القرح الذي أصاب المسلمين فقد أشار الله –عز وجل– إليه في هذه الآيات حيث قال: {وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} [(١٤٣) سورة آل عمران] وكذلك في قوله: {وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء} [(١٤٠) سورة آل عمران] وغير ذلك من الآيات، كقوله: {تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ} [(١٥٣) سورة آل عمران]، وقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ} [(١٥٢) سورة آل عمران] يعني وقع لكم الهزيمة.

فالخلاصة أن القرح الواقع للمسلمين هو ما حصل في يوم أحد، والقرح الواقع على المشركين هو ما وقع لهم في يوم بدر، وهذا على الأرجح من قولي العلماء، والله تعالى أعلم.

"{وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} [(١٤٠) سورة آل عمران] أي نديل عليكم الأعداء تارة، وإن كانت لكم العاقبة لما لنا في ذلك من الحكمة، ولهذا قال تعالى: {وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ} [(١٤٠) سورة آل عمران] قال ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– في مثل هذا: لنرى من يصبر على مناجزة الأعداء".

هنا عدّد جملة من الحكم فقال سبحانه وتعالى: {وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ* وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} [(١٤٠-١٤١) سورة آل عمران] فهذه جمل من الحكم في إدالة الكفار على المسلمين في يوم أحد، فمثل هذه الأمور المذكورة، وغير المذكورة مما يُعرف كُلها داخلة تحت حكمة الله –عز وجل–.

فهنا يقول: {وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ} [(١٤٠) سورة آل عمران] فلو كان النصر دائماً لأهل الإيمان لدخل فيهم كل أحد من المنافقين وكل طامع؛ ذلك أن قوماً يحالفهم الانتصار في كل الأحوال جديرون بالاتباع، فالناس تبعٌ للمنتصر، لكن إذا وقعت الهزيمة في بعض الأحيان والآلام والجراح فإنه لا يبقى ولا يثبت إلا أهل الصدق والإيمان، ولهذا قال: {وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء} فهؤلاء الذين قتلوا ليسوا خسارة إلا بالمقاييس المادية الدنيوية، وكل إنسان سيموت وقد ماتوا بآجالهم وانتهت أعمارهم أصلاً، فحتى لو لم يقاتلوا ولم يخرجوا

إلى المعركة فهم سيموتون في هذه اللحظات، ولكن الله كتب لهم هذه النهاية التي يرتفعون بها كثيراً عند الله – عز وجل– فهذه حكمة من حكم إدالة الكفار.

يقول: {وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} [(١٤١) سورة آل عمران] أي يحصل لهم التمحيص فتذهب عنهم وساوس الشيطان ويحصل المحق للكافرين؛ لأنهم إذا انتصروا على أهل الإيمان بغوا وتعالوا وطغوا وأفسدوا فيكون ذلك سبباً لمحقهم وزوالهم، ومن أراد أن يطالع الحكم الكثيرة في هذا فلينظر في ما كتبه الحافظ ابن القيم –رحمه الله– في زاد المعاد، حيث ذكر أشياء تطول جداً.

"{وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء} [(١٤٠) سورة آل عمران] يعني يقتلون في سبيله ويبذلون مهجهم في مرضاته".

الشهيد قيل له شهيد؛ لأنه مشاهد للجنة، أو كأنه مشاهد للجنة، كما يقول بعض أهل العلم، أو لأنه مشهود له بالجنة، وعلى كل حال القتل في سبيل الله شهادة، وهذا أدل دليل على صدق الإيمان، كما أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((الصدقة برهان))[1] فالإيمان قد يدعيه كل أحد، فإذا قدم مهجته فهو شهيد، وإذا قدم ماله فذلك برهان على صدق دعوى الإيمان، وأحب شيء إلى الإنسان نفسه وماله.

"{وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ* وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ} [(١٤٠-١٤١) سورة آل عمران] أي: يكفر عنهم من ذنوبهم إن كانت لهم ذنوب، وإلا رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به".

التمحيص: هو الاختبار أو التطهير، فهو يخلصهم من ذنوبهم، أو يخلصهم من وساوس الشيطان أو نحو ذلك، وعلى كل حال فالمؤمنون يحصل لهم التمحيص بسبب ما أصابهم فيكون ذلك رفعاً في درجاتهم، وتطهيراً لذنوبهم أي يكون كفارة له، ويكون ذلك أثبت في إيمان المؤمنين الصادقين؛ لأن هذه الابتلاءات تزيدهم من الله –عز وجل– قرباً فيتوجهون إليه، ويتعلقون به، ويركنون إلى جنابه، وينقطع تعلقهم بالمخلوقين، ولا يحصل لهم أيضاً التفات إلى النفس ولا عجب، لكن الانتصار الدائم المستمر ربما يورث شيئاً من الوثوق بالنفس أو بالقوة والعدة وما أشبه هذا، أما إذا حصلت الهزيمة والانكسار رجع العبد إلى نفسه فعرف قدرها وعرف شدة حاجته إلى ربه، وعرف فقره إليه وأنه لا يستغني عنه طرفة عين، وهذا مشاهد في الإنسان حينما يصيبه المرض أو العلة أو البلاء عموماً، وقد ذكر بعض أهل العلم كالحافظ ابن القيم –رحمه الله– شيئاً من هذا في الكلام على الحكم من وقوع المعاصي من العباد.

"وقوله: وقوله: {وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ} [(١٤١) سورة آل عمران] أي: فإنهم إذا ظفروا بغوا وبطروا فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم.

أصل المحق هو إزالة الأثر، تقول: محقه أي أزال أثره، والمعنى أن الله –عز وجل– يستأصلهم ويهلكهم.

"ثم قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [(١٤٢) سورة آل عمران] أي: أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا بالقتال والشدائد كما قال تعالى في سورة البقرة: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ} الآية [(٢١٤) سورة البقرة]، وقال تعالى: {الم* أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ} الآية [(١-٢) سورة العنكبوت] ولهذا قال هاهنا: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [(١٤٢) سورة

---

١ – أخرجه مسلم في كتاب الطهارة – باب فضل الوضوء (٢٢٣) (ج ١ / ص ٢٠٣).

آل عمران] أي: لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله والصابرين على مقارنة الأعداء.

وقوله: {وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} [(١٤٣) سورة آل عمران] أي: قد كنتم أيها المؤمنون قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو وتتحرقون عليهم، وتودون مناجزتهم ومصابرتهم، فها قد حصل لكم الذي تمنيتموه وطلبتموه، فدونكم فقاتلوا وصابروا".

قوله: {فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ} أي أنهم رأوا أسبابه حاضرة يوم أحد.

"وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: ((لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف))[٢] ولهذا قال تعالى: {فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ} [(١٤٣) سورة آل عمران] يعني الموت وشاهدتموه وقت لمعان السيوف وحد الأسنة واشتباك الرماح، وصفوف الرجال للقتال. والمتكلمون يعبرون عن هذا بالتخييل وهو مشاهدة ما ليس بمحسوس كالمحسوس كما تتخيل الشاة صداقة الكبش وعداوة الذئب".

بمعنى أن العداوة لا تشاهد ولكنها تتصور، أي يعقلها الإنسان ويتصورها، فإذا رأى الإنسان أسباب الموت حاضرة –فالسيوف مشرعة والرماح ~~والرءوس~~ والرؤوس تتطاير ورأى الدماء ورأى الطعن– فكأنه قد رأى الموت أمام عينيه، مع أن الموت لا يرى وإنما ترى أسبابه أو آثاره.

قوله تعالى في الآية: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [(١٤٢) سورة آل عمران] هنا يرد سؤال مفاده أن الله –عز وجل– يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ولا يخفى عليه خافيه، فما المراد بالعلم في هذه الآية: {وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [(١٤٢) سورة آل عمران]؟

الجواب: أي يعلم ذلك واقعاً منكم، فالله –عز وجل– يعلم ما سيكون ولكن علمه –سبحانه وتعالى– لا يحاسِب عليه حتى يقع مقتضى هذا العلم من المكلفين، فيكون المراد بالعلم هنا هو العلم الذي يترتب عليه الجزاء، أي أن يكون ذلك واقعاً منكم، وهذه قاعدة في القرآن، فكل آية يضاف فيها العلم إلى الله –عز وجل– بمثل هذا أي: في شيء مستقبل، أن كذا من أجل أن يعلم الله كذا، فالمراد به العلم الذي يترتب عليه الجزاء، وهذا له أمثلة في القرآن منها قوله تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ} [(٣١) سورة محمد] وأمثال هذا كثير وكله يراد به هذا المعنى.

"{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ* وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ* وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ* وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ

---

[٢] – أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير – باب كان النبي صلى الله عليه و سلم إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس (٢٨٠٤) (ج ٣ / ص ١٠٨٢) ومسلم في كتاب الجهاد والسير – باب كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر عند اللقاء (١٧٤٢) (ج ٣ / ص ١٣٦٢).

أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ* فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [(١٤٤-١٤٨) سورة آل عمران]..

لما انـهزم مَن انـهزم مِن المسلمين يوم أحد، وقتل من قتل منهم نادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قتل، ورجع ابن قميئة إلى المشركين، فقال لهم: قتلت محمداً، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس، واعتقدوا أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قد قتل، وجوزوا عليه ذلك كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء –عليهم السلام– فحصل ضعف ووهن وتأخرٌ عن القتال، ففي ذلك أنزل الله تعالى على رسوله –صلى الله عليه وسلم–: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ} [(١٤٤) سورة آل عمران] أي: له أسوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه.

قال ابن أبي نجيح عن أبيه: إن رجلاً من المهاجرين مر على رجل من الأنصار وهو يتشحط في دمه، فقال له: يا فلان أشعرت أن محمداً –صلى الله عليه وسلم– قد قتل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قتل فقد بلَّغ، فقاتلوا عن دينكم، فنزل: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ} [(١٤٤) سورة آل عمران] رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في دلائل النبوة".

وهذا من الحكم التي ذكرها الحافظ ابن القيم –رحمه الله– فيما وقع يوم أحد، وهو أن ذلك كان توطئة وتهيئة لنفوس أهل الإيمان فيما سيقع بعده في المآل وهو موت النبي –صلى الله عليه وسلم–، فوطَّأ لهم بهذا، حيث ظهرت هذه الإشاعة ثم عالجها القرآن وبيّن لهم أن شأن النبي –صلى الله عليه وسلم– كغيره لم يكتب له الخلد في هذه الحياة وأنه سيموت، وأنه لا يجوز لهم بحال من الأحوال أن يرجع الناس بعده، فوطأ لهم بهذا.

"ثم قال تعالى منكراً على من حصل له ضعف: {أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ} [(١٤٤) سورة آل عمران] أي: رجعتم القهقرى {وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ} [(١٤٤) سورة آل عمران] أي: الذين قاموا بطاعته وقاتلوا عن دينه، واتبعوا رسوله حياً وميتاً.

وكذلك ثبت في الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من كتب الإسلام من طرق متعددة تفيد القطع، وقد ذكرت ذلك في مسندي الشيخين أبي بكر وعمر –رضي الله تعالى عنهما– أن الصديق –رضي الله تعالى عنه– تلا هذه الآية لما مات رسول الله –صلى الله عليه وسلم–.

روى البخاري عن عائشة –رضي الله تعالى عنها– أن أبا بكر –رضي الله تعالى عنه– أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيمم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وهو مغشىً بثوب حبرة فكشف عن وجهه".

الثوب الحبرة هي ثياب من القطن أو الكتان، وربما كانت مخططة أو معلمة، وقد كان يؤتى بها من اليمن.

"فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متَّها[٣].

وروى الزهري عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنه– أن أبا بكر خرج وعمر يحدث الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد: من كان يعبد محمداً فإن

---

[٣] - أخرجه البخاري في كتاب المغازي - باب مرض النبي صلى الله عليه و سلم ووفاته (٤١٨٧) (ج ٤ / ص ١٦١٨).

محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ} [(١٤٤) سورة آل عمران] إلى قوله: {وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ} [(١٤٤) سورة آل عمران]، قال: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها الناس منه كلهم، فما سمعها بشر من الناس إلا تلاها.

وعن سعيد بن المسيب أن عمر -رضي الله تعالى عنه- قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى هويت إلى الأرض".

تقول: عقر الرجل: يعني إذا بقي مكانه لشدة الفزع الذي فاجأه أو أصابه بحيث لا يستطيع أن يتقدم أو يتأخر، فهو لا يتحرك من مكانه لشدة ما نزل به، وكأنه قد قطعت رجله.

"وقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَابًا مُّؤَجَّلاً} [(١٤٥) سورة آل عمران] أي: لا يموت أحد إلا بقدر الله وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله له، ولهذا قال: {كِتَابًا مُّؤَجَّلاً} كقوله: {وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ} [(١١) سورة فاطر] وكقوله: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ} [(٢) سورة الأنعام]".

قوله: {كِتَابًا مُّؤَجَّلاً} هذا مصدر مؤكِّد لما قبله، أي أنه مؤقت لا يتقدم ولا يتأخر كما قال تعالى: {فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ} [(٣٤) سورة الأعراف].

"وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم في القتال فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه كما روى ابن أبي حاتم عن حبيب بن صهبان قال: قال رجل من المسلمين وهو حجر بن عدي: ما يمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء العدو هذه النطفة -يعني دجلة- وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً، ثم أقحم فرسه دجلة فلما أقحم أقحم الناس، فلما رآهم العدو قالوا: ديوان فهربوا".

قوله: قالوا: ديوان فهربوا، يعني أنهم قالوا: هؤلاء شياطين يمشون على الماء فخافوا منهم، والديوان فسره في الهامش فقال: وديوان: جمع ديو وهو بالفارسية والهندية العفريت الكبير.

"وقوله: {وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا} [(١٤٥) سورة آل عمران] أي: من كان عمله للدنيا فقط نال منها ما قدَّره الله له ولم يكن له في الآخرة نصيب، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها مع ما قسم له في الدنيا".

هذه الآية مقيدة في سورة الإسراء، فالله -عز وجل- يقول: {مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ} [(١٨) سورة الإسراء] فقيدها بقيدين، قيد في المعطين وقيد في المعطَى -يعني العطاء- فقال: {مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ} [(١٨) سورة الإسراء] أي ما نشاء من العطاء لمن نريد من الخلق.

وفي سورة هود يقول تعالى: {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ} [(١٥-١٦) سورة هود] فلم يقيدها.

وفي سورة الشورى لم يقيدها حيث قال: {مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ} [(٢٠) سورة الشورى] فثلاث آيات مطلقة وواحدة مقيدة و التي هي آية الإسراء، والقاعدة أن المطلق يحمل على المقيد.

"كما قال تعالى: {مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ} [(٢٠) سورة الشورى]، وقال تعالى: {مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا* وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا} [(١٨-١٩) سورة الإسراء] وهكذا قال هاهنا: {وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ} [(١٤٥) سورة آل عمران] أي: سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم.

ثم قال تعالى مسلياً للمؤمنين عما كان وقع في نفوسهم يوم أحد: {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ} [(١٤٦) سورة آل عمران] قيل: معناه كم من نبي قُتل وقُتل معه ربيون من أصحابه كثير، وهذا القول هو اختيار ابن جرير".

قوله تعالى: {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ} لفظة "كأين" يقول عنها أمثال الخليل وسيبويه: إن أصلها "أن" دخلت عليها كاف التشبيه، وصارت بعد التركيب وكثرة الاستعمال بمعنى "كم" ثم تصرفت فيها العرب فصار فيها أربع لغات، الأولى: كأين نحو التي في قوله: {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ} الثانية: وكائن وهي قراءة ابن كثير، ويقف عليها بعض القراء كأبي عمرو (وكأي) واللغة الثالثة: وكأيْن بفتح الهمزة والكاف وسكون الياء، واللغة الرابعة "كي إن" بكسر الهمزة، وعلى كل حال مثل هذا يستعمل للتكثير، فقوله: {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ} يعني أنبياء كثير.

فقوله تعالى: {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ} [(١٤٦) سورة آل عمران] يقول ابن كثير -رحمه الله-: قيل: كم من نبي قُتل وقُتل معه ربيون من أصحابه كثير، وعلى هذا التفسير صار القتل واقعاً على النبي وعلى أتباعه وذلك على قراءة (قُتِل) وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو.

وقوله: (قُتل) هذا فعل مبني للمجهول، ومعروف أن الفعل المبني للمجهول يكون ما بعده نائباً للفاعل، فما هو نائب الفاعل هنا؟ هل هو ضمير يرجع إلى النبي، يعني وكأين من نبي قتل أي هو، أم أن نائب الفاعل هو قوله: {رِبِّيُّونَ} أي وكأين من نبي قتل ربيون كانوا معه، وعلى هذا يكون القتل واقعاً على الربيين؟

هذا احتمال وبعض أهل العلم كالشنقيطي -رحمه الله- في أضواء البيان يرجح أن نائب الفاعل هو قوله: {رِبِّيُّونَ} ويحتج على هذا من جهة المعنى بأن الله -عز وجل- أخبر أن الغلبة للرسل -عليهم الصلاة والسلام- وأن النصر لهم، ويقول: وبالتتبع نجد أن الغلبة تكون بالسيف وتكون بالحجة، وأكثر ما جاءت في القرآن في الاستعمال بالنسبة للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- الذين أمروا بالقتال أن الغلبة تكون بالسيف، ثم إن الله -عز وجل- جعل الغلبة مقابلة للقتل كما قال تعالى: {فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ} [(٧٤) سورة النساء] فالمقتول ليس بغالب، والله قال: {وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [(١٧٣) سورة الصافات] وقال: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا} [(٥١) سورة غافر] فالمقتول مغلوب -هذا كلام الشنقيطي -رحمه الله- وبناء على ذلك يقول: إن النبي إن كان قد قتل في ميدان المعركة فمعنى ذلك أنه قد غلب؛ لقوله: {فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ} [(٧٤) سورة النساء]؛ لأن المقتول صار مقابلاً للغالب، فالمقتول مغلوب والقاتل غالب، ويقول: إن الأنبياء لا يغلبون وبذلك يكون القتل وقع على الربيين.

وعلى كل حال القول بأن القتل في قوله تعالى: (وكأين من نبي قُتل معه ربيون كثير) -في قراءة نافع ومن معه- وقع على النبي وعلى الربيين لا يخلو من إشكال، وإن كان يمكن أن يخرَّج هذا باعتبار كأين من نبي قتل معه ربيون كثير قتلوا، لكن قد لا يكون هذا هو المتبادر، فالآية تحتمل وجوهاً من التفسير على هذه القراءة

ومنها كأين من نبي قتل أي أن القتل وقع على النبي ومعه ربيون كثير، أي أتباع وجماعات أو علماء ربانيين وفقهاء وعباد وغير ذلك فما فتَّ في أعضادهم قتل نبيهم وقائدهم وإمامهم ومقدمهم وإنما استمروا على ما كانوا عليه.

والمعنى الثاني: أن يكون القتل وقع على الربيين، فالعلماء الذين رجحوا أن القتل وقع على النبي، قالوا: لو كان القتل واقعاً على الربيين فكيف يقال: **{فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ}** [(١٤٦) سورة آل عمران]، وهم قد قتلوا؟

وهذا في الواقع لا إشكال فيه؛ لأن ذلك يرجع إلى من بقي منهم لم يقتل، يعني أن إخوانهم لم يتراجعوا ويتضعضعوا ويضعفوا أمام عدوهم حينما استحرَّ القتل في إخوانهم، وإنما من بقي حياً بقي عزيزاً ثابتاً صامداً صابراً لم يتضعضع مع كثرة ما وقع من القتل لإخوانه.

وهذا جواب واضح ولا إشكال فيه وله شواهد وله ما يدل على صحة هذا التخريج ومنها قول الله -عز وجل- لبني إسرائيل في الكفارة لما عبدوا العجل: **{فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ}** [(٥٥) سورة البقرة] أي أنهم لما طلبوا أن يروا الله جهرة عاقبهم الله -عز وجل- بأن أخذتهم الصاعقة فكيف ينظرون؟

المعنى على أحد الأقوال في الآية: أن بعضهم ممن لم يمت كان ينظر إلى الآخر وهو يموت، أي ينظر بعضهم إلى بعض، **{فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ}** [(٥٥) سورة البقرة]، فهذا أحد المعاني في هذه الآية، وبمثل هذا المعنى يقال في قوله: **فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ}** [(١٤٦) سورة آل عمران] أي أن من بقي حياً بقي عزيزاً ثابتاً صامداً صابراً لم يتضعضع مع كثرة ما وقع من القتل لإخوانه، والله تعالى أعلم.

وعلى القراءة الأخرى: **{وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ}** [(١٤٦) سورة آل عمران] فهذا لا إشكال فيه، ثم إن القتل غير القتال، فما أصابهم من جراح وآلام وهزيمة لم يفتّ في أعضادهم، والآية تحتمل هذه المعاني جميعاً، وهذه المعاني معتبرة فيها، وهي تربية لأهل الإيمان، فقد يقتل نبيهم كما قتل جماعة من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وقد يقتل كثير من الأتباع بل من خيار الأتباع، وتبقى البقية صامدة ثابتة لا تتضعضع، والقرآن يعبر عنه بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، ومن المعاني أنه يفترق المعنى في حال الوقف والوصل، فعند الوقف (وكأين من نبي قُتل) يصير المعنى والحال أن معه هؤلاء الجماعات **{رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ}** [(١٤٦) سورة آل عمران]، والله أعلم.

"وقيل: وكم من نبي قتل بين يديه من أصحابه ربيون كثير، وكلام ابن إسحاق في السيرة يقتضي قولاً آخر"

قيل: معناها **"كم من نبي قُتل وقُتل معه ربيون من أصحابه كثير"**، يقول: **"وهذا القول هو اختيار ابن جرير"**، والصواب أن هذا ليس اختيار ابن جرير، وإنما اختيار ابن جرير يوافق قول ابن إسحاق الذي سيأتي.

"وكلام ابن إسحاق في السيرة يقتضي قولاً آخر، قال: وكأين من نبي أصابه القتل ومعه ربيون: أي جماعات، فما وهنوا بعد نبيهم وما ضعفوا عن عدوهم وما استكانوا لما أصابهم في الجهاد عن الله وعن دينهم".

يعني عكس الأول، فالقول الأول الذي قال عنه: "**وهذا قول ابن جرير**" هو إن القتل وقع على الربيين، والقول الآخر هو أن القتل وقع على النبي فثبت أتباعه وأصحابه من بعده، وهذا هو قول ابن جرير وليس الأول.

{وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [(١٤٦) سورة آل عمران] **فجعل قوله: {مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ}** [(١٤٦) سورة آل عمران] **حالا، وقد نصر هذا القول السهيلي وبالغ فيه، وله اتجاه؛ لقوله: {فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ} الآية** [(١٤٦) سورة آل عمران]".

قوله: "**وله اتجاه؛ لقوله...**" يعني والذي يمكن أن يرجِّح هذا القول هو قوله تعالى: **{فَمَا وَهَنُواْ}**، والمعنى أنه لو كانوا هم الذين قتلوا فكيف يقول: **{فَمَا وَهَنُواْ}**؟

لكن هذا يُرَدُّ بأنه لا إشكال فيه في الواقع حيث إن البقية التي لم تقتل منهم هي التي صبرت وثبتت وصمدت.

"**وكذلك حكاه الأموي في مغازيه عن كتاب محمد بن إبراهيم ولم يقل غيره**".

أي: لم يحكِ قولاً آخر وإنما اقتصر على هذا كأنه مختار.

"**وروى سفيان الثوري عن ابن مسعود –رضي الله تعالى عنه–: {رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ} أي ألوف.**

وقال ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن وقتادة والسدي والربيع وعطاء الخرساني: الربيون: الجموع الكثيرة".

بعضهم يقول: إن الرّبة الواحدة ألف، والربيون: بمعنى ألوف، فهذا تفسير لقول من قال: إن الرِّبة والرَّبة الواحدة تعني ألفاً.

يقول: "**وقال ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن وقتادة والسدي والربيع وعطاء الخرساني: الربيون الجموع الكثيرة**" وهذا لا ينافي قول من قال: إنهم ألوف؛ فالألوف جموع كثيرة، وقد قرأ بعض السلف بضم الراء، وهي ليست من القراءات المتواترة، لكن نقل ذلك عن علي –رضي الله تعالى عنه– وجاء عن ابن عباس بالفتح، وبهذا يكون الواحد رَبِّي والجمع على الفتح رَبيون، وبعضهم يقول: هذا نسبة إلى الرب، كقوله: **{وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ}** [(٧٩) سورة آل عمران] ويقال: العالم الرباني، والرباني فيه معنى التربية، وقالوا: الربانيون يعني فقهاء علماء، وقالوا: الذين يرجع إليهم الناس في شئونهم كلها وما ألم بهم في دينهم ودنياهم، وما أشبه هذا، وإذا قيل بضم الراء وكسرها يكون منسوباً إلى الرِّبة أو الرُّبة، وهي الجماعة أو الألف.

"**وقال عبد الرزاق عن معمر عن الحسن: {رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ}** [(١٤٦) سورة آل عمران] **أي: علماء كثير، وعنه أيضاً: علماء صبر أبرار وأتقياء.**

{فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ} [(١٤٦) سورة آل عمران] **قال قتادة والربيع ابن أنس: وما ضعفوا بقتل نبيهم، {وَمَا اسْتَكَانُواْ} يقول: فما ارتدوا عن بصيرتهم ولا عن دينهم أن قاتلوا على ما قاتل عليه نبي الله حتى لحقوا بالله.**

وقال ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: {وَمَا اسْتَكَانُواْ} تخشعوا، وقال السدي وابن زيد: وما ذلوا لعدوهم، {وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [(١٤٦) سورة آل عمران]".

يعني كأن الاستكانة تكون من قبيل الظاهر، أي ما يظهر عليهم من التخشع، وأما الضعف والوهن فيكون بالقعود عن عدوهم ومناجزته، ويكون ذلك في القلوب، وما يكون في الخارج إنما هو نتيجة عنه، وعلى كل حال بعض أهل العلم يفرق بين هذه الألفاظ الثلاثة في قوله: **{فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ}** [(١٤٦) سورة آل عمران] فينبغي مراجعة كتب التفسير في ذلك.

"**{وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ* وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}** **[(١٤٦-١٤٧) سورة آل عمران] أي: لم يكن لهم هجِّيراً...**"

الهجير: يعني الدأب والعادة والشيء الذي يولع به الإنسان وينشغل به كثيراً.

"**أي لم يكن لهم هجِّيراً إلا ذلك {فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا} أي النصر والظفر والعاقبة، {وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ} [(١٤٨) سورة آل عمران] أي: جمع لهم ذلك مع هذا، {وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [(١٤٨) سورة آل عمران]**".

قوله: **{وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}** [(١٤٨) سورة آل عمران]، بعضهم يقول: هذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، فـ "حسن" صفة و"الثواب" موصوف وهذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، مثل قوله تعالى: **{وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ}** [(٢٤) سورة الإسراء] هذا من باب إضافة الموصوف إلى الصفة، فالجناح موصوف، والصفة هي الذُّل، أي جناحك الذليل.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٢٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ* بَلِ اللّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ* سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ* وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ* إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غُمَّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [(١٤٩-١٥٣) سورة آل عمران].

"يحذر تعالى عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين، فإن طاعتهم تورث الردى في الدنيا والآخرة، ولهذا قال تعالى: {إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ} [(١٤٩) سورة آل عمران] **ثم أمرهم بطاعته وموالاته والاستعانة به والتوكل عليه فقال تعالى: {بَلِ اللّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ} [(١٥٠) سورة آل عمران].**

ثم بشرهم بأنه سيلقي في قلوب أعدائهم الخوف منهم، والذلة لهم بسبب كفرهم وشركهم مع ما ادخره لهم في الدار الآخرة من العذاب والنكال فقال: {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ} [(١٥١) سورة آل عمران].

وقد ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لي الغنائم وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة))[1]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ}** [(١٥١) سورة آل عمران] فسر الرعب بالخوف وهو مقارب له، وإذا أردنا أن نعبر بعبارة أدق من هذا فيمكن أن يقال: إن الرعب هو أخص من الخوف، فهو خوف خاص، وذلك يراد به الخوف الذي يملأ القلب، فليس كل خوف يكون رعباً وإنما ما ملأ القلب من

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب التيمم (٣٢٨) (ج ١ / ص ١٢٨) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١) (ج ١ / ص ٣٧٠).

الخوف فإنه رعب، وسبق الإشارة إلى أن ما أعطيه النبي -صلى الله عليه وسلم- من مثل هذا، يكون أيضاً لأمته، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- نصر بالرعب مسيرة شهر، وهذا متحقق لهذه الأمة بعده -عليه الصلاة والسلام- إذا كانت سائرة على منهاجه مقتفية أثره.

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ} [(١٥١) سورة آل عمران]، المثوى: هو محل الثواء وهو مكان الإقامة، فقوله: {وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ} [(١٥١) سورة آل عمران] أي: المحل أو المكان الذي يقيمون به، فهو منزلهم.

"وقوله تعالى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ} [(١٥٢) سورة آل عمران] أي: أول النهار، {إِذْ تَحُسُّونَهُم} [(١٥٢) سورة آل عمران] أي: تقتلونهم، {بِإِذْنِهِ} أي: بتسليطه إياكم عليهم، {حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ} [(١٥٢) سورة آل عمران]، وقال ابن جريج قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: الفشل الجبن".

في قوله تعالى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم} [(١٥٢) سورة آل عمران] قوله: {صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ} أي أنه وعد أهل الإيمان بالنصر فحققه لهم.

وابن جرير هنا حمله على معنىً قريب من هذا وهو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وعدهم بذلك خاصة في يوم أحد، حيث أمر الرماة أن يبقوا على الجبل وألا يبرحوه، وأخبرهم أنهم لن يزالوا غالبين ما بقوا في مكانهم.

وابن جرير يقول في قوله تعالى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ} [(١٥٢) سورة آل عمران] أي أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وعدهم بأنهم غالبون ما بقوا في مكانهم فحصلت الغلبة حتى فارقوا أماكنهم، فبعدها حصل الانكسار والهزيمة.

وقوله -تبارك وتعالى-: {إِذْ تَحُسُّونَهُم} [(١٥٢) سورة آل عمران] الحس هو الاستئصال والقتل، وأصله ربما يكون من الحِس وهو الإدراك بالحاسة، تقول: حسَّه أي أذهب وأبطل حواسَّه، وإنما تبطل حواسه إذا قتله، فالقتل الكثير أو القتل المستأصل هو الحس.

وقوله: {تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ} أي بتسليطه إياكم عليهم، وهذا الإذن بالتسليط اجتمع فيه الإذن الشرعي والإذن القدري، فالله -عز وجل- قد أمرهم بقتل الكفار وحسِّهم، وكذلك أيضاً خلى بينهم وبين الكفار فوقع هذا القتل والحس بإذنه القدري؛ لأنه لا يكون شيء في الكون من تحريكة ولا تسكينة إلا بإذن الله -عز وجل-، فهو الذي شرَّع لهم الجهاد، فهذا إذن شرعي، وهو الذي مكنهم من رقاب عدوهم فهذا إذن قدري.

{حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ} وقال ابن جريج: قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: الفشل الجبن.

قوله: {حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ} [(١٥٢) سورة آل عمران] فشلتم هنا فعل الشرط فأين جوابه؟

يمكن أن يكون الجواب محذوفاً تقديره حتى إذا فشلتم امتُحنتم، لكن هذا لا يخلو من بعد، والله تعالى أعلم.

وبعضهم يقول: إن الجواب هو قوله: {وَتَنَازَعْتُمْ}.

فقوله: {حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ} الفشل معناه هنا الضعف والقعود عن العدو، وقوله: {وَتَنَازَعْتُمْ} الواو هنا يقولون: إنها زائدة، وعلى هذايصير الكلام هكذا: حتى إذا فشلتم تنازعتم، وهذا لا يخلو من بعد.

وادِّعاء أن الواو هذه زائدة -أي إعراباً- هذا فيه نظر؛ فالأصل أو الظاهر المتبادر أنها عاطفة، يقول تعالى: {حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ} [(١٥٢) سورة آل عمران]، فهو ذكر ثلاثة أشياء -أفعال الشرط- فالذي حصل لهم أنه كما قال تعالى: {ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ} [(١٥٢) سورة آل عمران]، ولهذا قال بعض أهل العلم: الجواب هو {صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ} ومعنى صرفكم عنهم أي أن المسلمين انتصروا عليهم، ثم بعد ذلك صُرفوا عنهم فصارت الكرة للكفار، وذلك أنه لما حصل للمسلمين الفشل والضعف والتنازع والمعصية كان ذلك سبباً لقلب موازين المعركة، وهو أنه {صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ} [(١٥٢) سورة آل عمران].

وبعضهم يقول: إن الجواب هو قوله: {وَعَصَيْتُم} [(١٥٢) سورة آل عمران] يعني حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر عصيتم، وهذا أيضاً فيه بعد؛ لأنه لا يقال: إنه أراد أن يخبرهم أنهم عصوا بهذا، فهذا لا يحتاج إلى بيان؛ لأنه لا يخفى أن ما فعلوه معصية، فالآية ما سيقت لتقرير هذا المعنى، ومثل هذا القائل أيضاً يدعي أن الواو زائدة كما في قول من قال إن الجواب هو {وَتَنَازَعْتُمْ} [(١٥٢) سورة آل عمران]، فالمقصود أن هذا فيه بعد.

وبعضهم يقول: إن "حتى" بمعنى إلى ولا جواب لها، فهي لا تحتاج إلى جواب، وعلى هذا يكون معنى الكلام هكذا: ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه إلى أن فشلتم وتنازعتم وعصيتم، والمعنى أنه وقع لكم الانتصار والقتل للكفار إلى أن وقع منكم ما وقع، ومثل هذا الجواب لا يبعد، والله تعالى أعلم.

كما أنه لا يبعد أن يكون المراد بالكلام: ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه إلى أن فشلتم وتنازعتم وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون هنا تغيرت موازين المعركة وحصل ما حصل حيث صرفكم الله -عز وجل- عنهم، والعلم عند الله -عز وجل-.

"{وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم} [(١٥٢) سورة آل عمران] كما وقع للرماة {مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ} [(١٥٢) سورة آل عمران] وهو الظفر منهم، {مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا} [(١٥٢) سورة آل عمران] وهم الذين رغبوا في المغنم حين رأوا الهزيمة، {وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ} [(١٥٢) سورة آل عمران]، ثم أدالهم عليكم ليختبركم ويمتحنكم، {وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ} [(١٥٢) سورة آل عمران] أي: غفر لكم ذلك الصنيع، وذلك والله أعلم لكثرة عدد العدو وعددهم وقلة عدد المسلمين وعددهم".

على كل حال، سواء كان هذا هو السبب في العفو، أو أن الله -عز وجل- عفا عنهم لكرمه، ومحض فضله، وما لهم من السابقة والجهاد، وما حصل لهم من الجراح والآلام، فعلى كل حال الله -عز وجل- غفور رحيم، ولهذا قال الله -عز وجل-: {إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [(١٢٢) سورة آل عمران] و{إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ} [(١٥٥) سورة آل عمران].

"وروى البخاري عن البراء -رضي الله تعالى عنه- قال: لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي -صلى الله عليه وسلم- جيشاً من الرماة، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير وقال: ((لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا)) فلما لقيناهم هربوا حتى رأينا النساء يشتددن في

الجبل، رفعن عن سوقهن وقد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة، فقال عبد الله بن جبير -رضي الله تعالى عنه-: عهد إليَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- ألا تبرحوا، فأبوا، فلما أبوا صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلاً، فأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟، فقال: ((لا تجيبوه))، فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال: ((لا تجيبوه)) فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قد قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر -رضي الله تعالى عنه- نفسه فقال: كذبت يا عدو الله، قد أبقى الله لك ما يحزنك، فقال أبو سفيان: اعْلُ هُبَلُ، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أجيبوه)) قالوا: ما نقول؟ قال: ((قولوا الله أعلى وأجل)) فقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أجيبوه)) قالوا: ما نقول؟ قال: ((قولوا الله مولانا ولا مولى لكم)) قال أبو سفيان: "يوم بيوم بدر والحرب سجال، وتجدون مثلة لم آمر بها ولم تسؤني" تفرد به البخاري من هذا الوجه[٢].

وروى محمد بن إسحاق عن عبد الله بن الزبير أن الزبير بن العوام -رضي الله تعالى عنهما- قال: والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند وصاحباتها، مشمرات هوارب، ما دون أخذهن كثير ولا قليل".

يعني لما شمرن يصعدن الجبل عند الهزيمة في أول المعركة رأى ذلك منهن.

والخدم أو الخدمة هو الساق، ويطلق أيضاً على الخلخال وهما متلازمان؛ لأن موضع الخلخال في الساق، وقوله: "**فشمرن**" أي أنه رأى ذلك منهن وهن ممعنات في الهرب.

"ومالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه يريدون النهب وخلوا ظهورنا للخيل، فأتتنا من أدبارنا، وصرخ صارخ: ألا إن محمداً قد قتل، فانكفأنا وانكفأ علينا القوم بعد أن أصبنا أصحاب اللواء، حتى ما يدنوا منه أحد من القوم.

قال محمد بن إسحاق: فلم يزل لواء المشركين صريعاً حتى أخذته عمرة بنت علقمة الحارثية فدفعته لقريش فلاثوا به.

وقوله تعالى: {ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ} [(١٥٢) سورة آل عمران] قال ابن إسحاق: حدثني القاسم بن عبد الرحمن بن رافع أحد بني عدي بن النجار قال: انتهى أنس بن النضر عمّ أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار قد ألقوا ما بأيديهم، فقال: ما يخليكم؟ فقالوا: قتل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: فما تصنعون بالحياة بعده، قوموا فموتوا على ما مات عليه، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل -رضي الله تعالى عنه-.

وروى البخاري عن أنس بن مالك -رضي الله تعالى عنه- أن عمَّه -يعني أنس بن النضر -رضي الله تعالى عنه- غاب عن بدر فقال: غبت عن أول قتال النبي -صلى الله عليه وسلم- لئن أشهدني الله مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليرين الله ما أجد، فلقي يوم أحد فهُزِم الناس فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني المسلمين- وأبرأ إليك مما جاء به المشركون، فتقدم بسيفه فلقي سعد بن معاذ، فقال: أين يا سعد؟ إني أجد ريح الجنة دون أحد، فمضى فقتل فما عرف حتى عرفته أخته ببنانه، أو

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب المغازي - باب غزوة أحد (٣٨١٧) (ج ٤ / ص ١٤٨٦).

بشامة، وبه بضع وثمانون طعنة وضربة ورمية بسهم هذا لفظ البخاري[٣] وأخرجه مسلم من حديث ثابت عن أنس -رضي الله تعالى عنه- بنحوه[٤].

وقوله تعالى: {إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ} [(١٥٣) سورة آل عمران] **أي: صرفكم عنهم إذ تصعدون في الجبل هاربين من أعدائكم".**

على كلام ابن كثير -رحمه الله- هنا: **أي: صرفكم عنهم إذ تصعدون في الجبل هاربين من أعدائكم**، يكون قوله: **{إِذْ تُصْعِدُونَ}** [(١٥٣) سورة آل عمران] متعلق بما قبله من قوله: **{ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ}** [(١٥٢) سورة آل عمران] أي ثم صرفكم عنهم إذ تصعدون ممعنين في الهرب.

هذا توجيه كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهو بهذا يخالف اختيار ابن جرير -رحمه الله- لأن ابن جرير يرى أن ذلك يتعلق بقوله: **{وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ}** [(١٥٢) سورة آل عمران] ويكون معنى الكلام عند ابن جرير: ولقد عفا الله عنكم إذ لم يستأصلكم إذ تصعدون مولين مدبرين منهزمين أي: تُمعنون في الهرب لا تلوون على شيء.

وبعض أهل العلم يقول: إنه يتعلق بقوله: **{لِيَبْتَلِيَكُمْ}** [(١٥٢) سورة آل عمران] يعني ثم صرفكم عنهم ليبتليكم إذ تصعدون، وهذا فيه بعد، فالآية إنما تحتمل المعنيين الأوليْن احتمالاً قريباً.

"وقرأ الحسن وقتادة: {إِذْ تَصْعَدُونَ} أي: في الجبل".

بعض أهل العلم يفرق بين الإصعاد والصعود، فالصعود: هو العلو والارتفاع والإصعاد المقصود به الإمعان في الهرب، أو الانطلاق أو المشي أو نحو ذلك وليس الصعود، فالإصعاد هو الإمعان في السير في الأرض، والصعود هو الارتفاع، ففرق بين الإصعاد وبين الصعود عند كثير من أهل العلم، ولذلك يقال: التصعيد والمقصود بالتصعيد الذهاب إلى عرفة والذهاب إلى عرفة ليس فيه ارتفاع، ولذلك يقال له: إصعاد وتصعيد، ويُقال: فلان أصعد أي انطلق وسار، فهذا هو المعنى والله تعالى أعلم.

"{وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ} أي: وأنتم لا تلوون على أحد من الدهش والخوف والرعب".

قوله: **{وَلاَ تَلْوُونَ}** يعني لا تعرِّجون، بمعنى أنه: لا يلتفت إلى أحد، فهو ممعن في الهرب والانطلاق لا يعرج على أحد.

"{وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ} [(١٥٣) سورة آل عمران] **أي: وهو قد خلفتموه وراء ظهوركم يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء وإلى الرجعة والعودة والكرة.**

قال السدي: لما شد المشركون على المسلمين بأحد فهزموهم دخل بعضهم المدينة وانطلق بعضهم فوق الجبل إلى الصخرة فقاموا عليها، وجعل الرسول -صلى الله عليه وسلم- يدعو الناس: ((إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله)) فذكر الله صعودهم على الجبل، ثم ذكر دعاء النبي -صلى الله عليه وسلم- إياهم، فقال: {إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ} [(١٥٣) سورة آل عمران] **وكذا قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وقتادة، والربيع، وابن زيد.**

---

[3] - صحيح البخاري في كتاب المغازي - باب غزوة أحد (٣٨٢٢) (ج ٤ / ص ١٤٨٧).

[4] - صحيح مسلم في كتاب الإمارة- باب ثبوت الجنة للشهيد (١٩٠٣) (ج ٣ / ص ١٥١٢).

وقد روى البخاري عن قيس ابن أبي حازم قال: رأيت يد طلحة -رضي الله تعالى عنه- شلاء وقى بها النبي -صلى الله عليه وسلم- يعني يوم أحد(٥).

وفي الصحيحين عن أبي عثمان النهدي قال: لم يبق مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في بعض تلك الأيام التي قاتل فيهن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- غير طلحة بن عبيد الله وسعد، عن حديثهما(٦).

وقال سعيد بن المسيب: سمعت سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه- يقول: نَثَلَ لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كنانته يوم أحد وقال: ((ارمِ فداك أبي وأمي)) وأخرجه البخاري(٧).

وثبت في الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه- أيضاً قال: رأيت يوم أحد عن يمين النبي -صلى الله عليه وسلم- وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه أشد القتال، وما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده(٨)، يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام".

هذا أخذ منه بعض العلماء مثل الإمام النووي -رحمه الله-: أن الملائكة قاتلت يوم أحد، وسبق الكلام على هذا، ومثل هذا الحديث لا يدل بالضرورة على أن الملائكة قاتلت في يوم أحد؛ لأن هذا قد يكون قتالاً خاصاً وذلك في الدفاع عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ودفع المشركين عنه فحسب.

والذين يقولون: إنهم لم يقاتلوا في يوم أحد -وهم كثير من أهل العلم إن لم يكن أكثر أهل العلم- يقولون في هذا ونحوه،: لو قاتلت الملائكة يوم أحد ما انهزموا، إذ كيف ينهزمون والملائكة تقاتل معهم؟! فالله -عز وجل- خلى بينهم وبين عدوهم.

والمدد من الملائكة الذين بلغوا ثلاثة آلاف وكذلك الخمسة الآلاف ذكرنا أن الأقرب أنهم إنما كانوا يوم بدر، وأن المتيقن أنه نزل منهم ألف، وأما الثلاثة والخمسة الآلاف فسبق الخلاف فيه بناء على قوله: **{وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم}** [(١٢٥) سورة آل عمران] هل المقصود به المدد الذي يأتي من كرز الذي وعد المشركين فلم يأت هذا المدد؟، وبالتالي لم ينزل مدد السماء زيادة على الألف.

"وقال أبو الأسود عن عروة بن الزبير قال: كان أبي بن خلف أخو بني جمح قد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلما بلغت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حلفته قال: ((بل أنا أقتله إن شاء الله)) فلما كان يوم أحد أقبل أبي في الحديد مقنعاً، وهو يقول: لا نجوت إن نجا محمد، فحمل على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يريد قتله، فاستقبله مصعب بن عمير أخو بني عبد الدار يقي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بنفسه فقتل مصعب بن عمير -رضي الله تعالى عنه-، وأبصر رسول الله

---

[5] - أخرجه البخاري في كتاب المغازي - باب **{إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}** [(١٢٢) سورة آل عمران] (٣٨٣٦) (ج ٤ / ص ١٤٩٠).

[6] - أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة - باب ذكر مناقب طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه (٣٥١٧) (ج ٣ / ص ١٣٦٣) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم - باب من فضائل طلحة والزبير رضي الله عنهما (٢٤١٤) (ج ٤ / ص ١٨٧٩).

[7] - أخرجه البخاري في كتاب المغازي - باب **{إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}** [(١٢٢) سورة آل عمران] (٣٨٢٩) (ج ٤ / ١٤٨٩).

[8] - أخرجه البخاري في كتاب المغازي - باب **{إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}** [(١٢٢) سورة آل عمران] (٣٨٢٨) (ج ٤ / ١٤٨٩) ومسلم في كتاب الفضائل - باب في قتال جبريل وميكائيل عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد (٢٣٠٦) (ج ٤ / ص ١٨٠٢).

-صلى الله عليه وسلم- ترقوة أبي بن خلف من فرجة بين صابغة الدرع والبيضة وطعنه فيها بحربته، فوقع إلى الأرض عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم، فأتاه أصحابه فاحتملوه وهو يخور خوار الثور، فقالوا له: ما أجزعك إنما هو خدش، فذكر لهم قول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((بل أنا أقتل أبياً)) ثم قال: والذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون فمات إلى النار فسحقاً لأصحاب السعير[9]، وقد رواه موسى بن عقبة في مغازيه عن الزهري عن سعيد بن المسيب بنحوه.

وقد ثبت في الصحيحين عن سهل بن سعد -رضي الله تعالى عنه- أنه سئل عن جرح رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: جرح وجه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه، فكانت فاطمة بنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تغسل الدم، وكان عليٌّ يسكب عليها بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة حصير فأحرقته حتى إذا صار رماداً ألصقته بالجرح فاستمسك الدم.

وقوله تعالى: {فَأَثَابَكُمْ غُمَّاً بِغَمٍّ} [(١٥٣) سورة آل عمران**] أي: فجازاكم غماً على غم، كما تقول العرب: نزلت ببني فلان ونزلت على بني فلان، وقال ابن جرير: وكذا قوله: {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} [**(٧١) سورة طـه**] أي: على جذوع النخل.**

قال ابن عباس: الغم الأول بسبب الهزيمة، وحين قيل: قتل محمد -صلى الله عليه وسلم-، والثاني: حين علاهم المشركون فوق الجبل، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((اللهم ليس لهم أن يعلونا))[10].

وعن عبد الرحمن بن عوف -رضي الله تعالى عنه- قال: الغم الأول بسبب الهزيمة، والثاني: حين قيل: قتل محمد -صلى الله عليه وسلم- كان ذلك عندهم أعظم من الهزيمة [رواهما ابن مردويه**].**

وقال مجاهد وقتادة: الغم الأول: سماعهم قتل محمد، والثاني ما أصابهم من القتل والجراح، وعن قتادة والربيع بن أنس عكسه، وعن السدي: الأول: ما فاتهم من الظفر والغنيمة، والثاني: إشراف العدو عليهم".

{فَأَثَابَكُمْ غُمَّاً} [(١٥٣) سورة آل عمران] تقول: غمه بمعنى غطاه، وذلك والله أعلم أن الحزن الشديد يقال له ذلك لأنه يغطي عقل الإنسان، أي يغم عليه بحيث إن الإنسان يصير إلى حال لا يكاد ينتفع به معها من شدة ما نزل به من الحزن والمصيبة.

وقوله هنا: **{فَأَثَابَكُمْ}** يمكن أن يفسر بجازاكم كما مشى عليه كثير من المفسرين، ولا يلزم من ذلك ما يتبادر من لفظ الإثابة هنا من أنه الجزاء الحسن، وإنما يمكن أن يفسر بمطلق الجزاء، وهذا مشى عليه كثير من المفسرين، فإذا فسر بهذا فلا إشكال.

وفي قوله: **{فَأَثَابَكُمْ غُمَّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ}** [(١٥٣) سورة آل عمران] من أهل العلم من قال: إن هذا الغم الذي فاتهم هو النصر الذي رأوه في أول الأمر وما فاتهم من الغنيمة، والذي أصابهم هو الهزيمة والقتل، إذاً فالغم الذي أثابهم الله -عز وجل- به بعض أهل العلم يقول: صرفكم عنهم بسبب ما تسببتم من غم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن أنزل بكم غماً جزاء وفاقاً، أي أنه صرفكم عنهم وحصل

---

9 - أخرجه الحاكم (٣٢٦٣) (ج ٢ / ص ٣٥٧)

10 - أخرجه أحمد (٢٦٠٩) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

لكم ما حصل من الهزيمة بسبب ما تسببتم لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– وهذا فيه بعد، وضعفه جمع من أهل العلم منهم الحافظ ابن القيم.

والأقوال التي ذكرها هنا إذا تأملتها تجد أنه يقول: "**قال ابن عباس: الغم الأول: بسبب الهزيمة وحين قيل قتل محمد، والثاني: حين علاهم المشركون فوق الجبل**".

وذكر عن عبد الرحمن بن عوف: "**الغم الأول بسبب الهزيمة والثاني، حينما قيل: قتل محمد –صلى الله عليه وسلم–**" وهذا أحسن من الذي قبله، وهذا الذي اختاره ابن جرير وابن القيم، وبعض المعاصرين يقول: إن هذا بمثابة المعالجة لما وقع لهم من الحزن، وذلك أنه أصابهم غم شديد بسبب ما فاتهم من النصر وتحوُّل موازين المعركة وبسبب ما وقع لهم من القتل والجراح، فأشيع أن محمداً –صلى الله عليه وسلم– قد قتل، فأصابهم غم أعظم من الغم الأول وأذهلهم ذلك، فأحياناً تقع للإنسان مصيبة ينشغل بها، فتأتيه مصيبة أكبر فتنسيه المصيبة الأولى، وهذا شيء مشاهد، فالإنسان قد يعاني من ألم أو صداع فيقع شيء عظيم آخر فينسى ما كان فيه.

وهكذا قد تقع بالناس فاجعة عامة ثم تقع أخرى أشد منها فينسون الأولى وينشغلون بالثانية، وهذا شيء مشاهد، فالحاصل أنه تكشف الأمر أن النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يقتل فكان ذلك علاجاً للغم الحقيقي الذي أصابهم، أي المصيبة الحقيقية.

وتجد في بعض الكتب مثل تفسير ابن عاشور ما يشير إلى هذا وإن لم يصرح به، لكنه قال: إنه دفع الأول بشيء يسير –وهو ليس يسيراً في الحقيقة لو قتل النبي –صلى الله عليه وسلم– لكن لأنه تبين أنه لا حقيقة له اعتبر يسيراً والله أعلم، فالمقصود أن إشاعة مقتل النبي –عليه الصلاة والسلام– كانت دفعاً للغم الحقيقي والحزن الذي أصابهم بسبب الهزيمة والقتل والجراح.

ثم ذكر ابن كثير قولاً آخر فقال: "**وقال مجاهد وقتادة: الغم الأول: سماعهم قتل محمد، والثاني ما أصابهم من القتل والجراح**" وهذا القول كأنه نظر إلى قوله تعالى: **{لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ}** [(١٥٣) سورة آل عمران] ففاتهم النصر وأصابتهم الهزيمة، فقال: الغم الأول هو ما أشيع من قتله –عليه الصلاة والسلام–، والثاني ما وقع لهم من القتل والجراح.

وبعضهم عكسه؛ لأن الجراح وقعت لهم أولاً، ثم أشيع أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قد قتل، وهذا أكثر ملاءمة من الذي قبله، أعني القول بأن ذلك منعكس.

وذكر عن السدي أنه قال: الأول ما فاتهم من الظفر والهزيمة والغنيمة، والثاني: إشراف العدو عليهم، وهذا مثل القول الأول –قول ابن عباس– الغم الأول بسبب الهزيمة وحين قتل محمد –صلى الله عليه وسلم–، والحقيقة أن الهزيمة وما فاتهم متلازمان.

"**وقوله تعالى: {لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ} أي على ما فاتكم من الغنيمة والظفر بعدوكم، {وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ} [(١٥٣) سورة آل عمران] من الجراح والقتل، قاله ابن عباس وعبد الرحمن بن عوف –رضي الله تعالى عنهم– والحسن وقتادة والسدي.**

{وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [(١٥٣) سورة آل عمران] سبحانه وبحمده لا إله إلا هو –جل وعلا–".

قوله تعالى: {لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ} معناه أن الغم الأخير سبّب لهم تلاشي الحزن الأول، إلا على قول من قال: إن "لا" زائدة، وأن هذا كقوله تعالى: {لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ} [(٢٩) سورة الحديد] بمعنى ليعلم أهل الكتاب، وكقوله: {مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ} [(١٢) سورة الأعراف] يعني ما منعك أن تسجد، فعلى هذا القول يكون الكلام أنه أثابكم غماً بغم لكي تحزنوا على ما فاتكم وما أصابكم، وهذا فيه نظر؛ فهو لم يثبهم الغم الجديد مسبباً لهم هذا الحزن على ما فاتهم وما أصابهم؛ لأنه ليس مراداً للشارع أن يحزنهم، ثم إن الحزن ليس مطلوباً شرعاً على الأمور الفائتة والمصائب النازلة على الإنسان، فلذلك هذا القول فيه إشكال.

ثم إن دعوى الزيادة الأصل خلافها، وهذا طبعاً إذا تنزلنا بقول: إن "لا" زائدة، فلا يليق أن يعبر بالزيادة في القرآن؛ لأن القرآن ليس فيه شيء زائد، ولذلك نجد مثل الزركشي في كتاب البحر المحيط في أصول الفقه، ذكر هذا في موضعين وذكره في البرهان أيضاً في علوم القرآن، والعلماء عادة يعبرون عن مثل هذا بعبارات أخرى أكثر تلطفاً فيقولون: "لا" صلة، وهم على كل حال يقصدون أنها زائدة إعراباً لا زائدة في المعنى، وإنما يقولون: هذا يفيد التوكيد مثلاً أو نحو ذلك، وإلا فكما قال في المراقي:

تـــواتر الـــسبع عليـــه أجمعـــوا   ولم يكن في الـــوحي حـــشو يقـــعُ

فالزيادة حشو في الكلام، ومعلوم أن زيادة المبنى لزيادة المعنى.

والخلاصة أن الذي يظهر هو أن "لا" في قوله: {لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ} ليست زائدة، وإنما على وجهها في النفي، أي أنه فعل بهم ذلك لكي لا يحزنوا على ما فاتهم ولا ما أصابهم، بمعنى أن المصيبة الثانية أنستهم المصيبة الأولى، وخفف ذلك عنهم فنسوا جراحهم، ونسوا ما فاتهم، والله تعالى أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٢٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ* إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [(١٥٤-١٥٥) سورة آل عمران].

"يقول تعالى ممتناً على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأمَنَة وهو النعاس الذي غشيهم وهم مستلئموا السلاح في حال همهم وغمهم، والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان، كما قال تعالى في سورة الأنفال في قصة بدر: {إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ} الآية [(١١) سورة الأنفال]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- هنا: **{ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا}** [(١٥٤-١٥٥) سورة آل عمران] الأمنة هنا مفسرة بالآية وهي النعاس، ولذلك قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا: هي النعاس، وهكذا قال ابن جرير وطوائف من المفسرين، وبعضهم فسر الأمنة هنا بمعنى الأمن، وهذان المعنيان لا منافاة بينهما؛ لأن النعاس إنما ينزل إذا وجدت أسباب الخوف مع الأمن إذا وجد في النفوس، يعني إذا شعرت النفوس بالأمن فإنه يحصل النعاس، وإذا وجد الخوف المزعج من غير شعور بالأمن في النفوس فإن ذلك الخوف يقلقها فيطير عنها النوم فلا تجد للنوم محلاً، فالمقصود أن منهم من فسر الأمنة بالأمن ومنهم من فرق بين الأمن والأمنة فقال: الأمنة هي الأمن مع وجود أسباب الخوف أما الأمن مع غير وجود أسباب الخوف مثل أمن الناس الآن فهذا يقال له أمن، وسواء قيل هذا أو قيل هو النعاس فكل ذلك يرجع إلى شيء واحد؛ لأن النعاس لا ينزل مع وجود أسباب الخوف إلا بوجود الأمن.

وقوله تعالى: **{أَمَنَةً نُّعَاسًا}** [(١٥٤) سورة آل عمران] نعاساً هنا تفسير لهذه الأمنة، والله أعلم.

وقول المصنف: **وهم مستلئموا السلاح**، يعني قد لبسوه.

"وروى البخاري عن أنس عن أبي طلحة -رضي الله تعالى عنهما- قال: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط وآخذه ويسقط وآخذه [رواه في المغازي معلقاً وفي كتاب التفسير مسنداً].

وقد رواه الترمذي والنسائي والحاكم عن أنس عن أبي طلحة قال: رفعت رأسي يوم أحد وجعلت أنظر، وما منهم يومئذ أحد إلا يميد تحت حَجَفَته من النعاس [لفظ الترمذي وقال: حسن صحيح].

ورواه النسائي أيضاً عن أنس قال: قال أبو طلحة: كنت فيمن ألقي عليه النعاس الحديث، قال: والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم همٌّ إلا أنفسهم، أجبن قوم وأرعنه وأخذله للحق".

في قوله: **{وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ}** [(١٥٤) سورة آل عمران] هل هؤلاء هم أهل النفاق أو أنهم من ضعفاء الإيمان، كما قال الله -عز وجل-: **{إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ}** [(١٢٢) سورة آل عمران]؟ فقد يوجد مثل هذا الضعف بين المؤمنين، وكما في قوله تعالى في سورة الأحزاب: **{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}** [(١٢) سورة الأحزاب] إذا قيل -على أحد الوجوه في التفسير-: إن قوله: **{وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}** [(٤٩) سورة الأنفال] هو من باب عطف المغايرة، بمعنى أنهم طائفة أخرى غير المنافقين، وهذا مع أن طوائف من أهل العلم يقولون: إن هذا من باب عطف الصفات والموصوف واحد، فالمنافقون: هم الذين في قلوبهم مرض، **{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}** [(١٢) سورة الأحزاب] كما قال الله -عز وجل-: **{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى* الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى* وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}** [(١-٣) سورة الأعلى] فإن الأوصاف تتابع، تارة مع ذكر حرف العطف، وتارة بحذفه، والآية في سورة الأحزاب **{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}** [(١٢) سورة الأحزاب] تحتمل المعنيين، فيمكن أن يكونوا ضعفاء الإيمان ويمكن أن يكون المراد بهم أهل النفاق.

والمقصود هنا أن مثل الحافظ ابن القيم -رحمه الله- يقول: لم يكن معهم في يوم أُحدٍ أَحدٌ من المنافين؛ وذلك أن عبد الله بن أبي رجع بثلث الجيش، وهؤلاء الذين رجع بهم فيهم أهل نفاق وهو رئيس المنافقين، ولكن الجيش في ذلك الحين كان يقسم على تقسيم بحيث يكون مبعضاً ربما بحسب القبائل والبطون والعشائر، فالخزرج لهم لواء، والأوس لهم لواء والمهاجرون لهم لواء وربما قسم إلى أكثر من هذا كما في يوم القادسية حيث كانت كل قبيلة تقف بمفردها حتى إن قبيلة بجيلة تفرقت في الحروب التي وقعت لها ثم لما أسلموا تفرقوا في الجهاد وكادت القبيلة أن تضمحل فعمد جرير البجلي -رضي الله تعالى عنه- إلى جمعهم وكلم النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم كلم أبا بكر -رضي الله تعالى عنه- بعد ما أخذ كتاباً من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بجمع القبيلة، ثم بعد ذلك جمعوا له فكانوا من أحسن من قاتل في يوم القادسية، وفيه يقول الشاعر:

لولا جرير ذهبت بجيلة ... نعم الفتى وبئست القبيلة

وأعني من هذا أن الذين رجعوا مع عبد الله بن أبي قد لا يكونون جميعاً من المنافقين، فقد يكون بعضهم ممن يحسن الظن به ولم يتكشف نفاقه بعد، وبعضهم ممن يتعصب له، كما قال الله -عز وجل-: **{وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ}** [(٤٧) سورة التوبة] وبعضهم تبعه على سبيل أن هذا من كبار الخزرج بل كاد أن يتوج ليكون ملكاً على الأوس والخزرج معاً، فرجوع عبد الله بن أبي لا يعني أنه لم يبق أَحدٌ من المنافقين في غزوة أحد؛ لأن الذين رجعوا هم الذين كانوا مع عبد الله بن أبي، وقد لا يكون هو القائد بالنسبة لهؤلاء الذين رجعوا معه؛ لأن من عادة النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه لا يولي مثل هؤلاء على قيادة سواء صغرت هذه القيادة أم كبرت، فهذا هو المعهود في السنة وهو الذي مشى عليه الخلفاء الراشدون -رضي الله تعالى عنهم- وهو حكم الإسلام فيهم -أي المنافقين- أي أنه لا يكون لهم ولاية إطلاقاً، فالحاصل أنه قد يكون الذين رجعوا مع

عبد الله بن أبي هم أهل النفاق بحيث تجمعوا من أشتات الجيش من الأوس ومن الخزرج ورجعوا معه دون أن يكون قائداً لهم، فالمقصود: أنه يحتمل هذا ويحتمل هذا، فمثل ابن القيم يقول: ما كان معهم أحد من المنافقين أصلاً، فالمنافقون رجعوا وبقي أهل الإيمان.

فإذاً مَن هؤلاء الذين يقولون مثل هذا الكلام عند هذا القائل كالحافظ ابن القيم -رحمه الله-؟ يقول: هم ضعفاء الإيمان، بينما كلام الحافظ ابن كثير هنا صريح في أنهم من المنافقين.

والمقصود أن الآية تحتمل هذا وتحتمل هذا، فقد يصدر ذلك من بعض ضعفاء الإيمان، وقد يكون في المؤمن وصف من أوصاف الجاهلية، كما هو معروف، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قال لأبي ذر: ((إنك امرؤ فيك جاهلية))[1] فقد يوجد عند بعض ضعفاء الإيمان مثل هذا الظن، إلا أن مجموع الأوصاف التي ذكرت في هذه الآيات تشعر بأن هؤلاء من المنافين كما سيأتي، نحو قوله تعالى عنهم: **{يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا}** [(١٥٤) سورة آل عمران].

"قال: والطائفة الأخرى المنافقون، ليس لهم همٌّ إلا أنفسهم، أجبن قوم وأرعنه وأخذله للحق {يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ} [(١٥٤) سورة آل عمران] أي: إنما هم كذبة، أهل شك وريب في الله -عز وجل-".

قوله: **{يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ}** [(١٥٤) سورة آل عمران] يعني ما يظنه أهل الجاهلية ويعتقدونه من أنهم بالتوقي والحذر وعدم الخروج إلى مظان الموت -مواطن القتال أو نحو ذلك- يدفعون عن أنفسهم الموت، فإذا حصل لهم مكروه جعلوا يتأسفون على هذا المصاب ويقولون: لو لم نخرج في هذا الوجه، وفي هذا السفر وفي هذا الغزو لما حصل لنا كذا وكذا، هذا ظن الجاهلية، فهؤلاء شابهوهم في هذا الظن، وهؤلاء الذين قتلوا أعني السبعين في يوم أحد ماتوا بآجالهم، أي لو لم يخرجوا ولو لم تكن معركة أحد ولو لم يأت المشركون أصلاً لمات هؤلاء جميعاً؛ لأن الموت شيء قد كتبه الله -عز وجل- بأجل لا يتقدم عنه ولا يتأخر، فليس المرض ولا القتل ولا غير ذلك يدني الأجل ولا الحذر يؤخره، وهذه الآيات وأمثالها جاءت لتعالج أدواء النفوس وما يقع من وساوس الشيطان، كما جاءت لتشجع أهل الإيمان للجهاد في سبيل الله -عز وجل- وأن ذلك لا يقرب آجالهم كما أن التخاذل والتراجع وترك ما أمرهم الله -عز وجل- به لا يدفع عنهم شيئاً مما قدره الله -تبارك وتعالى- وكتبه.

"يقول الله تعالى: {ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ} [(١٥٤) سورة آل عمران] يعني أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق، وهم الجازمون بأن الله -عز وجل- سينصر رسوله وينجز له مأموله ولهذا قال: {وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ} [(١٥٤) سورة آل عمران] يعني لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف، {يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ} [(١٥٤) سورة آل عمران] كما قال في الآية الأخرى: {بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا} [(١٢) سورة الفتح] إلى آخر الآية، وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة وأن الإسلام قد باد وأهله، وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الأدب - باب ما ينهى من السباب واللعن (٥٧٠٣) (ج ٥ / ص ٢٢٤٨) ومسلم في كتاب الأيمان - باب إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس ولا يكلفه ما يغلبه (١٦٦١) (ج ٣ / ص ١٢٨٢).

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم يقولون في تلك الحال: {هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ} [(١٥٤) سورة آل عمران] قال الله تعالى: {قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ} [(١٥٤) سورة آل عمران]".

في هذا التساؤل: **{هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ}** [(١٥٤) سورة آل عمران] يحتمل أن يكون المراد، هل لنا من أمر الله من النصر والظفر والظهور على العدو نصيب؟، وأقرب من هذا –والله تعالى أعلم– أن يكون المعنى: **{هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ}** أي: أنا خرجنا مكرهين أصلاً، قد سلبت إرادتنا فلم يكن لنا سبيل إلا التصرف والتوقي من مواطن الموت فوقع بنا ما وقع، فهم يقولون هذا على سبيل التذمر والإرجاف في الناس، وهذا من أسوأ ما يكون أي أن يقع بالناس أمر مكروه أو مصيبة فيبدأ الضعفاء ويبدأ أهل الإرجاف يتكلمون ويلومون ويغمزون القيادة ويطعنون فيها ولو كان هذا القائد نبياً من الأنبياء ولو كان أفضل الأنبياء، فهم يتكلمون في أوقات الشدائد وأوقات ضعف القبضة والهزيمة وما أشبه ذلك من الأوضاع يظهرون قرونهم، وكما قال الله –عز وجل–: **{فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ}** [(١٩) سورة الأحزاب]، وأما في وقت الخوف نفسه فإن هؤلاء في حال ربما لا يستطيعون معها الكلام كما قال الله –عز وجل–: **{يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ}** [(٢٠) سورة محمد] ولك أن تتصور كيف ينظر المغشي عليه من الموت، إنه لا يحرك إلا عينيه فقط، فهؤلاء من شدة الخوف يخاف أحدهم أن يلتفت من هنا فيصاب من هنا، فهو لا يستطيع أن يلتفت قد تصلب عنقه، فهو فقط ينظر بعينيه **{يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ}** [(٢٠) سورة محمد] **{فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ}** [(١٩) سورة الأحزاب] والسلق هو البسط والمعنى أنهم يطعنون فيكم وفي دينكم وفي كتابكم وفي ربكم، ويسمعونكم ما تكرهون، وهذا شيء منذ عهد النبي –صلى الله عليه وسلم– إلى يومنا هذا، إذا وقعت المصائب والآلام والقضايا الكبار ظهر أهل النفاق وبدءوا يرجفون ويطعنون ويشككون كما هو مشاهد الآن.

"قال الله تعالى: {قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ} [(١٥٤) سورة آل عمران] ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله: {يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا} [(١٥٤) سورة آل عمران] أي: يسرون هذه المقالة عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–".

يلاحظ الآن أن الكلام يفسر بعضه بعضاً فقوله: **{يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ}** [(١٥٤) سورة آل عمران] الأحسن أن تفسر –والله أعلم– بما ذكرت من أنهم يقولون: إنا خرجنا مكرهين، ولهذا قال بعده: إنهم يقولون: **{لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا}** [(١٥٤) سورة آل عمران] فهم لا يعنون بقولهم: **{لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ}** يعني من أمر الله من النصر والظفر وإنما المعنى أنهم يقولون: نحن سلبت إرادتنا فأخرجنا من غير إرادة فوقع لنا مثل هذا المصاب، وإلا كُنَّا توقينا الموت وأسبابه وبقينا في المدينة.

"روى ابن إسحاق عن عبد الله بن الزبير –رضي الله تعالى عنهما– قال: قال الزبير: لقد رأيتني مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حين اشتد الخوف علينا، أرسل الله علينا النوم فما منَّا من رجل إلا ذقنه في صدره، قال: فوالله أني لأسمع قول معتب بن قشير، ما أسمعه إلا كالحلم يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا، فحفظتها منه".

معتب بن قشير محسوب على المنافقين على هذا، لكن مثل روايات ابن إسحاق هذه لا يبنى عليها حكم؛ لأنها مما يذكر في السير والأخبار وربما يتساهل وإن كان إماماً في السير -رحمه الله- لكن مثل روايته عند المحدثين لا تكون من قبيل الصحيح، ففيه ضعف عند المحدثين، لأن السير يتساهل فيها، فإذا أردنا أن نبني حكماً أو عقيدة أو نحو ذلك، فمثل روايات ابن إسحاق لا يبنى عليها هذا، فالمقصود أنه لو ثبت هذا، فمعتب ابن قشير محسوب على المنافقين، فهذا يدل على أن المنافقين قد وجد بعضهم في غزوة أحد، ولم يرجع كلهم مع عبد الله بن أبي.

"وفي ذلك أنزل الله: {يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا} [(١٥٤) سورة آل عمران] **لقول معتب [رواه ابن أبي حاتم]".**

إذا ثبت هذا بحيث كان له طريق آخر غير ابن إسحاق، فمثل هذا يدل على أن المنافقين قد خرجوا فعلاً يوم أحد، وأن هذا من قول المنافقين، وكما ذكرت سابقاً تتبع الآيات يدل على أن هذه الأشياء إنما صدرت من المنافقين، وستأتي بعض الآيات التي تدل على هذا.

"قال الله تعالى: {قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ} [(١٥٤) سورة آل عمران] **أي: هذا قدر مقدر من الله -عز وجل- وحكم حتم لازم لا يحاد عنه ولا مناص منه.**

وقوله تعالى: {وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ} [(١٥٤) سورة آل عمران] **أي: يختبركم بما جرى عليكم ليميز الخبيث من الطيب ويظهر أمر المؤمن والمنافق للناس في الأقوال والأفعال.**

{وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [(١٥٤) سورة آل عمران] **أي بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر".**

قوله تعالى: **{وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ}** يعني يختبر ما فيها من الإيمان والنفاق فيتكشف الناس، وتظهر حقائق مكنونات نفوسهم بادية للعيان.

قوله: **{وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ}**: أي ينقيها ويخلصها مما قد يشوبها من وساوس الشيطان فيبقى أهل الإيمان في حال قد نقُّوا فيه فيبقى إيمانهم الخالص ويرتفع عنهم كل شائبة وذلك بمثل هذه الشدائد التي يبتليهم الله -عز وجل- بها، وهذا من فوائد هذه الوقعة وما حصل فيها من الانكسار لأهل الإيمان، وابن القيم -رحمه الله- ذكر حكماً كثيرة جداً ومنها هذه الأشياء التي ذكرها الله -عز وجل-.

"ثم قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ} [(١٥٥) سورة آل عمران] **أي: ببعض ذنوبهم السالفة، كما قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنةِ الحسنةَ بعدها، وإن من جزاء السيئةِ السيئةَ بعدها.**

ثم قال تعالى: {وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ} [(١٥٥) سورة آل عمران] **أي: عما كان منهم من الفرار.**

{إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [(١٥٥) سورة آل عمران] **أي: يغفر الذنب ويحلم عن خلقه، ويتجاوز عنهم".**

قوله تعالى: **{إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ}** [(١٥٥) سورة آل عمران] نص واضح يدل على أن ذنوب الإنسان لا سيما ذنوب السرائر أعظم سبب يودي به إلى الفشل فيخذل في أشد الأوقات وأعظم الأحوال التي يحتاج فيها إلى ألطاف الله -عز وجل-، فهو يخذل وينكسر، كما أن من كان له سريرة وسيرة حسنة وعمل صالح، فإن الله -عز وجل- ينصره، ومن عرف الله في الرخاء عرفه الله في الشدة، فالإنسان يحرص

دائماً أن يرتبط بالله -عز وجل- وأن يتعرف إلى الله في الرخاء فيعرفه الله -عز وجل- في الشدائد، وهذا كما يقال في عموم الأمة ومجموعها، كذلك يقال في آحاد الناس وأفرادهم وما يقع لهم من الأمور المكروهة.

"روى الإمام أحمد عن شقيق قال: لقي عبد الرحمن بن عوف الوليد بن عقبة، فقال له الوليد: ما لي أراك جفوت أمير المؤمنين عثمان؟ فقال له عبد الرحمن: أبلغه أني لم أفر يوم عينين".

أبلغه أي بلِّغه أني لم أفر يوم عينين، ويوم عينين يعني يوم أحد، والمقصود بعينين هو الجبل الصغير الذي كان عليه الرماة، فهو يقال له: جبل الرماة، ويقال له: جبل عينين.

"فقال له عبد الرحمن: أبغله أني لم أفر يوم عينين -قال عاصم: يقول: يوم أحد- ولم أتخلف عن بدر".

قوله: **قال عاصم: يقول: يوم أحد**، هذه جملة اعتراضية وهي تفسير لقوله: **"يوم عينين"**.

يقول عبد الرحمن: **ولم أتخلف عن بدر** يعني يقول: إنه لم يفر يوم عينين -يوم أحد- ولم يتخلف يوم بدر؛ وأما عثمان -رضي الله عنه- فتخلف عن غزوة بدر؛ لأنه كان يمرِّض زوجته بنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

"قال عاصم: يقول: يوم أحد، ولم أتخلف عن بدر ولم أترك سنة عمر".

قوله: **ولم أترك سنة عمر**، يعني في أمر الخلافة، وليس المقصود أن عثمان -رضي الله تعالى عنه- انتقل إلى جانب الظلم والخروج على حدود الله -عز وجل- حاشاه من ذلك فهو من الخلفاء الراشدين وقال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم))[٢] لكن كان لعمر -رضي الله عنه- سياسة صارمة لا يطيقها كثير ممن جاء بعده، فهو كان -مثلاً- يخرج إلى خارج المدينة يتبع جملاً من إبل الصدقة قد ندَّ، فلم يكن يرسل أحداً وإنما كان يذهب يطارد جملاً قد ند وهو خليفة، فمن يستطيع هذا؟

ومن مواقفه -رضي الله عنه-أنه أحدث على المنبر فيذكر ذلك صراحة ويقول: إني قد كذا، وينزل ويتوضأ ثم يرجع، فمن يستطيع أن يكون مثله.

وفي عام الرمادة تظهر عليه سمرة ويتغير لونه لتركه الأكل؛ لأن الناس قد جاعوا حتى إن بعض من وصفوا عمر وجدت في أوصافهم له تباين، فبعضهم يقول: إنه أبيض طويل، وبعضهم يقول: إنه أسمر، فجمع بينهما بعض أهل العلم بأن الذين قالوا أسمر هم الذين رأوه عام الرمادة وقد مال لونه إلى السواد؛ لشدة ما نزل به من الجوع، فمن يستطيع أن يفعل مثل عمر؟ ومن يستطيع أن يلبس ثوباً فيه أكثر من عشر رقاع مثل عمر؟

كان إذا قسم يعطي لابنه عبد الله أقل من بقية أبناء المهاجرين بحجة أنه هاجر مع أبيه فحصلت له الهجرة على سبيل التبع، فعثمان -رضي الله عنه- اعتذر عن هذا وقال: هذا شيء لا أطيقه، وهل يجب على الإنسان أن يفعل هذا؟ لا يجب عليه، ولذلك حتى معاوية في أول خلافته حاول أن يسير بالناس بسيرة عمر نحواً من عامين ثم بعد ذلك قال: عجزت.

"قال: فانطلق فخبر بذلك عثمان، قال: فقال: أما قوله: إني لم أفر يوم عينين، فكيف يعيرني بذنب قد عفا الله عنه فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ

[٢] - أخرجه الترمذي في كتاب المناقب - باب في مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه (٣٧٠١) (ج ٥ / ص ٦٢٦) والحاكم (٤٥٥٣) (ج ٣ / ص ١١٠) وحسنه الألباني في صحيح الترمذي برقم (٣٧٠١).

{عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ} [(١٥٥) سورة آل عمران] **وأما قوله: إني تخلفت يوم بدر، فإني كنت أمرض رقية بنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى ماتت، وقد ضرب لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بسهم، ومن ضرب له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بسهم فقد شهد، وأما قوله: إني تركت سنة عمر فإني لا أطيقها ولا هو، فأته فحدثه بذلك.**

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ* وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ* وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ} [(١٥٦-١٥٨) سورة آل عمران].

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار والحروب: لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ} [(١٥٦) سورة آل عمران]".

ابن كثير هنا -رحمه الله- وكذلك سبقه كبير المفسرين ابن جرير على أن قوله تعالى: **{لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ}** في الكفار كما قال الله -عز وجل-: **{يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ}** [(١٥٤) سورة آل عمران]، وظنُّ أهل الجاهلية هو أنهم بالتوقي يتخلصون من أقدار الله -عز وجل-، فعلى هذا التفسير يذكر الله -عز وجل- هنا ظن هؤلاء من أهل الجاهلية -الذين هم الكفار- أنهم قالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزىً لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، بمعنى أنهم يمكن أن يدفعوا القدر بزعمهم، فهذا تفسير لظن الجاهلية، وهذا على قول الإمامين ابن جرير وابن كثير.

بينما بعض أهل العلم مثل الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمة الله عليه- يقول: إن هذا في المنافقين فلا زالت الآيات تتحدث عن هؤلاء المنافقين، على أن قوله: **{لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ}** [(١٥٦) سورة آل عمران] أي المنافقين الذين هم كفار في الباطن، إلا أنه ليس المتبادر في القرآن إذا ذكر الكفار أن يقصد بهم أهل النفاق، ومع ذلك فهو يرى أن هذا في المنافقين، ويقول: هذا دأبهم وهي عادتهم، **{الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا}** [(١٦٨) سورة آل عمران] فهم تخلفوا عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقالوا مثل هذه المقولة، وهم يقولون ذلك لتثبيطهم كما قالوا في غزوة تبوك، **{وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ}** [(٨١) سورة التوبة] فهذه عادة المنافقين الذين قال الله عنهم في الأحزاب: **{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا}** [(١٨) سورة الأحزاب] كما قال الله -عز وجل-: **{وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا}** [(٧٢) سورة النساء].

فالحاصل أن هذه الآيات في المنافقين ومنها قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ}** [(١٥٦) سورة آل عمران] والله أعلم.

وقوله تعالى: **{إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ}** أي إذا خرجوا في سفر للتجارة ضربوا في الأرض، وقوله: **{أَوْ كَانُواْ غُزًّى}** يعني إذا خرجوا للحرب، ولفظة "غزَّى" لا يلزم فيها أن تكون غزوة مع رسول الله -صلى الله عليه

وسلم- على أن الذي خرج فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- يكون غزوة والذي لم يخرج فيه مع أصحابه يقال له: سرية، وبقية الحروب مثلاً يقال لها: معارك، فهذا اصطلاح لا بقصد القرآن.

وعلى كل حال إذا قلنا: إن هذه الآية في أهل النفاق يكون ذلك تابعاً للآيات الأولى التي يذكر فيها الله -عز وجل- موقف المنافقين في يوم أحد، والله تعالى أعلم.

"{إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ} أي: سافروا للتجارة ونحوها {أَوْ كَانُواْ غُزًّى} أي: كانوا في الغزو {لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا} أي: في البلد {مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ} أي: ما ماتوا من السفر وما قتلوا في الغزو.

وقوله تعالى: {لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ} أي: خلق هذا الاعتقاد في نفوسهم؛ ليزدادوا حسرة على موتهم وقتلهم".

هنا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ذكر المعنى، لكن لو أردنا أن ندقق في العبارة فنربط هذا الكلام: **{لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ}** بما قبله من الكلام نجد أنه يرجع إلى {قالوا} من قوله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ}** [(١٥٦) سورة آل عمران] أي وقالوا هذه المقالة ليجعل الله ذلك القول حسرة في قلوبهم، وهذا هو الأقرب وهو المتبادر والله أعلم، وهو لا يعارض كلام ابن كثير؛ لأن ابن كثير ذكر المعنى ولم يقصد بذلك ربط اللفظ باللفظ، وما مشى عليه ابن كثير وما ذكره من جهة المعنى هو الأقرب وهو اختيار أبو جعفر بن جرير رحمه الله.

وبعض أهل العلم يقول: إن قوله: **{لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ}** يرجع إلى قوله: **{لاَ تَكُونُواْ}** فهو نهي عن مشابهتهم، أي لا تكونوا مشابهين لهم لينفردوا بذلك فيكون ذلك حسرة في قلوبهم وحدهم دونكم؛ لأن من قال هذا فإن ذلك يكون حسرة عليه، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((فإن لو تفتح عمل الشيطان))[3]، ولا شك أن هذا المثال من المواضع التي يذم فيها "لو" خلافاً لبعض المواضع كقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((لو استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي ولجعلتها عمرة))[4] فمثل هذا لا إشكال فيه إذا كان على أمر من الطاعات قد فات أو كان ذلك لبيان أمر من الأمور يحتاج الناس إلى بيانه، فيقول الإنسان: لو كان كذا لفعلت كذا، لا على سبيل التحسر في الأمور التي لا جدوى من التحسر عليها ولا فائدة ولا يمكن استردادها واستدراكها، فإذا كان لهذا المعنى فلا إشكال في "لو" وبهذا تُجمع النصوص.

وعلى كل حال هنا يمكن أن يقال: إن قوله: **{لاَ تَكُونُواْ}** يرجع إلى هذا، بمعنى لا تكونوا مثلهم أو لا تلتفتوا إليهم ليكون ترك الالتفات إليهم سبباً للحسرة في قلوبهم، لكن هذا القول بعيد، والأقرب -والله أعلم- أنه يرجع إلى **{قَالُواْ}** أي أن هذا قول ناتج عن اعتقاد لهم، ليكون ذلك القول والاعتقاد الفاسد حسرة في قلوبهم، فإن من فسد اعتقاده وكان يظن أنه يمكن أن يدفع القدر يتحسر على كل ما وقع له من الآلام والمصائب والمكاره، ودائماً هو في شغل شاغل فيما مضى مما يقع له، لو ما فعلت كان حصل كذا، وهكذا..

---

[3] - أخرجه مسلم في كتاب القدر- باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله (٢٦٦٤) (ج ٤ / ص ٢٠٥٢).

[4] - أخرجه أبو داود في كتاب المناسك - باب صفة حجة النبي -صلى الله عليه وسلم- (١٩٠٧) (ج ٢ / ص ١٢٢) والنسائي في كتاب مناسك الحج - الكراهية في الثياب المصبغة للمحرم (٢٧١٢) (ج ٥ / ص ١٤٣) وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (١٩٠٥).

"{لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ} [(١٥٦) سورة آل عمران] أي: خلق هذا الاعتقاد في قلوبهم ليزدادوا حسرة على موتهم وقتلهم.

ثم قال تعالى رداً عليهم: {وَاللّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ} [(١٥٦) سورة آل عمران] أي: بيديه الخلق وإليه يرجع الأمر، ولا يحيى أحد ولا يموت أحد إلا بمشيئته وقدره، ولا يزاد في عمر أحد ولا ينقص منه إلا بقضائه وقدره.

{وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [(١٥٦) سورة آل عمران] أي: وعلمه وبصره نافذ في جميع خلقه لا يخفى عليه من أمورهم شيء.

وقوله تعالى: {وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} [(١٥٧) سورة آل عمران].

تضمن هذا أن القتل في سبيل الله والموت أيضاً وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه، وذلك خير من البقاء في الدنيا وجمع حطامها الفاني.

ثم أخبر تعالى بأن كل من مات أو قتل فمصيره ومرجعه إلى الله -عز وجل- فيجزيه بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فقال تعالى: {وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ} [(١٥٨) سورة آل عمران]".

في قوله تعالى: **{وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوْ مُتُّمْ}** المتبادر أن المراد بقوله: **{أَوْ مُتُّمْ}** -والله تعالى أعلم- أي متم في سبيل الله، يعني من خرج غازياً فلم يقتل في المعركة ولكنه مات لسبب أو لآخر، إما أنه مرض أو سقط أو أنه أصيب في المعركة لكنه لم يمت فيها ثم بعد ذلك سرت جراحته ثم بعد ذلك مات، فهذا لا يكون شهيد معركة، فمثل هؤلاء جميعاً يقول الله -عز وجل- فيهم: **{لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَحْمَةٌ}** [(١٥٧) سورة آل عمران].

كما أن الآية تحتمل شيئاً آخر وهو اعتبار الأمرين المذكورين في قوله: **{إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى}** [(١٥٦) سورة آل عمران] فإذا ضربوا في الأرض بأن سافروا للتجارة أو نحو ذلك وماتوا، أو كانوا غزًّى فقتلوا فمغفرة الله -عز وجل- ورحمته خير مما يجمعون، وفي القراءة الأخرى: (خير مما تجمعون) وتنكير المغفرة هنا يدل على عظمتها.

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٢٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ* إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ* وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ* أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللّهِ كَمَن بَاء بِسَخْطٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ* هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللّهِ واللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ* لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ} [(١٥٩-١٦٤) سورة آل عمران].

"يقول تعالى مخاطباً رسوله -صلى الله عليه وسلم- ممتناً عليه وعلى المؤمنين فيما ألان به قلبه على أمته المتبعين لأمره، التاركين لزجره، وأطاب لهم لفظه: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ} أي: أي شيء جعلك لهم ليناً لولا رحمة الله بك وبهم.

وقال قتادة: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ} [(١٥٩) سورة آل عمران] **يقول: فبرحمة من الله لنت لهم و"ما" صلة والعرب تصلها بالمعرفة كقوله: {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ}** [(١٥٥) سورة النساء] **وبالنكرة كقوله: {عَمَّا قَلِيلٍ}** [(٤٠) سورة المؤمنون] **وهكذا هاهنا قال: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ}** [(١٥٩) سورة آل عمران] **أي: برحمة من الله.**

وقال الحسن البصري: هذا خلق محمد -صلى الله عليه وسلم- بعثه الله به، وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى: {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [(١٢٨) سورة التوبة]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ} [(١٥٩) سورة آل عمران] قال: أي فبرحمة من الله لنت لهم.

يقول: و"ما" صلة، وعرفنا أنهم يعبرون بالصلة عن الزيادة، يعني أنها زائدة إعراباً وحينما يقولون: صلة، فالمقصود أنها مزيدة للتوكيد، وهذا مشى عليه كثير من المحققين من أئمة العربية، ومن أئمة التفسير كأبي جعفر بن جرير الطبري -رحمه الله-، فقوله: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ} أي: برحمة محققة من الله -عز وجل- حصل لهم هذا اللين من جانبك، فإن ذلك أدعى للقبول والمتابعة والالتفاف حول النبي -صلى الله عليه وسلم-.

"ثم قال تعالى: {وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ} [(١٥٩) سورة آل عمران] **والفظُّ: الغليظ".**

الغليظ الجافي الجلف يقال: فلان فظ يعني أنه غليظ جاف من الأجلاف الذين يعاملون الناس بالمخاشنة وسوء الخلق.

"**والمراد به هاهنا غليظ الكلام، لقوله بعد ذلك: {غَلِيظَ الْقَلْبِ}**".

يقال: غليظ الكلام وغليظ الخلق، وغليظ الكلام لا شك أنه ينتج عن غليظ خلق ينطوي عليه، فهو غليظ الخلق مع قسوة القلب، فقوله:{فظاً} أي: غليظ الأخلاق {غَلِيظَ الْقَلْبِ} يعني قاسي القلب لا يرحم ولا يشفق على أتباعه ونحو ذلك، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- بخلاف هذا.

"**أي: لو كنت سيئ الكلام قاسي القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، وألان جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم كما قال عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما-: إنه رأى صفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الكتب المتقدمة: إنه ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح**".

على كل حال هذه أخلاق كاملة لا سيما لمن أراد أن يتصدى لدعوة الناس أو نحو ذلك فينبغي أن يتحلى بها، فلا يكون جلفاً سيئ الخلق، يتأذى الناس بمجالسته وما يسمعون منه من جرح مشاعرهم وسبهم وشتمهم ويكون في قلبه قاسياً حقوداً لا يعفو الزلة عن الأتباع ولا يتجاوز ولا يحتمل لهم الغلط والهفوة وما أشبه ذلك، وإنما طبعه الغلظة والشدة، فمثل هذا تنفر منه النفوس بطبيعتها، فالنفوس لا تحب من كان كذلك، يعني حتى الإنسان الغليظ الجافي إذا رأى إنساناً آخر غليظاً جافياً فإنه ينفر منه، وفي كثير من الأحيان الإنسان قد لا يتفطن، ولا يرى عيوبه ولو كانت أمثال الجبال لكنه يرى ذلك في الناس ولو كان صغيراً فينفر من هذه الصفات.

فالمقصود أن الدعاة إلى الله -عز وجل- وطلاب العلم أولى بمثل هذه الأوصاف من رحمة المسلمين والعطف عليهم والشفقة، وألا يكون سيئ الخلق في تعامله مع الناس فهذه أمور لا تليق، قد يكون الإنسان طالب علم فيغلظ على الناس في الكلام وربما شتمهم ورما آذاهم وربما أقفل السماعة وهو يحادثهم في الهاتف، فيخاف الناس منه ومن سؤاله، ومن الدنو منه ومن معاشرته، وإذا عاشروه رأوا منه ألوان الأخلاق الكريهة، فينبغي للإنسان أن يكون قدوة في سلوكه قدوة في تصرفاته، فإذا عنف أحداً فهو يقصد هذا لمعنىً يرى أنه مصلحة لهذا الإنسان المعنف ولا يجد في نفسه تشفياً في مثل هذه الحال، فهو كالطبيب يضع الدواء حيث نفع لا سيما في التعامل مع الناس الذين يظنون أن هؤلاء لهم أخلاق كما يقال: أخلاق ربانية، أو أخلاق أنبياء، فحينما يأتي الناس لطلاب العلم أو يأتون لمن يدرسون في الجامعات الشرعية أو نحو هذا ينبغي أن يجدوا منهم اللين والغلظة ولا يجدون الأخلاق الصحراوية والجفاف في النفوس والسلاطة والتعنيف في اللسان وما إلى ذلك، فحتى لو كان الإنسان يعيش في بيئةٍ الغلظة غالبة فيها فإنه ينبغي أن يهذب أخلاقه، فيتخلص الإنسان قدر المستطاع من مثل هذه الأوصاف فإن ذلك ينفر النفوس، وكم من طالب علم جاء مندفعاً متحمساً حينما كان يقرأ عن أخلاق الإمام أحمد والفضيل وابن المبارك وأمثالهم، ثم رأى عكس هذا تماماً لدى بعض من يحتف به أو ابتلي بتعليمه فنفر وكره العلم وكره طلاب العلم وكذلك الدعاة إلى الله -عز وجل- إذا كانوا بهذه المثابة، فلا بد من التجاوز واحتمال أخطاء الناس وهفواتهم، والذي لا يصلح لشيء

يصلح لشيء آخر، والله -عز وجل- خلق الناس في غاية التفاوت فلا بد من سعة الصدر لهم وإعطاء كل إنسان ما يحسنه، والحاجة موجودة للجميع.

"ولهذا قال تعالى: {فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ} [(١٥٩) سورة آل عمران] ولذلك كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث، تطييباً لقلوبهم؛ ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه".

يعني إذا شاورت الإنسان جعلته شريكاً لك في هذا حتى في الناحية النفسية كما يقال، إذا أردت أن تجعل إنساناً في صفك فيمكن أن تدخله معك من هذه البوابة، إنسان ممكن أن يعترض وينبري لمعارضة هذا الأمر، فمن الممكن أن تأتيه وتقول: نحن نعاني من كذا وكذا وكذا، بماذا تشير علي؟ فيمكن أن يقترح عليك الرأي الذي يمكن أن يكون هو أكثر المعارضين له، وللأسف هذه يمكن أن يستغلها أهل الفساد مع بعض الطيبين ويُستغفلون بهذه الطريقة فيكون هذا عوناً لهم، ويمكن أن يستغلها أهل الصلاح، حتى في المشكلات الزوجية، وما أشبه ذلك، قد تسبق الزوجة إلى أحد من المصلحين الذين يصلحون بين الأسر، أو القضاة فتبدأ تذكر له المشكلة وتقلب الأمر بين يديه وماذا يشير عليها وما إلى ذلك، فيتحول تلقائياً إلى إنسان مستشار لها، وهذا لا بأس به إلى هذا الحد، لكن أن يكون كلامها هو الحق، وأن يعطيها تعليمات كيف تفعل لتنتصر على هذا الإنسان، وتأخذ حقها منه وما أشبه ذلك حتى إذا جاء ذلك الزوج فإذا القضية محسومة في نظر هذا القاضي وأن هذا إنسان ظالم، وينبغي أن يؤدب، والسبب أنها جاءت بطريقة مشاورته في الموضوع وماذا يمكن أن تفعل، فتحول دون أن يشعر إلى عاضد وناصر، وهذا حاصل بشكل كبير جداً، فالمقصود أنك بكل بساطة تستطيع أن تحول الكثيرين إلى أعوان وأنصار بهذا الأسلوب حتى بالتعامل مع الأب مثلاً قد تجده يعترض على شيء فتعرض عليه وتقول: أنا أعاني من إشكال وكذا، فماذا تشير عليَّ؟ فتجده يبدأ يجتهد بكل طاقته ليعطيك حلولاً، فهذه الحلول قد تكون أنت تفكر فيها أصلاً، لكن إذا طرحتها لأول وهلة تجد المعارضة.

وعلى كل حال هذه الآية تضمنت حق الله -عز وجل- وحق النبي -صلى الله عليه وسلم- وحق الخلق، فالله -عز وجل- يقول: **{فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ}** [(١٥٩) سورة آل عمران]، فقوله: **{فَاعْفُ عَنْهُمْ}** أي: إن بدر منهم تقصير في حقك، وقوله: **{وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ}** أي مما يقع منهم من الذنوب والمعاصي والتقصير في حق الله -عز وجل-، وقوله: **{وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ}** هذا حق لهم.

"كما شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير، فقالوا: يا رسول الله لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون، وشاورهم أيضاً أين يكون المنزل، حتى أشار المنذر بن عمرو -المعنق ليموت- بالتقدم إلى أمام القوم".

قوله: "**المعنق ليموت**" ربما قيل له ذلك -إن صحت الروايات التي في السير- لما كان في بئر معونة فأقدم بعد أن قتل أصحابه وأصرَّ ألا يبرح وألا يفارق حتى يقاتل المشركين أو يقتل، فأقدم عليهم حتى قتلوه، فيقولون: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال له: ((أعنق ليموت))[1].

---

[1] - الطبقات الكبرى لابن سعد (ج ٣ / ص ٥٦٧).

فقوله: أعنق ليموت يعني بادر ليموت، ثم لقب بهذا، هكذا في بعض الروايات في السير إن صحت.

"وشاورهم في أُحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج إلى العدو فأشار جمهورهم بالخروج إليهم فخرج إليهم، وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ فأبى عليه ذلك السعدان، سعد ابن معاذ، وسعد بن عبادة -رضي الله تعالى عنهما- فترك ذلك، وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين فقال له الصديق -رضي الله تعالى عنه-: إنا لم نجئ لقتال أحد وإنما جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما قال".

على كل حال هذا هو الواجب، وقد قال ابن عطية -رحمه الله-: إن من لا يشاور أهل الدين والصلاح والعلم يجب عزله..

"وقال -صلى الله عليه وسلم- في قصة الإفك: ((أشيروا علي معشر المسلمين في قوم أبنوا أهلي ورموهم، وأيم الله ما علمت على أهلي من سوء وأبنوهم بمن؟، والله ما علمت عليه إلا خيراً))[2].

واستشار علياً وأسامة -رضي الله تعالى عنهما- في فراق عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- فكان -صلى الله عليه وسلم- يشاورهم في الحروب ونحوها.

وقد روى ابن ماجه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((المستشار مؤتمن)) [ورواه أبو داود والترمذي وحسنه النسائي]".

قوله: **((أبْنوا أهلي))** الأَبْن: التهمة، والمعنى هنا اتهموا أهلي، وعلى كل حال الحديث فيه كلام معروف وضعف في إسناده، لكنه قد يحتمل التحسين لشواهده، وقد رواه أبو داود والترمذي وحسنه، والتحسين من قبل الترمذي.

"وقوله تعالى: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ} [(١٥٩) سورة آل عمران] **أي: إذا شاورتهم في الأمر وعزمت عليه فتوكل على الله فيه {إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}** [(١٥٩) سورة آل عمران].

وقوله تعالى: {إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [(١٦٠) سورة آل عمران] **وهذا كما تقدم من قوله: {وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}** [(١٢٦) سورة آل عمران] **ثم أمرهم بالتوكل عليه فقال: {وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ}** [(١٦٠) سورة آل عمران]".

قوله: **{وَإِن يَخْذُلْكُمْ}** الخذلان هو الترك والتخلية، فحينما يكون الإنسان أحوج ما يكون إلى الألطاف والنصر إذا تركته في هذا الوقت الذي يحتاج إليك فيه وتخليت عنه تكون قد خذلته، أما إذا كان لا يحتاج إليك فتركته فليس هذا من الخذلان، إنما يكون الخذلان في وقت الحاجة والاضطرار.

وفي قوله: **{وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ}** الاستفهام هنا مضمن معنى النفي، والمعنى لا أحد ينصركم من بعد الله -عز وجل-.

---

[2] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة النور (٤٤٧٩) (ج ٤ / ص ١٧٨٠) ومسلم في كتاب التوبة - باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (٢٧٧٠) (ج ٤ / ص ٢١٢٩).

"وقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ} [(١٦١) سورة آل عمران] قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد والحسن وغير واحد: ما ينبغي لنبي أن يخون.

وروى ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أن هذه الآية: {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ} نزلت في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر، فقال بعض الناس: لعلَّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أخذها، قال: فأكثروا في ذلك، فأنزل الله: {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [(١٦١) سورة آل عمران] وكذا رواه أبو داود والترمذي، وقال الترمذي: حسن غريب، وهذه تبرئة له -صلوات الله وسلامه عليه- عن جميع وجوه الخيانة في أداء الأمانة وقسم الغنيمة وغير ذلك".

سبب النزول هذا صحيح ثابت وبه يفهم إيراد هذه الآية، وذلك أنه قد يتساءل الإنسان عند قوله تعالى: **{وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ}** ما الموجب لذكر هذا المعنى مع أن الأنبياء كما هو معلوم منزهون عن هذا؟ فهل اتهمهم أحد بهذا؟ أو هل حصل موقف؟ أو هل جوَّز عليهم أحد ذلك؟

فيكون الجواب أن سبب النزول أن من الناس من قال هذه المقالة: لعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أخذها.

وحقيقة الغلول هو الأخذ من الغنيمة قبل أن تقسم، وبعضهم يعمم هذا فيقول: الأخذ من الغنيمة والفيء أو بيت المال يعتبر من الغلول، لكن معنى الغلول المشهور الذي إذا أطلق تبادر إليه الذهن هو الأخذ من الغنيمة قبل أن تقسم، وسبب النزول هنا يدل على هذا.

"ثم قال تعالى: {وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [(١٦١) سورة آل عمران]، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، وقد وردت السنة بالنهي عن ذلك أيضاً في أحاديث متعددة.

روى الإمام أحمد عن أبي مالك الأشجعي -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أعظم الغلول عند الله ذراع من الأرض تجدون الرجلين جارين في الأرض أو في الدار فيقطع أحدهما من حظ صاحبه ذراعاً، فإذا اقتطعه طوقه من سبع أرضين إلى يوم القيامة))[٣]".

الحديث عند الإمام أحمد في إسناده ضعف، لكن له أصل من حديث سعيد بن زيد -رضي الله تعالى عنه- عند البخاري في الصحيح، وعلى كل حال، لو تأملت حينما تسمع هذه الآية: **{وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ}** [(١٦١) سورة آل عمران] دون أن تعرف سبب النزول، ثم انظر بعد أن عرفت سبب النزول فتجد أن فهم الآية يتغير والإشكال ينحل، فأحياناً سبب النزول يعين على فهم المعنى ويزول به الإشكال، فأسباب النزول متفاوتة، وأحياناً تكون من باب زيادة العلم لا تؤثر في فهم الآية، ولذلك فأسباب النزول من جملة التفسير، أعني حينما يسمع الإنسان مثل هذه الآية وهو لا يعرف خلفيتها ولا يدري لماذا قيل هذا يكون هناك فرق إذا سمعها وهو يعرف معناها ويعرف لماذا أوردها الله -عز وجل-.

"وروى الإمام أحمد عن أبي حميد الساعدي -رضي الله تعالى عنه- قال: استعمل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رجلاً من الأزد يقال له: ابن اللتبية على الصدقة فجاء فقال: هذا لكم وهذا أهدي لي، فقام

---

[3] - أخرجه أحمد (١٧٢٩٤) (ج ٤ / ص ١٤٠) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف لضعف عبد الله بن محمد بن عقيل وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الصحيح.

رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على المنبر فقال: ((ما بال العامل نبعثه فيجيء فيقول: هذا لكم وهذا أهدي لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده لا يأتي أحد منكم منها بشيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته إن كان بعيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر)) ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطيه ثم قال: ((اللهم هل بلغت)) ثلاثاً، وزاد هشام بن عروة: فقال أبو حميد: بصر عيني وسمعِ أذني وسلوا زيد بن ثابت [أخرجاه][٤]".

قوله: **حتى رأينا عفرة إبطيه،** العفرة هي بياض يخالطه لون يغايره، كما يقال: صبي أعفر، أي أبيض، وعلى ظهره شيء من لون الأرض كما نقول بني فاتح، أي بياض متغير يمازجه لون آخر غير لون سائر الجسد.

ومثل هذا الحديث حينما أورده ابن كثير -رحمه الله- يحتمل أنه أراد أن يقرر أن الغلول هو الأخذ من المال العام، سواء كان من أموال الغنيمة قبل قسمها أو الفيء أو بيت مال المسلمين، وهذا قال به جماعة من أهل العلم، والنبي -صلى الله عليه وسلم- هنا لم يذكر الآية في هذا الحديث، فذلك يرجع إلى اجتهاد المفسر، فإذا كان المفسر يظن أن هذه الآية مرتبطة بهذا الحديث ومفسرة له فإنه يريده، هو قد يصيب في هذا وقد يخطئ، هذا النوع الذي يكون من قبيل التفسير بالسنة مما يدخله اجتهاد المفسر، فقد يخطئ المفسر وقد يصيب.

ويحتمل أيضاً أن الحافظ ابن كثير يرى أن الغلول هو الأخذ من مال الغنيمة خاصة، ولكن أيضاً هناك أشياء من الأخذ يحاسب عليها الإنسان ويأتي بها يوم القيامة، كما قال الله -عز وجل-: **{وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}** [(١٦١) سورة آل عمران]، فربما يريد أن يفسر هذا القدر كيف يأتي به، فالحديث بيّن أنه يأتي بالشاة أو البعير على تلك الهيئة التي ذكرت فيفتضح أمام الناس.

"وروى أبو عيسى الترمذي في كتاب الأحكام عن معاذ بن جبل -رضي الله تعالى عنه- قال: بعثني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى اليمن، فلما سرت أرسل في أثري فرددت فقال: ((أتدري لمَ بعثت إليك، لا تصيبن شيئاً بغير إذني فإنه غلول، ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة، لهذا دعوتك فامض لعملك))[٥] هذا حديث حسن غريب".

على كل حال الحديث فيه ضعف، ولو صح فيمكن الاحتجاج به على أن الغلول أيضاً يطلق على الأخذ من الأموال العامة، مثل الزكوات أو غير ذلك؛ لأن معاذاً -رضي الله تعالى عنه- قائم في اليمن وسيعطيه الناس أموالاً من زكواتهم ونحو هذا، وكان يبعث ذلك إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- ويقسم أيضاً على المستحقين، فالأخذ من هذا يكون من قبيل الغلول لو صح هذا الحديث، وعلى كل حال يمكن أن يقال: إن الغلول يطلق إطلاقاً خاصاً وهو الأخذ من مال الغنيمة قبل أن تقسم، وإطلاقاً أوسع وهو الأخذ من الأموال العامة.

---

4 - أخرجه البخاري في كتاب الهبة وفضلها - باب من لم يقبل الهدية لعلة (٢٤٥٧) (ج ٢ / ص ٩١٧) ومسلم في كتاب الإمارة - باب تحريم هدايا العمال (١٨٣٢) (ج ٣ / ص ١٤٦٣).

5 - أخرجه الترمذي في كتاب الأحكام - باب ما جاء في هدايا الأمراء (١٣٣٥) (ج ٣ / ص ٦٢١).

"وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قام فينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوماً فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره، ثم قال: ((لا ألفينّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك)) [أخرجاه][6]".

الصامت هو الذهب والفضة، والرقاع: مثل الجلود أو الثياب أو نحو هذا، وفي هذا الحديث ذكر الأصناف، وهي الحيوانات والمصنوعات أو الجلود وذكر أيضاً الذهب والفضة.

"وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: لما كان يوم خيبر أقبل نفر من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: فلان شهيد، وفلان شهيد، حتى أتوا على رجل فقالوا: فلان شهيد، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((كلا؛ إني رأيته في النار في بردة غلها أو عباءة)) ثم قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يا ابن الخطاب اذهب فناد في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون)) قال: فخرجت فناديت: ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون"[7] وكذا رواه مسلم والترمذي وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقوله تعالى: {أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللّهِ كَمَن بَاء بِسَخْطٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [(١٦٢) سورة آل عمران**] أي: لا يستوي من اتبع رضوان الله فيما شرعه فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه".**

لا يستوي من اتبع رضوان الله فيما شرعه، يعني في كل شيء، اتبع رضوان الله -عز وجل- في الأعمال القلبية وأعمال الجوارح في طاعة الله وطاعة رسوله -صلى الله عليه وسلم- كما قال ربنا -تبارك وتعالى-: **{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ* فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ}** [(٧٣-٧٤) سورة آل عمران] فوصفهم بهذا حيث أجابوا النبي -صلى الله عليه وسلم- لما دعاهم للخروج إلى حمراء الأسد بعد غزوة أُحد مباشرة.

"أي لا يستوي من اتبع رضوان الله فيما شرعه، فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه، وأجير من وبيل عقابه، ومن استحق غضب الله وألزم به فلا محيد له عنه، ومأواه يوم القيامة جهنم وبئس المصير".

يعني هذا أيضاً في محادّة الله -عز وجل- ومعصيته بكل الأشكال والصور كما قال الله -عز وجل-: **{تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ* وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}** [(٨٠-٨١) سورة المائدة].

---

[6] - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب الغلول (٢٩٠٨) (ج ٣ / ص ١١١٨) ومسلم في كتاب الإمارة - باب غلظ تحريم الغلول (١٨٣١) (ج ٣ / ص ١٤٦١).

[7] - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب غلظ تحريم الغلول وأنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون (١١٤) (ج ١ / ص ١٠٧).

فالحاصل أنه قال: {لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ} أي: سولت لهم وزينت أن يوالوا المشركين، فكان ذلك سبباً لسخط الله –عز وجل– عليهم..

"وهذه لها نظائر كثيرة في القرآن كقوله تعالى: {أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى} [(١٩) سورة الرعد]".

هذا دأب ابن كثير –رحمه الله– حيث يفسر القرآن بالقرآن ولو أن أحداً دوَّن بعض النماذج لمعرفة منهج ابن كثير في التفسير فإنه سيجد عنده في النهاية تطبيقات على قواعد التفسير بأنواعها خاصة وأن الكتاب هذا حافل بذلك، فإذا جمع أحدنا هذه الأمور شيئاً فشيئاً فإنه يمكن أن يخرج بمجلدات، والناس في هذا كلٌّ بحسبه، فمنهم من يجدها تلوح لأنه يذكرها صراحة وأحياناً تكون خفية لا تظهر إلا لمن كان له خلفية بهذا.

"وهذه لها نظائر كثيرة في القرآن كقوله تعالى: {أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى} [(١٩) سورة الرعد] وكقوله: {أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} الآية [(٦١) سورة القصص].

ثم قال تعالى: {هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللّهِ} [(١٦٣) سورة آل عمران] قال الحسن البصري ومحمد بن إسحاق: يعني أهل الخير وأهل الشر درجات، وقال أبو عبيدة والكسائي: منازل يعني متفاوتون في منازلهم ودرجاتهم في الجنة ودركاتهم في النار، كقوله تعالى: {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ} الآية [(١٣٢) سورة الأنعام] ولهذا قال تعالى: {واللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} [(١٦٣) سورة آل عمران] أي: وسيوفِّيهم إياها لا يظلمهم خيراً ولا يزيدهم شرًّا بل يجازي كلاًّ بعمله.

وقوله تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ} [(١٦٤) سورة آل عمران] أي: من جنسهم، ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به".

قوله تعالى: {مِّنْ أَنفُسِهِمْ} المعنى الأعم هنا يمكن أن يكون من جنسهم أي ليس من جنس آخر كالملائكة، فمن رحمة الله –عز وجل– أن جعله مشاكلاً لهم يستطيعون الأخذ عنه والاقتداء به، فلو كان ملكاً من الملائكة فإنهم لا يستطيعون رؤيته على هيئته الحقيقية فضلاً عن الأخذ منه، ثم أيضاً كل ما يفعله ذلك الملك، يقال فيه: هذا ملك ليس فيه شهوات وليس فيه كذا، فهو ليس محل الاقتداء بالنسبة إليهم.

ويحتمل معنىً أخص من هذا وهو أن يكون من أهل لسانهم، يعني من العرب وهذا الذي اختاره ابن جرير، ويمكن أن يستشهد له بقوله –تبارك وتعالى– في الآية الأخرى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ} [(٢) سورة الجمعة] فهذا الرسول في الأميين أمي مثلهم، وذلك ليكون مشاكلاً لأحوالهم يفهمون عنه، ولذلك يقولون إذا أردت قتل الفيلسوف فضعه بين العوام؛ لأن الفيلسوف يتكلم بكلام لا يفهمه الناس فهو يتكلم بأشياء يتفلسف فيها فإذا وضعته بين العامة يموت؛ لأنه لا يجد من يسايره حتى إن الناس يقولون عنه: إنه مجنون، فالأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– يعلمون الناس ويبلغونهم شرع الله –عز وجل– بطريقة تلائم الفطرة فيفهمونها، فهذه الأشياء التي جاء بها الأنبياء يتدين بها ويعمل بها الأعرابي في الصحراء وأهل الحضر في كل زمان ومكان، فهي كما يقول الشاطبي –رحمه الله–: شريعة أمية، فالحاصل أن الآية تحتمل هذا المعنى: {رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ} أي: من أهل لسانهم، أي من الأميين.

"كما قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا} [(٢١) سورة الروم] أي: من جنسكم، وقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} الآية [(١١٠) سورة الكهف]، وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ} [(٢٠) سورة الفرقان] وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى} [(١٠٩) سورة يوسف]، وقال تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ} [(١٣٠) سورة الأنعام] فهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته في فهم الكلام عنه، ولهذا قال تعالى: {يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ} [(١٦٤) سورة آل عمران]".

على كل حال في مثل هذا إذا احتملت الآية معنيين، وكان لكل معنىً ما يشهد له من القرآن ولا يوجد مانع يمنع من حمل الآية على هذه المعاني فإنها تحمل عليها جميعاً، فالله -عز وجل- يمتن على المؤمنين أن بعث فيهم رسولاً من أنفسهم، وهذا يشمل جميع أهل الإيمان العرب والعجم أن جاءهم رسول من البشر يستطيعون الأخذ منه والاقتداء به، وما أشبه ذلك، ويكون هذا الامتنان على العرب بصورة أخص حيث إنه موافق لهم، للغتهم وبلسانهم فتكون المنة عليهم بهذا البعث أعظم، وبناء على ذلك لا نحتاج أن نرجح فنقول: {رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ} أي: بلسانهم أو أنه من البشر، فالمنة حاصلة على المؤمنين جميعاً بهذا ولكنها أعلق بالعرب، ولذلك كلما كان الناس أخص برسول الله -صلى الله عليه وسلم- من ناحية القرب باللسان أو بالقبيلة كلما كانت المنة عليهم بذلك أكثر، فالمنة على قريش أكثر من المنة على غيرها، والمنة على العرب أكثر من العجم.

"ولهذا قال تعالى: {يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ} يعني القرآن {وَيُزَكِّيهِمْ} أي: يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، لتزكوَ نفوسهم وتطهر من الدنس والخبث الذي كانوا متلبسين به في حال شركهم وجاهليتهم".

يعني أن التزكية تحصل بالتطهير من الذنوب والأرجاس والشرك وما أشبه ذلك، كما تزكو بعمارة النفوس بتقوى الله تعالى، وتتخلص النفوس من الرواسب ومن الانحرافات بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولهذا قال ابن كثير: "**يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر**"، فهذا هو سبب تزكية النفوس بأن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، فيحصل أثر ذلك ونتيجته.

"{وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} يعني القرآن والسنة، {وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ} أي: من قبل هذا الرسول {لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ} أي: لفي غي وجهل ظاهر جلي بيِّن لكل أحد".

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٢٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ* وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ* الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(١٦٥-١٦٨) سورة آل عمران].

"يقول تعالى: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ} وهي ما أصيب منهم يوم أحد من قتل السبعين منهم {قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا} يعني يوم بدر، فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلاً، وأسروا سبعين أسيراً، {قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا} أي من أين جرى علينا هذا؟، {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [(١٦٥) سورة آل عمران].

روى ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- قال: لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، وفرَّ أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عنه، وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه فأنزل الله: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [(١٦٥) سورة آل عمران] بأخذكم الفداء".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

يقول تعالى: **{أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ}** [(١٦٥) سورة آل عمران] سبق الكلام أن الراجح في القرح الذي وقع بالمشركين هو ما حل بهم يوم بدر.

والرواية التي ذكرها الحافظ هنا عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وهي قوله: **"لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر"** فهذا في تفسير قوله -تبارك وتعالى- هنا: **{قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ}** [(١٦٥) سورة آل عمران] والذي عليه عامة المفسرين أن ذلك حينما عصى الرماةُ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- فنزلوا عن الجبل -أعني الرماة- لأخذ الغنيمة، فقوله: **{قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ}** [(١٦٥) سورة آل عمران] أي بمعصيتكم ومخالفتكم أمر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

وبعضهم يقول: **{قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ}** [(١٦٥) سورة آل عمران] أي: حينما أخذوا الأسارى والفداء منهم في يوم بدر، وأنهم خيروا بين أخذ الفداء وأن يقتل منهم مثل هذا العدد، فاختاروا أخذ الفداء، فهذا قول معروف، ولو صحت فيه الرواية أنهم خيروا هذا التخيير فيمكن أن يقال: **{قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ}** [(١٦٥) سورة آل

عمران] أي باختياركم السابق ومعصيتكم اللاحقة التي وقعت في يوم أحد، وإذا لم تصح الرواية فإن الفداء قد أباحه الله -عز وجل- لهم، وبناء على ذلك فإن الذي تشير إليه الآية: **{قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ}** [(١٦٥) سورة آل عمران] هو معصيتهم لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم أحد، والرواية التي إن صحت ليس المقصود بها ما جاء عن عمر -رضي الله عنه- وإنما هي الرواية التي ورد فيها التخيير والتي قالوا فيها: هؤلاء إخواننا...

وعموماً لو صحت هذه الرواية فيمكن أن يقال: إن قوله: **{قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ}** [(١٦٥) سورة آل عمران] أي بأخذكم الفداء الذي اخترتموه سابقاً يوم بدر ومعصيتكم اللاحقة في يوم أحد، لأن الله -عز وجل- قال: **{وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ}** [(١٥٢) سورة آل عمران] فالقرآن يفسر بعضه بعضاً، قال سبحانه: **{وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ}** [(١٥٢) سورة آل عمران] أي: صرفكم عنهم **{مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ}** [(١٥٢) سورة آل عمران]، فقوله: **{قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ}** [(١٦٥) سورة آل عمران] أي بمعصيتكم، كما قال الله -عز وجل-: **{مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}** [(٧٩) سورة النساء] وكما قال سبحانه: **{وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ}** [(٣٠) سورة الشورى].

فعلى كل حال هذه الآية: **{قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ}** [(١٦٥) سورة آل عمران] تفسر بمثل هذه الآيات، لكن لو صحت هذه الرواية المذكورة كما سبق، فيقال هذا وهذا، فكل ذلك سبَّب لهم هذا المصاب.

"وقال محمد بن إسحاق وابن جريج والربيع بن أنس والسدي: {قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ} [(١٦٥) سورة آل عمران] أي: بسبب عصيانكم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين أمركم ألا تبرحوا من مكانكم فعصيتم، يعني بذلك الرماة".

وهذا هو الذي عليه أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم.

"{إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(١٦٥) سورة آل عمران] أي: يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه.

ثم قال تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ} [(١٦٦) سورة آل عمران] أي: فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم لجماعة منكم، وجراحتهم لآخرين كان بقضاء الله وقدره وله الحكمة في ذلك".

الإذن في قوله تعالى: **{وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللّهِ}** [(١٦٦) سورة آل عمران] هو الإذن الكوني القدري قطعاً؛ لأن الله -عز وجل- لا يحب الكافرين، ولا يحب ظهورهم على أهل الإيمان، وإنما لحكمة قد يديل الكفار على المسلمين وينزل بالمسلمين ما ينزل من المكاره والمصائب وغلبة العدو وما أشبه ذلك، فهذه إرادة كونية لا تقتضي المحبة، وإنما التي تقتضي المحبة هي الإرادة الشرعية، فقوله: **{فَبِإِذْنِ اللّهِ}** يعني كوناً وقدراً حيث خلى بينكم وبين عدوكم فغُلبتم؛ لأنه لا يقع في حكم الله إلا ما يريد، ولو شاء لم يحصل ذلك.

"{وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ} [(١٦٦) سورة آل عمران] أي الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا".

المقصود بعلم الله في نظائر هذا هو علم تحقق الوقوع الذي يبنى عليه الجزاء، فالله يعلم المؤمنين من المنافقين ليجازي كلاً بعمله.

"**{وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ}** [(١٦٧) سورة آل عمران] **يعني أصحاب عبد الله بن أبي بن سلول الذين رجعوا معه في أثناء الطريق فاتبعهم من اتبعهم من المؤمنين، يحرضونهم على الإياب والقتال والمساعدة، ولهذا قال: {أَوِ ادْفَعُواْ}.**

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وأبو صالح والحسن والسدي: يعني كثِّروا سواد المسلمين، وقال الحسن بن صالح: ادفعوا بالدعاء، وقال غيره: رابطوا".

على كل حال هو ذكر القتال وما الذي يقال غير القتال من عون المسلمين بحضورهم للمعركة كتكثير السواد، فيرهب بذلك العدوُّ جانبَ المسلمين وما أشبه ذلك مما يحصل بالاجتماع، أو ادفعوا بما تستطيعون غير القتال على الأقل بنفقاتٍ ودعاء وتحريض وما أشبه ذلك بكل مستطاع.

قوله: **{قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ}** [(١٦٧) سورة آل عمران] المتبادر من معناها أنه: لن يحصل هناك قتال، فكل المؤشرات تدل على أنه لن تقع معركة فلا داعي أن نخرج، وبعضهم يقول: إن معنى: **{لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً}** يعني نحن لا نحسن القتال فاعذرونا فلسنا من أهل الحرب وأهل القتال، وليس ذلك من عملنا، وإنما الذين يحسنونه هم الذين يخرجون إلى العدو.

ويحتمل أن يكون معنى **{لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً}** أي: لو نعلم لنا محلاً للقتال ومكاناً في المعركة لاتبعناكم، ولكن هذا بعيد جداً، فهو أبعد من الذي قبله، والظاهر المتبادر -والله أعلم- أن المعنى أنه لن يكون هناك قتال" وبناء عليه لا داعي للحضور.

"**فتعللوا قائلين: {لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ}** [(١٦٧) سورة آل عمران] **قال مجاهد: يعنون لو نعلم أنكم تلقون حرباً لجئناكم، ولكن لا تلقون قتالاً، قال الله -عز وجل-: {هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ}** [(١٦٧) سورة آل عمران] **استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال فيكون في حال أقرب إلى الكفر وفي حال أقرب إلى الإيمان لقوله: هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ}** [(١٦٧) سورة آل عمران]".

هذا كما في الحديث: ((يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً))[1] أي تتقلب به الأحوال في يومه وليلته.

"**ثم قال تعالى: {يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ}** [(١٦٧) سورة آل عمران] **يعني أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته".**

هنا أضاف القول إلى الأفواه مع أن القول إنما يكون بالأفواه، فكما أنه يدل على التوكيد في مثل هذه المقامات فكذلك يدل هنا على أن مثل هذا القول لا يجاوز الأفواه، كما قال الله -عز وجل- في سورة النور: **{وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ}** [(١٥) سورة النـــور] فهو قول لا يجاوز الأفواه، فهو إفك وكذب مفترى لا حقيقة له في أرض الواقع، وإنما هو شيء يتفوه به الناس دون أن يكون له حقيقة.

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن (١١٨) (ج ١ / ص ١١٠) وأحمد (١٨٤٢٨) (ج ٥ / ص ٣٩٤).

"ومنه قولهم هذا: {لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ} [(١٦٧) سورة آل عمران] فإنهم يتحققون أن جنداً من المشركين قد جاءوا من بلاد بعيدة، يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من سراتهم يوم بدر وهم أضعاف المسلمين وأنه كائن بينهم قتال لا محالة، ولهذا قال تعالى: {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ} [(١٦٧) سورة آل عمران].

وقوله: {الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا} [(١٦٨) سورة آل عمران] أي: لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل، قال الله تعالى: {قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(١٦٨) سورة آل عمران] أي: إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت فينبغي أنكم لا تموتون، والموت لا بد آتٍ إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين.

قال مجاهد عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما-: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي بن سلول".

مثل هذا التعبير يدل على أنه ممن نزلت فيه الآية، وإلا فالآية أعم من هذا، فكل من قال هذه المقالة فهو داخل في هذا، فأشرافهم وسراتهم في هذا سواء..

"{وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ* فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ* يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ* الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ* الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ* فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ* إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(١٦٩-١٧٥) سورة آل عمران].

يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا في هذه الدار فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار.

روى مسلم في صحيحه عن مسروق قال: سألْنا عبد الله -رضي الله تعالى عنه- عن هذه الآية: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [(١٦٩) سورة آل عمران] فقال: أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ فقالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يُسألوا، قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا))[2] وقد روي نحوه عن أنس وأبي سعيد -رضي الله تعالى عنهما-".

هذه الآية تفسرها الآية الأخرى: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ} [(١٥٤) سورة البقرة] فتلك الآية تفسر هذه، وتبين أن هذه الحياة التي يحياها الشهداء لا تدخل تحت إدراكنا،

2 - أخرجه مسلم في كتاب الإمارة - باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون (١٨٨٧) (ج ٣ / ص ١٥٠٢).

ولذلك قال: **{وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ}** [(١٥٤) سورة البقرة] لأن الشعور المقصود به الإدراك فإذا ارتفع شعور الإنسان معنى ذلك أنه ارتفع إدراكه، فنحن لا نشعر بهذا ولا ندرك طبيعة هذه الحياة، لما حجب عنا في هذه الدنيا، من هذه الأمور الغيبية، فهي حياةٌ الله -عز وجل- أعلم بها لا تدخل تحت نطاق شعورنا، لكنهم أحياء والله يقول: لا تقولوا أمواتاً إنما هم أحياء، لكن ذلك لا يدخل تحت إدراككم، يعني لمّا أزهقت نفوسهم في سبيل الله وحصل لهم هذا التلف في الأبدان وبذلوا المُهج عوضهم الله -عز وجل- الحياة الكاملة التي لا تقارن بهذه الحياة، فإذا رأوا ذلك تمنوا أن يرجعوا فيقتلوا، وهذه هي أمنيتهم الوحيدة.

"وروى الإمام أحمد عن أنس -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرها أن ترجع إلى الدنيا إلا الشهيد فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لما يرى من فضل الشهادة))[3] [انفرد به مسلم]".

هنا يقول: **((لها عند الله خير))** ولهذا في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ}** [(١٠) سورة المنافقون] قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: "ما من أحد يكون عليه حق لله تعالى -يعني في المال- لا يؤديه إلا تمنى الرجعة عند الموت"، فقالوا له: اتق الله يا ابن عباس فإنه لا يتمنى الرجعة أحد له خير عند الله إلا الشهيد، فقرأ عليهم ابن عباس هذه الآية: **{وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ}** [(١٠) سورة المنافقون] فالإنسان المقصر في الحقوق المالية يتمنى أن يرجع ليتصدق ويبذل.

"وروى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترِد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن متقلبهم قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا؛ لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله -عز وجل-: أنا ابلغهم عنكم، فأنزل الله -عز وجل- هذه الآيات: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} وما بعدها))[4] هكذا رواه أحمد، وكذا قال قتادة والربيع والضحاك أنها نزلت في قتلى أحد.

وروى أبو بكر بن مردويه عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- قال: نظر إليَّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ذات يوم فقال: ((يا جابر ما لي أراك مهتماً)) قال: قلت: يا رسول الله، استشهد أبي وترك ديناً وعيالاً، قال: فقال: ((ألا أخبرك، ما كلم اللهَ أحدٌ قط إلا من وراء حجاب وإنه كلم أباك كَفاحاً)) قال علي: الكَفاح المواجهة".

يعني أنه كلَّمه مباشرة من غير واسطة، وظاهره أن ذلك من غير حجاب أيضاً.

---

[3] - أخرجه مسلم في كتاب الإمارة - باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى (١٨٧٧) (ج ٣ / ص ١٤٩٨).

[4] - أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد - باب في فضل الشهادة (٢٥٢٢) (ج ٢ / ص ٣٢٢) وأحمد (٢٣٨٨) (ج ١ / ص ٢٦٥) والحاكم (٢٤٤٤) (ج ٢ / ص ٩٧) وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٢٥٢٠).

"**((قال: سلني أعطك، قال: أسألك أن أردَّ إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية فقال الرب -عز وجل-: إنه قد سبق مني القول: أنهم إليها لا يرجعون، قال: أي ربِّ فأبلغ من ورائي)) فأنزل الله: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا} الآية**[٥].

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء..))".

بعضهم يفسر قوله: **((على بارق نهر))** يعني أول النهر ومطلع النهر ومبتدأ النهر عند باب الجنة أي الموضع الذي يلوح فيه النهر أو يبرق فيه النهر عند باب الجنة، وكأنه يكون له شيء من اللمعان والبريق والله أعلم.

"**قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً)) تفرد به أحمد وقد رواه ابن جرير وهو إسناد جيد**[٦]".

وحسنه أيضاً الذين حققوا مسند الإمام أحمد، وعلى كل حال هذا الحديث مع الأحاديث الأخرى التي تذكر أنهم في حواصل جوف طير خضر تأوي إلى قناديل.. إلى آخره يمكن أن يقال: إن هذا يختلف باختلاف أحوالهم، ربما يكون ذلك -والله أعلم- فبعضهم هكذا وبعضهم هكذا، وقد يكون لهم هذا وهذا فالله -عز وجل- على كل حال يكرمهم بألوان من النعيم أخبر عن بعضه في مثل هذه النصوص.

"**وكأن الشهداء أقسام منهم من تسرح أرواحهم في الجنة ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة، وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر فيجتمعون هنالك ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراح، والله أعلم**".

هنا ذكر وجهين للجمع بين هذا وبين أنها في أجواف طير، إما أن هذا يختلف باختلاف أحوال الشهداء فمنهم من يكون كذا ومنهم من يكون كذا، أو أن هذا من الأمور التي يعطيهم الله -عز وجل- إياها فهم في بعض الأطوار يكونون في أجواف طير خضر وقد يفضون إلى مكان كهذا يتنعمون به، فالله أعلم.

"**وقد روينا في مسند الإمام أحمد حديثاً فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضاً فيها**".

هنا يشير إلى بعض الأحاديث التي تذكر أن أرواح المؤمنين أيضاً في الجنة وأن ذلك لا يختص بالشهداء، ولكن أرواح الشهداء في جوف طير خضر، وهذا هو الفرق، والله أعلم.

"**بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضاً فيها وتأكل من ثمارها، وترى ما فيها من النضرة والسرور**".

عالم الأرواح وكلام أهل العلم فيه وأين أرواح المؤمنين، هل هي على أفنية القبور أو في القبور أو في الجنة أو لها أحوال تنتقل في العالم العلوي وترجع إلى القبور أو غير ذلك، إذا نظرت إلى الأدلة تجد منها ما يدل

---

[5] - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - باب تفسير سورة آل عمران (٣٠١٠) (ج ٥ / ص ٢٣٠) وابن ماجه في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم - باب فيما أنكرت الجهمية (١٩٠) (ج ١ / ص ٦٨) وحسنه الألباني في سنن الترمذي برقم (٣٠١٠).

[6] - أخرجه أحمد (٢٣٩٠) (ج ١ / ص ٢٦٦) وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

على أنه ينعم في القبر حيث يفتح له نافذة إلى الجنة فيأتيه من روحها ونعيمها، وهناك أدلة يفهم منها أن أرواحهم في الجنة، وعلى كل حال هذه أمور غيبية، فقد يكون للأرواح أحوال وتنقلات مع اتصال بالجسد لا ندركه وهذا الاتصال لا تحصل به الحياة المعروفة لدينا في الدنيا من حركة الجسد فهذه أمور الله -عز وجل- أعلم كيف تكون.

"وتشاهد ما أعده الله لها من الكرامة، وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم. اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة؛ فإن الإمام أحمد -رحمه الله- رواه عن محمد بن إدريس الشافعي -رحمه الله- عن مالك بن أنس الأصبحي -رحمه الله- عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه))[7]".

في هذا الحديث يذكر أن نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة، وذكر هناك أن أرواح الشهداء في جوف طير خضر، فقوله: ((طائر يعلق)) من أهل العلم من أخذه بظاهره، وقال: إنها تكون بهذه المثابة، أي أنها تكون على هيئة طائر يطير في الجنة وليست في جوف طير خضر كأرواح الشهداء، فهؤلاء طائر يعلق في شجر الجنة، وأولئك في جوف طير خضر يأوون إلى قناديل معلقة بالعرش.

"وفي هذا الحديث: إن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة، وأما أرواح الشهداء فكما تقدم".

هذا الكلام لابن كثير يريد به تبيين المعنى المراد من الحديث وليس رواية أخرى، فهو فسرها بأنها تكون على هيئة طائر، وهذا قال به كثير من السلف، وبعضهم يقول: إن الروح طائر يعلق بأنهار الجنة، فقيل لها طائر بهذا الاعتبار، لكن الظاهر المتبادر هنا أنها تكون على صورة أو على هيئة طائر يعلق بأشجار الجنة، وابن القيم له كلام كثير في هذا من شاء فليراجعه.

"وفي هذا الحديث: إن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة، وأما أرواح الشهداء فكما تقدم في حواصل طير خضر، فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين فإنها تطير بأنفسها، فنسأل الله الكريم المنان أن يثبتنا على الإيمان".

يقول: "**فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين**" لأنها تأوي إلى قناديل معلقة بالعرش.

"وقوله تعالى: {فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ} إلى آخر الآية [(١٧٠) سورة آل عمران] **أي: الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله أحياء عند الله، وهم فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة ومستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله أنهم يقدمون عليهم وأنهم لا يخافون مما أمامهم، ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم، نسأل الله الجنة".**

قوله في الآية: **{وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ}** [(١٧٠) سورة آل عمران] هل هم يستبشرون بمن سيقتل في سبيل الله أنه سيلحق بهم؟

---

7 - أخرجه أحمد (١٥٨١٦) (ج ٣ / ص ١٥٨١٦) وإسناده صحيح كما قال شعيب الأرنؤوط.

هذا تحتمله الآية، وهو الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- كما أن الآية تحتمل معنىً آخر وهو أنهم يستبشرون بإخوانهم المؤمنين وما هم عليه من الإيمان وصلاح العمل؛ فهو الأمر الذي يفضي بهم إلى الجنة، فالآية تحتمل هذا وتحتمل هذا..

"وقد ثبت في الصحيحين عن أنس -رضي الله تعالى عنه- في قصة أصحاب بئر معونة السبعين من الأنصار الذين قتلوا في غداة واحدة، وقنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على الذين قتلوهم يدعو عليهم ويلعنهم، قال أنس ونزل فيهم قرآن قرأناه حتى رفع (أن بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا)".

قوله: "**(أن بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا)**" هذا مما نسخت تلاوته وبقي حكمه.

"ثم قال تعالى: {يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} [(١٧١) سورة آل عمران]، قال محمد بن إسحاق: استبشروا وسروا لمَا عاينوا من وفاء الموعود وجزيل الثواب، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم سواء الشهداء وغيرهم، وقلَّما ذكر الله فضلاً ذكر به الأنبياء وثواباً أعطاهم إياه إلا ذكر ما أعطى الله المؤمنين من بعدهم".

يعني هنا في قوله: **{يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ}** [(١٧١) سورة آل عمران] بعضهم يقول: النعمة ما ينعم الله به على عباده عموماً، والفضل هو الأمر الزائد، أو ما يتفضل الله -عز وجل- به عليهم، وبعضهم يقول: النعمة هي الثواب، وهذا لا يعارض الأول؛ لأن ما ينعَّمون به هو من الثواب، وعلى كل حال، فالاستبشار الأول الذي في قوله: **{وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ}** [(١٧٠) سورة آل عمران] هذا الاستبشار إنما هو بإخوانهم الذين لم يلحقوا بهم، والاستبشار الثاني الذي في قوله: **{يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ}** [(١٧١) سورة آل عمران] أي أنهم يستبشرون بما حصل لهم من النعيم.

وعلى كل حال الآية: **{يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ}** [(١٧١) سورة آل عمران] فيها قراءة أخرى متواترة وهي قراءة الكسائي بكسر همزة إن: (وإن الله لا يضيع أجر المؤمنين)، فعلى القراءة الأولى التي عليها أكثر القراء: **{وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ}** [(١٧١) سورة آل عمران] يكون ذلك من جملة ما استبشروا به، يعني: أنهم يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجرهم، يعني من جملة ما يستبشرون به أن الله لا يضيع أجر المؤمنين، وعلى قراءة الكسر يكون ذلك من قبيل الاستئناف، ومعلوم أن الآية إن كان لها قراءتان فأكثر وكل قراءة لها معنىً يخصها فإن القراءتين بمنزلة الآيتين، فهم يستبشرون بأن الله لا يضيع أجر المؤمنين، والآية أيضاً على قراءة الكسر تقرر هذا المعنى وتؤكده؛ لأن "إنَّ" بمنزلة إعادة الجملة مرتين فهي للتوكيد.

وقوله هنا عن عبد الرحمن بن زيد: "**هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم**" أي لأنه قال: **{وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ}** [(١٧١) سورة آل عمران] سواء كانوا شهداء أو غير شهداء، هذا هو معنى الكلام.

يقول: "**سواء الشهداء أو غيرهم، وقلَّما ذكر الله فضلاً ذكر به الأنبياء**" هنا لم يذكر الأنبياء لكن معلوم أن حال الأنبياء أكمل من حال الشهداء.

يقول: "**وثواباً أعطاهم إياه إلا ذكر ما أعطى الله المؤمنين من بعدهم**" هو هنا يريد أن يقرر أن ما يذكره الله -عز وجل- لأصحاب المراتب العالية من أهل الإيمان، كالأنبياء فالغالب أن الله يذكر ثواب عموم المؤمنين، وهنا لم يذكر الأنبياء لكن ذلك من باب التنبيه على معنىً يتكرر، فلما ذكر جزاء الشهداء ذكر جزاء عموم المؤمنين، أو ذكر معنىً يتصل بعموم أهل الإيمان، هذا هو معنى كلامه وإلا فالآية ليس فيها ذكر للأنبياء.

"**وقوله تعالى: {الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ} [(١٧٢) سورة آل عمران] هذا كان يوم حمراء الأسد، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين كرُّوا راجعين إلى بلادهم، فلما استمروا في سيرهم تندموا لم لا تمموا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة، فلما بلغ ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعبهم وليريهم أن بهم قوة وجلداً، ولم يأذن لأحد سوى من حضر الوقعة يوم أحد، سوى جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- لما سنذكره.**

فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان طاعة لله -عز وجل- ولرسوله -صلى الله عليه وسلم-.

روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: لما رجع المشركون عن أحد قالوا: لا محمداً قتلتم ولا الكواعب أردفتم، بئس ما صنعتم، ارجعوا، فسمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بذلك فندب المسلمين فانتدبوا حتى بلغ حمراء الأسد أو بئر أبي عيينة -الشك من سفيان-".

قوله: "**فندب المسلمين فانتدبوا**" يعني حثهم على الخروج فخرجوا.

"**فقال المشركون: نرجع من قابل، فرجع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فكانت تعد غزوة، فأنزل الله تعالى: {الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [(١٧٢) سورة آل عمران].**

وروى البخاري عن عائشة -رضي الله تعالى عنها-: {الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ} الآية، قلت لعروة: يا ابن أختي كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر -رضي الله تعالى عنهما- لما أصاب النبي -صلى الله عليه وسلم- ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا، فقال: ((من يرجع في إثرهم؟))".

قالت: "**يا ابن أختي كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر**" عروة بن الزبير أبوه الزبير وجده أبو بكر الصديق لأمِّه، فأمه هي أسماء بنت أبي بكر، فهي أرادت إخباره أن أباه وجده من أمه كانا من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح.

"**فانتُدب منهم سبعون رجلاً فيهم أبو بكر والزبير -رضي الله تعالى عنهما- هكذا رواه البخاري منفرداً بهذا السياق[٨].**

وقوله تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً} الآية [(١٧٣) سورة آل عمران] أي: الذين توعدهم الناس بالجموع وخوفوهم بكثرة الأعداء، فما اكترثوا لذلك بل توكلوا على الله واستعانوا به {وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [(١٧٣) سورة آل عمران]".

---

[8] - أخرجه البخاري في كتاب المغازي - باب:{الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ} [(١٧٢) سورة آل عمران] (٣٨٤٩) (ج ٤ / ص ١٤٩٧).

هذه الآيات عظيمة جداً تحمل معانيَ كبيرة، ولو أن الناس تأملوا فيها لم يكن حال المسلمين على ما نحن عليه الآن، ومشكلة هؤلاء الذين يكذبون على الله -عز وجل- ليست مع شيء إلا مع القرآن، نعم مشكلتهم مع القرآن، فما عليهم إلا أن يخرجوا نسخة مختصرة يحذفون فيها كل هذه الآيات ليقولوا: الإسلام دينُ إذا لطمك على خدك الأيمن أدِر له خدك الأيسر.

هذه الآيات قدرها نحو ستين آية كلها تتحدث عن وقعة واحدة فقط، فيها ترغيب للمؤمنين بالجهاد، وحث لهم على نصرة دين الله -عز وجل-، وبعد ذلك يأتي من يكذب على الله -عز وجل- ويقول: الإسلام ليس فيه هذا، ويلفقون زوراً من القول بهتاناً وباطلاً يناقض صريح الإيمان؛ وذلك أنه في وقت الهزيمة تظهر قرون النفاق والمنافقين -لا كثَّرهم الله-.

ولا بد أن نعلم أن الجهاد شيء والسفه الذي يحصل هنا وهناك شيء آخر، فالجهاد الحقيقي الذي هو قتال أعداء الله -عز وجل-، فهذا ماضٍ إلى يوم القيامة، لن يستطيع أحد أن يوقفه أو يبطله كائناً من كان، فالجهاد الحقيقي قائم وموجود في هذا الزمان وفي كل زمان، أما الانحرافات وما يحصل من الخروج عن الجهاد المشروع من بعض الذين ينتسبون إليه، فهؤلاء لا يمثلون إلا أنفسهم وجنايتهم على أنفسهم، وخطؤهم وانحرافهم مردود عليهم، لكن لا يلصق هذا بالإسلام ولا يلصق بالجهاد في سبيل الله -عز وجل- ويقال: هذا حال الجهاد، ليس هذا حال الجهاد وإنما هو نوع من الانحراف والإفساد في الأرض، وهذا ينبغي أن يعرفه الناس.

وما نسمع أحياناً من بيانات وتصريحات من بعض المنتسبين للجهاد الذين يحرضون فيه على شيء يحسبونه جهاداً فهذا نوع من الإفساد في الأرض وهو خروج عن مقتضى العقل والنقل، وإشاعة الفوضى والإفساد في الأرض، وهو مرفوض، لكن الجهاد الحقيقي -جهاد أعداء الله- فهذا ماضٍ إلى يوم القيامة ولن يستطيع أحد أن يوقفه مهما اجتمع أهل الأرض؛ فعندنا أصل كبير في هذا وهو أن الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، ونحن مطمئنون لهذا كل الاطمئنان، فينبغي أن نفرق بين هذا وبين غيره، فالناس بحاجة إلى هذا التفريق وإلى أن يعرفوا حقائق ما أنزل الله -عز وجل-؛ لأن الناس إذا سكتوا عن بيان الحق وتُرِك لكل كاتب ومزوِّر وأفَّاك أن يتكلم وينظِّر فمتى يعرف الناس الحق؟

كما أنه لا يصح السكوت أيضاً عن الخطأ والانحراف، وإنما على الإنسان أن يتكلم بعلم وعدل، وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يتكلم بحق فليسكت ولا يتكلم بالباطل، والله المستعان.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٢٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى-:

"وقوله تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً} [(١٧٣) سورة آل عمران] الآية، أي الذين توعدهم الناس بالجموع وخوفوهم بكثرة الأعداء فما اكترثوا لذلك بل توكلوا على الله واستعانوا به.

{وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [(١٧٣) سورة آل عمران] روى البخاري عن ابن عباس: {حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [(١٧٣) سورة آل عمران] قالها إبراهيم -عليه السلام- حين ألقي في النار، وقالها محمد -صلى الله عليه وسلم- حين قالوا: {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [(١٧٣) سورة آل عمران][1].

وروى أبو بكر بن مردويه عن أنس بن مالك عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قيل له يوم أُحد: إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فأنزل الله هذه الآية ولهذا قال تعالى: {فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ} [(١٧٤) سورة آل عمران] أي: لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم، وردَّ عنهم بأس من أراد كيدهم، فرجعوا إلى بلدهم بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء مما أضمر لهم عدوهم".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ}** [(١٧٣) سورة آل عمران] هذا مثال عند الأصوليين حينما يذكرون العام المراد به الخصوص، وهو استعمال اللفظ العام في معنىً خاص، وذلك إذا فسرت هذه الآية: **{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ}** باعتبار أن القائل واحد وهو: أبو سفيان، أو من أرسله أبو سفيان وهو نعيم بن مسعود مثلاً، أو غير ذلك مما قيل، فالمقصود أن القائل واحد، وهكذا الأمر في قوله: **{الَّذِينَ}** فهو اسم موصول، والأسماء الموصولة تعتبر من صيغ العموم، لكن قيل: إن المقول له ذلك واحد وهو أبو بكر الصديق -رضي الله تعالى عنه- وعلى كل حال هذا مثال مشهور يذكرون فيه هذا الأمر، لكن ليس بالضرورة أن يكون هذا هو المراد، فقد يكون من العام الباقي على عمومه، فقوله: **{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ}** أي الذين توعدهم من لقيهم من الناس من أهل الإشراك وقائدُهم أبو سفيان **{إِنَّ النَّاسَ}** أي: المشركين من قريش الذين حاربوكم في أحد، **{قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ}** أي عزموا على الكرة والرجوع إلى استئصالكم، فيكون بهذا الاعتبار من العام الباقي على عمومه، لا سيما في قوله: **{إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ}** [(١٧٣) سورة آل عمران]، وأما قوله: **{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ}** فيمكن هنا أن يكون ذلك أظهر في أن القائل واحد، والله أعلم.

---

1 - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة آل عمران (٤٢٨٧) (ج ٤ / ١٦٦٢).

وقوله -تبارك وتعالى-: {فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ} [(١٧٤) سورة آل عمران] النعمة هي ما يحصل للإنسان من المنافع والخير، سواء كان ذلك في الأمور العاجلة أو في الأمور الآجلة فذلك كله من النعم، وسواء كان معنوياً أو حسياً.

وقوله: {وَفَضْلٍ} الفضل هو الزيادة، فسواء قيل: إن النعمة: هي السلامة مثلاً، أي أن الله سلمهم من عدوهم فهاب ورجع، ولهذا قال بعده: {لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ} [(١٧٤) سورة آل عمران] والفضل: هو الثواب والأجر، بأن عُدت تلك غزوة مع أنهم لم يواجهوا فيها عدواً، أو قيل بأن النعمة هي رحمة الله -عز وجل- وثوابه لهم، والفضل هو الزيادة وذلك أنهم لقوا عيراً في الطريق في الموسم فاشتروا تلك العير فكان ذلك من المكاسب التي حصلت لهم عرَضاً، فكل ذلك تحتمله الآية.

ويمكن أن يكون المراد بهذه النعمة هي أن الله سلمهم، والفضل هو أن الله أثابهم مع أنهم لم يلقوا حرباً ولذلك قال بعده: {لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ} [(١٧٤) سورة آل عمران] والله تعالى أعلم.

"وروى البيهقي عن ابن عباس في قول الله تعالى: {فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ} [(١٧٤) سورة آل عمران] قال: النعمة أنهم سلموا والفضل أن عيراً مرَّت وكانت في أيام الموسم فاشتراها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فربح فيها مالاً فقسمه بين أصحابه.

ثم قال تعالى: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ} [(١٧٥) سورة آل عمران] أي: يخوفكم أولياءه ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة".

{إِنَّمَا ذَلِكُمُ} أي: المثبط لكم هو الشيطان، والمعنى أن الشيطان يضخِّم الكفار في أعينكم ويجعل لهم هالة، ويجعل منهم أصحاب قوة لا يمكن أن تُدحر ولا تقهر ولا تهزم، فهذا هو الشيطان الذي يجعل لهم مثل هذا الانتفاش والتعاظم، أو العظمة في نظر الآخرين.

والمعنى المتبادر الظاهر -والله أعلم- في قوله: {يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ} أي: يخوفكم من أوليائه، وأولياؤه هم الكفار، فالشيطان يخوف المؤمنين منهم بأن يلقي في نفوسهم أموراً يتعاظمون فيها قوة الكفار وما بأيديهم حتى يشعرهم أن هؤلاء الكفار قوة لا يمكن أن تواجه ولا تقهر.

فالحاصل أن هذا هو المعنى، وليس معناها أن الشيطان يخوف ويلقي الرعب والخوف في قلوب أوليائه، فليس هذا هو المراد، بل هو يحرضهم على الإقدام على أهل الإيمان، كما حصل في بدر لما زين لهم أعمالهم، وقال: {وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ} [(٤٨) سورة الأنفال] فهو الذي دفعهم إلى المواجهة.

وقوله: {يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ} أبلغ من قوله: إنما ذلكم الشيطان يخوفكم أولياءه؛ لأن قوله: {يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ} معناه أنه يجعل لأوليائه من الهالة والعظمة بحيث إن جانبهم يكون مهيباً مرهوباً فيرفعهم بهذا، فيحسب المؤمنون لهم حساباً ولا يجترئون على مواجهتهم.

فالمقصود أن المعنى الظاهر المتبادر من قوله: {يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ} أنه يخوف المؤمنين من أوليائه لا أنه يخوف أولياءه من المؤمنين أو من غير ذلك؛ لأنه من المعلوم أن الشيطان لا يخوف أولياءه، وإنما يدفعهم ويشجعهم على المضي لحرب أهل الإيمان، فهو لا يلقي الخوف في قلوبهم، وإنما يجتهد أن يلقي الخوف في قلوب المؤمنين، وهذا عام في الجهاد في سبيل الله -عز وجل- وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

حيث يجعل لصاحب الباطل والمنكر عظمة غير حقيقية ولو كان من أقل الناس شأناً بحيث لا يجترئ عليه المؤمن أحياناً إذا قبل عن الشيطان هذا التأثير والإلقاء، وهكذا يلقي في قلبه مهابة من هذا الإنسان ويجعل في نفسه من الخواطر والوساوس ما يجعله ينصرف عن الإنكار عليه، فلذلك ترى الإنسان أحياناً يجد إنساناً بجانبه يأكل ويتكئ على يده أو يشرب بيده اليسرى ولا يجترئ حتى على أن ينبهه، وتراه يجلس في المجلس ويسمع الغيبة أصرح ما تكون والاستطالة في الأعراض وربما الذي يقوم بهذا من أبسط الناس ومع ذلك لا يجترئ أن يقول: كف عن أعراض الناس اتق الله، فيسكت ويجامل ويداهن، وهذا كله من الشيطان، يقول له: إذا أنكرت فإن هذا الإنسان قد يسيء إليك أو قد يحصل مفسدة أكبر، أو هذا الإنسان قد يقاطعك أو يفهم هذا على غير مرادك، فيترك الإنسان مثل هذه الأشياء، وأحياناً يصلي بجانبه إنسان يرى عليه ألوان المنكرات فلا يكلمه، وأحياناً يراه لا يعرف يصلي فلا يجترئ على أن يكلمه ولو كان من أبسط الناس، والله المستعان.

"قال الله تعالى: {فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [(١٧٥) سورة آل عمران] أي: إذا سوّل لكم وأوهمكم فتوكلوا عليّ والجئوا إليّ فإني كافيكم وناصركم عليهم، كما قال تعالى: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ} [(٣٦) سورة الزمر] إلى قوله: {قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} [(٣٨) سورة الزمر] وقال تعالى: {فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} [(٧٦) سورة النساء] وقال تعالى: {أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [(١٩) سورة المجادلة]، وقال تعالى: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [(٢١) سورة المجادلة]، وقال: {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ} [(٤٠) سورة الحج] وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ} الآية [(٧) سورة محمد]، وقال تعالى: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ* يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [(٥١-٥٢) سورة غافر].

يقول تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر، وذلك من شدة حرصه على الناس، وكان يحزنه مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق فقال تعالى: لا يحزنك ذلك، إنهم لن يضروا الله شيئاً".

يقول تعالى: **{وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ}** [(١٧٦) سورة آل عمران] وفي قراءة نافع: (ولا يحزِنُك) وهما لغتان، والمعنى واحد.

فقوله -تبارك وتعالى- هنا: **{وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ}** [(١٧٦) سورة آل عمران] من هم الذين يسارعون في الكفر، ونهي النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الحزن عليهم؟ هل هم الذين يرتدون على أدبارهم؟ أو هم الكفار بجميع أنواعهم فهم استمرءوا الكفر وهم مستمرون عليه ويزدادون منه حيناً بعد حين؟ أو أن المراد بهم أ هل النفاق؟

الآية تحتمل هذه المعاني كلها، وابن جرير -رحمه الله- يحملها على المنافقين، والآية يدخل فيها أهل النفاق فهم يسارعون في الكفر، ويدخل فيها أيضاً من ارتد عن دينه فهو يسارع إلى الكفر، ويدخل فيها طوائف الكفار من أهل الكتاب الذين أنكروا ما عرفوا من أحقية ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم- فكفروا وازدادوا كفراً على كفرهم، ويدخل فيها أهل الإشراك الذين لم يألوا جهداً في صد دعوة النبي -صلى الله

عليه وسلم- والكيد لها بكل مستطاع، فكل هؤلاء يسارعون في الكفر، فهذه الآية تفسرها الآيات الأخرى، التي نهاه الله -عز وجل- فيها عن الحزن عليهم وألا يكون في ضيق مما يمكرون وهي قوله تعالى: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [(٦) سورة الكهف] أي: مُهلك نفسك أسفاً وحسرة عليهم أنهم لم يؤمنوا ولم يقبلوا هذا الحق الذي جئت به، فكل هؤلاء والله أعلم ممن يسارعون في الكفر.

وابن كثير هنا حملها على مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد، لكنه لا يعني أن أهل النفاق بمنأى عن هذا؛ فأهل النفاق في الواقع كفار في الباطن، وهم يسارعون في الكفر كما هو معلوم، فحملْها على المعنى الأعم هو ما مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- وهذا أولى من حملها على المنافقين.

"فقال تعالى: لا يحزنك ذلك، إنهم لن يضروا الله شيئاً؛ {إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ} [(١٧٦) سورة آل عمران] أي: حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته ألا يجعل لهم نصيباً في الآخرة، {وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [(١٧٦) سورة آل عمران]".

يعني أن مجيء الكفار إلى المسلمين في أُحد وقتل هؤلاء الصحابة وما حصل على يد الكفار، هذا كله من المسارعة في الكفر، ونفاق المنافقين الذي نجم ذلك الحين كله من المسارعة في الكفر، وكلامهم واعتراضهم بقولهم: {لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ} [(١٥٦) سورة آل عمران] وقولهم: {لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا} [(١٦٨) سورة آل عمران] وما أشبه ذلك، كل ذلك من المسارعة في الكفر.

وقوله تعالى: {يُرِيدُ اللّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ} [(١٧٦) سورة آل عمران] هذه كما يقول الله -عز وجل-: {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [(١٨٣) سورة الأعراف] وكقوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ} [(١٧٨) سورة آل عمران] فهذا بمعنى أن الله يريد ألا يكون لهم نصيب في الآخرة، فالله -تبارك وتعالى- لو شاء لأهلكهم ولو شاء لآمنوا جميعاً، ولكن حكمته -سبحانه وتعالى- أنه يملي لهم فيزدادون كفراً إلى كفرهم فيكون ذلك سبباً لمحقهم وذهاب نصيبهم عند الله -عز وجل-.

"ثم قال تعالى مخبراً عن ذلك إخباراً مقرراً: {إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ} أي: استبدلوا هذا بهذا {لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئًا} أي: ولكن يضرون أنفسهم {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [(١٧٧) سورة آل عمران]".

حتى هذه الآية ابن جرير -رحمه الله- يحملها على المنافقين مع أن الآية أعم من هذا كما قال الله -عز وجل- في أول سورة البقرة: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى} [(١٦) سورة البقرة] وكقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ} [(٤٤) سورة النساء].

فالحاصل أن كل هؤلاء الكفار وكذا أهل النفاق قد اشتروا الضلالة بالهدى، واشتروا الكفر بالإيمان، وسبق الكلام على معنى الاشتراء أنه المعاوضة، وبيّنا أن هؤلاء لم يكن عندهم الإيمان أصلاً، وأن المراد بذلك هو أنهم آثروا الكفر على الإيمان واختاروه فصحَّ أن يعبر عن ذلك بالشراء.

"ثم قال تعالى: {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ} [(١٧٨) سورة آل عمران] كقوله: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ* نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ} [(٥٥-٥٦) سورة المؤمنون]".

على كل حال قوله:{**وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ**} في القراءة الأخرى المتواترة قراءة حمزة: (ولا تحسبن)، فلا يحسبن يكون الخطاب موجهاً للكفار أو الذين يسارعون في الكفر، أي عموم طوائف الكفار، وعلى القراءة الثانية: (ولا تحسبن) يكون الخطاب موجهاً للنبي –صلى الله عليه وسلم–، وبالتالي يكون الخطاب متوجهاً لأمته وأتباعه أيضاً؛ لأن الأمة تُخاطَب في شخص رسول الله –صلى الله عليه وسلم–.

"وكقوله: {فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ} [(٤٤) سورة القلم] وكقوله: {وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [(٨٥) سورة التوبة]".

على كل حال في قوله: {**إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا**} [(١٧٨) سورة آل عمران] الإملاء يقصد به الإمهال والإطالة في العمر، أي: يطول عمره ويسوء عمله، والله أعلم.

"ثم قال تعالى: {مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} [(١٧٩) سورة آل عمران] أي: لا بد أن يعقد سبباً من المحنة".

قوله تعالى: {**مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ**} الخطاب هنا موجه لمن؟ بعضهم يقول: هذا الخطاب للمؤمنين.

وقوله: {**حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**} [(١٧٩) سورة آل عمران] أي حتى يتمحَّص أهل الإيمان ويتبيّن المؤمن الصادق من المنافق.

وبعضهم يقول: هذا الخطاب للمؤمنين والمنافقين ممن أظهر الانتساب إلى الإسلام، وأعلن الإيمان، والمعنى يا من تنتسبون إلى الإسلام وتظهرون اتباع الرسول –صلى الله عليه وسلم– وقبول ما جاء به ستقع بكم مثل هذه البلايا والهزائم والكوارث والآلام فتتكشف في أوقات الشدائد حقائق مكنونات النفوس وتظهر، فيعرف هذا ويعرف هذا.

وبعضهم يقول: هذا الخطاب موجه للكفار، وعلى هذا يكون المعنى {**مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ**} أي على ما أنتم عليه أيها الكفار من الكفر حتى يميز الخبيث من الطيب، وهذا بعيد بل هو أبعد هذه الاحتمالات.

والحاصل أن الخطاب متوجه إلى أمة الإجابة، وأمة الإجابة هذه مختلطة، ففيهم الصادق فيما أظهر من الإجابة وفيهم الكاذب وفيهم ضعيف الإيمان، فالله وعدهم بالابتلاء كما قال تعالى: {**لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ**} [(١٨٦) سورة آل عمران] وكما قال تعالى: {**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ**} [(٣١) سورة محمد] وقال تعالى: {**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**} [(١٤٢) سورة آل عمران] وقال تعالى: {**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ**} [(٢١٤) سورة البقرة] فهذا كله لا بد منه، فهو أمر واقع يتميز به الصف.

"أي لا بد أن يعقد سبباً من المحنة يُظهر فيه وليه ويفتضح فيه عدوه، ليعرفوا به المؤمن الصادق والمنافق الفاجر، يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن الله به المؤمنين فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم

وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله -صلى الله عليه وسلم- وهتك به ستر المنافقين فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله -صلى الله عليه وسلم- ولهذا قال تعالى: {مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} [(١٧٩) سورة آل عمران] **قال مجاهد: ميَّز بينهم يوم أُحُد، وقال قتادة: ميز بينهم بالجهاد والهجرة.**

ثم قال تعالى: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ} [(١٧٩) سورة آل عمران] **أي: أنتم لا تعلمون غيب الله في خلقه حتى يميِّز لكم المؤمن من المنافق لولا ما يعقده من الأسباب الكاشفة عن ذلك".**

قوله تعالى: **{وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ}** [(١٧٩) سورة آل عمران] يقول بعضهم: أي: في اختيار النبوة من الذي يصلح لها ممن لا يصلح، وهذا بعيد، وإنما المعنى الصحيح هو ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- في قوله: "**أي: أنتم لا تعلمون غيب الله في خلقه حتى يميِّز لكم المؤمن من المنافق لولا ما يعقده من الأسباب الكاشفة عن ذلك**" أي أنكم لا تعرفون ما تكنه الضمائر وما تنطوي عليه القلوب من النفاق وإنما الذي يعلم ما في القلوب هو الله الذي خلقها، والناس ليس لهم إلا الظاهر، لكن إذا قدر الله -عز وجل-هذا الابتلاء فإنه بذلك يظهر ما تنطوي عليه القلوب ليكون ذلك معايناً مشاهداً، فتعرفون أحوال هؤلاء، فما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن من حكمته أن قدر هذا الابتلاء حتى يظهر الصادق من الكاذب ويتميز الصف فتعرفون ذلك، وإلا لم يُعرف ولم يُميز هؤلاء من هؤلاء، وهذا المعنى الذي ذكره ابن كثير هو الذي عليه المحققون من المفسرين كابن جرير وغيره.

"ثم قال تعالى: {وَلَكِنَّ اللّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاء} [(١٧٩) سورة آل عمران] **كقوله تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا* إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا}** [(٢٦-٢٧) **سورة الجن]".**

يعني أن الله -عز وجل- إنما يطلع أنبياءه -صلى الله عليهم وسلم- على ما شاء أن يطلعهم عليه من الغيوب، وأما بقية الناس فإنهم لا سبيل لهم إلى الاطلاع على ذلك؛ لأن الوحي لا ينزل عليهم، وهذا الجزء من الآية: **{وَلَكِنَّ اللّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاء}** [(١٧٩) سورة آل عمران] هو الذي حدا ببعض المفسرين أن يقول: إن المراد بقوله: **{وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ}** [(١٧٩) سورة آل عمران] أي من يستحق أن يُجتبى للنبوة والرسالة، كما قال الله -عز وجل-: **{وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ}** [(٦٨) سورة القصص] وقال في موضع آخر: **{أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ}** [(٣٢) سورة الزخرف] يعني النبوة، **{نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}** [(٣٢) سورة الزخرف]

فالحاصل أن هذه هي القرينة التي جعلتهم يقولون هذا المعنى، والأقرب -والله تعالى أعلم- هو ما ذكرت من أن الناس لا سبيل لهم إلى الغيوب التي منها ما تكنه الصدور وإنما يكون ذلك لمن اجتباهم الله -عز وجل- فهو يطلعهم بوحيه، فيقدر هذه المحن فتعرفون ذلك ظاهراً، وأما أنتم فليس لكم إلى ذلك سبيل.

"ثم قال تعالى: {فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ} أي: أطيعوا الله ورسوله واتبعوه فيما شرع لكم {وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [(١٧٩) سورة آل عمران].

وقوله تعالى: {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ} [(١٨٠) سورة آل عمران] أي: لا يحسبن البخيل أن جمعه المال ينفعه بل هو مضرة عليه في دينه، وربما كان في دنياه.

ثم أخبر بمآل أمرِ ماله يوم القيامة، فقال: {سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [(١٨٠) سورة آل عمران].

روى البخاري عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((من آتاه الله مالاً فلم يؤدِّ زكاته مُثِّل له شجاعاً أقرعَ له زبيبتان يطوِّقه يوم القيامة يأخذ بلِهْزِمتيه –يعني بشدقيه– يقول: أنا مالك أنا كنزك)) ثم تلا هذه الآية: {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ} [(١٨٠) سورة آل عمران] تفرد به البخاري دون مسلم من هذا الوجه، وقد رواه ابن حبان في صحيحه[٢]".

هذا التفسير لا ينبغي العدول عنه؛ لأن النبي –صلى الله عليه وسلم– ذكر فيه الآية، فليس مما يدخله الاجتهاد، بمعنى أن المفسر قد يعمد إلى حديث لم يتطرق فيه النبي –صلى الله عليه وسلم– للآية فقد يخطئ المفسر في الربط بين هذا وهذا، ولهذا كان معنى قوله: {سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [(١٨٠) سورة آل عمران] أي: يكون طوقاً على أعناقهم، كما في الحديث الآخر: ((من ظلم من الأرض شيئاً طُوِّقه من سبع أرضين))[٣]، وهذا خلافاً لمن قال: إن قوله: {سَيُطَوَّقُونَ} أي: أن الله يجعل لهم طاقة وقدرة على حمله يوم القيامة يعني يُحمَّلونه يوم القيامة.

وبعضهم يقول: هذا يدل على الملازمة كملازمة الطوق للعنق، أي أن ذلك يكون ملازماً لهم يوم القيامة، وهذه المعاني فيها بعد، والأقرب –والله تعالى أعلم– بل المتعين في تفسير الآية هو ما دل عليه الحديث، أنه يكون طوقاً يطوقه في عنقهم يوم القيامة.

"وروى الإمام أحمد عن عبد الله عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((ما من عبد لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له شجاعاً أقرع يتبعه يفر منه وهو يتبعه، فيقول: أنا كنزك)) ثم قرأ عبد الله مصداقه من كتاب الله: {سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [(١٨٠) سورة آل عمران] وهكذا رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، ثم قال الترمذي: حسن صحيح[٤].

وقوله تعالى: {وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [(١٨٠) سورة آل عمران] أي وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه، فإن الأمور كلها مرجعها إلى الله –عز وجل– فقدموا لكم من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم.

{وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [(١٨٠) سورة آل عمران] أي: بنياتكم وضمائركم".

قوله: {وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} أي أنه خبير بنياتكم وضمائركم وسائر أعمالكم، ويعلم من يبخل ومن يجود، فالله –عز وجل– يعلم خفيات الأمور ودقائق الأشياء، لا يخفى عليه منها خافية.

---

2 – أخرجه البخاري في كتاب الزكاة – باب إثم مانع الزكاة (١٣٣٨) (ج ٢ / ص ٥٠٨).

3 – أخرجه البخاري في كتاب المظالم – باب إثم من ظلم شيئا من الأرض (٢٣٢٠) (ج ٢ / ص ٨٦٦) ومسلم في كتاب المساقاة – باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها (١٦١٢) (ج ٣ / ص ١٢٣١).

4 – أخرجه النسائي في كتاب الزكاة – باب التغليظ في حبس الزكاة (٢٤٤١) (ج ٥ / ص ١١) وابن ماجه في كتاب الزكاة – باب ما جاء في منع الزكاة (١٧٨٦) (ج ١ / ص ٥٦٩) وأحمد (٣٥٧٧) (ج ١ / ص ٣٧٧) وأصله في البخاري وقد سبق تخريجه في الحاشية رقم (٢).

"قال تعالى: {لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ* ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ* الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} [(١٨١-١٨٤) سورة آل عمران].

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزل قوله تعالى: {مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً} [(٢٤٥) سورة البقرة] قالت اليهود: يا محمد افتقر ربك، يسأل عباده القرض، فأنزل الله: {لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء} الآية [(١٨١) سورة آل عمران] رواه ابن مردويه وابن أبي حاتم.

وقوله: {سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ} تهديد ووعيد، ولهذا قرنه تعالى بقوله: {وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ} [(١٨١) سورة آل عمران] أي: هذا قولهم في الله وهذه معاملتهم لرسل الله، وسيجزيهم الله على ذلك شر الجزاء، ولهذا قال تعالى: {وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ* ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ} [(١٨١-١٨٢) سورة آل عمران] أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً.

وقوله تعالى: {الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ} [(١٨٣) سورة آل عمران].

يقول تعالى تكذيباً أيضاً لهؤلاء الذين زعموا أن الله عهد إليهم في كتبهم أن لا يؤمنوا برسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدَّق بصدقة من أمته فقبلت منه أن تنزل نار من السماء تأكلها، قاله ابن عباس والحسن وغيرهما.

قال الله -عز وجل-: {قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ} [(١٨٣) سورة آل عمران] أي: بالحجج والبراهين، {وَبِالَّذِي قُلْتُمْ} أي: بنار تأكل القرابين المتقبلة، {فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ} أي: فلم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم {إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} أنكم تتبعون الحق وتنقادون للرسل.

ثم قال تعالى مسلياً لنبيه محمد -صلى الله عليه وسلم-: {فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} [(١٨٤) سورة آل عمران] أي لا يهدَّنك".

وفي نسخة: لا يوهنك، والمعنى لا يضعفنك.

"أي لا يوهنك تكذيب هؤلاء لك فلك أسوة بمن قبلك من الرسل الذين كُذبوا مع ما جاءوا به من البينات: وهي الحجج والبراهين القاطعة، والزبر: وهي الكتب المتلقاة من السماء كالصحف المنزلة على المرسلين، والكتاب المنير: أي البيّن الواضح الجلي".

يقول: البينات: وهي الحجج والبراهين، والزبر: هي الكتب، والكتاب المنير: البيّن الواضح الجلي، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٢٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ* لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ} [(١٨٥-١٨٦) سورة آل عمران].

"يخبر تعالى إخباراً عاماً يعمُّ جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت، كقوله تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ* وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [(٢٦-٢٧) سورة الرحمن] فهو تعالى وحده هو الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون، وكذلك الملائكة وحملة العرش، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء فيكون آخراً كما كان أولاً.

وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت، فإذا انقضت المدة وفرغت النطفة التي قدر الله وجودها من صلب آدم وانتهت البرية أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها جليلها وحقيرها، كثيرها وقليلها، كبيرها وصغيرها، فلا يظلم أحداً مثقال ذرة، ولهذا قال تعالى: {وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [(١٨٥) سورة آل عمران]".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- هنا: {كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ} بعد أن وجَّه الله -تبارك وتعالى- نبيَّه -صلى الله عليه وسلم- بألا يحزن لإسراع من أسرع في الكفر، وبعد أن ذكر الله -عز وجل- جملة من الفرى التي يفتريها أعداؤه، كقولهم: {إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء} [(١٨١) سورة آل عمران] وما أشبه ذلك قال بعده: {كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ} فكلام ابن كثير -رحمه الله- هنا كأنه مشى فيه على أن ذلك من الكلام المستأنف.

وبعض أهل العلم كأبي جعفر بن جرير الطبري -رحمه الله- يربطها بما قبلها، وعلى كل حال هؤلاء يقولون: إن الله -عز وجل- قال لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: {وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ} [(١٧٦) سورة آل عمران] أي ولا تكذيب من كذّب وافتراء من افترى، فإن الكل سيوافي ويموت، ويرجعون جميعاً إلى الله -عز وجل- فيثيب المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فمرجع الجميع ومصيرهم إليَّ، هذا وجه الارتباط بين الآية وبين الآيات التي قبلها على قول هؤلاء، والله أعلم.

"وقوله: {فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ} [(١٨٥) سورة آل عمران] أي: من جُنِّب النار ونجا منها وأدخل الجنة فقد فاز كل الفوز".

أصل الزحزحة: التنحية والإبعاد، والمعنى من نُحي عن النار وأبعد عن النار فقد فاز، وقد يكون أكثر ما تستعمل هذه اللفظة في الأشياء الثقيلة التي يصعب حملها أو رفعها، فيقال: زحزحته يعني حركته ونحيته.

"روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها)) اقرءوا إن شئتم: {فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ} [(١٨٥) سورة آل عمران] **هذا حديث ثابت في الصحيحين من غير هذا الوجه بدون هذه الزيادة، وقد رواه بدون هذه الزيادة أبو حاتم وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه**[1].

وقوله تعالى: {وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ} [(١٨٥) سورة آل عمران] **تصغير لشأن الدنيا وتحقير لأمرها، وأنها دنيئة فانية قليلة زائلة، كما قال تعالى: {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا* وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}** [(١٦-١٧) سورة الأعلى] **وقال تعالى: {وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى}** [(٦٠) سورة القصص] **وفي الحديث: ((والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بمَ ترجع إليه))**[2].

وقال قتادة في قوله تعالى: {وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ} [(١٨٥) سورة آل عمران] **هي متاع متروكة، أوشكتْ والله الذي لا إله إلا هو أن تضمحل عن أهلها، فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم ولا قوة إلا بالله".**

في قوله: **{وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ}** [(١٨٥) سورة آل عمران] المتاع هو الشيء الذي يضمحل ويزول لا بقاء له، فالنعيم الذي يضمحل هو من قبيل المتاع، والغرور: هو الذي يتبهرج ويتزين أمام الناظرين ومن تعاطاه، ولكنه لا حقيقة له، فكل ما غرَّ فهو من الغرور.

وبعضهم يقول ذلك للشيطان، ولهذا فسر بعضهم هذه الآية بالشيطان، وهذا -والله أعلم- لا منافاة بينه وبين الأول؛ لأن كل ما يغر الإنسان فإنه يقول له: غرور، فالدنيا تغره ومتاعها يستهويه فذلك مما يحصل به الغرور، وكذلك الشيطان أيضاً يفعل ذلك في نفسه كثيراً فيصدق عليه هذا، والله -عز وجل- يقول: **{فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ}** [(٣٣) سورة لقمان]، فبعضهم يقول: أي فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم الشيطان، وعلى كل حال يمكن أن يقال: لا تغرنكم الحياة ولا يغرنكم الشيء الذي لا حقيقة له من كل ما يتبهرج ويتزين أمام الناظرين ثم لا يلبث أن يضمحل، والشيطان يزين ذلك فهو غرور أيضاً، ولا نحتاج أن نرجح بين هذه المعاني، والله أعلم.

يقول ابن كثير في قوله تعالى: **{وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ}** [(١٨٥) سورة آل عمران]: "..**فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم، ولا قوة إلا بالله".**

---

[1] - أخرجه بدون الزيادة البخاري في كتاب بدء الخلق - باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٠٧٨) (ج ٣ / ص ١١٨٧) وأخرجه مع الزيادة الترمذي في كتاب التفسير - باب تفسير سورة آل عمران (٣٠١٣) (ج ٥ / ص ٢٣٢) وابن حبان (٧٤١٧) (ج ١٦ / ص ٤٣٣) وكذا الحاكم (٣١٧٠) (ج ٢ / ص ٣٢٧) وحسنه الألباني في سنن الترمذي برقم (٣٠١٣) أعني مع الزيادة

[2] - أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٥٨) (ج ٤ / ص ٢١٩٣).

وابن جرير الطبري –رحمه الله– يقول: وما متاعها الذي متعكموه في هذه الحياة الدنيا إلا الغرور والخداع؛ لأنها لا حقيقة لها وهي مضمحلة ولا تستحق أن ينصرف الإنسان عن الدار الآخرة الباقية بسبب هذه الدنيا الفانية، ولكن الغرور والخداع هو الذي يفعل فعله في نفوسكم فيحصل الانكباب عليها والتشاغل بها عن طاعة الله –تبارك وتعالى–.

ويقول: فأنتم تلتذون بما متعكم الغرور من دنياكم ثم هو عائد عليكم بالفجائع، أي أن هذا المتاع الذي يحصل لكم إنما متعكموه الغرور ثم ما يلبث أن يضمحل وتقع بكم الفجائع والمكاره، ولذلك لما ذكر الله –عز وجل– نعيم الآخرة، ذكر أنه باق لا يزول وذكر الخلود بالنسبة لأهل الجنة فقال: **{خَالِدِينَ فِيهَا}** [(١٩٨) سورة آل عمران]؛ لأن الإنسان مهما كان يُمتّع فإنه إذا تذكر أنه مفارق لهذا النعيم فذلك ينغص عليه لذته ويكدر عليه صفوها، ولهذا قال الشاعر:

هو الموت ليس يسبق الموت شـــيء نغص المـــوت ذا الغنـــى والفقيـــرا

فالفقير منغص بالموت إذا تذكره، والغني وهو يعيش في غاية الترف والنعيم في الدنيا إذا تذكر أنه مفارقه وأن هذا العقد الذي قد انتظم باجتماع بنيه وأحبابه وما أشبه ذلك، وأن كل ذلك سيأتي عليه يوم ينفرط فيه فيتهافتون ويتساقطون الواحد بعد الآخر، ثم ما يلبث هذا البيت أو هذا المكان أو هذا القصر الشامخ حتى يكون خراباً لا ترى فيه أحداً يرد الصوت وأن هذه طبيعة هذه الحياة، إذا تذكر كل ذلك تنغصت عليه حياته.

"وقوله تعالى: {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ} [(١٨٦) سورة آل عمران] كقوله تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ} [(١٥٥) سورة البقرة] إلى آخر الآيتين، أي لا بد أن يبتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله، ويبتلى المؤمن على قدر دينه فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء.

{وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا} [(١٨٦) سورة آل عمران]، يقول تعالى للمؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر، مسلياً لهم عما نالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين وآمراً لهم بالصفح والصبر والعفو حتى يفرج الله فقال تعالى: {وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ} [(١٨٦) سورة آل عمران]".

قوله تعالى: **{فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ}** بعض أهل العلم يفسره بعزمات الأمور، أي مما يجب عليكم أن تعزموا عليه لكونه عزمة من عزمات الله –عز وجل–؛ لأن الله طلبه وأمر به وأحبه.

"روى البخاري عن أسامة بن زيد –رضي الله تعالى عنهما– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ركب على حمار عليه قطيفة فدكية..".

القطيفة هي مثل السرج الذي يوضع على الفرس، فما يوضع على ظهر الحمار تحت الراكب يقال له: قطيفة، والذي يوضع على الفرس يقال له: سرج والذي يوضع على البعير يقال له: رحل..

وقوله: **فدكية**: منسوبة إلى فدك قريبة من خيبر.

"وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر قال: حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبي بن سلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبي فإذا في المجلس أخلاط من

المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود والمسلمين، وفي المجلس عبد الله بن رواحة فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله بن أبي أنفه بردائه وقال: لا تغبروا علينا، فسلَّم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم وقف فنزل ودعاهم إلى الله -عز وجل- وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً، فلا تؤذنا به في مجالسنا، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة -رضي الله تعالى عنه-: بلى يا رسول الله، فاغشنا به في مجالسنا فإنا نحب ذلك، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل النبي -صلى الله عليه وسلم- يخفضهم حتى سكتوا، ثم ركب النبي -صلى الله عليه وسلم- دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يا سعد، ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب -يريد عبد الله بن أبي- قال: كذا وكذا)) فقال سعد: يا رسول الله اعف عنه واصفح، فوالله الذي أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه ويعصبوه بالعصابة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرق بذلك".

يقول: "**على أن يتوِّجوه ويعصِّبوه** " أي كانت عادتهم إذا ملَّكوا أحداً عليهم أن يتوجوه ويعصبوه.

وقوله: "**شرِق بذلك**" الأصل أن شرق تقال إذا شرب الإنسان الماء أو أكل شيئاً فوقف في حلقه أو دخل في مجرى النفس، وكذلك يقال: شرق بهذا الأمر بمعنى أنه ساءه وتلكأ فيه ولم يقبله.

"فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرق بذلك، فذلك الذي فعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-[٣].

وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه -رضي الله تعالى عنهم- يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى".

طبعاً هذا قبل أن يُشرع الجهاد، حيث أمروا بالصفح والعفو والإغضاء والتجاوز، لكن بعد أن شُرع الجهاد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يجيش الجيش، كما حصل في قينقاع وقريظة والنضير.

"قال الله تعالى: {وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا} الآية [(١٨٦) سورة آل عمران]**، وقال تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ} الآية [(١٠٩)** سورة البقرة]**.**

وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يتأول في العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم، فلما غزا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بدراً فقتل الله به صناديد كفار قريش قال عبد الله بن أبي بن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه، فبايعوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على الإسلام وأسلموا".

قول عبد الله بن أبي: "**هذا أمر قد توجه**" يعني مضى وأخذ طريقه في القوة والانتشار وتجاوز مرحلة البداية والضعف وما أشبه ذلك.

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة آل عمران (٤٢٩٠) (ج ٤ / ١٦٦٣) ومسلم في كتاب الجهاد والسير - باب في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم وصبره على أذى المنافقين (١٧٩٨) (ج ٣ / ص ١٤٢٢).

وقول ابن كثير: "**وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يتأول في العفو ما أمره الله به**" المقصود بالتأول هنا التطبيق والعمل، وهذا أحد معاني التأويل، فإذا قيل: يتأول قوله تعالى كذا، فالمعنى أنه يمتثل.

"**فكل من قام بحق أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر فلا بد أن يؤذى، فما له دواء إلا الصبر في الله، والاستعانة بالله، والرجوع إلى الله -عز وجل-.**

{وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ* لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ* وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(١٨٧-١٨٩) سورة آل عمران].

هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، وأن ينوِّهوا بذكره في الناس، ليكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه".

هذا التفسير واضح أنه ينحى إلى أن هذه الآية في أهل الكتاب في قضية بيان ما عرفوا من أحقية ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وهذا الذي مشى عليه ابن جرير -رحمه الله-، وهذه الآية وإن سيقت لتقرير هذا المعنى، إلا أن ظاهر اللفظ أعم من ذلك فيدخل في هذا المعنى وغيره من البيان، ويكون ذلك أيضاً متوجهاً لهذه الأمة، فأهل الكتاب قص الله -عز وجل- عنهم أنهم كما قال: **{فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ}** [(١٨٧) سورة آل عمران] فالبيان لا يختص بأهل الكتاب فهذه الآية وإن كانت فيهم، إلا أنه يؤخذ منها أنه يجب على من عرف الحق أن يبيِّنه للناس، فالله أخذ الميثاق على أهل الكتاب **{لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ}** [(١٨٧) سورة آل عمران] أي كل ما يجب عليهم بيانه ومن ذلك أحقية ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- مما عرفوه في كتبهم، لكنهم جحدوا ذلك وغيروا أوصافه وكذّبوا به، وهكذا..

"**فإذا أرسله الله تابعوه، فكتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف والحظ الدنيوي السخيف، فبئست الصفقة صفقتهم وبئست البيعة بيعتهم، وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم ويُسلك بهم مسلكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع الدال على العمل الصالح ولا يكتموا منه شيئاً، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار))**[٤].

وقوله تعالى: {لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ} [(١٨٨) سورة آل عمران] **يعني بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا كما جاء في الصحيحين عن النبي -صلى الله عليه وسلم-:**

---

4 - أخرجه أبو داود في كتاب العلم - باب كراهية منع العلم (٣٦٦٠) (ج ٣ / ص ٣٦٠) والترمذي في كتاب العلم - باب ما جاء في كتمان العلم (٢٦٤٩) (ج ٥ / ص ٢٩) وابن ماجه في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم - باب من سئل عن علم فكتمه (٢٦٤) (ج ١ / ص ٩٧) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (٢٢٣).

((من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده الله إلا قلة))[5] وفي الصحيح أيضاً: **((المتشبع بما لم يعطَ كلابس ثوبي زور))**[6].

هذه الآية: **{لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ}** [(١٨٨) سورة آل عمران] هذا التفسير الذي قاله الحافظ ابن كثير: "**يعني بذلك المرائين المتكثرين**" يعني أنه حمل الآية على العموم، أي كل من وقع منه ذلك فهو ليس بناجٍ من العذاب، فهذه الآية على هذا الاعتبار لا تختص بأهل الكتاب الذين سئلوا عن شيء فكتموه ثم استحمدوا عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنهم قد أعلموه وأخبروه بما سألهم عنه، وهذا التفسير مشى عليه جماعة من المفسرين غير الحافظ ابن كثير، وهو حملٌ للآية على ظاهرها وهو الأرجح، وقد قال الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: "لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك، ويحبون أن يحمدوا على اتباع السنة والإخلاص، يعني أنه حملها على العموم.

وقول ابن عباس في الآية مشهور وسيأتي أنها مختصة بأهل الكتاب وهذا الكلام ليس محل اتفاق بين السلف -رضي الله عنهم-، وتوجد أدلة تدل على خلاف ذلك.

"وروى الإمام أحمد أن مروان قال: اذهب يا رافع -لبوابه- إلى ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- فقل: لئن كان كل امرئ منا فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذَّباً لنعذَّبنَّ أجمعون، فقال ابن عباس: وما لكم وهذه، إنما نزلت هذه في أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس: {وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ} [(١٨٧) سورة آل عمران] **وتلا ابن عباس: {لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ} الآية** [(١٨٨) سورة آل عمران].

وقال ابن عباس: سألهم النبي -صلى الله عليه وسلم- عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ما سألهم عنه، وهكذا رواه البخاري في التفسير، ومسلم، والترمذي والنسائي في تفسيريهما".

نعم، الآن هذا تفسير من ابن عباس -رضي الله عنه- أنها نزلت في هؤلاء وليس هذا من قبيل سبب النزول، فهو من قبيل التفسير، فهذا فهم ابن عباس -رضي الله عنهما-.

وعلى كل حال الآية ظاهرها العموم، وأما قول مروان بأنه إن كان كذا وكذا فلنعذبن أجمعون، فهذا غير صحيح؛ لأن المؤمن الذي قد حقق الإيمان الواجب وصدق مع الله -عز وجل- لا يحب أن يحمد بما لم يفعل إطلاقاً، بل قد لا يحب أن يحمد بما فعل، لكن إن فرِح أو سرَّه أن يحمد بما فعل فهذا عاجل بشرى المؤمن ولا إشكال فيه، لكن الذي يحب أن يحمد، يعني أنه ولو لم يقع ذلك فهو يتمنى أن يقع فمثل هذا لا يتطلبه

---

[5] - أخرجه البخاري في كتاب الأدب- باب ما ينهى من السباب واللعن (٥٧٠٠) (ج ٥ / ص ٢٢٤٧) ومسلم في كتاب الإيمان – باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وإن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة (ج ١ / ص ١٠٤) إلا هذه العبارة: **((من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده الله إلا قلة))** فقد تفرد بها مسلم.

[6] - أخرجه البخاري في كتاب النكاح – باب المتشبع بما لم ينل وما ينهى من افتخار الضرة (٤٩٢١) (ج ٥ / ص ٢٠٠١) ومسلم في كتاب اللباس والزينة – باب النهي عن التزوير في اللباس وغيره والتشبع بما لم يعط (٢١٢٩) (ج ٣ / ص ١٦٨١).

المؤمن، ولا يفعل الخير ولا يقدم على الأعمال من أجل أن يحمد، وكذلك أن يحمد بما لم يفعل فهذا لا يرضى به إنسان يحترم نفسه ويصدق مع الله -عز وجل-، بل هو بالعكس يستاء من هذا، ولا يفعل هذا أو يرضى به إلا مُراءٍ، فالمقصود أن هذا الكلام لا ينطبق على الجميع كما قال مروان: ولنعذبن أجمعون،فهذا الكلام ليس بصحيح في معناه، والمقصود أن الآية ظاهرها العموم ولا يوجد دليل على تخصيصها، ولو فرضنا أن هذا سبب النزول فإذا كان هذا التوعد واقعاً لبني إسرائيل فهو في حق هذه الأمة أشد؛ إذ ما الذي يجعل هذه الأمة بمنجاة ومنأى من هذا؟، فعلى قدر المقام يكون الملام، فإذا كان هذا الوصف من الأوصاف الذميمة، والله -عز وجل- توعد من وقع فيه من بني إسرائيل -لو فرضنا أنها في بني إسرائيل- فإن ذلك يكون لهم ويكون لغيرهم فالله حكم عدل لا يظلم الناس شيئاً، فإذا كانت هذه الأمة أشرف من بني إسرائيل ووقع ذلك لبني إسرائيل ولحقهم ذلك الوعيد، فإن ذلك يكون أوجب في هذه الأمة، والله أعلم.

ولذلك فالرواية التي في البخاري ومسلم تدل على أن ذلك على عمومه، مع أن هذه الآية اشتهر فيها قول ابن عباس -رضي الله عنهما- أنها خاصة في أهل الكتاب، وبناء عليه يركن الإنسان إلى أنه لا حرج عليه إذا أحب أن يحمد بما لم يفعل، فهذا الكلام غير صحيح.

"وروى البخاري عن أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه- أن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، كان إذا خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فإذا قدم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت: {لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ} الآية [(١٨٨) سورة آل عمران] وكذا رواه مسلم بنحوه[٧]".

هذا سبب نزول صريح ويدل على أن الآية على العموم، ولكن يؤخذ منه أن الذي أتوه ليس هو العمل الصالح وإنما هو مخالفة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ومعصية الله -عز وجل- وقعودهم عن الجهاد معه -صلى الله عليه وسلم- أي أنهم يفرحون بما أتوا من التخلف عن الغزو مع رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، وعلى كل حال من فرح بالمعصية وأحب أن يحمد بما لم يفعل فلا شك أن هذا ليس من أوصاف أهل النجاة، وأما فرح الإنسان بما فعل من الأعمال الطيبة الصالحة، فهذا أمر لا إشكال فيه، ولكن الله -عز وجل- ذكر هنا أمرين اثنين، هما: أنهم يفرحون بما أتوا، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فإذا جعلنا قوله: **{يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ}** [(١٨٨) سورة آل عمران] على عمومها وقلنا: بما أتوا من العمل الصالح مثلاً، **{وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ}** [(١٨٨) سورة آل عمران] بمعنى أنه يكون متكثراً بهذا إضافة إلى أعماله فإن اجتماع هذا إلى هذا أمر لا يليق ولا يحسن ولا يجمل بالمؤمن.

وأما إذا قلنا: بأن **{يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ}** [(١٨٨) سورة آل عمران] يعني من المخالفة، **{وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ}** [(١٨٨) سورة آل عمران] بمعنى أنهم لا يعملون الصالحات ويفرحون بمخالفاتهم ويحبون أن يحمدوا بشيء لم يفعلوه، فبهذا الاعتبار تكون قد اتضحت المسألة.

---

[7] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة آل عمران (٤٢٩١) (ج ٤ / ص ١٦٦٤) ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٧٧) (ج ٤ / ص ٢١٤٢).

"وقوله تعالى: {فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ} [(١٨٨) سورة آل عمران] **يقرأ بالتاء على مخاطبة المفرد، وبالياء على الإخبار عنهم، أي لا يحسبون أنهم ناجون من العذاب".**

قوله: **{لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ}** قرئت بالتاء وقرئت بالياء (لا يحسبن)، فعلى الأولى يكون الخطاب للنبي –صلى الله عليه وسلم–، وبالتالي يكون أيضاً متوجهاً إلى الأمة، وعلى القراءة الثانية: (لا يحسبن) يكون المعنى لا يظن هؤلاء الذين وقعوا في هذا الفعل القبيح أنهم بمنجاة من عذاب الله –عز وجل–.

"أي لا يحسبون أنهم ناجون من العذاب بل لابد لهم منه، ولهذا قال تعالى: {ولهم عذاب أليم}".

إذاً سبب نزول قوله: **{يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ}** [(١٨٨) سورة آل عمران] يدل على أنه بما أتوا من المعصية، وهذا هو الذي فسره ابن القيم بقوله: يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا من السنة.. الخ.

وإذا فسر قوله: {**{يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ}** [(١٨٨) سورة آل عمران] بأنه من العمل الطيب فإن هذا لا يشكل؛ لأنه مرتبط بما بعده أي بقوله: **{وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ}** [(١٨٨) سورة آل عمران]، هذا وهذا، لكن المعنى الأول أقرب، أي بما أتوا من المخالفة والمعصية والقعود عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، ويرجح هذا سببُ النزول، والأمر الثاني: أن من كانت هذه صفتهم من المرائيين أو المنافقين أو اليهود، فهم لا يفرحون بالعمل الطيب الصالح وإنما همهم ثناء الناس وإطراؤهم.

"ثم قال تعالى: {وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [(١٨٩) سورة آل عمران] **أي: هو مالك كل شيء، والقادر على كل شيء، فلا يعجزه شيء، فهابوه ولا تخالفوه، واحذروا غضبه ونقمته، فإنه العظيم الذي لا أعظم منه، والقدير الذي لا أقدر منه.**

{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ* الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ* رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ* رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ* رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [(١٩٠-١٩٤) سورة آل عمران].

يقول الله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} أي: هذه في ارتفاعها واتساعها، وهذه في انخفاضها وكثافتها واتضاعها، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات وثوابت، وبحار وجبال وقفار وأشجار ونبات، وزروع وحيوان ومعادن ومنافع مختلفة الألوان والروائح والطعوم والخواص.

{وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} أي: تعاقبهما وتقارضهما الطول والقصر، فتارة يطول هذا ويقصر هذا، ثم يعتدلان ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيراً ويقصر الذي كان طويلاً".

الحافظ ابن كثير –رحمه الله– هنا جمع بين المعنيين، فبعض أهل العلم يقول: اختلاف الليل والنهار يعني التعاقب، هذا يأتي بعد هذا، وبعضهم يقول: هو ما يحصل من الطول والقصر، فالليل يأخذ من النهار كما هو الحال في الشتاء، والنهار يأخذ من الليل كما هو في الصيف، فكل ذلك –والله أعلم– داخل في قوله: **{وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ}** فابن كثير –رحمه الله– جمع بين المعنيين.

"وكل ذلك تقدير العزيز الحكيم، ولهذا قال تعالى: **{لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ}** [(١٩٠) سورة آل عمران] **أي العقول التامة الذكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون الذين قال الله فيهم: {وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ* وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ}** [(١٠٥-١٠٦) سورة يوسف].

ثم وصف تعالى أولي الألباب فقال: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ} [(١٩١) سورة آل عمران] **كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((صلِّ قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب))**[8] **أي لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم".**

بعض أهل العلم يخصص هذا بالصلاة ويحتج عليه بهذا الحديث، لكن المعنى أعم من هذا، وقد يكون ما ذكروه إنما هو من قبيل التفسير بالمثال، وإلا فإن الآية أعم من هذا والله -عز وجل- يقول: **{فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ}** [(١٠٣) سورة النساء].

فالحاصل أن الله -عز وجل- ذكر هذه الأحوال في الذكر، وذلك أن الذكر لا يكلف شيئاً ولا يحتاج إلى أن يكون في حال معينة من قيام أو قعود أو استقبال للقبلة أو نحو هذا، وإنما يذكر الإنسان ربه -تبارك وتعالى- في كل الحالات ولهذا لا يكاد يُذكر الذكر في القرآن حينما يؤمر به أو يثنى على أهله إلا مقروناً بالكثرة، قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا* وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}** [(٤١-٤٢) سورة الأحزاب] وقال تعالى: **{وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ}** [(٣٥) سورة الأحزاب] فالذكر ليس كالصلاة أو الصيام أو الحج أو نحو هذا وإنما هو شيء لا يتطلب كلفة زائدة، فالإنسان على فراشه يذكر الله -عز وجل- وكذلك يذكره وهو يمشي وهكذا في كل الأحوال.

"{وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [(١٩١) سورة آل عمران] **أي: يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته وعلمه واختياره ورحمته.**

وقد ذم الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته فقال: {وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ* وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ} [(١٠٥-١٠٦) سورة يوسف].

ومدح عباده المؤمنين الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، قائلين: {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً} [(١٩١) سورة آل عمران] **أي ما خلقت هذا الخلق عبثاً بل بالحق".**

قوله تعالى: **{وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}** [(١٩١) سورة آل عمران] الإشارة في قوله: **{مَا خَلَقْتَ هَذا}** هي إشارة للقريب -والأقرب والله أعلم- أن المقصود بها ما خلقت هذا الخلق، وهذا الذي مشى عليه ابن كثير هنا، قال: "**أي ما خلقت هذا الخلق عبثاً** "، واختار هذا المعنى ابن جرير -رحمه الله- واحتج له بالدعاء بعده، **{مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ**

[8] - أخرجه البخاري في أبواب تقصير الصلاة - باب إذا لم يطق قاعداً صلى على جنب (١٠٦٦) (ج ١ / ص ٣٧٦).

{النَّارِ} [(١٩١) سورة آل عمران] أي: سبحانك أن تكون قد خلقت هذا الخلق من غير حكمة، وإنما خلقتهم لحكمة عظيمة، فتجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته إذا وافوا يوم القيامة، فالله خلقهم لأمر عظيم.

وقوله هنا في نفي الخلق أن يكون باطلاً: {مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً} نفي الباطلية كما يقول الحافظ ابن القيم –رحمه الله– أوغل في بيان المعنى المقصود والدلالة عليه وذلك أن هذا الخلق لحكمة عظيمة، فبيان هذه الحِكَم كما هي أمر يطول؛ لأن بيان الحكمة كلها أمر يطول وصفه وبيان البعض من الحكم قد تقف عنده الأذهان وتقتصر عليه وتغيب عما سواه وتتوهم أن تلك هي الحكمة فحسب، لكن حينما يقال: {مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً} فنفي الباطلية يدل على أنه خلق لمعنىً عظيم، والله أعلم..

"أي ما خلقت هذا الخلق عبثاً بل بالحق لتجزي الذين أساءوا بما عملوا وتجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ثم نزهوه عن العبث".

أي كما في قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} [(٢٧) سورة ص] فهم الذين يظنون أن الله –تبارك وتعالى– خلقهما عبثاً وباطلاً.

"فقالوا: {سُبْحَانَكَ} أي: عن أن تخلق شيئاً باطلاً، {فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} أي: يا من خلق الخلق بالحق والعدل، يا من هو منزه عن النقائص والعيب والعبث قنا من عذاب النار بحولك وقوتك، وقيِّضنا لأعمال ترضى بها عنا، ووفقنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم وتجيرنا به من عذابك الأليم.

ثم قالوا: {رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ} أي أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع {وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} [(١٩٢) سورة آل عمران]".

الخزي: بمعنى الإذلال والإهانة والفضيحة؛ لأن من عُذب فقد لحقه الخزي وافتضح وأذل وأهين.

"{وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} [(١٩٢) سورة آل عمران] أي: يوم القيامة لا مجير لهم منك ولا محيد لهم عما أردت بهم.

{رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ} أي: داعياً يدعو إلى الإيمان وهو الرسول –صلى الله عليه وسلم–: {أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا} أي: يقول: آمنوا بربكم {فَآمَنَّا} أي فاستجبنا له واتبعناه، {رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا} أي: بإيماننا واتباعنا نبيك، {فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا} أي: استرها {وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا} فيما بيننا وبينك {وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ} [(١٩٣) سورة آل عمران]".

ذكر الغَفْر وذكر التكفير للسيئات، فمن يقول بالترادف يكون {فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا} معناه واحد، وعلى قول من يفرق بين الغَفْر والتكفير يكون معنى: {فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا} أي استرها وقنا شؤمها، ويكون {وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا} معناه المحو والإزالة أي امحها عنا.

وبالنسبة للذنوب والسيئات من يقول بالترادف يقول: هو شيء واحد، وبعضهم يفرق بين هذا وهذا، إما بأن يجعل البعض من الصغائر والآخر من الكبائر، أو أن البعض يتعلق بحقوق الخلق والآخر بحقوق الله –عز وجل– أو نحو ذلك، فالحاصل أن الذنوب هي المعاصي، والسيئات هي المعاصي، ولكن لفظة السيئة تدل على معنىً وهو أن ذلك يسوء صاحبه، فإذا نظر إليه في ديوان عمله فإن ذلك مما يسوءه أو لوصفها بأنها سيئة مقابل الحسنة فهي موصوفة بذلك.

"**{وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ}** [(١٩٣) سورة آل عمران] أي: **ألحقنا بالصالحين".**

ألحقنا بالصالحين معناه اقبضنا في عداد الأبرار واحشرنا محشرهم، فقوله: **{وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ}** أي توفنا في عدادهم، واحشرنا محشرهم، كما يقول ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

"**{رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ}** [(١٩٤) سورة آل عمران] **قيل: معناه على الإيمان برسلك، وقيل: معناه على ألسنة رسلك، وهذا أظهر".**

{رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ} أي على الإيمان بهم أو على ما ورد على ألسنتهم من الوعد بالجزاء، هذا معنى **{مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ}** [(١٩٤) سورة آل عمران] والراجح المتبادر الذي رجحه هنا ابن كثير، وهو اختيار جماعة من المحققين كابن جرير وابن القيم، أي ما وعدتنا على ألسنة رسلك، مع أن المعنى الأول تحتمله الآية، وبعضهم يقول غير هذا لكنها معانٍ بعيدة.

"**{وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ}** [(١٩٤) سورة آل عمران] أي: **على رءوس الخلائق".**

أي لا تهتك سترنا ولا تفضحنا، ومن هُتك ستره وفضح فقد عذب، ومن عذب فقد افتضح.

"**{إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ}** أي: **لا بد من الميعاد الذي أخبرت عنه رسلك وهو القيام يوم القيامة بين يديك".**

يلاحظ هنا أن المعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- **{لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ}** يعني البعث والقيامة، لكن الذي يظهر -والله أعلم- وما يدل عليه ظاهر القرآن **{إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ}** أي: المذكور قبله، وهو أنهم سألوا ربهم أن يوفي لهم ما وعدهم به على ألسنة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وذلك من الجزاء الحسن والثواب، فيقولون: **{إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ}** [(١٩٤) سورة آل عمران] لكن يَحمِل بعضَ أهل العلم كالحافظ ابن كثير وجماعة ممن فسروا بمثل هذا على هذا التفسير أنهم ربما استشكلوا قولهم: **{إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ}** [(١٩٤) سورة آل عمران] كيف يقولون هذا في مقام الدعاء والله -عز وجل- لا يخلف وعده، ويوفي أهل الإحسان بالثواب، فكيف يقولون نسألك الثواب الذي وعدتنا على ألسنة الرسل: **{إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ}** [(١٩٤) سورة آل عمران]؟، فكأنهم رأوا أن هذا أمر غير لائق وغير مستحسن ولا يُظن أن أهل الإيمان يقولون مثل هذا، والمعنى لا إشكال فيه، **{رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ}** [(١٩٤) سورة آل عمران] فهم يستعينون بالله -عز وجل- ويطلبونه الثواب وإنجاز ما وعدهم؛ لأن ذلك يتوقف على تحقق الشروط وانتفاء الموانع من الإخلاص والمتابعة وما أشبه ذلك من شروط العمل الصالح، أي أن يكون على عقيدة صحيحة ويرتفع عنه أسباب الحبوط من العجب وإتباع الصدقات بالمنِّ والأذى وما أشبه هذا مما تحبط به الأعمال فيكون ذلك مضمناً لهذا المعنى كما ذكر ذلك الحافظ ابن القيم -رحمه الله- فتكون الآية متضمنة لسؤاله -تبارك وتعالى- التوفيق للعمل الصالح الذي يرضاه الله -عز وجل- ويتقبله، فهو ثناء على الله لكن الإشكال عند بعض المفسرين هو كما ذكرت، وهو كيف أنهم في مقام الدعاء يقولون: أثبنا وجازنا على أعمالنا الصالحة إنك لا تخلف الميعاد؟.

"وقد ثبت أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهجده، فروى البخاري -رحمه الله تعالى- عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: بتُّ عند خالتي ميمونة فتحدث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر

قعد فنظر إلى السماء فقال: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ} ثم قام فتوضأ واستن فصلى إحدى عشرة ركعة، ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى بالناس الصبح، وكذا رواه مسلم[9].

وروى ابن مردويه عن عطاء قال: انطلقت أنا وابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- وعبيد بن عمير إلى عائشة -رضي الله تعالى عنها- فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب، فقالت: يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا؟ قال: قول الشاعر: زر غباً تزدد حباً، فقال ابن عمر: ذرينا، أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فبكت وقالت: كل أمره كان عجباً، أتاني في ليلة حتى مس جلده جلدي، ثم قال: ((ذريني أتعبد لربي عز وجل)) قالت: فقلت: والله إني لأحب قربك وإني أحب أن تعبَّد لربك، فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صبَّ الماء، ثم قام يصلي فبكى حتى بلَّ لحيته، ثم سجد فبكى حتى بلَّ الأرض، ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح قالت: فقال: يا رسول الله، ما يبكيك وقد غفر الله لك ذنبك ما تقدم وما تأخر؟ فقال: ((ويحك يا بلال، وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل عليَّ في هذه الليلة: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ} ثم قال: ((ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها))[10]".

---

9 – أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة آل عمران (١٦٦٥) (ج ٤ / ص ١٦٦٥) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها – باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٦٣) (ج ١ / ص ٥٢٥).

10 – أخرجه ابن حبان (٦٢٠) (ج ٢ / ص ٣٨٦) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة آل عمران (٢٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ} [(١٩٥) سورة آل عمران].

"يقول تعالى: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ} أي: فأجابهم.

روى سعيد بن منصور عن سلمة رجل من آل أم سلمة قال: قالت أم سلمة -رضي الله تعالى عنها-: يا رسول الله، لا نسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء، فأنزل الله تعالى: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى} إلى آخر الآية، وقالت الأنصار: هي أول ظعينة قدمت علينا، وقد رواه الحاكم في مستدركه ثم قال: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه[1].

وقوله تعالى: {أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى} هذا تفسير للإجابة، أي: قال لهم مجيباً لهم أنه لا يضيع عمل عامل لديه، بل يوفى كل عامل بقسط عمله من ذكر أو أنثى.

وقوله: {بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ} أي: جميعكم في ثوابي سواء".

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وأما بعد:

فقوله: **{بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ}** أي: **جميعكم في ثوابي سواء"** أي أن رجالكم ونساءكم سواء، لا فرق بينهم في الطاعة إلا ما دل عليه الدليل والثواب الذي يعطيه الله -عز وجل- للعاملين، فالرجال كالنساء جزاؤهم واحد، والنساء كالرجال، هكذا فسره جماعة من أهل العلم، وابن جرير -رحمه الله- ذكر نحوه، حيث قال: **{بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ}** أي: في الملة والنصرة والدين، وحكم جميعكم وما أنا فاعل بكم من الثواب فأنتم فيه سواء، لا فرق بين الرجال والنساء، فالمرأة ليس لها نصف الأجر إذا عملت عملاً صالحاً وإنما هي كالرجل، والله -عز وجل-

---

[1] - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول -الله صلى الله عليه وسلم - باب تفسير سورة النساء (٣٠٢٣) (ج ٥ / ص ٢٣٧) وهو في تفسير سعيد بن منصور (ج ١ / ص ٨١) وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (٣٠٢٣).

وعد من أحسن عملاً أن يوفى له أجره بغير حساب، فهذا معنى {بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ} أي أنه لا يضيع عمل عامل منهم ذكراً كان أو أنثى.

"**{فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ} أي: تركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان**".

هذا المعنى المشهور في الهجرة، وإلا فالهجرة أوسع من هذا، فالهجرة إلى الحبشة لم تكن من قبيل الانتقال من دار الشرك إلى دار الإسلام بل كانت انتقالاً من دار شرك إلى دار شرك آخر، لكن الهجرة الشرعية هي انتقال المؤمن إلى المكان الذي يأمن فيه بحيث يستطيع أن يعبد ربه من غير خوف ولا مضايقة، هذه هي الهجرة الشرعية، وقد تكون إلى بلاد الشرك وقد تكون إلى بلاد الإسلام.

"**أي تركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان، وفارقوا الأحباب والإخوان والخلان والجيران. {وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ} أي: ضايقهم المشركون بالأذى حتى ألجئوهم إلى الخروج من بين أظهرهم**".

هذا التفسير الذي ذكره يبيّن حقيقة الواقع؛ لأن المشركين ما أخذوهم وأخرجوهم من بلدهم، وإنما ضيَّقوا عليهم فاضطروهم إلى الخروج فكان ذلك من قبيل الإخراج؛ لأنهم تسببوا فيه، كما قال الله -عز وجل-: {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ} [(١٣) سورة محمد] مع أن المشركين بذلوا ما يستطيعون في حصار النبي -صلى الله عليه وسلم- وكانوا يتخوفون خروجه، لكن لما كانوا متسببين بذلك لمضايقتهم لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولأصحابه صح أن يقال: إنهم أخرجوهم.

"**ولهذا قال: {وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي}** [(١٩٥) سورة آل عمران] **أي: إنما كان ذنبهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده، كما قال تعالى: {يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ}** [(١) سورة الممتحنة] **وقال تعالى: {وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}** [(٨) سورة البروج]. **وقوله تعالى: {وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ}** [(١٩٥) سورة آل عمران] **هذا أعلى المقامات أن يقاتل في سبيل الله فيعقر جواده ويعفر وجهه بدمه وترابه**".

وفي القراءة الأخرى -قراءة أبي عامر وابن كثير-: (وقاتلوا وقُتِّلوا) وهي تدل على التكثير، فزيادة المبنى لزيادة المعنى، وفي قراءة حمزة والكسائي: (وقُتلوا وقاتلوا) والواو لا تدل على الترتيب وإنما تدل على مطلق الجمع، فلا يشكل المعنى على هذه القراءة كما قال الشاعر:

فإن تقتلونا عند حرة واقم ... فلسنا على الإسلام أول من قتل

هو حي ويتكلم ويقول: تقتلونا، وهو لم يقتل وإنما المقصود أن بعضهم قد وقع عليه القتل، فقد يطلق ذلك على وقوعه على البعض، وقد يطلق ذلك على قتل الكل، فالمقصود أن الواو لا تقتضي الترتيب.

"وقد ثبت في الصحيح أن رجلاً قال: يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر أيكفِّر الله عني خطاياي؟ قال: ((نعم)) ثم قال: ((كيف قلت؟)) فأعاد عليه ما قال، فقال: ((نعم إلا الديْن، قاله لي جبريل آنفاً))[2] ولهذا قال تعالى: {لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ} [(١٩٥) سورة آل عمران] أي: تجري في خلالها الأنهار من أنواع المشارب من لبن وعسل وخمر وماءٍ غير آسن، وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقوله: {ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ} [(١٩٥) سورة آل عمران] أضافه إليه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم؛ لأن العظيم الكريم لا يعطي إلا جزيلاً كثيراً".

{ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ} أي لأُثيبنهم ثواباً كائناً من عند الله، والثواب هنا مصدر مؤكِّد.

"وقوله تعالى: {وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ} [(١٩٥) سورة آل عمران] أي عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحاً.

{لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللّهِ وَمَا عِندَ اللّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ} [(١٩٦-١٩٨) سورة آل عمران].

يقول تعالى: لا تنظروا إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه من النعمة والغبطة والسرور فعما قليل يزول هذا كله عنهم، ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة، فإنما نمدّ لهم فيما هم فيه استدراجاً، وجميع ما هم فيه متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد.

وهذه الآية كقوله تعالى: {مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ} [(٤) سورة غافر]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ} [(٦٩-٧٠) سورة يونس] وقال تعالى: {نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ} [(٢٤) سورة لقمان] وقال تعالى: {فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا} [(١٧) سورة الطارق] أي قليلاً، وقال تعالى: {أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ} [(٦١) سورة القصص] وهكذا لما ذكر حال الكفار في الدنيا وذكر مآلهم إلى النار قال بعده: {لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللّهِ} [(١٩٨) سورة آل عمران] أي: ضيافة من عند الله {وَمَا عِندَ اللّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ} [(١٩٨) سورة آل عمران].

2 – أخرجه مسلم في كتاب الإمارة – باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدين (١٨٨٥) (ج ٣ / ص ١٥٠١).

وروى ابن جرير عن أبي الدرداء -رضي الله تعالى عنه- أنه كان يقول: ما من مؤمن إلا والموت خير له، وما من كافر إلا والموت خير له، ومن لم يصدقني فإن الله يقول: {وَمَا عِندَ اللّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ} [(١٩٨) سورة آل عمران] ويقول: {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ} [(١٧٨) سورة آل عمران][3]".

قول أبي الدرداء هذا يخالفه حديث النبي -عليه الصلاة والسلام- لما سئل عن خير الناس فقال: ((من طال عمره وحسن عمله))[4]، وقوله أيضاً: ((لا يتمنين أحدكم الموت إما محسناً فلعله أن يزداد خيراً وإما مسيئاً فلعله أن يستعتب))[5] أي لعله أن يتوب ويراجع، أما إن مات ولم يتب بعد طول العمر فلا شك أن هذا أكثر لذنوبه وجرائمه وأشد لحسابه.

وفي قوله: **{وَمَا عِندَ اللّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ}** [(١٩٨) سورة آل عمران] هذا جاء موضحاً في كتاب الله -عز وجل-، في آيات كثيرة كقوله: **{إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ}** [(٢٢) سورة المطففين] وكقوله: **{إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا}** [(٥) سورة الإنسان] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على نعيمهم وما أعطاهم الله -عز وجل- وحباهم به.

وقوله: **{نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللّهِ}** [(١٩٨) سورة آل عمران] يقال فيه كما قيل في قوله: **{ثَوَابًا مِّن عِندِ اللّهِ}** [(١٩٥) سورة آل عمران] أي أن النُّزل مصدر مؤكد، والنزل في الأصل هو المكان المهيأ المعدُّ للضيف.

"{وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [(١٩٩-٢٠٠) سورة آل عمران].

يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان وبما أنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم- مع ما هم يؤمنون به من الكتب المتقدمة، وأنهم خاشعون لله، أي: مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه.

{لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً} أي: لا يكتمون ما بأيديهم من البشارات بمحمد -صلى الله عليه وسلم- وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم سواء كانوا هوداً أو نصارى، وقد قال تعالى في سورة القصص: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ* وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ* أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا} الآية [(٥٢-٥٤) سورة القصص]، وقد قال

---

3 - تفسير الطبري (ج ٧ / ص ٤٩٦).

4 - أخرجه الترمذي في كتاب الزهد - باب ما جاء في طول العمر للمؤمن (٢٣٢٩) (ج ٤ / ص ٥٦٥) وأحمد (١٧٧١٦) (ج ٤ / ص ١٨٨) وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (٢٣٢٩).

5 - أخرجه البخاري في كتاب المرضى - باب نهي تمني المريض الموت (٥٣٤٩) (ج ٥ / ص ٢١٤٧).

تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} [(١٢١) سورة البقرة] وقد قال تعالى: {وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [(١٥٩) سورة الأعراف] وقال تعالى: {لَيْسُواْ سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} [(١١٣) سورة آل عمران] وقال تعالى: {قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا* وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً* وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [(١٠٧-١٠٩) سورة الإسراء].

وهذه الصفات توجد في اليهود ولكن قليلاً، كما وجد في عبد الله بن سلام -رضي الله تعالى عنه- وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود ولم يبلغوا عشرة أنفس، وأما النصارى فكثير منهم يهتدون وينقادون للحق، كما قال تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى} [(٨٢) سورة المائدة] إلى قوله تعالى: {فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا} الآية [(٨٥) سورة المائدة]، وهكذا قال هاهنا: {أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ} الآية [(١٩٩) سورة آل عمران].

وقد ثبت في الحديث أن جعفر بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- لما قرأ سورة {كهيعص} [سورة مريم] بحضرة النجاشي ملك الحبشة وعنده البطاركة والقساوسة بكى وبكوا معه حتى أخضبوا لحاهم[٦].

وثبت في الصحيحين أن النجاشي لما مات نعاه النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى أصحابه وقال: ((إن أخاً لكم بالحبشة قد مات فصلوا عليه)) فخرج إلى الصحراء فصفهم وصلى عليه[٧].

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} [(١٩٩) سورة آل عمران] يعني مسلمة أهل الكتاب، وقال عباد بن منصور: سألت الحسن البصري عن قول الله تعالى: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ} الآية [(١٩٩) سورة آل عمران] قال: هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد -صلى الله عليه وسلم- فاتبعوه، وعرفوا الإسلام فأعطاهم الله تعالى أجر اثنين للذي كانوا عليه من الإيمان قبل محمد -صلى الله عليه وسلم- وبالذي اتبعوا محمداً -صلى الله عليه وسلم- [رواهما ابن أبي حاتم].

---

[6] - أخرجه أحمد (١٧٤٠) (ج ١ / ص ٢٠١) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن

[7] - أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة - باب موت النجاشي (٣٦٦٤) (ج ٣ / ص ١٤٠٧) ومسلم في كتاب الجنائز - باب في التكبير على الجنازة (٩٥٣) (ج ٢/ ص ٦٥٧).

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي موسى -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين)) فذكر منهم: ((ورجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي))[8].

وقوله تعالى: {لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً} [(١٩٩) سورة آل عمران] **أي: لا يكتمون ما بأيديهم من العلم، كما فعله الطائفة المرذولة منهم، بل يبذلون ذلك مجاناً، ولهذا قال تعالى: {أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}** [(١٩٩) سورة آل عمران] **قال مجاهد: {سَرِيعُ الْحِسَابِ} يعني سريع الإحصاء [رواه ابن أبي حاتم وغيره]".**

هذه الآيات كلها في من آمن من أهل الكتاب وأما من لم يؤمن منهم فقد ذمه الله -عز وجل- غاية الذم في القرآن، وهذا كثير، ولا يجوز لأحد بحال من الأحوال أن يظن أن اليهود والنصارى الذين لم يؤمنوا بمحمد -صلى الله عليه وسلم- بمفازة من العذاب وأنهم ينجون عند الله -تبارك وتعالى- بل هم من حطب جهنم، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار))[9] ومن شك في كفر هؤلاء اليهود والنصارى فهو كافر مثلهم يحشر محشرهم، فلا ينبغي أن يتردد في هذا أحد، فقد بلغ الأمر ببعض أهل الهوى أو الجهل ممن ينتسب إلى الإسلام أنهم يقولون: لا نكفِّر هؤلاء فهؤلاء مؤمنون لا يجوز لأحد أن يحكم لهم بالنار أو أن يطعن فيهم أو ما أشبه ذلك، فكلهم يجمعنا ويجمعهم الإيمان، فكل من آمن بالله -عز وجل- فإن مصيره إلى الجنة، ويحتج ببعض الآيات المشتبهات التي أثنى الله -عز وجل- فيها على طوائف من أهل الكتاب، مع أن المقصود بها من آمن منهم، فيحتجون بمثل قوله -تبارك وتعالى-: **{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}** [(٦٢) سورة البقرة] وأمثال ذلك، وسبق الكلام على آية البقرة.

على كل حال فقوله تعالى: **{لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً}** [(١٩٩) سورة آل عمران] قال: أي لا يكتمون ما بأيديهم من العلم، وهذا على كل حال تفسير بالنتيجة فهم يكتمون ذلك، لكن لماذا يكتمونه؟ إذا فسرنا على اللفظ فإنهم يكتمونه لما يستعيضون بذلك من الثمن القليل، وهو ما يأخذونه من الرشا أو ما ينالونه من هؤلاء الأتباع من الرئاسات ومن الأموال، إلى غير ذلك

---

8 - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب فضل من أسلم من أهل الكتابين (٢٨٤٩) (ج ٣ / ص ١٠٩٦) ومسلم في كتاب الإيمان - باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة (١٥٤) (ج ١ / ص ١٣٤).

9 - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة (١٥٣) (ج ١ / ص ١٣٤).

مما يقدمونه لهم، كما هو معروف حينما كانت الكنيسة تهيمن على حياة الناس فقد كان عنـــدهم ما يعرف بالسخرة، يأتي الإنسان ويتبرع بيوم يعمل في الإقطاعات التابعة للكنيسة، فيعمل بها الناس مجاناً تديناً وتقرباً إلى الله -عز وجل- فتصور الملايين! كل واحد منهم يـــشتغل يومـــاً مجاناً، أضف إلى ذلك ما يحصلونه من الرئاسات، وما يحـــصلونه مـــن الرشـــا، فيكتمـــون، فيكونون قد استعاضوا بثمن قليل كما قال المعلمي -رحمه الله- في أسباب الضلال وتعلق ذلك بالهوى، يقول: ومنهم من يكون له في الباطل شهرة ومعيشة، فيكون ذلك سبباً لإصراره علـــى الباطل، فمثل هؤلاء يكون لهم في الباطل شهرة ومعيشة ورئاسة تحملهم على البقاء؛ لأنهم لـــو أسلموا سيكونون من آحاد الناس.

قوله تعالى: **{إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}** [(١٩٩) سورة آل عمران] قال: يعني ســـريع الإحـــصاء، وهذا أيضاً باعتبار النتيجة، وإلا فإن معنى سريع الحساب يمكن أن يقال: أي لا يحتاج إلى عدّ كما يحتاجه البشر، فالله -عز وجل- علمه محيط بكل شيء لا يخفى عليه خافية فهـــو ســـريع الحساب يحاسب خلقه جميعاً كما يحاسب واحداً منهم، فكثرتهم لا تحتاج إلـــى عـــد وإحـــصاء بحيث يحتاج ذلك إلى وقت طويل، فالله سريع الحساب، وهذا المعنى موافق للمعنى الذي ذكره ابن كثير، لكن ابن كثير -رحمه الله- عبر بالنتيجة.

وتحتمل الآية معنىً آخر وهو **{إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}** [(١٩٩) سورة آل عمران] يعني الجـــزاء والأخذ وما أشبه ذلك، فالله -عز وجل- لا يظلم الناس شيئاً كما يحصل من المخلـــوقين مـــن المطل وما أشبه ذلك في أداء الحقوق، والمعنى الأول هو الأقرب وهو المتبـــادر، أي أنـــه لا يشغله محاسبة أحد عن محاسبة الآخر أو نحو ذلك وبالتالي لا يحصل إبطاء بسبب كثرة الخلق ولا يحتاج إلى عد ولا إحصاء.

"وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ} [(٢٠٠) سورة آل عمران]، قال الحسن البصري -رحمه الله-: أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهـــم وهـــو الإسلام".

هنا ذكر ثلاثة أشياء: **{اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ}** هذه ثلاث مراتب، وهذا انتقال من الأدنـــى إلى الأعلى، ومثل الحافظ ابن القيم -رحمه الله- يقول: إن الصبر حالة الـــصابر فـــي نفـــسه والمصابرة هي مقاومة الخصم في ميدان الصبر؛ لأنها مفاعلة والأصل في المفاعلة غالبـــاً أن تكون بين طرفين فأكثر، والمرابطة أصلها اللزوم والثبات، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لما ذكر انتظار الصلاة إلى الصلاة قال: ((فذلكم الرباط فذلكم الرباط))[١٠] فأصل الرباط إذن هـــو اللزوم والثبات، فاللزوم والثبات على الطاعة أوسع معانيها، وتطلق على معنىً أخـــص وهـــو

---

[10] - أخرجه مسلم في كتاب الطهارة - باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره (٢٥١) (ج ١ / ص ٢١٩).

ملازمة الثغور في نحر العدو، والمقصود بالثغور هي الأطراف التي يتخوف العدو من ناحيتها، وهي التي ورد فيها الأحاديث في فضل الرباط كقوله -عليه الصلاة والسلام-: ((رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها))[11] وما أشبه ذلك من الأدلة الواردة في الحث على هذا، والرباط هو أكمل صور الصبر وحالاته، وملاك هذه الأمور جميعاً -الصبر والمصابرة والمرابطة- هو تقوى الله -عز وجل- ولهذا قال بعده: **{وَاتَّقُواْ اللّهَ}** [(٢٠٠) سورة آل عمران]؛ لأن الإنسان قد يصبر ولا يتقي وقد يصابر ولا يتقي وقد يرابط ولا يتقي فيكون ذلك نقصاً في مرتبته عند الله -عز وجل- وقد يذهب أجره، وحقيقة هذه التقوى يمكن أن يقال: هي المرابطة التي قال عنها ابن القيم -رحمه الله-: هي لزوم ثغر القلب وحراسته؛ لئلا يدخل منه العدو، ولزوم ثغر العين والأذن واللسان والبطن واليد والرجل، فهذه الثغور يدخل منها العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ما قدر عليه، فالمرابطة لزوم هذه الثغور ولا يخلي مكانها فيصادف العدو -أي الشيطان- والثغر خالياً فيدخل منها[12].

"قال الحسن البصري -رحمه الله-: أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم وهو الإسلام فلا يدَعوه لسراء ولا لضراء ولا لشدة ولا لرخاء، حتى يموتوا مسلمين، ويصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم، وكذا قال غير واحد من علماء السلف".

أي يصبروا على أمر الله -عز وجل- ويصبروا عن معصيته، ويصابروا أعداء الله -تبارك وتعالى- وهذا هو الذي قال به كثير من المفسرين وهو اختيار ابن جرير في تفسير هذه الآية، وما ذكرته عن الحافظ ابن القيم -رحمه الله- موافق لهذا أيضاً.

"وأما المرابطة فهي المداومة في مكان العبادة والثبات، وقيل: انتظار الصلاة بعد الصلاة".

تفسير المرابطة بالمداومة على الطاعة هذا تفسير لها بأعم معانيها، وتفسيرها بانتظار الصلاة إلى الصلاة، يكون من قبيل التفسير بالمثال، وإلا فالمعنى أوسع من ذلك، وتكون المرابطة بلزوم العبادة، وأولى ما يدخل فيها وهو المعنى الذي يتبادر أولاً هو لزوم الثغور في نحر العدو.

"وقيل: انتظار الصلاة بعد الصلاة قاله ابن عباس وسهل بن حنيف -رضي الله تعالى عنهما- ومحمد بن كعب القرضي وغيرهم.

وروى ابن أبي حاتم هاهنا الحديث الذي رواه مسلم والنسائي عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا

---

11 - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب فضل رباط يوم في سبيل الله (٢٧٣٥) (ج ٣ / ص ١٠٥٩).

12 - كتاب الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم (ص ٦٦).

ويرفع به الدرجات: إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطى إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط فذلكم الرباط))[١٣]".

هذا الحديث مثل قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب))[١٤] فهذا تفسير للمجاهدة بمعنىً يدخل فيها، والهجرة بمعنىً يدخل فيها، بمعنى هجرة القلب إلى الله -عز وجل- بترك الذنوب والمعاصي، ولكن المعنى الذي يتبادر عند إطلاق الهجرة -وهو أكمل صورها وحالاتها- هو الانتقال من الأوطان والعشائر إلى الله -عز وجل- أو في سبيل الله، حيث يأمن الإنسان على دينه.

"**وقيل: المراد بالمرابطة هاهنا، مرابطة الغزو في نحور العدو وحفظ ثغور الإسلام وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين**".

هذا كما قلت: هو المتبادر، لكن الذين قالوا: إنه ملازمة طاعة الله -عز وجل- أو انتظار الصلاة إلى الصلاة، يمكن أن يوجه قولهم هذا باعتبار أن هذه الآية- **{اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ}** [(٢٠٠) سورة آل عمران]- حينما نزلت لم يكن هناك رباط في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى أن قبض، فمثل هذا هو الذي حمل هؤلاء على القول بأن الرباط ملازمة طاعة الله -عز وجل- أو انتظار الصلاة إلى الصلاة، وهذا إن لم يقصدوا بذلك التفسير بالمثال، وفي أقل التقديرات -والله أعلم- أن بعضهم على الأقل قصد هذا المعنى، بعضهم أراد أن يذكر أعمَّ المعاني أو أن يذكر شيئاً مما يدخل فيه لينبه عليه، لكن بعضهم قصد هذا المعنى لهذا السبب، وهو أنه لم يوجد رباط على عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا لا إشكال فيه؛ لأن هذه الشريعة عامة والله -عز وجل- شرَّعها لتكون ديناً للناس في كل زمان ومكان، فكان الرباط بعد النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ ولذلك فالأحاديث الواردة في هذا كحديث: ((رباط يوم في سبيل الله..))[١٥] تحمل على ملازمة الثغور مع أنه لم يكن موجوداً في زمان النبي -صلى الله عليه وسلم- إلا إن قُصد بذلك حالات عارضة يسيرة كأن يكون النبي -صلى الله عليه وسلم- في ناحية أو نحو ذلك، فيرسل بعض من يرصد العدو أو يقف في ناحيته أو نحو ذلك فيكون مرابطاً بهذا الاعتبار مرابطة جزئية وقتية، لكن الرباط المعروف يكون بتناوب الناس على مكان المرابطة بحيث يأتون إليه من أماكن كثيرة ويلازمونه السنوات، وهذا لم يكن موجوداً في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-.

---

13 - أخرجه مسلم في كتاب الطهارة - باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره (٢٥١) (ج ١ / ص ٢١٩).

14 - أخرجه أحمد (٢٤٠٠٤) (ج ٦ / ص ٢١) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٥٤٩).

15 - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب فضل رباط يوم في سبيل الله (٢٧٣٥) (ج ٣ / ص ١٠٥٩).

"وقد وردت الأخبار في الترغيب في ذلك وذكر كثرة الثواب فيه، فروى البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد الساعدي -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها))[16].

وروى مسلم عن سلمان الفارسي -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه وأمن الفتَّان))[17].

روى الإمام أحمد عن فضالة بن عبيد -رضي الله تعالى عنه- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة ويأمن فتنة القبر))[18] وهكذا رواه أبو داود والترمذي وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن حبان في صحيحه أيضاً.

وروى الترمذي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله))[19].

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((تعِس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة، إن أعطي رضي وإن لم يعطَ سخط، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفَّع))[20].

وروى ابن جرير عن زيد بن أسلم قال: كتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنهما- يذكر له جموعاً من الروم وما يتخوف منهم، فكتب إليه عمر: أما بعد، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزلة شدة يجعل الله بعدها فرجاً، وإنه لن يغلب عسر يسرين، وإن الله تعالى يقول في كتابه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [(٢٠٠) سورة آل عمران].

---

16 – أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير – باب فضل رباط يوم في سبيل الله (٢٧٣٥) (ج ٣ / ص ١٠٥٩).

17 – أخرجه مسلم في كتاب الإمارة – باب فضل الرباط في سبيل الله عز وجل (١٩١٣) (ج ٣ / ص ١٥٢٠)

18 – أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد – باب في فضل الرباط (٢٥٠٢) (ج ٢ / ص ٣١٧) والترمذي في كتاب فضائل الجهاد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – باب ما جاء في فضل من مات مرابطاً (١٦٢١) (ج ٤ / ص ١٦٥) وأحمد (٢٣٩٩٦) (ج ٦ / ص ٢٠) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٢١٨).

19 – أخرجه الترمذي في كتاب فضائل الجهاد – باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله (١٦٣٩) (ج ٤ / ص ١٧٥) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (٣٨٢٩)

20 – أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير – باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٧٣٠) (ج ٣ / ص ١٠٥٧).

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن المبارك من طريق محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة قال: أملى عليَّ عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس وودعته للخروج، وأنشدها معي إلى الفضيل بن عياض في سنة سبعين ومائة، وفي رواية: سنة سبع وسبعين ومائة:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا	**لعلمت أنك في العبادة تلعب**
من كان يخضب خده بدموعه	**فنحورنا بدمائنا تتخضب**
أو كان يتعب خيله في باطل	**فخيولنا يوم الصبيحة تتعب**
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا	**رَهَجُ السنابك والغبار الأطيب**

الرهج يعني الغبار، والسنابك هي أطراف حوافر الخيل.

ريح العبير لكم ونحن عبيرنا	**رَهَجُ السنابك والغبار الأطيب**
ولقد أتانا من مقال نبينا	**قول صحيح صادق لا يكذب**
لا يستوي وغبار خيل الله في	**أنف امرئ ودخان نار تلهب**
هذا كتاب الله ينطق بيننا	**ليس الشهيد بميت لا يُكذب**

قال: فلقيت الفضيل بن عياض بكتابه في المسجد الحرام، فلما قرأه ذرفت عيناه، وقال: صدق أبو عبد الرحمن ونصحني، ثم قال: أنت ممن يكتب الحديث؟ قال: قلت: نعم، قال: فاكتب هذا الحديث كراء حملك كتاب أبي عبد الرحمن إلينا.

وأملى عليَّ الفضيل بن عياض: حدثنا منصور بن المعتمر عن أبي صالح عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- أن رجلاً قال: يا رسول الله علمني عملاً أنال به ثواب المجاهدين في سبيل الله، فقال: ((هل تستطيع أن تصلي فلا تفتر، وتصوم فلا تفطر؟)) فقال: يا رسول الله، أنا أضعف من أن أستطيع ذلك، ثم قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((فوالذي نفسي بيده، لو طوِّقْت ذلك ما بلغت المجاهدين في سبيل الله، أوَ ما علمت أن فرس المجاهد ليُستن في طوله فيكتب له بذلك الحسنات))[٢١]".

قوله: **((يُستن في طوله))** يعني الفرس يربط بوتد مثلاً وفيه حبل طويل فينطلق هذا الفرس، فمشيه هذا أو انطلاقه كل ذلك يكتب للمجاهد وهو ربما يكون نائماً!

[21] – أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير – باب فضل الجهاد والسير (٢٦٣٣) (ج ٣ / ص ١٠٢٦) وأحمد (٨٥٢١) (ج ٢ / ص ٣٤٤).

"وقوله تعالى: {وَاتَّقُواْ اللّهَ} [(٢٠٠) سورة آل عمران] أي: في جميع أموركم وأحوالكم كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لمعاذ -رضي الله تعالى عنه- حين بعثه إلى اليمن: ((اتق الله حيثما كنت، وأتْبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن))[٢٢].

{لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [(٢٠٠) سورة آل عمران] أي: في الدنيا والآخرة.

وروى ابن جرير عن محمد بن كعب القرضي أنه كان يقول في قول الله -عز وجل-: {وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [(٢٠٠) سورة آل عمران] واتقوا الله فيما بيني وبينكم لعلكم تفلحون غداً إذا لقيتموني.

انتهى تفسير سورة آل عمران، ولله الحمد والمنَّة، نسأله الموت على الكتاب والسنة، آمين".

---

[22] - أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة - باب ما جاء في معاشرة الناس (١٩٨٧) (ج ٤ / ص ٣٥٥) وأحمد (٢١٣٩٢) (ج ٥ / ص ١٥٣) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٩٧).